حسن كمال

رواية

نسيت كلمة السر!

BY Magico

نسيت
كلمة السر !

نسيت كلمة السر

رواية مستوحاة من قصة حقيقية

حسن كمال

الطبعة الأولى ٢٠١٧

تصنيف الكتاب: رواية

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ١٩١٩٤/ ٢٠١٧
ISBN 978-977-09-3438-8

تصميم الغلاف: أحمد مراد

BY Magico

حسن كمال

نسيت كلمة السر !

دار الشروق

إهداء

في طفولتي كنت أسمع عن بطل رياضي ما يشبه الأساطير،
حتى أنني رسمت له في عقلي صورة خاصة...
الطول يقترب من ثلاثة أمتار وقوة خارقة وقفزات أقرب
ما تكون إلى الطيران، ثم التقيت به واكتشفت الحقيقة.

إلى

عمرو خيري

اتضح أنك أضخم وأقوى وأعظم مما كنت أظن
رغم كل الأخطاء والظروف!

عالم هذه الرواية تم استلهامه من تاريخ بطل حقيقي، أما الأحداث والشخصيات المحيطة فمن وحي خيال الكاتب بما يتناسب مع تقديمها كعمل أدبي روائي، وأي تشابه في الأسماء أو الأحداث هو محض مصادفة حتى وإن تشابه مع واقع.

١

جونج كيم أشار إليك في صورة/ Jung tagged you in a photo

كوريا الجنوبية ـ سول ـ ١٩٨٣

أكثر لحظات العمر رعبا، وأكثرها إضحاكا بعد أن ولت.. الأمر كله كان محض جنون، فلم أكن قد تجاوزت حتى التاسعة عشرة بعد.

غرفة يشع فيها الضوء الأحمر من كل الجهات، في منتصفها سرير وثير على هيئة قلب مفروش باللون نفسه، وفتاة آسيوية عارية تماما تزحف على ركبتيها وظهرها مقوس كقطة تتمطى وهي تصيح بلكنة ممطوطة، كما لو كانت تهذي:

ـ آآندااااي.. آآندااااي..

ما زال صوتها يتردد في رأسي من آن لآخر، فأجد نفسي أكررها بصوت عال وأنا أجلس وحيدا:

ـ آآنداااااي..

تأتيني الذكرى صورة وصوتا ورائحة، خليط خانق من روائح البخور والخمور التي لم أجد أبدا تصنيفها، الغرفة كانت مشبعة تماما بتلك الرائحة، أما تفاصيل ملامح الفتاة وجسدها فلا أذكر غير أنها كانت صغيرة الحجم ككل شيء لمحته منها في لحظات الانبهار، لا أعرف أكثر من ذلك، لم أمعن النظر فيها فقد انشغلت برجل كان يقف وراءها مباشرة، يحمل نفس الملامح الآسيوية، كان مخمورا وعاريًا مثلها، أخذ يصرخ بصوت غاضب ويشير نحوي.. تسمرت في مكاني فسحب مسدسا من تحت الوسادة، صوبه إليَّ

وهو يواصل إطلاق كلماته، لم أركض مبتعدا أو أغلق الباب أو حتى أنبطح على الأرض، افترضت أنه يأمرني بأن أبقى في مكاني ولا أتحرك، رفعت يدي عاليا فوق رأسي وأغمضت عينيَّ مرتعشا ونطقت بالشهادتين بينما أتساءل عما سيحدث لي لو مُت في هذه الغرفة الحمراء.

لم يمهلني الوقت لأفتح عينيَّ مرة أخرى، شعرت برصاصة ضخمة ترتطم بجبهتي فسقطت على الأرض والدماء تسيل على وجهي وعيني.. وبدأت روحي في الانسحاب من جسدي، بهدوء.

* * *

لم أمت، أطلق الرجل مسدسه في اتجاه رأسي «حرفيا»، قذفني بالمسدس، انفجرت الدماء من رأسي بغزارة نسبية، تحرك من مكانه هلعا، جلس إلى جواري عاريا محاولا إيقاف الدماء، التقط منشفة بيضاء ضغط بها على الجرح، أما هي فقد انفجرت في بكاء هيستيري زادته الخمر جنونا، خلطة صيحاته الغاضبة وصراخها المجنون ضاعفت من آلام صداع رأسي، فُتح باب الغرفة، دخل شخص ثم آخر فآخر، لم أتبينهم فقد كانت الدماء تغطي عينيَّ.. توالت الأصوات آتية من مسافات متباينة، أصوات بعيدة وأخرى قريبة، كلها متداخلة تصرخ بالكورية.

لم يطل الأمر، بدأت يد رقيقة تمسح دمائي بحرص، عاد إليَّ البصر رويدا رويدا وإن ظلت الصور زائغة متراقصة، «الساحرة الشريرة العجوز» تمسك برأسي في حنان، ملامحها ترجمت لي ما تقول: لا تخف.

آخر ما كنت أتمناه أن أجد رأسي بين يديّ تلك السيدة التي أخافتني منذ رأيتها، حدقتاها مشوبتان بلون رمادي فاتح، وشعرها

أبيض قصير أشعث، تتحرك محنية ببطء ممسكة بعصاها وخلفها تسير دائما جماعة من النساء كما لو كن تابعاتها، وصاحب البيت نفسه ينظر إليها في مهابة بالغة.

قطعة كبيرة من القطن أغلقت بها الجرح، ثم قامت تجري بأقصى سرعة سمحت بها سنوات عمرها لتعود حاملة حقيبة صغيرة. ربَّعت ساقيها ووضعت رأسي فوقها وأخرجت مطهرات ذات رائحة مميزة وشيئا لم أتبينه في وقتها، أدركت لاحقًا أنه خيوط جراحية، أغمضت عينيَّ واستسلمت تماما محاولًا السيطرة على رغبتي في الصراخ، عددت دخول الأبرة وخروجها سبع مرات، لم أكن أعرف قدر مهارتها ومعرفتها بخياطة الجروح، لكنها كانت سريعة ورشيقة، لا أظن الأمر كان قابلا للانتهاء بطريقة أفضل.. أجلستني بحنان أم، سندت ظهري بيديها المعروقتين، بدأ التوتر يزول بالتدريج، بدأت هي تصرخ في جنون غاضب أعاد إليَّ خوفي منها، مدت يدها إلى المسدس لتتأكد من تأمينه، ثم قذفت به الرجل الذي هاجمني وهي تواصل صياحها، أصاب هدفه أيضا فتأوه ممسكا برأسه، لم تكتف بذلك، فقامت من مكانها وضربته على رأسه بغضب، فضحك الجميع.

مال عليَّ جونج كيم وسط ضحكاته:

ـ أنت محظوظ لأنه لم يصبك برصاصة تنهي عمرك..

ثم أشار بسبابته محذرًا..

ـ رغم أنه كان مخمورا تماما!

نظرت إليه باقتناع، تنهدت حامدا الله، ثم ضحكت أنا أيضا بضعف وذاكرتي تستعيد حالته وهو يقفز من فوق السرير عاريا.. ويشير إليَّ وأنا أنظر إليه في بلاهة، جونج كان يوضح لي أن كل ما كان يريده مني أن أخرج من الغرفة.. لكني لم أستجب!

شرح لي كل شيء: اقتحمت عليه حجرته في وقت خلوته بواحدة من محظياته.. كانت ليلتي الأولى، أخطأت باب دورة المياه، لم أتوخ الحرص الكافي، أخذ يصرخ ويطالبني بالمغادرة، لكني لم أفعل، تسمرت مكاني فازداد غضبه، لذلك قذفني بالمسدس في فورة من الغضب..

هززت رأسي في تفهم وملت على أذنيه هامسا:

ـ جونج.. ماذا تعني كلمة آانداي؟

نظر إليَّ متسائلا في فضول، فواصلت همسي:

ـ الفتاة كانت تصرخ وتقول آاآانداي.. آانداي.

شرح بإنجليزيته الركيكة معنى الكلمة، فسرتها بالمصرية:

ـ مابلاش كده..

ضحكت.. ويبدو أن ضحكتي أثارت فضول جونج فمال عليَّ وهو يسأل بشغف:

ـ هل رأيت ما كان يفعله عندما قالت له ذلك؟

غمزت بعيني وابتسمت، أدرت وجهي إلى الجهة الأخرى بينما لاحقني كيم بالسؤال بإلحاح، ثم قام من مكانه وهو يضحك، وعاد حاملا الكاميرا التي لا تفارقه تقريبا، ابتسمت وأنا أغمض عيني أمام الفلاش المبهر، غطت السيدة العجوز وجهها ثم عادت للصياح فانطلق كيم يجري مبتعدا.

* * *

الصورة على الحائط باهتة مكتملة، تحوي كل التفاصيل رغم تغير اللون وغياب الدرجات المبهجة، حولتها إلى صورة رقمية، أرسلتها إليه فقام بمشاركتها وأشار إليَّ فيها، فضحكت وأنا ألعنه، صورة من صورة من واقع، التقطت أولاها كاميرا مستطيلة

ضخمة، كانت معجزة وقتها، تلتقط الصورة وتخرجها بيضاء، ثم تبدأ التفاصيل في الظهور ببطء كما الحياة، وتبهت تدريجيا أيضا.. الكاميرا الفورية، هذه الصورة بالتحديد هي الأصغر على حائطي لأنها ارتبطت بمقاس الكاميرا التي ولدتها، صورة مستطيلة طولها ثمانية سنتيمترات وعرضها عشرة.

رأسي ملفوف بضمادة كبيرة بيضاء، بقعة حمراء في المنتصف كعلم اليابان، جالس على الأرض وإلى جواري سيدة كورية عجوز تغطي وجهها براحة كفيها، لم ترد أن تظهر في الصورة، في الخلفية تظهر حوائط بيضاء ناصعة، أعمدة خشبية داكنة، ولوحة عليها تنين ذهبي، وباب زجاجي مشغول بخشب أنيق.

التقيت بهم جميعا على مائدة الإفطار، رأسي في الضمادة، والسيدة العجوز التي أصبحت ألقبها منذ ذلك اليوم بالساحرة الطيبة ـ بدلا من الشريرة ـ جالسة في ركنها المعتاد بهدوء مع رفيقاتها في العمر، كل ما عرفته عنها في ذلك اليوم هو اسمها: السيدة ووك، غريمي كان جالسا على المائدة في حرج.. كان شكله مختلفا تماما.. يبدو في منتهى الهدوء والوقار رغم الكرة التي خلفها مسدسه في رأسه.. ظل هذا الموقف يداعبني لأعرف أن الجنس مخدر في حد ذاته، قد يذهب بالعقل بعيدا، لذلك يفضل أن يكون الجنون مزدوجا وإلا سيبدو أحد الطرفين غاية في الحماقة.. أشار إليه الرجل الجالس إلى رأس المائدة فقام لينحني أمامي باحترام.. رأسي لم تزل تؤلمني وتمنعني من تقديم انحناءة مشابهة.. توالت انحناءات الرجل في اتجاهي فملت على صاحبي متسائلا: متى سيتوقف؟ فعلق بإنجليزيته وهو يبتسم:

ـ يجب أن تقوم وتعانقه وتبدي أنك قبلت اعتذاره

سألته في حيرة:

ـ وإذا لم أفعل ؟

أجابني وهو يشير إلى البوس:

ـ لا أعرف بالتحديد، ربما..

أخذ نفسا عميقا يحمل رائحة الطعام وهو يكمل جملته ببساطة:

ـ ربما سيقتله، الآن وهنا أمامك لأنه جرحك وأنت في ضيافته!!!

قمت من مكاني على الفور واحتضنته بالطريقة المصرية المعتادة، وقبلت رأسه عدة مرات فدفعني في فزع، انفجر الجميع في الضحك، حتى ميس كيم التي كانت معه في السرير ليلة البارحة وقفت تضحك، واكتشفت في تلك اللحظة أنها بارعة الجمال برغم ضآلة جسدها، أعددت في لحظات حوارا قصيرا بلغة الإشارة أعبر فيه عن إعجابي إذا انفردت بها في وقت ما، ولم يخطر ببالي مطلقا أنها ستقضي في غرفتي ليلة كاملة.. معي وحدي.

٢

عمر قام بمشاركة فيديو/Omar shared a video

موت محمد علي كلاي كان ضربة قاضية صرعتني رغم كل المقدمات.

جلست واجما أمام شاشة الكومبيوتر رغم أنها من المحظورات، أردت أن أتابع جنازته، وضعت نظارتي الشمسية، حاولت التقاط السماعات الداكنة الضخمة، يداي كانتا ترتعشان أكثر من المعتاد، ضربتُ كوب القهوة الساخن فانسكب مطلقا المزيد من رائحتها ولم أحاول مسح المسكوب منها، أحب رائحتها في كل وقت،

كفنت أذني بالسماعات، رفعت الصوت إلى أقصى درجاته وأخذت نفسا عميقا بحثا عن الهواء فلم أجد منه الكثير.

سيارة سوداء فارهة، وآلاف البشر على جانبي الطريق، وهتافات تأتي من كل جانب، وورود حمراء تغطي الطريق، طريقه في الحياة لم يكن مفروشا بورود مثل هذه مطلقا، وحتى طريقه إلى الموت، لم يكن ممهدا، بل كان خشنا للغاية.

التقيت به مرة واحدة فقط، أزعجتني آثار العمر والمرض، مشاهدتي الدائمة لمبارياته جعلتني أنتظر رؤية نفس الفارس الممشوق الأسمر رغم أنني كنت أعرف، أخبروه من أنا في كلمات قصيرة، صافحني بيده المرتعشة وأنا أكاد لا أصدق أنني ألامس اليد التي طالما راقبت انطلاقها كصقر يحفظ مكان فريسته، أيًّا كانت حالة هذه اليد، ستظل عظيمة إلى الأبد، حتى وإن أكلها التراب.

جملته الوحيدة في أذني بصوته المنهك المبحوح:

ـ سنلتقي مرة أخرى أيها البطل.

فابتسمت مؤمنا دون أن أعرف متى يعني ولا أين!

مع الهاتفين على جوانب الطريق، رفعت يدي من منزلي وهتفت:

ـ ألِي.ألِي.. ألِي!

رددتها معهم بحماس حزين، نطقتها مثلهم، بالألف بدلا من العين، ومع تكرار الهتاف انخرطت في البكاء وعصام يراقبني في دهشة، من العسير أن يدرك ما بيني وبين رجل تفصلني عنه آلاف الأميال، شيء يخترق الزمان والمكان، علِي جزء حقيقي من حياتي، بطل الطفولة الأسطوري، وأكثر، في البدء كان هو الحلم، ثم أصبح القدوة، وأخيرًا الشريك.. حتى في أجواء النهاية، ألقيت نظرة وداع على صوره العديدة المعلقة على الحائط، ثم على صورة جيفارا الوحيدة التي جاءتني كهدية علقتها صاحبتها بنفسها، وتساءلت:

ـ لماذا لا تشفع البطولات ـ أي بطولات ـ لأصحابها في الحصول على خاتمة تليق بما بذلوه في سنوات العمر؟

تحركت في اتجاه الحائط وأمسكت بصورتي معه، عندما التقينا في لندن منذ بضعة أعوام، كان تكريما لقائمة صغيرة جدا من الأبطال على هامش الدورة الأوليمبية، أمعنت النظر في الصورة جيدا، كان يرتدي حلة بيضاء أنيقة ونظارة شمسية سوداء تحمي عينيه من الأضواء القاسية. المرض أكل من جسده الكثير، واليد أصبحت ترتعش كعقرب ساعة تلفظ بطاريتها آخر أنفاسها، وأنا كنت جالسا على الكرسي المعدني المتحرك، تخلصت من تلك الصورة إلى الأبد، حطمتها وألقيت بها من الشرفة في الهواء البارد، فلا ذلك كان كلاي.. ولا هذا أنا.

٣

الذكريات/ Memories

بداية محمد علي في الملاكمة سرقة دراجته، ذهب ليشكو إلى الضابط فأخذه ليمارس الملاكمة، فأصبح الأعظم في التاريخ، أنا رجل يؤمن بالمصادفات وسحرها، الحياة مجموعة من الكنوز الغامضة تأتي للجميع في صناديق مغلقة والفائز من يفتح صندوقه، حياتي تؤكد ذلك، ضربني طلبة أكبر مني في المدرسة فدافع عني صديق يمارس لعبة ما، قررت أن أمارسها مثله، لكنني أخطأت وجهتي، فصرت بطلا للعالم، المصادفات موجودة ومتاحة للجميع، الأصعب هو ما سيتلوها، من سيحول المصادفة لتجربة، وإذا نجحت فمن سيستطيع تحويلها إلى طريق يخوض فيه حتى النهاية، مهما كان شاقا.

كابتن هاني، تجده في مدخل الملعب بسمنة مفرطة تجعلك تتساءل متى مارس ذلك الرجل الرياضة؟ كل ما فيه مستدير، قلبه طيب، رغم عصاه الطويلة وصوته الذي يتعمد أن يخرجه من أعماق جوفه، غالبا لتأثره بأفلام تظهر المدرب في هيئة المعلم الفيلسوف.. دخلت لأقف أمامه متعثرا، مجرد صبي في الثالثة عشرة من عمره:

ـ عاوز ألعب جودو.

تفحصني من الأعلى إلى الأسفل، قام من مكانه ودار حولي دورة كاملة ثم قال ببرود:

ـ ادخل التدريب..

ـ اللبس..

ـ مش مهم.. بعد كده ابقى تعالى بلبس رياضي لغاية ما تشتري بدلة.. بس ما تشتريهاش قبل شهر علشان تكون جربت.

اقتحمت الملعب بسعادة، أجلتُ عيني في المكان لأحفظه جيدا، كانت الأرضية أسمنتية لكنها ممهدة، نصفها يشغله ملعب رملي مغطى بقماش ثقيل كقماش الخيام، يحدده قوائم خشبية قصيرة، كان ذلك هو الجزء الوحيد المحدد في المكان، سبعة أكياس رملية تتدلى في أطراف الصالة من قوائم حديدية، جلدها الأسود باهت ومتشقق، تمسكها سلاسل معدنية كبيرة.

شعرت أنني في عالم مذهل، أتلفت حولي بذهول وأراقب حركات الجميع، تعرفت على وجوه زملاء في مثل عمري من المدرسة والنادي، يبدون أكثر طولا واحتراما بزي التدريب، أما الكبار فلهم طابع يختلف تماما؛ مهابة طاغية، صرخات عالية، قفزات مذهلة، وقوة لا توصف.

كان أبي واقفا خارج الملعب يراقبني عن بعد، رفض أن يذهب معي إلى المدرب وقال ببساطة:

ـ عاوز تلعب جودو وخايف تكلم المدرب.. مش هادخل معاك.

عندما اطمأن لنجاحي في الخطوة الأولى أشار إليَّ محييا وأومأ بأنه سينتظرني في الكافيتيريا، لم يكن أبي راغبًا في مشاهدة تدريباتي ولا مبارياتي، كان يهتم بأن أفعل ما أريد فحسب، تدخله المحدود مناسب لصناعة بطل، يقول لأمي إن الرياضة هي أبسط معركة سأواجهها في حياتي، ويصر على منعها من التدخل في أي مشكلة تخص تدريبي طالما أمكن ذلك.

هزني كابتن هاني لأنتبه، أسلمني إلى واحد من اللاعبين الأكبر قليلا ليعلمني بعض الأساسيات، وحذرني من التحدث إلى أي لاعب أثناء التدريب أو بعده.. وقف يراقبني في صمت، أدرك الآن كل شيء، لم أفهم وقتها سر انبهاره لكني أتفهمه جيدا الآن؛ كنت خليطًا أتمنى إيجاده الآن في أي لاعب.. موهبة فذة، لا يمكن أن تتهمني بالغرور حين أصف نفسي بالموهبة الفذة، فقد صرت بطلا للعالم.

في اليوم الخامس عشر طلب مني المدرب شراء الزي، ما مر من تدريبات كان كافيا ليحسم أمره في ضمي للفريق، ولأقف مع مجموعة اللاعبين الأقدم بعيدًا عن المستجدين، ولألعب ضد حازم حمدي الوافد من منتخب الناشئين خلال إجازة قصيرة؛ مباراة كانت درسا فارقًا لي في حياتي، علمني أن للهزيمة درجة واحدة، أما الفوز فله درجات، أحيانا يكون مجرد الاستمرار في المباراة إلى نهايتها نصرا.. وهذا ما أسعى إليه الآن.

كان يفوقني مهارة، وكان المدرب متهورا أو مجنونا ليفعل بي ذلك. حازم حمدي يأتي إلى النادي فقط ليُري الآخرين ما وصل إليه، ويقص عليهم رحلاته الجديدة مع المنتخب، ثم يهزم من هم في مثل عمره أو أكبر قليلا، ويميل عليهم مواسيا أو مشجعا بتعالٍ!!

من أول لحظة في تلك المباراة كان قراري واحدًا؛ ألا أدعه يسخر مني، كل الضربات التي نتلقاها في حياتنا شأن ولحظة المهانة شأن آخر تماما، أثارتني نظرة سخرية كانت على وجهه، وأثاره أني بدأت بالهجوم عليه، لا سيما عندما هلل الكابتن هاني.. لم أتمكن من لمسه، ولكن قدمي مرت أمام وجهه بسنتميترات، قرر في هذه اللحظة أن يلقنني درسا، أن يستخدم جميع مهاراته ليضعني في حجمٍ عليَّ أن أعرفه، لكني لم أسمح بذلك، لم أكن أجيد اللعبة بعد، لكنني تفاديت ضرباته بتلقائية، تحركت سريعًا في كل اتجاه، فبدا مضحكا مع ازدياد غضبه.

كانت الضربة الوحيدة التي أصابت وجهي قوية بما يكفي لتسقط جملا، لكني لم أسقط.. بل تظاهرت بأنها لم تؤلمني من الأساس، لمحت ابتسامة فخر ترتسم على وجهه سرعان ما اختفت حين لم أسقط، فعرفت أني فزت بشكل ما.

كل اللاعبين أحاطوا بي وتركوه وحيدا، رأوني بطلا حتى وأنا مهزوم، حتى حازم حمدي ربت على كتفي مشجعا بصدق واضح، مال الكابتن هاني على أذني هامسا:

- روح اشتري بدلة.. النهاردة.

* * *

بزهو الحصول على ملابس العيد، ذهبت مع أبي لشراء الزي، أتراقص في مشيتي طوال الطريق، لم تخطئها عيني بمجرد دخول قسم الملابس الرياضية في المتجر الكبير، كانت معلقة وراء البائع فأشرت إليها:

ـ عاوز بدلة جودو.

هز البائع رأسه نافيا، وأخذ يوضح أن هذه لا تخص الجودو، أحضر لي زيا آخر، تدخل أبي في الحوار وأكد أن البائع يعرف ما يبيعه، فأكدت له أنا أيضا أنني أعرف ما أشتريه، كان الزي مميزا.. على عكس سائر الألعاب القتالية يُلبس من أعلى، له فتحة عنق على شكل حرف V، بألوان تتباين بين الأسود والأبيض والأحمر.. وهذا ما كنت أريده، اشتراه لي أبي وهو يحذرني: لو اتضح أنه الزي غير المناسب فلن يشتري لي الآخر.

تأكدت مع نهاية اليوم أني لم أكن مخطئا، ولا البائع.. عندما انفجر الكابتن هاني ضاحكا في وجهي:

ـ يااااه أنت لسه فاكر.. أنت بتلعب تايكوندو يا عمر.. أنا بس لقيتك عاوز جودو.. قلت ماشي خليها جودو.. واتفقت مع بقية اللعيبة على كده..

وقفت أرمقه في ذهول.. ثم انفجرت في الضحك.. جريت عليه في غضب ضاحك فحملني في الهواء بين ذراعيه ودار بي في الهواء.. مرة بعد مرة.. بعد مرة.. خمس مرات أحصيتها بعدد المرات التي طالعت فيها اللوحة، حيث وضعت أسماء الأبطال، يتصدرهم حازم.

٤

صورة الغلاف/Cover photo

دورة الألعاب الأوليمبية ـ برشلونة ـ إسبانيا ـ ١٩٩٢

منصة تتويج الوزن الثقيل في التايكوندو، على القمة يقف الكوري ممسكا بيدي ليرفعها إلى أعلى، في يدي الأخرى باقة ورود ملونة، سقطت رأسي مني للحظة من ثقل القرار الذي كان يدور فيها، فرفعتها إلى أعلى قدر استطاعتي، لهذا تبدو الصورة غريبة، عيون الباقين مرتفعة إلى الأعلام التي كانت ترفرف، أما أنا فكان وجهي متجها إلى أعلى من ذلك بكثير، عيناي مغمضتان وشفتاي مضمومتان كما لو كنت أقبل السماء من فوق المنصة، لكني كنت أطلق زفرة حيرة طويلة.. سجلها مصور محترف.

كل ما حولي كان صاخبا للغاية، فلاشات الكاميرات تضرب عيني فتترك داخلها نبضات متتالية من الضوء، بين ومضة الضوء وومضة الظلام تتراءى عشرات الصور المتحركة، لا أستطيع أن أحدد أيها ظهرت كصورة حية مضيئة وأيها ظهرت باهتة كئيبة مثل نجاتيف الأفلام القديمة، لم تكن أعظم مرات وقوفي على المنصة، لكنها آخرها، بعدها انتقلت إلى حياة أخرى مختلفة، لهذا جعلتها صورة الغلاف.

أعلن المذيع الداخلي فوزي ببرونزية الأوليمبياد، ارتفعت الهتافات، فوق المنصة كل شيء يختلف، تشعر أنك تعلو الجميع مهما كانت المنصة منخفضة عن مكان الجماهير، ولا يعلوك إلا هؤلاء الذين يسبقونك عليها، تتعلق عيناك بالعلم الذي يعلو رويدا رويدا، وتستعرض كل ما مر بك من لحظات حلوة ومُرة حتى وصلت لهذا المكان.

للبطولة ثمن، يبذل في دفعات ضخمة متتالية دون أن تعرف إذا كان المقابل سيأتي حقا أم احتالت عليك الحياة، الأمر أكبر مما يقولونه عن الجهد والعرق، فليس كل من جد وجد كما يقال، الواقع أنك تبذل كل شيء دون أن تعرف إن كنت ستصل أم لا، طاولة قمار ضخمة بحجم العالم بأكمله، والفائزون ثلاثة فقط، تضع رهاناتك دون أن تعرف ما يكفي وكم يكفي ومتى يكفي، لذلك فالاستمرارية بغير بطولة.. بطولة، وفي أول انتصار كبير سترى البطل ينفجر في البكاء لأنه كان يخشى ذهاب كل التعب هباء، كما يحدث للكثيرين في كل أنحاء العالم، وفي شتى المجالات، في الرياضة وفي العمل وحتى في الحب، فكلها أجزاء من الحياة تخضع لنفس القواعد وحتى وإن بدا الظاهر منها مختلفا تماما.

تختلط دموع لحظة الفوز بدموع أخرى لم تسكب في حينها، ذكريات الفشل والعقبات، وألم التعب الطويل المزمن الذي اعتصرك يوما فكتمته في كبرياء، أو بدموع طعمها أكثر مرارة من هذه بكثير، كافتقاد رفيق طريق كنت تتمنى أن يعاصر هذه اللحظة ويقطف ثمارها معك؛ كأم شاركتك مشوارك واستمرت في دعمك مهما وقف الجميع ضدك، أو أب أعطاك كل ما يملك كي يصل بك لكن الموت اقتنصه قبل تتويجك، هذا ما رأيته من مشاعر الفائزين، لذلك ترى دموعهم غزيرة مرة واحدة فقط يخرجون فيها كل شيء ثم يتعاملون مع الأمر بهدوء، أما الخاسرون فيبكون أملا تبدد في لحظات، ويقينًا بأن المرة التالية لن تكون أفضل.

أنا كنت في تلك اللحظة من النوع الأخير، رغم أنني لم أبك، السلام الوطني الكوري كان يعزف في أذني نشازا لأني كنت أتمنى

موسيقى أخرى، موسيقى بلادي التي كنت أسخر منها في صفوف المدرسة الصباحية، ثم أصبحت اللحن الشجي الأكبر في مرحلة لاحقة من حياتي.

توجهنا إلى غرفة المؤتمر الصحفي، كانت الصور تتوالى والأضواء تبهر العيون.. صامتا تماما كنت، أبو سهيل الصحفي والمصور اللبناني نسي الجميع وانخرط في التقاط أكبر عدد من الصور لي، كما لو كنت أحتضر، رآني قبلها بدقائق جالسا في غرفة الملابس بلا حراك أحدق في نقطة وهمية ثابتة، نقطة أرى فيها ما مضى وأبحث عما سيأتي، سألني عما بي فسالت دموع لم أستطع أن أوقفها، بدا عليه الفزع وهو يسألني بلهجته اللبنانية:

- عمر شو بك؟!

أجبته بعد نفس عميق:

- أنا هاعتزل يا أبو سهيل..

اضطرب للحظة لكنه تماسك سريعا وهو يقول:

- ولشو هالبكى؟! إنت عم تعتزل بطل.. مانك مِعتزل مهزوم أو مِنْهان، إنت عمر الخياط..

ثم وقف لدقائق ينظر إليَّ دون أن يتكلم، بعدها انطلق مبتعدا، غالبا ليبكي منفردا لأن اللحظة كانت تعني له هو أيضا سنوات طويلة من عمره.

بدأ المؤتمر فتوالت الأسئلة على البطل الكوري والأسترالي متتابعة، اعتدت ذلك منذ سنوات..أنا حقيقة حاولوا التعامل معها في بداياتي كظاهرة تسترعي الفضول، وانتظروا أن تنتهي سريعا كما يحدث مع كل الأبطال القادمين من عالم يصنفونه ثالثا في كبر.

كان كل الصحفيين من جميع أنحاء العالم يسألون عني مع أول

بطولاتي، ثم أصبحوا يتجاهلونني تماما حين استمر كسري للقاعدة التي اعتادوا عليها.. فالمتوَّجون في تلك السنوات كانوا يأتون من الجنس الأبيض أو الأصفر، أو ممن هجروا بلادهم وانضموا إليهم، ربما لذلك انتزع أبو سهيل الميكروفون انتزاعا، وسألني بالإنجليزية:

ـ عمر الخياط أنت من أعظم الأبطال في تاريخ العرب.. لماذا لم نر مثلك في الوطن العربي؟

نظرت إليه مليا، وأجبت ببطء مشيرًا لأعلى:

ـ السقف!!

رفع الجميع عيونهم إلى أعلى في تلقائية.. ابتسمت بينما أتابع:

ـ سقف الطموح.. نهاية ما تتمنى الوصول إليه، طموحي كان أن أصبح أعظم من مارسوا هذه اللعبة، لذلك عندما لم أصل إلى النقطة التي حلمت بها، وصلت لما قبلها مباشرة..

لمعت الدموع في عيون أبو سهيل وهو يقول:

ـ أنا عاصرت بداياتك من أول مشوارك، وأرى أنك كنت الأعظم. مارست اللعبة حين كانت أغلب الدول العربية لاتعرفها.. وأصبحت ملهما لنا جميعا.

ارتفع صوت تصفيق حاد من ركن القاعة.. استدارت الرءوس إلى الرجل الواقف بابتسامة عريضة.. تردد اسمه بين الواقفين:

ـ جونج كيم..

توالَى التصفيق لِي وله فعادت إليَّ ذكريات رائعة تمالكت نفسي وأنا أشير إليه قائلا:

ـ الأعظم على الإطلاق هو هذا الرجل، بنتائجه، ولو تحدثنا

عن الظروف المحيطة وصعوبة الأمر. فسيكون هو الأعظم في تاريخ الرياضة!

اقترب مني في امتنان وهو يحني رأسه بالتحية الكورية امتنانا للجميع.. عانقني، فضجت القاعة بتصفيق أكثر حرارة.. أخفيت وجهي في كتفه لأخفي بكائي، وعندما تمالكت نفسي أمسكت بالميكروفون وقلت بصوت مختنق:

- أعلن أنا عمر الخياط من مصر.. اعتزالي اللعب.. وأتمنى لكل اللاعبين حظا سعيدا.. وعمرا طويلا في الملاعب.

فسرت همهمات بين الجالسين تبعها تصفيق حاد حزين، أمسك كيم بيدي ورفعها إلى أعلى، صاح أبو سهيل:

- عمر.. عمر

لم يردد وراءه أحد لكنه واصل الهتاف، نظر إليَّ كيم في تعاطف، ثم بدأت ابتسامة ترتسم على وجهه، تحولت سريعا إلى ضحكة مبهجة، أشار إلى ندبة جرح متوسط الطول في منتصف جبهتي، وهو يقول:

- آانداي..

فضحكت أنا أيضا.

٥

الأصدقاء/Friends

حياة كل منا حساب أزرق كبير كالذي أصبح محور حياتي وحياة الكثيرين، نتسلمه فارغا من كل شيء عدا الأسرة، ثم نضيف إليه.

كل ما يشغلنا في البداية أن يصبح لدينا حساب حقيقي فعال، نسعد بكل اسم يضاف ونقيس محبوبية الآخرين بعدد من يملكون،

تزدحم صفحة المعارف بمرور الوقت، فنخلط بينهم وبين الأصدقاء، البعض لا يكتشف مطلقا أن كل من في حسابه مجرد معارف، حتى وإن ضغطوا زر الإعجاب عشرات المرات أو أضافوا تعليقا من آن لآخر. الحساب يحتاج إلى تصنيف أوسع، ثلاثية من سنحتفظ بهم..الأحباب والأصدقاء والمعارف، وثنائية من ينبغي علينا حذفهم أو حظرهم من حياتنا، الكارهين واللامبالين.

إضافة ريهام إلى حياتي كانت بواسطة فريدة الوكيل أو غصبا عنها، صديقة لصديقة وأنا الذي اقتربت. لم أمل أبدا سماع تلك الحكاية منهما بجميع ما تحتويه، أخبروني بكل التفاصيل التي لم أعرفها.. الأمر بالكامل بدأ عندما كانتا جالستين سويا في النادي، أشارت إليَّ فريدة وهي تسألها:

ـ عارفة مين ده؟

ـ هو ماشي كده ليه؟

كثيرون كانوا يسخرون من مشيتي، يدعون أنني أعلو وأهبط كما لو كنت أمتطي فرسا، لم أكن أتعمد ذلك مطلقا، ريهام رأتني أول مرة رأسا تبدو خلف سور من الأشجار الخضراء القصيرة، عيناي تدوران في جميع الأنحاء كما لو كنت أفتش عن شخص ما أو ـ على حد وصفها ـ أتأكد من أن الكل يراني

ـ ده بطل العالم.

همست فريدة في حذر كما لو كان سرا خطيرا:

ـ في إيه بالظبط.

أجابتها وهي تضحك:

ـ بيقولوا بطل العالم في لعبة جديدة..اسمها التايكوندو.. حاجة

زي أفلام بروس لي كده.. بس عاوزة الحق؟.. هو بطل العالم في كل حاجة..

ـ يعني إيه؟

ـ يعني كل حاجة، بطل رياضي، وسيم، عيلة كبيرة، طالب في الجامعة الأمريكية، غني طبعا، عربية آخر موديل، فصيح ولبق، وأخف دم ممكن تقابليه في حياتك..

هكذا وصفتني فريدة الوكيل، أحببت الوصف عندما سمعته لأول مرة.. وعشت طويلا أحاول الحفاظ عليه، ريهام تقول إنها استكثرت ما قيل، سخرت منها واتهمتها بأنها تحبني، فهزت رأسها نافية في ثقة:

ـ لا.. مجرد إعجاب، صديق مختلف وظريف أحب أشوفه وأسمعه وهو بيحكي ويتكلم عن بطولاته وعن العالم اللي بيلفه حته حته.. لكن ما أسلموش قلبي. اللي زي عمر مبيحبش..

ضحكت ريهام وهي تقول:

ـ خلاص أحبه أنا..

أجابتها بجدية:

ـ لو عرفتيه هتحبيه.

ثم أردفت بعد لحظة:

ـ أو هتكرهيه.. مفيش وسط مع عمر.

اضطربت ريهام كثيرا من الثقة التي تحدثت بها فريدة، التي طالما وصفتها بأنها (تقيلة)، خجلت كما تقول أو استكبرت كما أقول أنا أن تطلب منها مناداتي.. أعرف بقية ما حدث بالتفصيل لأنني اقتحمت المشهد؛ لمحت فريدة من بعيد وهي على غير

العادة تدير الكرسي الذي كانت تجلس عليه وتغوص فيه لكي لا أراها، أثارت فضولي، اقتربت منهما فبدا عليها عدم الارتياح. رحبت بي باقتضاب متجاهلة وجود ريهام تماما ولم تحاول أن تقدمها لي، فبدا الحرج على محيا الأخيرة، رفعت حاجبي في حيرة وأنا أتساءل كيف لم أرها من قبل، رائعة الجمال.. بياض شاهق وشعر عسلي ناعم، وعينان خضراوان زاهيتان لم تنجح العدسات اللاصقة التي سادت حديثا في الوصول لدرجة التماعها، وغرور يستثير أي شاب في مثل عمري وقتها، كانت ترتدي قميصا قطنيا أخضر اللون، فتحته على هيئة نصف دائرة تكشف عن مساحة لا بأس بها من صدر أبيض لامع، في يساره توجد شامة بنية اللون صغيرة الحجم لكنها واضحة، في المنتصف بدايات خط غامض وضيق، يبدو كطريق يستحق أن يقتحم ذات يوم.

انتظرت أي تمهيد للتعارف من فريدة لكنها لم تفعل، غالبا كانت تخاف من أحدنا على الآخر، انشغلت أنا بالنظر إلى ريهام التي تعمدت أن تظهر عدم الاهتمام وأنا أتكلم بود أكثر من المعتاد:

ـ فريدة. ألف العالم وأرجع ألاقيكي أحلى وأجدع، رغم نظرة الحاج رجب الوكيل اللي في عنيكي.. وحشتيني..

لم تستطع فريدة أن تخفي اضطرابها ولا الرضا الذي ارتسم على وجهها وهي تسمع كلامي.. ولم تستطع ريهام إخفاء ابتسامة حاولت وأدها مبكرا، اختلست فريدة نظرة إلى وجه صديقتها، لم يخف عليها اضطرابها هي الأخرى، نظرت إليَّ فضحكتُ، فضحكت هي أيضا في استسلام:

ـ إزيك.. يا زفت!

سحبت كرسيا وأنا أجيب ضاحكا:

ـ الله يحفظك. ها.. أقعد؟

ثم جلست في المنتصف بينهما دون انتظار الرد، وأضفتُ ريهام إلى الحساب!

٦

The wall/ الحائط

حائط كامل حقيقي في غرفتي مليء بالصور، قمت بتحويل أغلبها إلى صور رقمية ووضعتها على حائط حساب الفيس بوك الخاص بي، ثم حدث العكس، تحول حائط الغرفة أيضا إلى صفحة فيس بوك كبيرة، بدوي هو الذي فعل كل شيء، ظلت حياتي محصورة لسنوات في جهاز الكومبيوتر، وحسابي الذي يجمع حياتي بأكملها، وأصبح بالتدريج يفعل كل شيء، يرسل لي تهنئة بعيد ميلادي وصورة من ذكرياتي ويذكرني بمناسبات كدت أنساها، يقترح عليَّ دولا أخرى لأعيش فيها وموعد ومكان الموت أيضا، وأطلع على أخبار أصدقاء كنت لأنساهم تماما لولا وجوده.

فجأة بدأت الصور تهتز، بقع بيضاء وسوداء تتراقص أمام عيني كرقعة شطرنج رسمت على صفحة ماء أصابها حجر ضخم، أعلن الطبيب أن نظري أيضا بدأ في التأثر، أصدر فرمانا بمذاق المطهرات الحارقة يمنعني من الجلوس أمام الشاشات إلا للضرورات القصوى جدا على أن أرتدي نظارة شمسية داكنة، ويوجهني نحو الوسائط المسموعة والحياة الحقيقية.

استسلمت لأمره، أما بدوي فلم يفعل، دخل عليَّ ذات يوم وهو يقفز من السعادة حاملا أكياسا ضخمة ولفة مستطيلة كبيرة، دهن

الحائط باللون الأزرق ثم ثبت عليه لوحا معدنيا أبيض مع عشرات القطع المغناطيسية التي تحمل نفس رموز وإشعارات الفيس بوك، استسخفت الأمر في البداية ثم أعجبتني اللعبة بعد ذلك، أضع البطاقة المغناطيسية المكتوب عليها الأصدقاء ثم أكتب أسماء أصدقائي واحدا تلو الآخر، خانة الأصدقاء المقربين كان فيها ثلاثة فقط، فريدة الوكيل ومصطفى القماح وبدوي، وقائمة الأصدقاء القدامى هي الأطول لأنني كنت كلما تذكرت اسما أضفته؛ زميل دراسة، رفيق تدريب، قصة حب لم تتم أو ربما انقضت. لم يعنِني إذا ما كان لديهم حساب الكتروني أم لا، فهذا حائطي والإضافة فيه من طرف واحد حق لي وحدي، كنت ألعب كيفما أريد، أغير الصورة الشخصية وأضيف تعقيبا مكتوبا بالقلم ثم أضع علامة الإعجاب الصغيرة أو ربما عدم الإعجاب. لا أعرف من يمكن أن يستفيد من لعبة مثل هذه سوى شخص مثلي، قضى ما يقرب من خمسة أعوام في غرفته ولم يخرج إلى الشارع سوى للضرورة لأنه لا يريد أن يرى أحدا.

منذ شهور قليلة أضفت ستارة بيضاء ناصعة تشبه ستائر المسرح، يحكمها ريموت كونترول لأجذبها وقتما أريد الخروج من حسابي ولو مؤقتا، الطريف أن للريموت أيضا كلمة سر إذا أردت إيقافه أو تشغيله، غالبا صممته الشركة لمنع الأطفال من اللعب بالستائر، ولم يعرفوا أن رجلا على مشارف الخمسين هو من سيلعب به.

الصور المطبوعة مستقرة على الجدار المقابل، كلها بنفس الحجم ونفس الإطار البني الأنيق، اختاره صاحب ورشة الزجاج لأبي ورفض أن يتقاضى ثمنه احتفالا ببطولتي الأولى، ثم أصبح ذلك الإطار ثابتا لا يتغير، بسيط بدون زخارف معقدة، مجرد عود

خشبي مبطط، أشار أبي إلى أطر أخرى أكثر تعقيدا لكن الرجل رفض كما لو كان الأمر يخصه:

الشهادات المحترمة مش محتاجة..

اقتنعت أنا وأبي برأيه، سنوات طويلة وأنا أتعامل مع نفس المكان، أرسل أي صورة فتعود بعد يوم واحد معدة تماما للإضافة.

ما يزيد على مائة صورة بعد حذف كل ما يمكن التنازل عنه، نقلتهم بعد شهور من الثورة إلى الحائط المقابل ليكفيهم، طلي باللون الأبيض أيضا وتركت الحائط الأزرق للحساب، الحائط الذي يعلو سريري مشغول بصور محمد علي الحقيقي، كلها من داخل الحلبة وهو يرقص كالفراشة، وصورة كبيرة لجيفارا وقد ارتدى سروالا عسكريا ونصفه العلوي عار، أهدتها لي فريدة ولم تنتظر رأيي لتثبتها على الحائط، رأيتها نشازا لكن فريدة قالت وهي تشير بعلامة النصر:

ـ البطل بطل..

ـ صاحبك ده بقى كان بيلعب إيه؟

ضحكت وهي تقول:

ـ كان بيلعب ثورة.

ـ ده بقى كسب ولا خسر؟

مطت شفتيها ولم تجب، لم أكن أعرف عنه الكثير فبحثت بعد انصرافها، في عجالة، أعترف أنني أحببت حكايته، حييته في المساء في احترام وتركته إلى جوار بطلي الأكبر، فهو قطعًا يستحق.

المسافة الزمنية بين أول صوري والأخيرة تزيد على ربع قرن، تبدو كما لو كانت توثيقا لكل مراحل العمر ومراقبة لتغير ملامحي على مر الأيام، آخر صورتين بينهما فراغ زمني يقترب

من ستة أعوام، لكنها قرون بالنسبة لي بمقياس بطء مرور الزمن، وسرعة تطور مرضي، بينهما تضاد مذهل، صورتي مصافحا رئيس الجمهورية وأنا أتسلم بفخر وسام الرياضة من الدرجة الأولى. حصدت هذه الصورة ما يزيد على خمسمائة إعجاب.

الصورة الأحدث لا أعرف تحديدا من التقطها في ميدان التحرير، جالس على الكرسي، يداي مرفوعتان لأعلى، فمي مفتوح عن آخره، دخان وزحام في الخلفية، كنت أهتف بالحرية في حماس وصدق، حريتي في تلك اللحظة كنت أراها في الموت، الخلاص من الجسد، تداولها الناس على أنني كنت أهتف بسقوط نفس الرجل الذي تسلمت منه الوسام، أكبر عدد من علامات الإعجاب في حسابي.. بالآلاف، أغلبهم كان إعجابهم بالكرسي المتحرك أكثر من أي شيء آخر، وعلقت أنثى لا أعرف عمرها تحديدا تسمي نفسها (راهبة الحب والمساء) قائلة إن كوني «عجوزًا ومعاقًا» لم يمنعني من البحث عن الحرية، توقفت بعدها عن قراءة التعليقات واكتفيت بمتابعة الإعجابات.

لم أتنازل عن أي من الصورتين من أجل الأخرى ولم يزعجني وجودهما متجاورتين على الحائط الحقيقي والحائط الافتراضي. الأشخاص مجرد وسطاء، أنا أخذت ذلك الوسام من الوطن، وكانت تلك الثورة من أجله، حتى وإن لم تكن نيتي خالصة له في لحظة المشاركة.

وجودي في ميدان الثورة لم يتعد ساعة واحدة، والصورة أصبحت أيقونة لشهور، ثم اختفت مثلها مثل باقي صور الثورة.

٧

عمر.. عيد ميلاد سعيد/ Today is your birthday

عيد ميلادي الثامن والأربعون:

تهنئة أوتوماتيكية لا تخدع عاقلا، وفيديو قصير سيخرج من كعكة صناعية ملونة ليعرض مجموعة من التهاني المنقولة من حسابي، ثم تنفجر الكعكة ويتصاعد الدخان، مع تحيات الفيس بوك الذي لا يعرف شيئا عني، والذي لم يخدعني أبدا رغم احتياجي إليه، لأنني حبيس هذا الكرسي، وهذه الغرفة.

كعكة حقيقية مزخرفة، وأمي وأبي، وسبعون إعجابا على حسابي وخمسة عشر تعليقا مكررا أغلبهم كتب نسخا من تعليق أعلاه، ومكالمة من فريدة وأخرى من بيومي، لا أحد يغني ولا أحد يحتفل.

المكسب الوحيد أن الأغنية السخيفة لم تتردد متحدثة عن حلاوة السنة الآتية، الأمور لا تبدو كذلك، كلاي مات وأنا مريض وأصدقائي انفرطوا، والبلد بشكل عام في حالة معاناة؛ لا أحد يحتفل.

عيد ميلادي العشرون:

المشكلة الكبرى انحصرت في الآلية التي يمكن أن تحضر بها ست حفلات أعياد ميلاد مقامة في اليوم نفسه، زملاء الكلية في الصباح، موعد احتفال فريق النادي في الخامسة، موعد احتفال المنتخب في السابعة، ثم تتبقى ثلاث حفلات عليَّ حضورها جميعا ولا سبيل لي للاعتذار؛ حفل ريهام، حفل فريدة الوكيل، وحفل الأسرة الذي سيقام عندما أصل إلى المنزل، أيًّا كان الموعد.

ريم كانت تصغرني بثلاث سنوات تقريبا، اعتدت أن أقضي ذلك

اليوم معها، أعرف أنها هذا العام لا تريد أن ترى وجهي، لكني لا أستطيع أن أتجاوز الشوق والافتقاد، أعرف أنها طيبة القلب، وأغلب الظن لم تزل تحبني مهما كانت غاضبة مني، أنا أيضا أفتقدها، ولا أملك أن أمنع نفسي من حالة شجن تعصف بي.

كنت على يقين من أنها ستتصل بي، أنتظر مكالمتها، أتصل بها فيجيبني أبوها بصوته الصارم فأغلق الهاتف في جزع، أنتظر أن تحادثني هي لكنها لا تفعل، الهواتف المحمولة لم تكن متاحة، جاءني أكثر من ثلاثين مكالمة للتهنئة، لكن المكالمة التي انتظرتها لم تأت!

تنقلت بين الأماكن في عجالة، أكثر ما لفت نظري اختلاف أنواع الكعكات، محال تتدرج تبعًا لصاحب الدعوة؛ جاءت ريهام بتورتة ضخمة من فندق خمس نجوم، الاحتفال كان هناك، معالي السفير - والدها - كان حاضرا وحفنة من أقاربها، أحدهم أصبح وزيرا لاحقا، الاحتفال الأبسط تم أثناء تدريب المنتخب، أحضر أحدهم «دكرين بط» من بلدته الريفية، وقالب كيك من «مخبز إفرنجي» مجاور، وجهاز تسجيل سعة اثنين شريط كاسيت أداروا فيه أغنية شهيرة لعدوية، لا يهمني اسمها، ولكن تجتاح جسدي قشعريرة غريبة حين أسمعها في أي وقت أو مكان.

فريدة الوكيل أصرت على أن نذهب للاحتفال مع أصدقائنا في النادي، غنت لي «ياواد يا تقيل» بحماس لم أره إلا في عينيها، ريهام رفضت أن تحضر ذلك الاحتفال رغم أن فريدة دعتها، وأبدت غضبها من إصراري على حضوره.

بعد يوم حافل وطويل وسيارة امتلأت عن آخرها بالهدايا، وأصوات غناء وموسيقى متداخلة في رأسي، لم أستطع أن أنكر

أنني افتقدتها، كل ما مر بي في اليوم لم يغنِني عما تقدمه لي عادةً، أفتقد كثيرا رؤيتها وانتظار «مفاجأة العام»، اعتادت على مر السنوات الست السابقة أن تصنع لي جوا جديدا لعيد ميلادي كل عام.. مرة في الكلية ومرة في النادي. آخر مرة كان في البيت؛ اتصلت بأبي ورجته ببراءة أن يسمح لنا باحتفال جماعي مفاجئ في المنزل مع زملاء التدريب، فوافق على الفور وهو يضحك، ثم اتصلت بفريق تايكوندو مركز شباب السعداوية شرق، كان مجيئهم مكتملين من الصعيد من أجل عيد ميلادي مؤثرا، وطريفا في آن واحد، دخلوا علينا محملين بالفطير والعسل والمش والصخب والحرارة، خلطتهم مع فريق نادي الصيد كانت طريفة إلى حد كبير، أنا كنت سعيدا، وكانت ريم تدور كالفراشة كأنما تتحرك في بيتها، كانت أمي تراقبها على مضض.. وظلت تتفحصها حتى نهاية اليوم، ثم سألتني بعد انصراف آخر المدعوين:

ـ البنت دي سخيفة قوي، إيه مالهاش أهل؟

لم تكن ريم سخيفة أبدًا، وأول عيد ميلاد يمر بدونها كان ثقيلا على القلب لأبعد حد، عند عودتي للبرج الذي أقطن به، كانت هناك لافتة كئيبة تنتظرني على مصعد الأدوار الفردية؛ مكتوب عليها «المصعد معطل».

تنهدت بضجر بينما أتجه إلى المصعد الآخر.. استوقفني عم عزيز حارس العقار بلهفة:

ـ استنى يا دكتور.

التفت إليه، ابتسم قائلا:

ـ اتصلح..

رفع اللافتة وألقاها بعيدا، فدخلت إلى المصعد في حيرة، كانت

إضاءته تستغرق عدة لحظات حتى تستقر، ولاقاني مشهد فريد؛ ريم جالسة على كرسي، والضوء يشع عليها وينطفئ قبل أن أتأكد من كنهها، ثلاث نبضات من الضوء حتى رأيت، المصعد مزين بالكامل وعلى المرآة رقم عشرين كبير الحجم، مرسوم بالورق الأحمر المزين، وريم بابتسامة الأعوام الماضية وإن حملت مرارة لا تتوارى، مدت إليَّ يدها بصندوق مزين برقة، ثم قالت بصوت يتهدج بالبكاء:

ـ أنا آسفة.. مقدرتش.. كل سنة وأنت طيب يا عمر..

لا أستطيع وصف مشاعري في تلك اللحظة، تناولت الهدية، ثم أمسكت بيدها أقبلها، فتركتها لي باستسلام، أحطتها بذراعي بلهفة واعتذار، فأوقفتني برفق وهمست:

ـ ما بقاش ينفع..

ثم ضغطت زر الدور التاسع ومازالت يدها فوق صدري، لم أجد في نفسي الشجاعة لأكرر المحاولة، بمجرد توقف المصعد فتحت هي الباب وغادرت جريا لتهبط السلالم وأنا أراقبها صامتا.

توقفت للحظة وهي تصطنع الابتسامة:

ـ أقفل باب الأسانسير.. علشان أنا وعم عزيز نلم الزينة من تحت.

اختصر هذا الموقف كل ما حدث بيننا، صعدت بها إلى أعلى بالمصعد ثم تركتها تهبط السلم بينما أتابعها بتحسُّر، أو للدقة، صعدت هي بي إلى الأعلى، وألقيت بها إلى الأسفل، ففي العشق لا توجد درجات بينية، بل أعلى وأسفل فحسب!

لم أحسب قيمة الخسارة، الآن أعرف؛ يوجد في العشق فصيل نادر يعطيك بلا حساب، فيوهمك غرورك بأنك تملك كل شيء،

بينما الحقيقة أنك تمتلكه هو فقط، وكل هذه العطايا تأتيك منه، فإذا رحل عنك كمارد المصباح السحري استنفدت منه رغباتك بحماقة، ستجد فجأة أنك فقدت الفرصة الكبرى، والمصباح لا يخرج عادة خلال حياتك سوى مارد واحد فقط.. أيها الأحمق الذي أناديه «أنا».

٨

المناسبات/Events

يحين عيد ميلادي في الثالث والعشرين من يناير، ثمانية وأربعون ساعة فصلت بينه وبين ثورة مصر الكبرى في ذلك العام، التقى الثلاثة في منزلي، كما لو كانوا على موعد، فريدة والقماح يعرفان بعضهما منذ سنوات بعيدة، كلاهما يرى الآخر صديقًا لا يناسبني، ويتقبله من أجلي، وبدوي كان قد التقى كلًّا منهما في مناسبة مختلفة.

أخذ القماح يؤكد أنه لم يأت من أجل عيد الميلاد كما لو كانت تهمة، بل جاء من أجل زيارة اعتيادية، ولكن اليوم هو ما جاء بمصادفة سعيدة، لم تكترث له فريدة كثيرا، أخرجت الكعكة الكبيرة وغنت الأغنية كاملة، ثم قبلت رأسي بحب بينما تقول:

ـ كل سنة وأنت طيب يا راجل يا شرير.

وقف بدوي يبتسم بسعادة في حين خرج القماح إلى الشرفة غير راضٍ عن المراسم حتى انتهت، عاد بعد قليل، تعلقت عيناه بالكعكة للحظات، ثم شمر عن ساعديه وهو يضحك قائلا:

ـ دي برضه بدعة.. بس بدعة محمودة..

ثم أخذ قطعة أكبر من الجميع، ضحكت فريدة بصوت عالٍ وهي تقول:

ـ محمودة.. مذمومة.. أديك خلصت عليها في طلعة واحدة.. اللهم تقبل يا عم.

كانت أجواء وجودهم من حولي صافية ومريحة، أحب كلًّا منهم منفردا وأحبهم مجتمعين، أعرفهم جيدا، أحب القماح البطل الذي ساندني في ظلمي ووقف إلى جواري بقوة، فريدة تقول إنه تغير، شيء ما في قلبي يخبرني بأني كنت أحد أسباب ما وصل إليه، انقطع كل منا عن صديقه، ثم عدنا صديقين مرة أخرى بينما يرى كل منا أمامه شخصا آخر، لم أعد أنا بجسد البطل ولا هو بعقل المثقف، تدهور كل شيء.

نظرة القماح لصور الحساب الكبير التي تجمعني به في بدايات شبابنا كانت تذيب قلبي، يقف ويصمت تماما ثم تلمع عيناه، ثم يتنهد، كان ذلك دائما رد فعله الأولى، ثابتًا لا يتغير، المتغير فقط هو ما سيأتي بعد ذلك! مرة يدعو على بدوي لأنه صمم ذلك الجدار الذي حنط جزءا رائعا من حياتينا:

ـ يعني أنا معملتش حساب فيس بوك.. تقوم إنت تحطهولي في وشي كده..

ومرة ثانية يقف يتأمل الصور وهو يقول بحماس:

ـ فاكر الماتش ده يا عمر، مش ده بتاع نادي سبورتنج؟ وده فوزي بتاع طنطا.. وده..وديه..

ثم يجلس متهالكا إلى جواري بعد أن يختلس نظرة سريعة لصورته المنعكسة على زجاج الشرفة الكبير، كان متوسط القامة، مال قوامه إلى السمنة وفقد شعره بالكامل، تزين جبهته علامة صلاة متوسطة البروز، وجهه قمحي مستدير وعيناه بنيتان هادئتان، يبدو الصراع بين حاله القديم والجديد محتدما فوق ملامحه.

الذكريات الحلوة طعمها حارق ومر عندما تنعكس الأمور، القماح لم يعترف أبدا بأنها ذكريات حلوة، بل كان يمط شفتيه محاولا الدفاع عن أحوالنا الآن:

ـ كانت أيام.. الواحد مكانش لسه عرف مصلحته.

لم أجادله بقوة ولو لمرة واحدة، أحبه، شعور الذنب الموجود في قلبي تجاهه يمنعني من خصامه، القماح في مرضي أعاد إليَّ الكثير من الراحة.. كان يجلس بجواري لساعات طويلة دون أن يمل، يقرأ عليَّ القرآن ويصلي بي جماعة، كان متعة الدين في وقت الدين، أما في أوقات الدنيا، فكان لابد أن ينتهي الأمر بخلاف غاضب هادئ بيننا، ثم بانصرافه داعيًا لي بالهداية..

ذلك اليوم أيضا شهد خلافا، لكن بينه وبين فريدة الوكيل، كان بدوي قد قام بتحديث الحساب ووضع عليه الدعوة لحدث كبير، مظاهرات ضخمة احتجاجا على.. كل شيء، وضع صورة لشاب وسيم ثم صورة أخرى له وقد تهشمت رأسه بعد اعتداء رجال الأمن عليه، كانت الصورة مؤلمة بالفعل، فريدة وقفت أمامها وأطلقت زفرة غاضبة وهي تلعن من فعلها، ثم أزاحتها من أعلى الحائط، طلبت منها أن تعيدها:

ـ سيبيها.. مش هتضايقني..

ضحك القماح بعصبية:

ـ إيه يا عمر هتنزل ولا إيه؟

ثم قطع ضحكته عندما رمته فريدة بنظرة نارية، سألته أنا في هدوء:

ـ إنت هتنزل ؟

انفجر القماح مقهقها وهو يسخر من الفكرة نفسها؛ تحديد

موعد مظاهرة كبرى على صفحات وسائل التواصل الاجتماعي، بدت عليه الجدية وهو يقول:

مش بعيد يكون أمن الدولة هو صاحب الدعوة.. بلاش لعب عيال..

نظرت إليه فريدة بضيق وأجابت:

ـ وماله..هو عمل الدعوة واحنا قبلناها.. هتنزل معانا يا بدوي؟

تلعثم بدوي قليلا ثم أشار إليَّ:

ـ مش هأقدر والله..عندي شغل.. مقدرش أسيب الكابتن..

أشاحت فريدة بيدها وهي تقول:

ـ طيب خليكوا انتوا الاتنين..

ثم قامت من مكانها وأخذت حقيبتها، وهمست في أذني:

ـ خد بالك من نفسك يا عمر، وادعيلنا..

ـ خدي إنتِ بالك من نفسك يا فريدة..

ثم غادرت بخطوات سريعة، نظرت إليها مبتسما وهي تبتعد، بينما وقف القماح يضرب كفا بكف وهو يسأل في حيرة:

ـ مش دي برضه بنت رجب الوكيل؟ سبحان الله!!

٩

صندوق الرسائل/Inbox

ريم

«عمر. أنت بخير؟ أستطيع أن أتصور حالتك بعد موت كلاي، أعرف كم تحبه، تحفظ كل مقولاته وتحاول دائما أن تتحرك وتتكلم مثله، حتى عندما أصابه المرض..قلت لي إنك تشعر أنك ستمرض مثله.. يومها اتهمتك أنا بالسخافة، أعرفك أكثر مما تعرف أنت

نفسك، لابد أنك بكيته وجلست تشاهد عددا من مبارياته، غالبا مباراته مع إيرني تيريل بالتحديد، تلك التي كنت تحمل الفيديو الخاص بها وتدعوني لنشاهده سويا قبل كل بطولة لك، ثم تصفه باختصار وأنت تتنهد ناظرا إلى السماء:

الوَحْش

أعتذر لك لأنني لن أستطيع زيارتك، لكني أرجو أن تهون الأمر على نفسك، وأذكرك بما قاله كلاي عن نفسه:

- لقد زرت كل مكان في العالم، رأيت كل شيء، وامتلكت كل ما يمكن أن يمتلكه بشر.

هو يرى أنه فعل كل ما يمكن فعله، إن رجلًا مثل هذا عندما يموت لا نبكي عليه، نتذكر أمجاده ونضعها أمام عيوننا، لذلك أرجوك ألا تغالي في الحزن.. وأن تدعو له بالرحمة وكفى، فرفقا بنفسك».

عمر

- ونعم بالله، شكرا يا ريم، كالعادة حاسة بيَّ، أنا محتاج رسايلك، لو ممكن تبعتيلي كتير.

أجابتني برسالة قصيرة ووجه ضاحك إلى جواره وجه باك:

- بلاش أحسن!

لم تتوقف ريم عن مراسلتي على مدار العمر، توجد فجوات كبيرة تصل إلى شهور، لكنها كانت تعود لترسل إليَّ مرة أخرى في مناسبات متباعدة، أصبحت رسائلها أكثر انتظاما في الأعوام الأخيرة، رسائل فارغة من الكلمات، فقط مرفقات تحتوي على الجديد في علاج مرضي من كل بقاع الأرض، أحيانا تضع كلمتين مقتضبتين مثل: جرب مش هتخسر حاجة، الكلام ده شكله مهم..وهكذا.

لم أعد أهتم كثيرا بقراءة تلك المرفقات، كثيرا ما قاومت أن أرسل إليها طلبا صريحا بأن تزيد من الكلمات، هذه المرة بالتحديد ضعفت، الوحدة قاسية والحاجة لصديق أصبحت ملحة، في مرحلة من مراحل العمر يصبح اكتساب أصدقاء جدد عسيرا للغاية، وتكون المشاعر القديمة مصدرا لاهتزاز القلب وامتلائه.

ردها لم يفاجئني، أعرف ما تعنيه، لكني أحتاج إلى أي شيء؛ لا بأس حتى من العتاب، ألقيت نظرة متأنية على الحائط، بدوي العبقري.. طلبت منه في واحد من أيام اكتئابي أن يحضر لي لفافة رسائلها القديمة من درج مكتبي، جلست أقرأ له مَقاطع منها وأحكي له عنها، سألني في حيرة:

- دي كانت بتحبك أوي يا كابتن.. ما تجوزتهاش ليه؟

- الظروف بتحكم..

بدا لي أنه يريد أن يقول شيئا، غالبا كان سيسأل عن الظروف ثم تراجع، تعريف الظروف كما يدركها شاب مثل بدوي هو الحالة المالية، وهو لم ير دليلا على كونها كانت مشكلة واجهتها أسرتي في أي من المراحل، لم أكن أكذب.. كنت أملك ما يكفي من المال لكني لم أكن أمتلك أشياء أخرى كثيرة تحتاجها العلاقات الأولى لتستمر.

استأذنني بدوي في قراءة تلك الرسائل، لم أمانع بعد مرور عشرات السنوات على تواريخ كتابتها، أنا من بقايا جيل (الصور والجوابات)، والأمر لم يختلف كثيرا، تطور فقط، من الرسائل المكتوبة والصور المطبوعة إلى العالم الإلكتروني، لكن ستظل الصور صورا والرسائل رسائل.

راقبت بدوي بينما يقرأ رسائل ريم بتأثر شديد، كان يرفع

رأسه من آن لآخر ليختلس نظرة إليَّ، تؤكد أنه أحب ريم من خطابات لم تكن تكفيني عندما كنت في مثل عمره، رغم ولعي بأسلوبها. كانت مختلفة، تحمل كتبا صغيرة في يدها وتقرأ فيها كلما سنحت فرصة، هي أول من كسرت الغربة بيني وبين القراءة بروايات رومانسية أهدتني بعضها فلم أفهم أبدا لماذا كانت تبكيها، مصطفى القماح نقلني إلى درجة أخرى، سأظل دائما شاكرا لهما، قلما تجد من يقرأ في وسط يقضي أصحابه ما لا يقل عن ثماني ساعات يوميًّا في التدريب، يكفي أن تردد اسم نجيب محفوظ أو نزار قباني لتصبح مثقفا في نظرهم ـ وسيمنحونك لقبا كالذي منحوه للقماح «الأستاذ»، أو كالذي منحوه لريم «رد قلبي»!

استيقظت في الصباح لأجد كل الخطابات مغلفة في ملفات بلاستيكية شفافة، على كل منها تاريخ إرساله، ثبتها بدبابيس صغيرة على الحائط الأزرق بالترتيب، ووضع فوقها ملصقا صغيرا مكتوبا عليه: «صندوق الرسائل».

أشار إلى ما فعله بحركة مسرحية، نظرت إلى الحائط صامتا، طال سكوني فهمس هو في حرج متسائلا عما إذا ما كان عليه إزالتها.. أدرت رأسي نحوه، وطلبت منه أن يفتح باقي الأدراج، حيث سيجد خطابات قديمة أخرى من أمي وأبي ومن كيم والبوس، وأن يضعها جميعا على الحائط، متجاورة. ازدحم صندوق الرسائل فوق الحائط.. لكن ظلت في صدارته رسائل ريم الورقية القديمة، كلها كتبت على ورق ملون، اعتادت أن تعطره قبل أن ترسله، لا أعرف إن كانت الرائحة لا تزال موجودة، أو أنني أشتمها حين أقرأ الرسائل، لكوني أحفظها جيدا!

١٠

أماكن الجوار/Nearby places

خرجت إلى الشرفة لأتأمل المشهد من أعلى، كوب القهوة الساخن موضوع على المائدة الصغيرة، البخار الخارج منه يتصاعد إلى أعلى متراقصا إلى أن يختفي، اخترت شقتي منذ سنوات لتطل على هذه البقعة، الماء الأزرق يتوسطها، ومن حوله مظلات ملونة تتراص متجاورة لتبدو كإطار لوحة حداثية، وبشر كنقاط صغيرة تتحرك في كل اتجاه، ملعب الكرة الأخضر الزاهي خاليا يمنحني الشعور دائما بأن الربيع لا يفارق هذه البقعة، التي تشكل فيها جزء كبير من حياتي: الأسوار عالية وأنيقة، الأحجار البنية تراصت متجاورة بشكل إبداعي يشير لكون العالم بالداخل قطعة فنية بطريقة ما، والقضبان المعدنية تنتهي برءوس رماح مدببة تمنع المارة من مجرد التفكير في ارتقاء الأسوار. أنا منحاز لبدايات ذلك المكان، عندما كان عبق الباشوية يملأ كل ركن فيه، نادي الصيد المصري، حيث وضعت أساس حياتي.

جلست في إحدى لحظات الفراغ أبحث عن نشأة هذا المكان، وعندما عرفتها أحببته بولع أكبر، مجموعة من الأعيان والنبلاء يلتقون في ساحات رماية موجودة في مصر، تحمل أسماء جذابة لها وقع موسيقي، ميادين تيرو «جار أباديان» في منطقة شبرا البلد وتيرو «روسو» ونادي الجالية السويسرية في مصر القديمة، قرروا إنشاء ناد يجمعهم.

هكذا كانت بداية نادي الصيد، شيء ما في داخلي يشعرني أنني كنت في حياة سابقة أحد هؤلاء السادة الذين بنوه، هذه الفكرة التي

ألصقَتها بعقلي معرفة البوذيين، الروح تغادر لتسكن جسدا آخر في حياة جديدة.. تتنافى هذه العقيدة مع إيماني الخاص، لكنني لا أملك أن أمنع نفسي من الحلم بأن تتحرر روحي ـ التي لم تتغير مطلقا ـ من جسدي الذي غيرته السنون.. وأشياء أخرى لا حصر لها.

اسم النادي لا يعبر عن حقيقته كما رأيته، لم أعرفه ناديا للصيد كما يسمى بالعربية ولا هو نادٍ للرماية كما تفصح الترجمة الخاطئة التي تظهر على زي التدريب (shooting club). لطالما اضطررنا لشرح العلاقة للاعبي الفرق الأجنبية.

الطبقات الخاصة احتاجت لمكان يتسع لهوايتها، ثم صار المكان عالما كاملا فريدا لا يعرفه غير من عاشه، لا تكفي زيارة عابرة لتخبرك عما يدور فيه، ستلاحظ فقط النعمة البادية على كل من يعيشون بداخله، حتى القطط الضالة التي ليست ضالة على الإطلاق، فالكثير منها يحصل على بقايا طعام تكفي أسرة مصرية فقيرة، غالبا ما تكون من اللحوم المشوية الحمراء والبيضاء.

يختلف حال النُّدل وعمال النظافة أيضا خلف هذه الأسوار، تحولوا هم أنفسهم مع طول عشرتهم بهؤلاء البشر إلى طبقة أرستقراطية خاصة، داخل طبقاتهم التي لا تعرف الأرستقراطية، يرتدون ملابس أكثر أناقة من أقرانهم، بعضهم حتى تعلم أن يترك بقشيشا ولو كان بسيطا لصبي عربة الفول التي يبتاع منها في الصباح.. ولأن ذلك الصبي أيضا لم يعتد ذلك، فقد أصبح يلاقيه بابتسامة خاصة تشبه التي يلاقي هو بها سادة النادي.. مع لقب مشابه:

باشا.

لكن المجتمعات المنغلقة لا تصمد أمام مرور الزمن وتغيراته، تتأقلم أو تنقرض كالديناصورات، البشر أيضا كذلك، أنا أيضا

انفتحت للمجتمع الذي أحاط بي ولم أبق على شخصيتي الأولى، في الملاعب كنت أصول وأجول وأسقط وأقف.. اختلف الأمر عندما صرت جزءا من منظومة أكبر، قلت للصحفي خالد فاروق يوما إن ما رأيته وأنا أتابع أحداث الثورة يشبه ما رأيته في الملاعب فدهش، لا أظنني كنت أغالي، اللاعب ثائر مخلص أو محارب شريف، لا يطعن في الظهر ولا يتراجع أو يهادن، أما منظومة الإدارة فليست كذلك، يحكمها قانون آخر، قانون يطحن المقاتل أو يقصيه خارج الملعب ويبقي على الثعالب فقط، أنا تغيرت لكيلا ينقرض كل ما قدمته، لم أصمد لوجود منصور والكيال وحمامة في حياتي، تشربت منهم الكثير، عذري معي فالمكان نفسه أيضا لم يصمد أمام اختراق طبقات جديدة، ثوارت وفورات اخترقت المجتمع من عاليه إلى سافله ثم من سافله إلى عاليه، ظل المكان طبقيا لكنها طبقية بنكهة جديدة، نكهة المال التي تشبه نكهة السكر الخام.. لا تنكر حلاوته لكنك تفضل أن يكون طعمه مخلوطا بمكونات أخرى.. مثل رقي النادي الذي ولى بغير رجعة.

فريدة الوكيل تتطابق مع حكاية المكان؛ شخصية مركبة ومتضاربة، واحدة ممن اقتحموا بواباته بقوة خلف والدها الحاج رجب الوكيل، لا أحد ممن حولها يعرف إن كان الوكيل اسما أم لقبا اكتسبه من توكيلات السيارات الألمانية التي يملكها ويتحكم في سوقها تماما، أو من توكيل الجرارات الزراعية، أو من كليهما، لم يكن الحاج رجب من هواة دخول النادي كثيرا.. كان يشعر بأنه غريب فيه، النادي أيضا كان يشعر بذلك غالبا.

لكن فريدة لم تكن مثله، أمها لم تكن من سلالة الباشوات

لكنها كانت تحمل آثار جدها الذي كان يعلم أبناء الذوات أصول الإتيكيت، اختار لها اسما ملكيا، تخرجت في مدرسة الفرانسيسكان ثم انتقلت إلى الميردي ديو، تعلمت من أمها وأبيها عادات لا تعرفها الكثير من زميلاتها، فريدة كانت متطابقة مع المكان، تلاقيا في نقطة وسطية، ما بين أرستقراطية كان يحملها واختلاط بطبقات كطبقة رجب الوكيل، وبين ما اكتسبته من أبيها ومن دراستها في أرقى مدارس مصر، وذهابها بعد ذلك للجامعة الأمريكية التي تركت عليها بصمة واضحة.

فريدة كانت أكثر شهامة من كل بنات النادي اللاتي في نفس مرحلتها العمرية، أكثرهن صلابة وأقلهن تدليلا، تضحك بصوت عالٍ ليس فيه خلاعة، وتتكلم بصوت جهوري يحافظ على نبرته حين يعلو، ولا يتحول لصوت حاد مزعج كالأخريات، أصبحت أكثر تحررا في ملابسها بعد دخولها إلى الجامعة الأمريكية، لم تتغير ولم «تصاحب» كما كانوا يطلقون على العلاقات العاطفية بين الشباب والفتيات، لكن فكرة التحرر أعجبتها، أمها أيضا أعجبتها الفكرة، أما الأب فقد تردد كثيرا، وإن كان تردده يشير لكونه «دقة قديمة»، لم تغير فيه عضوية نادي الصيد شيئا.

لم تكن فريدة جميلة، لكنها كانت مريحة الملامح، عيناها عسليتان واسعتان وبشرتها تميل إلى السمرة، أنف وشفتان متوسطا الحجم، وملابس تنحصر في التنورات القصيرة أو السراويل، وذراعاها باديان على الدوام.. مع ذلك فهي لا تضع المساحيق ـ أو ألوان الشمع كما كانت تسميها ـ ونادرا ما كانت تترك شعرها الأملس الطويل حرا بل غالبا تجمعه بطرق مختلفة، فريدة صديقة الجميع وليست حبيبة أحد، سنوات طويلة مرت قبل

أن تخبرني بتفاصيل ذلك اليوم الذي تعرفتُ فيه إلى ريهام.. وهي تقول مازحة:

ـ يا بني أنا عارفة كل حاجة عنك، إنت ما تعرفش أنا بنت مين؟

فغمزت بعيني وأنا ابتسم مهددا:

ـ المشكلة إني عارف إنتِ بنت مين.. أقول؟

١١

فريدة ستقوم بحضور مناسبة/

Farida is attending an event

الليل يزحف ببطء، رائحة توتر تشعرني بأن شيئا على غير ما يرام يحدث أو قد يحدث، كنت قد أجريت مكالمة واحدة مع فريدة أطمئن عليها فقالت باختصار:

ـ ما تقلقش.. زي كل مرة.

فريدة كانت معتادة على التظاهرات منذ سنوات، والقماح أيضا، الفارق بينهما أنها كانت تنزل في كل المظاهرات التي تجد لها سببا وجيها، مظاهرات العمال والسياسة والمرأة وفلسطين والأسعار، أما هو فكان يشارك في مظاهرات ذات طابع ديني فحسب.

عادة ما تذهب فريدة إلى المظاهرة، تهتف مع المتظاهرين لعدة ساعات قبل أن يتم تفريقهم بالوقت أو بالماء أو بالقوة، بعدها يذهبون إلى مقهى من مقاهي وسط البلد فيتحاكون عن أحداث اليوم، أخذها الأمن في مرات قليلة لقسم الشرطة، لكنها لم تقض هناك ليلة واحدة، مكالمة تليفونية واحدة من أبيها كانت كفيلة بإخراجها، ثم تتبعها مشاجرة كبيرة معه..قبل أن يواصل كل منهما طريقه.

حاولت الاتصال بها مرة أخرى لكن هاتفها كان مغلقا، بدوي كان يتنقل بين محطات التلفزيون واحدة تلو الأخرى، راقصة تتلوى في فيلم عربي قديم، وحلقة مسجلة من برنامج مقالب رمضانية مستهلك يتم الاتفاق مع أبطاله، وأغان وطنية فقدت معناها منذ زمن، حاولت أن أفتح أبواب الحديث، سألته عن توقعاته لما سيجري فلم يبد اهتماما كبيرا، كان يرى أنه من المستحيل أن يتغير أي شيء، النظام أقوى من الجميع، قال لي جملة قصيرة لن أنساها ما حييت:

ـ الناس عايشة..

بدوي المحلل السياسي الذي سبق الأحداث، كان ما يقوله دقيقا للغاية، الثورات تأتي قوية وكاملة عندما يكون الشعب أفقر أو أغنى من ذلك، عندما تملك ما يكفيك لتثور صابرا أو لا تملك ما تخاف عليه على الإطلاق، أما أن تثور وأنت تنظر في ساعتك لأنك تريد أن تعود إلى مصالحك.. فيبدو ذلك مضحكا بلا شك.

أنا أيضا لم أكن أتوقع أن يحدث أي شيء، الأمر تضخم قليلا بسبب التواصل الاجتماعي الإلكتروني، لكنه لن يتجاوز مجرد ضوضاء معتادة، خرجت إلى الشرفة لأتأمل ما يدور في الخارج، الشارع هادئ تماما والنادي مزدحم عن آخره، بشر يبدون لي كنمل صغير يتحركون بألوان زاهية يغلب عليها اللون الأحمر، لا يمكن أن يكون هناك شيء ما يحدث على بعد كيلومترات قليلة من هذا المكان، لكن القاهرة مدينة الجزر، شارع واحد قد يفصل بين أرقى أحيائها وأفقرها، وفرع صغير من النهر قد يفصل بين جزيرة السعادة وجزيرة الجحيم، رفعت وجهي إلى السماء كما لو كنت

أبحث فيها عن خبر، كان هناك نصف قمر، تحيطه غيوم الشتاء بكثافة من جميع الجهات.

عدت إلى الداخل مرة أخرى شاعرا بالبرد، تحركت بالكرسي في اتجاه الحائط، وضعت صورة فريدة في مقدمة الصور، صورة لها أثناء مظاهرة قديمة في محافظة إقليمية، ثم بدأت في الثرثرة، كنت أحكي كالمعتاد شيئا من أمجادي وتواريخ بطولات مررت بها، أخذت أعدد لبدوي المرات التي فاز فيها لاعب كانت كل المؤشرات تشير إلى أنه الأضعف.. بدوي كان يحاول الإنصات لكنه هو أيضا كان يعود ليعبث في الريموت بحثا عن قنوات أخرى.. قاطعني فجأة وقد بدا لي أنه فهم ما أحاول إيصاله له:

- يا كابتن.. مفيش حاجة هتحصل.. الحكومة ما بتلعبش معانا.

ثم ضحك في أسى وخرج إلى الشرفة هو أيضا!

انطلق رنين المحمول برنته التقليدية، جرس كصوت تليفون أرضي معتاد منذ الثمانينيات، تراقص اسم فريدة أمامي فأجبت على الفور، بدا صوتها مجهدا وخائفا ومنفعلا في آن واحد:

- عمر.. أنا بخير..الحكاية بتكبر والناس بتيجي من كل حتة، أول مرة العدد يزيد كده..

ثم انقطع الاتصال، حاولت الاتصال مرة أخرى فجاءني الصوت البارد: الهاتف خارج نطاق الخدمة.

رمقني بدوي منتظرا تفسيرا لما ارتسم على وجهي.. تحركت ببطء في اتجاه الحائط، وعند خانة المناسبات كتبت بيدي المرتعشة: ثورة!

١٢

صندوق الرسائل/Inbox

ريم

«لماذا طلبت مني رسالة جديدة، ولماذا لم أستطع المقاومة، ربما لأنني منذ سنوات أمسك بدفاتر مذكراتي وأفكر في أن إرسال ما كتبته إليك على مر الأعوام، أو أرسله لنفسي لأذكرها كم تعذبت معك، ثم أقول إنه لم تعد هناك فائدة من إرسالها الآن، كما لم تكن هناك فائدة في حينه، لكنني سأفعل طالما أنك أنت من يريد ذلك، فقد تعودت أن أفعل ما تريد، لن تجد عليها تاريخا لكنك وحدك من سيعرف متى كتبت، لا أستطيع أن أصف قدر انفعالي بينما أكتب هذه السطور، نفس الانفعال القديم، وأنت أيضا ستحمل نفس انفعالك القديم، في الغالب.. لا شيء!

لماذا يقولون إن الحب الأول مجرد قصة مراهقة تتلاشى بمرور الأيام؟ الأحلام الوردية فقط هي ما ينتهي بمعرفة الحقيقة، أما الحب.. فلا أظن، صوتك وحركاتك ورائحة معطر الجسد التي تشبه دفقة من شلال أزرق يغمرني بالكامل حين أقترب منك، أحاول أن أنهل منه قدر ما أستطيع، مع كل نفس عميق آخذه خلسة كلما ضاقت المسافة، اتسعت المسافة وصارت أطول من أن تقاس بالأمتار، بل تقاس بما يزيد على عشرين عاما وشاب وامرأة فازا بك، ورجل جدير بالاحترام وابنتين في حياتي أنا. مع ذلك لا يزال الشلال يغمرني دون اقتراب، لي طقوس خاصة على الجميع أن يحترمها بغير فهم، لماذا أشرد كثيرا وأحتفظ بعبوات من عطر رجالي وسط ملابسي، وأصبحت فجأة أمتلك دفترا كبيرا من الصفحات العلمية التي استخرجتها عن مرض بعينه من مواقع الإنترنت. ليس

لأحد أن يحاسب امرأة على مشاعرها وحنينها، ولا حتى رغباتها، لهم أن يحاسبوها على ما تفعل فحسب، فالله لا يحاسب البشر على ما تُكن صدورهم.

لم تكن مراهقتي وبدايات شبابي كما يصف أصحاب الصدور الصخرية هذه المرحلة، لم أكن حمقاء.. كنت أحبك بصدق، ما يزيد على عشرين عاما تشهد على استمراري في حبك، أتساءل: هل لو كنا تزوجنا كنت سأجعلك أكثر سعادة؟ إجابتي بالتأكيد هي نعم، لكنك لم تستحق.

أنا واثقة من أن غرورك يصور لك أنني لازلت أحبك. إطلاقا! لا أستطيع أن أمنع نفسي من الاعتراف من آن لآخر أنني أحمل في صدري تجاهك مشاعر متضاربة، ما أميزه جيدا منها هو أني أكرهك، كيف لا أكره رجلا تركني بسهولةٍ وأنا أريده، بينما يزعم بأنه يريدني بالمثل؟!

كان من السهل في آخر مرة أحتفل فيها بعيد ميلادك، أن أهبط في المصعد.. لكنني لم أفعل، قررت أن أغادر بنزول السلم، تسعة أدوار نزلتها أمامك.. وضعت يدي بوضوح على الإفريز لكي تراها من أعلى وتحدد مكاني.. تثاقلت خطواتي لكي تسمعها، وتباطأت في الأدوار الأولى كي أعطيك الفرصة، كان قلبي يدق وعيناي تدمعان بينما أهمس.. نادِني.. انطق باسمي فقط وسأعود إليك على الفور.. سأقف معك في كل ما تريد، سأحارب معك، تريدني أن أهرب معك بعيدا؟ لا بأس.. تريديني أن أتزوج منك دون أي مساعدة من أسرتك لنبدأ من تحت الصفر؟ أنا معك.. نرحل بعيدا؟ أرحل! فقط نادِني وسأكون ملكا لك للأبد.

تسعة طوابق.. في آخر طابقين عددت الدرج وأنا أبكي في يأس، عشرون درجة تفصل بين كل دور وآخر، أنا أخذت ما يقرب من مائة وثمانين درجة إلى أسفل منتظرة منك نداء واحدا لم يبرح حنجرتك.

ثم ركبت المصعد، واتجهت إليك مرة أخرى فلم أجدك، كنت سأقول أي شيء يخطر بذهني كي أمنحك فرصة إضافية، لكنني لم أجدك من الأساس».

١٣

بدوي قام بمشاركة صورة/ Badawy shared a photo

جندي أمن مركزي يقف مرتديا خوذته بثبات، في مواجهته شاب في بداية العشرينيات، كلاهما يحدق في الآخر، عينا الشاب مليئتان بالحزم والإصرار، وعينا المجند بالإرهاق.

يزعم البعض ساخرًا أن الاختيار الأمثل لبعض المهام يستلزم طريقة فريدة من نوعها، يقف المسئول ويطلب ممن يجيدون القراءة والكتابة الوقوف جهة اليمين، وممن لا يعرفونها الوقوف جهة اليسار، ثم يتم اختيار من لا يتحرك يمينا أو يسارا؛ فهو لن يتحرك مختارًا.. بل بالأمر!

أعجبتني الفكرة بتعديل بسيط، بعد أن رأيت تناحر الفصائل في مصر بعد الثورة، كل يكتب ما يؤيد موقفه ويتجاهل أي شيء آخر، لو أصبحت يوما صاحب قرار سياسي لجمعت الشعب بأكمله في الصحراء، وطلبت من المؤيدين لفصيل ما ـ أي فصيل ـ على طول الخط أن يتحركوا إلى اليمين، ومن المعارضين من أجل المعارضة أن يتحركوا نحو اليسار.. ولتركتهم جميعا في الصحراء وعدت

فقط بمن يقفون بتردد في المنتصف، هؤلاء الذين ينتظرون الأفعال من أجل الحكم على الأمور، هؤلاء الذين طحنوا مبكرا تحت أقدام فصائل المشجعين والمؤيدين والمحبين والمخلصين، ولم يرحمهم أحد في جميع المراحل لأنهم كانوا يبحثون عن الأفضل.

عندما انقلب بي الكرسي إثر اصطدامي بشاب ضخم يجري، وطأتني عدة أقدام خائفة، غطيت رأسي بيدي لأحميها منتظرا قدري، مرت برهة طويلة كلما فتحت فيها عيني وجدت الدخان يحرقها، فأغلقها على نار تتزايد في نسيجها، أمسكت بي ذراع قوية ورفعتني عن الأرض، وقف خلفي كحائط منيع يحميني من الساعين للابتعاد عن الجحيم، حملني ووضعني فوق الكرسي الذي انبعج كثيرًا، لكنه لا زال يتحرك، دفعني أمامه مبتعدا، كنت مستسلما تماما وعيناي مغمضتين تدمعان بغزارة بسبب الغازات، لم أعرف أي اتجاه حتى وجدته يدخل بي لمكان ما، ويميل على أذني هامسا بلهجة قروية:

ـ ما تخرجش من هنا لغاية ما الدنيا تهدا.. ربنا يسترها عليك..

ثم أردف متنهدا بقلق:

ـ وعلينا..

كانت الرؤية قد بدأت تعود إليَّ ببطء، فتحت عيني فرأيته لأول مرة، اندهشت كثيرا عندما أدركت أن وراء ذراعيه القويتين بنية تبدو أضعف من حقيقتها، كان نحيلا متوسط القامة يميل إلى القصر، أعادني ما يرتديه لفترة من حياتي كنت أعشقها؛ يشبه ما أطلقت عليه ذات يوم «يونيفورم السعداوية»؛ فانلة قطنية ممزقة ومصفرة، وسروال أبيض داخلي كالذي يرتديه الرجال في الشتاء، في حضنه كومة من الملابس الداكنة يحملها بحرص، أدرت رأسي من حولي لأكتشف أنني في

مسجد مليء بالجرحى والمصابين، وشباب يتحركون فيما بينهم يرتدون معاطف بيضاء، اقترب أحدهم مني وبدأ في علاج جروحي بلطف، ابتسم منقذي وهو يرفع يده إلى رأسه محييا ويتحرك متعجلا:

ـ سلامو عليكم..

أدركت أنه يريد أن يعود سريعا لأرض المعركة، كنت أظنه حتى هذه اللحظة من الثوار، لكن قطعة صغيرة سوداء سقطت من الكومة التي كان يحملها، عرفتها على الفور، كان «بيريه» أسود صغير يزينه شريط أحمر، انحنى ليلتقطه في هلع وأخفاه سريعا دون أن يلتفت.. تابعته بعيني حتى اختفى على جانب الباب للحظات، ثم رأيته جنديا بملابس كاملة يتجه جريا إلى حيث يقف رفاقه. همست:

ـ عليكم السلام.. شكرا.

أنا على يقين بأن ذلك الشاب لم ينتظر الأوامر، بل قرر من نفسه أن يخلع ملابسه ليدخل وسط الثوار حين رآني أسقط، وأدرك أني لن أقوم بمفردي، مثله مثل طالب الطب المتطوع الذي عالجني ثم دفعني على الكرسي كيلومترات طويلة حتى وجدنا سيارة وحيدة تكمل معنا المشوار، بين أول مرة رأيت فيها بيريه الأمن المركزي وتلك المرة مسافة طويلة، كما وكيفا.

أول بطولة للرجال كانت بدايتي للبحث عن طريقي في كل مكان، كنت لا أزال ناشئا تجاسر على المشاركة وسط الكبار، لكن الحماس لم يكن كافيا، دخلت إلى غرفة خلع الملابس وجلست على دكة خشبية، غطيت رأسي ووجهي بمنشفة كبيرة وظللت أبكي وحيدًا. كنت أشعر بالعجز والإحباط.. ضربني بقسوة ذلك الشاب، الذي أنهى البطولة ثم ارتدى الملابس الميري ليعود إلى المعسكر ممنيا نفسه بإجازة تكافئ فوزه، شعبان مجند في الأمن المركزي،

كان يفوقني في العمر والضخامة..لكني عندما رأيت حركاته أثناء الإحماء تصورت أنني سأتغلب عليه بيسر. كان بلا مهارات ولا عقل.. رغم ذلك تغلب عليَّ بسهولة.. شعرت أثناء المباراة أنني أتصارع مع عمود خرساني في هيئة بشرية، ضرباتي تؤلمني أنا ولا تؤلمه..وكل ضربة منه ترجني رجا.. لم أبك من هزيمتي، بل من العجز.

دخل عليَّ الكابتن هاني هادئا، رفع عن رأسي المنشفة ونظر إليَّ صامتا للحظات ثم قال وهو يمط شفتيه بلا مبالاة:

ـ كده إنت دخلت في الجد.. مبروك.

أجبته بحدة بينما أحاول إخفاء ما تبقى من دموعي:

ـ وبطولات الناشئين.. مكانتش جد؟

أشاح بيده وهو يقول:

ـ لا طبعا.. كانت لعب عيال..

غرقت في الصمت.. كنت بالفعل أشعر بما قاله.. كانت المباراة بين رجل متوحش وطفل صغير ضعيف..

ـ يعني إيه؟ أبطّل؟

ـ إنت طري يا عمر.. محتاج تتمرن مع ناس تانية.. بعيد عن نادي الصيد وريم وحتى حازم، ساحة شعبية أو نادٍ صغير، أو.. سكت للحظات فتعلقت عيني بوجهه..ضاقت عيناه وهو يقول:

ـ أهلك ممكن يوافقوا إنك تروح تتمرن شهر خارج القاهرة ؟

ـ فين؟

ـ في الأرياف.. فيه كام مدرب كويس هناك أنا أعرفهم كويس.. بني مزار في المنيا ومطوبس كفر الشيخ.. والسعداوية أسيوط..

أجبته على الفور:

ـ أنا من أسيوط، بس مستحيل أقعد فيها شهر في الصيف!!
ثم أردفت:
ـ ولا في الشتا.

١٤

استعراض الصداقة/Friendship review

زار بدوي حياتي فجأة، كان ضيفا خفيفا، ترك وراءه وريثا لا هو من رائحته ولا بنكهته، بل بنكهة ثيران السواقي، كانت حالتي تتدهور بتدرج سريع، حاجتي إلى المساعدة تتزايد، بحثت في كل مكان، لا يوجد في مصر محترفون لمساعدة من هم في مثل حالتي، يوجد حمالون ويوجد خدم ويوجد محتالون، كرهت البشر والوطن في لحظات عجزي، حتى آخر لحظة في مشروع هجرتي لأستراليا كنت أشعر أن بيني وبين مصر حبًّا يجعلني أتردد ألف مرة، يكسر الاحتياج حب الوطن ويجعل بيننا وبينه مرارة، كل ما كنت أحتاجه عقلا يستوعب وذراعا مدربة، يحملني دون أن يجذبني ويضعني على الكرسي دون أن يرميني، يعرف كيف ومتى يمسك بي ومتى يتركني أحاول، لا شيء يهين أكثر من أن تشعر أن هؤلاء الأجلاف يتعاملون معك كأنك جسد ذبيحة خلت من الروح وجاء وقت تحريكها من مكان لآخر، ولا شيء يقتل مثل شعورك بالعجز بين يديه وهو يؤلمك بضغطة في غير موضعها، فلا تملك سوى صوتك لتنبهه أو تنهره، أو حتى ترجوه.

بدوي لم يكن كذلك، جاءني بترشيح من أحد المعارف، شاب جميل في بداية عشرينياته، مصري تماما؛ بشرة قمحية وعيون عسلية وشعر قصير مموج، متوسط القامة والبنية، كان ذراعي معلقًا إلى

رقبتي بعد أن خلعه مساعدي السابق بينما يساعدني على النهوض من جلسة المرحاض، طرده أبي في نفس اليوم وتفرغ لي مع أمي بجسديهما المكدودين حتى يأتي البديل، لأول مرة في حياتي أشعر بخوف من خصمي، كان الألم الذي سببه لي الغبي الأخير يخيفني من أي قادم، أتوا لي بسيدة ضخمة كانت تعمل في مستشفى حكومي، أعلنت بثقة عن خبرتها في حمل وتحريك المرضى، قبلتها على مضض رأفة بوالدَيّ، كانت تحركني بطريقة فريدة، ترفعني من أسفل إبطي وتحتضنني كالمصارعين لتضعني حيث أريد، لم أملك الاعتراض فقد كان ذلك أفضل ما تستطيع عمله امرأة، في المساء أصبت بحالة من القيء العنيف، لا أعرف إلى الآن أكانت عضوية أم نفسية، جلست أمي تمسح رأسي في أسى وتسألني عما حدث، حاولت أن أتجاهل الأمر وأعطي نفسي فرصة جديدة، ولكن أمي ألحت.. أجبتها بصوت خافت بينما أذوب خجلا أنها تحتضنني: «وريحتها وحشة قوي»!

عقل واع وذراع مدرب ورائحة طيبة؛ كان هذا كل ما أنشد، بدوي لم يكن كاملا لكنه ـ على الأقل ـ كان صادقا مع نفسه، صارحني من البداية بأنه مجرد شاب تخرج حديثا في كلية الزراعة، وأنه لا يملك أي خبرة في عمل كهذا، بدت عليَّ خيبة الأمل فأخرج من جيبه ورقة متوسطة الحجم وبدأ يحكي لي قائمة بطولاتي وإنجازاتي وتاريخي كاملًا.. ثم أردف:

ـ إمبارح ماكنتش أعرف مين هو عمر الخياط.. النهاردة عرفت كل حاجة.. ساعدني أنت بس.

كسب الجولة على الفور وبفارق كبير من النقاط، سألني باستفاضة عن كل شيء، ما أحبه وما أكرهه، الأجزاء التي تؤلمني،

أوضاع الحركة، وكتب قائمة بطلبات الظرف الخاص الأكبر.. والتي تلخصت في أن يدير رأسه وهو يساعدني على خلع ملابسي في الحمام، وأن زي الاستحمام الدائم بالنسبة لي هو «مايوه» السباحة.

ألمّ بدوي بكل شيء يخص حالتي خلال يومين، وبكل ما يخصني بشكل عام خلال أسبوع، كان يتعامل معي بتقدير لبطل لا بشفقة على مريض، لم يتدخل في أي من عاداتي ولم يسألني يوما عن كوب القهوة الزجاجي الشفاف الذي أطلبه في أوقات مختلفة من اليوم وأضعه أمامي إلى أن تبرد دون أن أشربها ثم أطلب المزيد بعد قليل. أعاد افتتاح مكتبتي وأضاف إليها كتبا جديدة، يقرأ لي ومعي ويحكي لي كل شيء، كان يقف أمامي في بداية كل يوم ليحدثني عن الجديد، يقرأ لي الأخبار والحكايات الموجودة في حسابه، يريني فيديوهات جديدة تسربت.. باختصار.. بدوي كان يريد أن يعيدني إلى الحياة مرة أخرى، ولم يسمح حتى لتدهور حالتي بإيقافه.

فريدة الوكيل أيضا أحبته، بهرها الحائط الذي صممه لأجلي وطلبت منه أن يساعدها في صنع حائط مشابه في بيتها، فرفض، قال لي إنني الوحيد الذي يستحق المجهود الذي بذله ليعد لي ذلك الحساب الحائطي الكبير، أضاف أنه لن يكررها لغيري.. لأنني أستحق.. وحالتي تستحق.. وما يوجد في حسابي يستحق!

تغيرت حياتي تماما بظهور بدوي؛ ملأها، كان يفتح لي مجالا لرؤية العالم مرة أخرى، اندهشت كثيرا عندما تطابقت رؤيته وتعليقاته تدريجيا مع فريدة الوكيل، رغم أنه كان أقل شجاعة منها، شعرت وقتها أن الثورة قادمة لا محالة.. فابنة الملياردير غاضبة، وابن العامل محبط.. وأنا بينهما أشعر بأن مصر صارت مريضة

مثلي، وتحتاج لمن يرعاها، لكنني لم أعرف إن كان الأفضل سيأتي أم أن الأيدي ستتناقلها كما يحدث معي، دون أن أجد ما أريد.

ما الذي كان يجمع بيننا؟ لا ثقافة مشتركة ولا فكر ولا مرحلة عمرية.. لا شيء، كيف إذًا صرنا على نغمة واحدة؟ عندما صرت أنا أيضا مثلهما أدركت أن الشيء الذي يجمعنا هو الحساب الأزرق.. الفيضان الذي سحب الجميع وجعلهم يرون كل شيء.. وكان حتمًا لمن رأى.. أن يغضب!

١٥

صندوق الرسائل/Inbox

ريم

«فريدة تزوجت أخيرا وهاجرت، أفسحت مساحة في حياتك فأرسلت تطلب مني أن أعود.. ولو في صندوق الرسائل، كنت على حق عندما كرهتها، فريدة التي كانت صديقتك، ثم أسلمتك لريهام وابتعدت، داعمة الثورة التي هاجرت بعيدا حين ساءت الأمور..

هي أيضا كانت تكرهني، أو بالأحرى كانت تستكثرك عليّ، لهذا اختارت لك ريهام، رأيتها عشرات المرات تحاول أن ترتب لقاءات تجمعك بفتيات أخريات، رغم علمها بأني أحبك، وأنك كنت موشكًا أن تحبني، أنا أعرف الأنثى جيدا، ولابد أنني الآن وبعد أن تخطيت الأربعين أعرفها بدرجة أكبر.

فريدة كانت تحبك، حتى وإن لم تصرح بذلك أبدا، تفرط في التأكيد على كونها لا تحمل تجاهك غير مشاعر الأخوة والصداقة، وبعض الكلام الفارغ الآخر الذي لا أعرف معناه عندما يتعلق الأمر برجل مناسب. ما معنى أن يكون رجلا وسيما وجذابا أرتاح إليه

وأحمل أسراره وأبحث عنه وقت الضيق واستمتع بوقتي معه.. لكني لا أحبه! هو مجرد أخ... إذا وجدت كل هذه الصفات في شخص واحد فلا بد أن أرغب في قضاء بقية عمري معه.. وأن يجمعنا ـ استكمالا للمتعة والتقارب ـ سرير واحد.

قلت لها يوما بسخرية:

ـ عمر مش أخوكي يا فريدة.. إنتِ بتحبيه..

فقالت بلهجة الجامعة الأمريكية:

We're like brother and sister

ـ يا شيخة ما تقوليش كده.. إنتِ هتموتي عليه!

وجمت فريدة تماما.. احتاجت وقتا غير قصير لتستجمع شتات فكرها قبل أن تقول بغضب:

ـ إنتِ مش هتفهمي الكلام ده..

ـ طيب بطلي بقى كل يوم تقعّديه مع واحدة شكل.. سيبينا في حالنا..

ـ إنتِ متخلفة.

ابنة رجب الوكيل تقول إنني متخلفة، لأني أدركت ما كانت تسعى إليه، ونجحت فيه في النهاية، كانت ترى نفسها أقل منك بكثير، لذلك أرادت أن تؤكد نظريتها، لا بد أن يرتبط عمر الخياط العالمي بواحدة تجعل فريدة تردد لنفسها بثقة ـ حين تتأمل اختيارك كل ليلة ـ كم كنتَ مستحيلًا.. ريهام كانت تحقق في نظرها هذا النموذج؛ أجمل كثيرا مني ومنها، ابنة معالي السفير أبا عن جد، كل شيء فيها يختلف عني وعن فريدة، مشكلتها معي أني لم أكن متفوقة عليها، لا يوجد وصف خارق يمكن أن تضعه قبل اسمي.. أنا كل شيء معتاد في هذا العالم، الشعر أسود متوسط النعومة،

اللون قمحي والعيون بنية والطول يقترب من مائة وستين سنتيمتر، أنا فتاة جميلة معتادة من أسرة محترمة معتادة وأسكن في شقة معتادة داخل منطقة معتادة، حتى دراستي كانت في أكثر كلية اعتيادية في مصر آنذاك: التجارة..

كرهت مثيلات فريدة قبل أن أراها وبعد أن رأيتها. شعرت أنها كذبة كبيرة بين الحقائق التي أفهمها، تتكلم وتمشي وتمزح كالرجال، تتعمد لم شعرها وحشر السباب بين مفرداتها. الرجال الشرقيون يحبون هذا النوع كثيرا، حيث يتيح علاقة مستدامة مع أنثى بلا متطلبات طويلة الأمد.. كما تصلح كوسيط بين الرجال وبين إناث حقيقيات.. تمنيت كثيرا وأنا أسمعك تصفها بأنها «واحد صاحبك» أن أقوم لأمزق ملابسها وأفك ربطة شعرها وأضعها أمامك على المائدة عارية تماما، في تلك اللحظة فقط كانت الحقائق ستعرف. هل ستظل تراها ذكرا، أم ستجذبها من خصرها وتمنحها قبلة ساخنة، فأجذبها من شعرها وأقول:

ـ مش كده أحسن ولا إيه؟

فريدة كانت تخفي الحقائق وتغالط الواقع، إنها أنثى.. اختارت الانسحاب من المعركة لضعف إمكاناتها، وقررت أن تكتفي بدور الممثل المساعد، رغم ذلك كانت تتدخل بشكل سافر في اختيار البطلة، وحصرتني أنا في دور الكومبارس، فريدة دمرت حياتي، كان من الممكن أن تكون صديقة أكثر إخلاصا لك وتقول لك ما كانت تعرفه جيدا:

ـ ريم بتحبك يا عمر.. وأنسبلك من أي حد تاني.

لكنها لم تفعل.. بفضولها الذي لا ينتهي.. كانت أكثر من يقاطع جلساتنا، حتى قطعت علينا الحياة بالكامل، في اليوم الذي دفعت فيه بريهام.

كنت هناك، على بعد أمتار منك. رأيتك، ابتسمت بسعادة اعتدت دائما أن تولدها رؤيتك في قلبي، اقتربت منك خطوة واحدة، مررت على بعد خطوات مني دون أن تلحظني، لم تشعر بوجودي بينما كنت أنا أشعر بك من مسافة كيلومترات..

راقبتك تقف بينهما مبتسما ثم تسحب كرسيا وتجلس.. وحينما رأيت كيف نظرَت إليك ريهام ذلك اليوم، وكيف نظرتَ إليها بينما تتحركان صوب سيارتها، شعرت بنبضة مؤلمة تنحشر بين نبضات قلبي، وبأنفاسي تضطرب حتى أوشكت على الاختناق.. فقد أدركت كيف تتعرض علاقتنا لخطر حقيقي.. وكنت محقة».

١٦

أماكن / Places

أسيوط ١٩٨٢

يزيد الصيف من قسوته، كلما اخترقه القطار صوب الجنوب، عربات القطار متهالكة، مكيف الهواء في العربة معطل أو غير موجود، أنادي على المحصل فيؤكد أنه يعمل لكنه ضعيف، بداية خانقة بلا شك.

نزلت من القطار لأجد المستشار كامل ينتظرني، ابن عم والدي، يكبره بعشر سنوات، ويقيم مع زوجته في بيت الأسرة الذي هجرته أجيال متتالية بما في ذلك أولاده لتستقر في القاهرة، هو أيضا تنقل كثيرا بين المحافظات إبان عمله كقاض، ثم استقر في النهاية عند نقطة البداية، استقبلني بعناق دافئ وقور:

ـ يا سيدي نشكر اللعبة بتاعتك دي على أنها خلتك تيجي تزورنا.. قلتلي اسمها إيه؟..

ـ تايكوندو.

حاول أن يكررها فخرجت منه كلمة مضحكة غير مفهومة، فلم أعقب، أسلمني إلى سائق سيارته واعتذر بأنه متجه إلى القاهرة، عرفت من السائق أن السعداوية شرق هي قرية صغيرة مجاورة، طلبت منه أن يأخذني إليها أولا.. اقترح أن أذهب إلى المنزل أولا لأستريح قليلا، لكني كنت مشتاقا لرؤية ملعب التدريب.

قرى الصعيد متباينة مثل شوارع القاهرة ومتضادة أحيانا، بيت أسرة أبي كان بناية من أربعة طوابق، الأول والثاني مقر إقامة أقاربي ويشبهان فيلا قاهرية أنيقة تحمل مسحة ريفية، أما الطابقان الآخران فمقسمان إلى شقق منفصلة تنتظر أصحابها، الذين لا يستهويهم المكان حتى في الإجازات، حوله منطقة غير ممهدة وإن كانت نظيفة، وفي الخلفية حقول خضراء تشبه ما علِق بعقلي من بقايا ذكريات الطفولة، والمشاهد التلفزيونية. القرية التي قصدتها لم تكن بعيدة مطلقا، خمس عشرة دقيقة بسيارة تراقصت فوق الصخور والحفر المترامية على الطريق.

أخبرني السائق أن السعداوية شرق واحدة من القرى المتوسطة، حولها قرى تميل إلى الثراء يقطنها تجار ورجال أعمال كقريتنا، وقرى غارقة في الفقر تفتقر لأبسط خدمات يحتاجها البشر لاستمرار الحياة، المشاهد من حولي كانت تعبر عن الحقيقة، غنيا كنت أم فقيرا فسمة الحياة هناك هي الخشونة، كما قال مدربي في القاهرة، احتاج السائق للسؤال عدة مرات وسط الشوارع الترابية الضيقة إلى أن وجدنا من يدلنا، البيوت هناك مختلفة، قوامها دور واحد ومبنية بطوب حجري أبيض، تظهر بعض السيارات القديمة أمام البيوت من آن لآخر، لتؤكد أن المدنية موجودة بشكلها القبيح،

رغم أن الصورة بدت مختلفة تماما عما تصورت، لم أر مساحات خضراء في الجزء الذي مررت به، بل بدا لي كبيوت حفرها أهلها بأيديهم بين الصخور.

وصلنا إلى أطراف القرية من الجهة الأخرى بعد اتباع توجيهات متضاربة، أكدت أن تعامل أهل القرية محدود مع المكان، انفرجت أسارير السائق فجأة وهو يشير إلى اللافتة السوداء الخشبية المكتوبة بطلاء أبيض سالت أطرافه، وبخط رديء للغاية، تحمل وصفًا مقتضبًا للمكان: «مركز الشباب».

لاحقا، عرفت أن المكان لم يحصل على اسم لأنه يخدم عدة قرى متجاورة، أراد كل مستفيد من رجال السياسة أن ينسبه لقريته، فوقعت خلافات كادت تتطور للحد المعتاد في الصعيد،عنصرية العائلات والقرى والسياسة، انتهى الأمر بمركز الشباب بلا اسم وبلا تطوير.. والسبب أنه كما وصفوه جميعا «مالوش صاحب».

نزلت من السيارة ووقفت مندهشا، المكان أسوأ مما توقعت، لافتة بلا سور وأرض ترابية شاسعة، الجزء الممهد منها لا تزيد مساحته على ملعب صغير لكرة القدم، باقي المساحة بالكامل مليئة بصخور متباينة الحجم أصغرها في حجم كرة القدم التي نعرفها، ومدببة الأطراف ككرة قدم أمريكية!

على طرفي الجزء الممهد، يوجد زوجان من القوائم الخشبية لا تعلوها عوارض، أدركت أنهما المرميان، لا يوجد لاعبون، درجة الحرارة تخطت الأربعين، الشمس تبدو أكثر قسوة مما عرفته في القاهرة، وثمة غرفة من الخوص وجدت بداخلها رجلا نائما يرتدي زيا رياضيا بدا مضحكا، السترة حمراء والبنطلون أزرق لامع، وفي قدميه اللتين مدهما فوق برميل حذاء قماشي كان أبيض في زمن ما،

يعرفه من هم في عمري باسم «الجزمة الباتا»، لأنه كان حذاء مصر الرياضي الأول.

فتح الرجل عينيه متثاقلا وأنا أسأله:

ـ هو ده مركز الشباب؟

أجابني بهزة من رأسه.. توقعت النفي حين سألته:

ـ هو فيه هنا فريق تايكوندو ؟

اتسعت عيناه وانفرجت أساريره وهو يقوم مرحبا:

ـ عمر الخياط؟

سالته باستنكار:

ـ هو الكابتن شربيني بلغكم؟

ـ أنا الكابتن شربيني.. مرحبا..

ثم ضمني بحرارة مماثلة لحرارة سيادة المستشار في اللقاء، كل شيء هناك كان حارا: اللقاء، المحبة، الغضب. لا شك عندي في أن المناخ يؤثرفي طباع البشر، فكل ما رأيته هناك رأيت عكسه بعد ذلك في رحلاتي لأوروبا، حيث الثلج يغطي الشوارع والنفوس أحيانا.

وقفت أنظر إليه في شك، مراجعا صورة المدرب في عقلي، لم ينتظر كثيرا، أشار إلى حجر كبير لأجلس عليه، ثم عاجلني بعشرات الأسئلة عن نظامي التدريبي وما أحب وما لا أحب، كانت سعادته بوجودي جلية، لا بد أن تفر من الشمس التي ستأتي حارقة بلا رحمة والليل الذي سيأتي كاحلا بلا ضوء كاف، حتى في الليالي القمرية، هذا ما يحدد مواعيد التدريب التي لا تخضع للساعة بل تنسب إلى مواقيت الصلاة:

ـ بعد الفجر وبعد العصر!

ـ هنتمرن هنا ؟

ابتسم وهو يشير بيده:

ـ وهنا وهناك..

تبعت عيناي إشارة يده فوجدتها تشير لجبل تختلط فيه الرمال بالصخور.. فتصنعت الابتسام بينما أتساءل عما فعلته بنفسي.

على مائدة الغداء الضخمة تعرفت إلى حياة قريبي وزوجته، نزح أبناؤه إلى القاهرة، يزورون الصعيد من آن لآخر، بدا مرحبا بينما بدت زوجته غاضبة ولسان حالها يقول: أنت هنا من أجل مصلحتك.. كجميع القاهريين!

لم أتعامل معهما كثيرا لانشغالي بالتدريب وانشغال عمي بمتابعة أرضه، لا سيما بعد أن شعرت بشيء من السخرية والاستنكار لنوع المهمة التي أتت بي إلى هنا، لم تكن إشكاليتهم في اهتمامي بالرياضة، بل بسبب قناعتهم بأني ساذج، تركت العالم الواسع والرحب لأتدرب في بقعة تخلفت عن العالم، قالها لي صريحة ذات مرة:

ـ المدرب بتاعك راجل مغفل، هو فيه هنا مدارس ولا تعليم علشان يبقى فيه رياضة!

كان عمي كامل عضو مجلس الشعب عن هذه الدائرة، مع ذلك لم يكن يعرف أن فريقًا رياضيًّا ناجحًا يقع على بعد كيلومترات منه، رشحه مدرب قاهري كمقر لتدريب أفضل لاعبيه، لم يحاول حتى التأكد بعدما أخبرته، اكتفى بقناعته بأنني ومدربي حمقاوان فحسب، وفهمت بعدما عرفت رأيه في ممارستي الرياضة هناك، لماذا بدا لي مركز الشباب مطابقًا للمقابر الشرعية التي مررنا بها في رحلة العودة لبيت العائلة.

١٧

صندوق الرسائل / Inbox

ريـم

«دخلت إلى غرفتي وأغلقت بابها بهدوء، ألقيت جسدي على السرير وزرعت وجهي في الوسادة وسقيتها بفيض من الدموع، كنت أحاول التنفس من آن لآخر بعمق لأني كنت أشعر أن هواء صدري سينتهي رويدًا رويدًا برحيلك، لم أفهم كيف يمكن أن أحتمل غيابك عني لشهرين كاملين، وأدركت أنني لن أستطيع مواصلة حياتي إذا غبت عنها إلى الأبد.

نقلتَ لي ولجميع أعضاء الفريق الخبر بفخر:

ـ أنا مسافر أتدرب في الصعيد!

لم أفهم حاجتك للتدريب هناك، القاهرة أفضل بالتأكيد، ولم أفهم ألم تكن تعرف أنني أحبك أم كنت تتظاهر بذلك؟! لكنني منذ أول يوم وحتى اللقاء الأخير الذي قررت فيه أن ينتهي كل شيء لم أعارضك أبدا، ليس ضعفا مني بل رغبة في إسعادك، كنت أريدك أن تصير من تحلم به، أن تفعل ما يسعدك ويرضيك ونحن معًا، أن تمتلك حياتك كاملة وتترك لي فقط ركنا صغيرا أتحرك فيه، لماذا لم تنتبه وسط مخططاتك المتتالية أني كنت هناك؟

كم الألم الذي شعرت به كان مخيفا، لا يمكن نسيانه ولو بعد ألف عام، الحب مكتوب علينا، أنا أختلف عنك، لازلت أضعه ضمن قوائم ما لا خيار فيه، مثله مثل الأب والأم والوطن والملامح. الحبيب أيضا كذلك، أنت كنت تختار لأنك لم تحب أحدا.. فقط الرياضة، ضحيت بكل شيء في سبيلها، أتدري؟ حبيبتك لم تكن خيارك.. بل فرضها عليك القدر رغم رغبتك في لعبة أخرى.

يضع القدر خطته وخطوات كل شيء إلى أن نقع في الحب، يبدو الأمر في يد صاحبه أحيانا لكنه ليس كذلك، أستطيع أن أحصي العشرات ممن تعمدن أن يحببن شخصا ما لكنهن لم يستطعن، تزوجن وأنجبن وانصهرن في حيواتهن لكن لم يحببن. الأمر يأتي كقدر محتوم، لماذا تلتقي هذا الإنسان تحديدا في ذلك الوقت؟ لماذا يعجبك ويجذبك ويزلزل كيانك بينما الآخر الأكثر وسامة منه لا يعنيك كثيرا؟ أي سحر؟ لماذا نبتعد ونغضب ونلعن اليوم الذي التقينا فيه، ثم ننهار مع أول لقاء..

بنهاية يوم سفرك إلى الصعيد كنت منهكة بالجوع والبكاء.. ألم شديد يمزق بطني وصداع يقتلني، دخل عليَّ أبي في المساء، ارتسم على وجهه فزع يساوي حجم انتفاخ عيني ودرجة احمرارهما، سألني في هلع عما ألم بي.

لم أستطع أن أخبره الحقيقة، أخبرته بنصفها فقط:

- بطني ورأسي.

أجرى أبي اتصالاته بأصدقائه الأطباء كي يستشيرهم، أجمعوا على حاجتي لجراحة تستأصل زائدتي الدودية، أمسك بدفتر صغير وبدأ يسجل أسماء الأطباء الذين رشحوهم له، عارضت الفكرة تماما، لو أنني أحتاج طبيبًا الأفضل أن يكون طبيب قلب، الداء فيه وليس في البطن.

أشرت إليه وهو يتحدث في الهاتف بأني لن أذهب لأطباء، تجاهلني وهو يواصل كتابة الأسماء واحدا تلو الآخر. اكتشفت فجأة أن الفكرة صائبة تماما، أعجبتني ووجدت نفسي أنتعش وأقوم إلى الحمام لأعدل من مظهري وأرتدي ملابس مختلفة عن التي امتلأت ببقايا البكاء والتقلب على السرير، وقفت أنظر لوجهي في

المرآة بعدما غسلته جيدا، وابتسمت لنفسي وأنا أهمس ضاحكة:
ـ يا مجنونة!!

وسط الأسماء التي ذكرها أبي ورَد اسم الدكتور حامد الخياط، لم أصدق نفسي حين سمعته، من الصعب أن يكون تشابه أسماء وتشابه وظائف وتشابهًا في موقع العيادة، لم تكن قد أخبرتني بعنوان عيادة أبيك تحديدا لكنك قلت أكثر من مرة إنها في ميدان الجيزة، وإنه جراح. كان أبي ينظر إليَّ في حيرة وأنا في السيارة، أتأمل نفسي في المرآة وأعدل من وضع شعري ثم أعود لأتأوه عندما أراه ينظر إليَّ، ثم أعدل من شعري وشكلي مرة أخرى.

كان أبي يفهمني من النظرة الأولى، لكنه حار تماما، كان اللغز صعبا، هذا الحماس المفاجئ من أجل الذهاب إلى عيادة طبيب ضمن قائمة من اختيار أصدقائه، كل ما فعلته هو أنني اخترته من وسط القائمة مؤكدة أن صديقاتي يذهبن إليه.. وأنه ممتاز!!

عيادة أنيقة في برج مرتفع، مزدحمة إلى حد ما، بعد ما يقرب من ساعة كنا في الغرفة أمام الدكتور حامد، لم يستلزم الأمر إلى أكثر من نظرة واحدة لأتأكد أن الأمر ليس تشابها في الأسماء.

أحب أن أتذكر اللحظات التي وقفت فيها أمام أبيك، كان عليَّ أن أتظاهر بالألم الذي نسيت كل شيء عنه وأنا أقف في مواجهته، أنا التي تطلق العنان لانفعالاتها في كل المواقف، ولا تجيد افتعال أي شيء.

في اللحظة التي وضع فيها يده على بطني اكتشفت شيئين، الأول أنكما تستخدمان العطر نفسه؛ ذاك الشلال الأزرق الذي يشعه جسدك، أسعدني طلبه:
ـ خدي نفس عميق..

أخذت نفسا عميقا بسعادة لا تناسب الموقف، ثم:

ـ آآآآآي

كان هذا هو الاكتشاف الثاني، أن بطني لم تزل تؤلمني بالفعل، شعرت بشيء من ارتياح الضمير تجاه أبي، ومنحني ذلك مزيدًا من الثقة لأساله عنك، فيجيب بهدوء جميل:

ـ إنتِ زميلة عمر؟.. بس إنتِ حلوة أوي على التايكوندو ده!

يبدو أن الحضور والجاذبية يورثان أيضا، لكن أباك أكثر منك إنسانية وإحساسا بمن حوله، كنت أنظر إليه بإعجاب، وهو يعلن أني أعاني من قولون عصبي، نصح أبي بتخفيف الضغوط التي أفصح بأنه لا يفهم مصدرها، لكنه كان قد فهم على الأرجح، فقد تنهد بارتياح بمجرد ركوبنا السيارة وهو يقول:

ـ طيب.. الحمد لله.

أومأت مؤكدة:

ـ الحمد لله.. طلعت بسيطة..

نظر إليَّ في المرآة بابتسامة عريضة وارتياح تام:

ـ آه طبعا.. بسيطة، ما طلعتيش مجنونة.. أنا أول ما دخلنا افتكرتك بتحبي راجل من سني، بس طلعتِ بتحبي ابنه..

ثم تدارك سريعا:

ـ قصدي طلع ابنه زميلك في التدريب.

١٨

نسيت كلمة السر؟/ Forgot password!

عرفت أنني نسيت كلمة سر حسابي عندما غاب عني بدوي، كان هو كلمة سر حسابي الحائطي، مع انضمامه إلى اعتصام الميدان طالبني حسابي الإلكتروني بإدخال كلمة السر مرة أخرى، كان

مفتوحا دائما على جهازي، لكن مع قطع خدمة الإنترنت عن مصر بأكملها أصبح لا بد من إعادة إدخال كلمة السر لفتح الحساب، لم أتذكرها، أحتجت أن أقلب في عدد لا بأس به من الدفاتر إلى أن وجدتها مكتوبة في صفحة قديمة بخط باهت، لم أستبدلها، ليت بدوي أيضا ظل كلمة سر في حياتي ولم يستبدل.

اقتحم عصام حياتي اقتحاما، الأخ الأصغر لبدوي، عاد ممسكا به في يده، بعد سقوطي في يوم جمعة الغضب، قرر أن يعتصم في الميدان مع المعتصمين، عصام كان أول علامة على أن هذه الثورة ستعاني الكثير، تساءلت عمن هم على شاكلة عصام، عددهم وتأثيرهم في مسار الأحداث، بينما أنظر إليه ولفمه الممتلئ بحبات السوداني التي تركت بعض قشورها ملتصقة بشفتيه، وفي يده «ريموت كونترول» يتنقل به بين المحطات دون سبب مفهوم.

للحياة لمسات ساحرة، تلقي بها على نفوس البعض فتحولهم لشكل مغاير من البشر، أفضل أو أسوأ، لكنهم في النهاية يتغيرون تماما، تصاعد الأحداث وترتيبها هو ما جعل بدوي يتحول لصورة بشرية أخرى، قرر فجأة أن يشارك في ثورة من أجل الحياة، ثم أصبح لا يمانع الموت، القماح أيضا تغير، من بطل رياضي إلى معارض إلى ديني ثم.. إلى مؤيد سياسي مشوه!

عدت من يوم ثورتي الوحيد بجراحي وكرسيّ محطما، وشاب غريب يرافقني حتى المنزل، فتح أبي الباب ورأى حالتي فأدرك ما حدث، أشاح بيده وهو ينهرني في غضب، جلس يداوي جروحي ويدعو لي بالهداية والشفاء، ابتسم رغمًا عنه حين قلت:

ـ تفتكر هينجحوا؟

لم يجب، فنصبت إبهامي لأعلى وأكملت:

ـ طبعا.. بالضربة القاضية!

عندما يكون الفارق الفني والخبرة والقوة في صالح لاعب بعينه، يصبح من المستحيل أن يفوز اللاعب الأضعف بغير ضربة قاضية، ضربة قوية يوجهها لخصمه في لحظة غفلته، تسقطه أرضا فلا ينهض ثانيةً، وويل للضعيف إذا تغلب خصمه على صدمته وألمه، لذلك ظننت أن المحاولة نجحت، لكن مع مرور الأيام؛ اعتصام وانتظار ومناقشات واتفاقيات، أدركتُ أن المباراة قد انتقلت من أرضية الملعب لغرف المدربين.

في أي بطولة كبرى لم أكن أحتاج لأكثر من دقيقة واحدة لقلب المباراة رأسا على عقب مرة أخرى، كنت أفكر في الأجهزة الأمنية والسياسية التي لابد وأنها قد بدأت في اللعب على الرقعة الأكبر، كل منهم ضد الآخر، معركة شطرنج كبرى قد يتم التضحية خلالها بكل القطع الصغيرة الذين هم أصدقائي.. بدوي وفريدة والقماح!

بدوي كان رجلا حقيقيا، ذهب إلى بيته وعاد بأخيه ليخبرني بأنه سيكون مسئولا عن مساعدتي بدلا منه، «حتى ينتهي الأمر»، لم أكن أعرف كيف سينتهي، هو أيضًا لم يكن يعرف.. لذلك أخذت بدوي بين ذراعي في عناق طويل، كانت هذه أول مرة أجد فيها رائحته غير طيبة، لكنني تقبلتها على كل حال.

لا أعرف كيف يمكن أن تنتج نفس البطن وأن يحمل نفس الرحم مثل هذين الأخين، عصام.. ثور السواقي، أسطوانة تسجيل متحركة تأتي كل يوم محملة بما سجل عليها في اليوم السابق!

أعترف أن بدوي علمه بدقة كيف يتعامل معي جسمانيًّا، لكنه كان ثرثارا كسائق تاكسي متهالك يحاول أن يبرر حاله وحال سيارته في نهار حار، لم أكن أنصت إليه في البداية، لكنه أكمل الدائرة المغلقة

المحيطة بي بعدما غاب ذلك الشاب المسئول عن تحديث الحائط والصور والأحداث، لم يعد لديَّ سوى محطات تلفزيونية كريهة متضاربة، ومحاولتي لمتابعة ما يحدث عبر الفيس بوك والإنترنت، التي سرعان ما كانت تنتهي بألم في العين، وأخيرا.. عصام.

عصام امتداد للتلفزيون، مسجل صوت، كان يجلس أمامي ممسكا طوال الوقت بطبق كبير من اللب والسوداني - استأذنني في ذلك كبديل عن السجائر لأنه مدخن شره - ويأخذ في الشرح، كان عصام نموذجا للعقل البشري البسيط الذي يتقبل كل شيء، بينما كان بدوي نموذجًا لتطور عقلي مختلف، من السكون إلى الثورة، أما أنا فقد كانت الدقائق التي شاركت فيها كانت إرهاصة لحياة جديدة، عودة للعالم بعد غياب يقترب من ست سنوات، أحب هذه الثورة وأتعاطف معها، فقصتنا تكاد تكون متطابقة، أنا أيضا لم تكن بداياتي تشبه نهاياتي على الإطلاق..

كان عصام يسخر في البداية مؤكدًا أن الشرطة ستسحق الجميع بشكل فجائي، وأن انسحابها كان مناورة محسوبة، يطلب مني توعية أخيه «المغفل» حين يجيء لزيارتنا، ثم ينتقل إلى نظرية أخرى مفادها أن الجيش سيضرب الميدان بالطائرات ويسويه بالأرض، ثم أعلن في النهاية أن الجيش هو من قام بالثورة ليتخلص من احتمالية حكم مدني، وفي النهاية استقرت لديه الأمور على النقيض تمامًا؛ أن الثورة من صنع قوى خارجية، أما الجيش فتصدى لها!!

من السهل جدا أن تعيش بعقل كهذا.. أي بلا عقل على الإطلاق، الغريب أنني عندما كنت أذهب في المرات القليلة إلى النادي في أيام الحظر - متعمدا - لأنصت لما يتحاكون به وعنه،

كنت أجد رجالا ممسكين بالسيجارات الضخمة ويتحدثون تماما مثل عصام.. أيقنت أن تقسيم البشر لطبقات عرضية تخص المال والثقافة غير كافٍ، علينا كذلك تقسيمهم طوليًّا.. المقطع الطولي نفسه يجمع فريدة مع بدوي.. ومقطع طولي آخر يجمع بين عصام والرجل الأنيق الذي لا أعرفه، لكنني في تلك اللحظات أشفقت على بدوي وفريدة.. فبين عصام وأمثاله وسادة النادي لم أر القادم مشرقا لأحلامهما..

١٩

Community/مجتمع

بدت طريقة الحياة في السعداوية مختلفة من أول لحظة، استيقظت مع أذان الفجر، صليت في جماعة مع سيادة المستشار، الذي نهرني عندما حاولت القيام قبل أن أنتهي من ختام الصلاة، ثم تناولت إفطارا صعيديا حاولت أن أجعله خفيفا، وانطلقت إلى التدريب. كان الظلام لا يزال يقاوم الشروق، السماء مصبوغة بلون داكن يميل إلى الحمرة، النور يتسلل بالتدريج، وصلت في الموعد مع أول خيوط النهار البيضاء، لمحت نظرات السخرية في عيون اللاعبين الموجودين فلم أفهم السبب، اقترب مني شربيني موضحًا أن زي التايكوندو لا يستخدم هناك في التدريبات، ونصحني أن أخلع السترة على الأقل وأكتفي بالبنطلون مع التيشرت القطني لكيلا أبدو غريبا.

توافد اللاعبون من جهات مختلفة ونحن نجلس منتظرين فوق مجموعة من الصخور، جاءوا جميعًا بجلابيب فضفاضة مختلفة الألوان، دخلوا الغرفة الصغيرة وخلعوها ثم خرجوا بسراويل بيضاء واسعة وفانلات داخلية بيضاء، اصفرت من أثر العرق، ارتدى اثنان

منهم فقط بنطالا رياضيا بسيطا مع تيشيرت رياضي قديم، أما الأحذية فعددها في الفريق المكون من تسعة لاعبين لم يتجاوز الستة، قدمني شربيني إليهم فرحبوا بي بتحفظ ملحوظ، وعلق أحد اللذين يرتديان ملابس رياضية ـ عرفت لاحقا أنه كابتن الفريق وأن اسمه السعيد ـ قائلا:

ـ إيه يا عم شربيني ده.. أنت جايبلنا خواجة يتمرن معانا؟

هكذا أصبح لقبي الخواجة، لم يناديني أي منهم باسم آخر من وقتها وحتى الآن.

كنت أحاول أن أجاريهم وأتحرك معهم قبل أن تأتيني توجيهات المدرب، ربطت حذائي جيدا عندما رايتهم يستعدون للجري، السعيد سيقودنا وشربيني يقول إن عليَّ ألا أتأخر عنهم حتى لا أضل الطريق! تدريب مختلف تماما هذا الذي تبطئ فيه من سرعتك فتتوه بين الجبال.

كان أول ما تعلمت في السعداوية أن الجري جزء من التدريب، ليس مجرد بداية أو إحماء، بل هو صراع بينك وبين الأرض وتضاريسها من ناحية، وبينك وبين جسدك المرهق من ناحية أخرى.

كانت الأحجار تؤلم قدمي داخل حذاء الجري الألماني المنشأ، بينما أجري معهم في الجبل، عيناي معلقة بأقدامهم العارية التي كانت تنغرس في الحجارة فأظنهم سيتوقفون ألما فلا يفعلون، بل كانت الأحجار الصغيرة تتطاير من تحت أقدامهم كما لو كانت إطارات سيارات فوق طريق سريع، بطول المسافة ومرور الوقت بدأت أنفاسي تتلاحق وصدري يضيق، فكرت أن أستسلم وأعلن عن تعبي، قاومت تحرجا وحفظا لماء وجهي، وعندما قررت أن أنسحب وتأخرت عنهم قليلا ظهر من خلفي فريق آخر!

قطيع من الكلاب الصحراوية قرر أن يشارك في التدريبات، صارت تنبح وتجري وراء الفريق، لم يبد على أي من اللاعبين التوتر، لم يحاول أي ملعون منهم أن يبعدهم، يومها عرفت الدرس الثاني؛ أن ما تفعله من باب الاستحباب سيختلف تماما عما تفعله من باب الضرورة، كنت أظنني غير قادر على مواصلة الجري، لكني وجدت نفسي أتقدمهم جميعا وأحافظ على موقعي في وسط المجموعة خوفا من الكلاب، ثم شجعني أكثر ما بدا على وجه السعيد من دهشة ثائرة، كان يتمنى أن أسقط، بدأ يزيد من سرعته لرغبة صارحني بها بعد ذلك، أن الخواجة لا يستطيع أن يجاري الأسايطة، لكنني أسرعت خطواتي معهم فأبهرته.. ولم يعرف السر أبدا.

الحاجة مفتاح لاستخدام كل متاح، لم تملك السعداوية شرق سوى الرمال والصخور والجبال، لذلك صارت هذه الأشياء وسائل تدريب؛ تدريبات القوة باستخدام الصخور، يحملونها ويجرون ثم يتبارون في إلقائها لمسافات أبعد، يرقدون ويقفزون ويزحفون على الرمال، بدا لي الأمر كسلسلة من تدريبات الصاعقة، وجاء تصنيفي الأخير في كل المسابقات، لكن سعيد اقترب مني في نهاية التدريب وأنا ملقى على الأرض لا أستطيع الحراك وقال:

ـ والله براوة عليك يا خواجة.. طلعت دكر..

انتهى اليوم بنوع من التعاطف والاحترام، هنأني جميع اللاعبين لإصراري على مقاومة تعبي ومجاراتهم، شدوا على يدي بأكفهم الجافة المتشققة، وتواعدنا على اللقاء في المساء، لكنهم لم يروني إلا بعد ثلاثة أيام احتجتها لكي أستطيع المشي بشكل طبيعي مرة أخرى، مع ظهوري انفجر سعيد في الضحك قائلا:

ـ لا مات ولا هج.. كان بعافية حبتين..

ضحكوا وضحكت، فهمت ما قيل عنّي على مدار الأيام الثلاثة، لن أنسى ذلك التدريب، كان تدريب ما قبل الغروب، يخصصه شربيني لمهارات اللعبة والمباريات فقط، لا توجد فيه تدريبات قوة ولا أحجار، فقط قليل من الجري ثم إحماء استعدادا لآداء مهارات اللعبة، هنا تفوقت أنا، بدأت في استعراض مهاراتي وضرباتي منفردا فبدوت لهم كأنني كائن من عالم آخر، لم يسألني أحد ولم يحاول أي منهم تجربة حركاتي، وارتسمت على وجوههم نظرة بلاهة كالتي ارتسمت على وجهي بعد عدة سنوات، عندما رأيت كيم.

كان السعيد يراقب حركاتي بشكل خاص، كان أكثرهم دهاء ولابد أنه أدرك أن الخواجة يجيد اللعبة بشكل آخر، كلهم كانوا يلعبون بطريقة بدائية مباشرة، لا تختلف مطلقا عن الطريقة التي يلعب بها جندي الأمن المركزي الذي هزمني قبلها بأسابيع.

استمر التدريب ما يقرب من ساعتين، تدريب صريح مباشر كطبع أهل البلدة، لا توجد أي تدريبات معقدة ولا مركبة، ضربات مباشرة بدون رحمة ولا هوادة، لا توجد أدوات وقاية، عليك أن تستقبل الضربات في صدرك وبطنك لتتعلم الشدة كما قال شربيني، كانت في الألم لذة الشعور بأنني على طريق جديد سيصل بي إلى غايتي، ربما لا يكون الأمر راقيا من الناحية الفنية، لكنه بلا شك كما وصفه مدربي في القاهرة؛ تدريب شرس.

التدريب شيء والممارسة شيء آخر، أفضل من رأيت من اللاعبين لم يكونوا دائما هم الأفضل أثناء التدريبات، ففي الرياضة عموما ولعبتي على الأخص تحتاج التدريبات لمهارة وقدرة قبل أي شيء، أما المباريات فشأن آخر.. القلب والعقل، أعطني قلبا شجاعا

وعقلا ذكيا لأعطيك بطلا للعالم، وأعطني كل شيء بلا قلب وعقل أعطيك لاعبا لا يصلح للمواجهة، من الممكن أن يصبح بطلا في اتجاه واحد فقط، بدون منافسة، نضعه عاريا في قطعة ملابس داخلية ملونة ويقف مستعرضا عضلاته أمام الجميع.

أنا لم أكن جبانا أبدا، كان قلبي يدق بعنف قبل المباريات، ولكني أنساه مع إشارة البداية، عندما أعلن المدرب أننا سنبدأ في التباري قرر السعداوية أن يخيفوني، وقفوا يرمقونني بغضب مصطنع ويتبارون في استعراض أجسادهم القوية، تمادى أحدهم ـ لم أرفع رأسي لأتبيّنه ـ وقال ما معناه أني «سأموت»، ثم ضحك وهو يقول للمدرب:

ـ حرام عليك الخواجة يا كابتن.

رياضتي أشبه ما تكون بالمبارزة بالقدمين، عليك أن تتفادى ضربات الخصم أو تصدها بيديك، ثم تحاول الوصول لجسده أو رأسه، لا يسمح بالضرب أسفل منطقة الحزام، ويسمح باللكمات في الصدر والبطن فقط، لكن الكل يفضل استخدام القدمين من المسافة الأبعد.

كانت مباراتي الأولى أمام السعيد، لم تكن مصادفة، فهو أفضلهم، سياسته واضحة، هجوم قوي غاشم قوامه القوة البدنية، قررت أن أبدأ بهجوم متتال لإيقافه، نجحت في مرتين متتاليتين، ثم سقطت على الأرض صارخا:

ـ مخالفة.

أجابني بلا مبالاة وهو يشير لركبته:

ـ لا مش مخالفة. ده الحنش!

يحظر قانون اللعبة أن يمنع اللاعب هجوم خصمه بقدمه،

يمكنك أن تدافع بيدك، أما أن تضع جزءا من قدمك أو ساقك أو ركبتك في مسار قدم اللاعب الآخر فإنه محظور، حيث يؤدي لإصابة المنافس، السعيد كان يقوم بذلك بشكل فج، يرفع ركبته أمام صدره في اللحظة التي أحاول فيها ضربه، كما لو كانت رأس ثعبان كوبرا تنتصب استعدادا للهجوم، قمت متألما وحاولت مرة أخرى ففعلها ثانية، كان الأمر مؤلما للغاية، سقطت مرة أخرى وسط استحسان الجميع، كان درسا في حد ذاته شرحوه لي بطريقة عملية؛ قال شربيني بوضوح إن المخالفات طريقة غير شرعية للمكسب جعلوا لها عقوبة، لكننا نحتاجها أحيانا، يقسمون أخطاء اللعبة إلى أخطاء تضر بخصمك ولا تفيدك، وهذه عليك تجنبها، وأخطاء تضر بخصمك وتقربك من الفوز.. وهذه تصنف لديهم كمهارة!

نجح «حنش سعيد»، لم أحاول الهجوم مرة أخرى، كانت قدمي تؤلمني والركبة منتصبة أمامي فلا طريق للوصول، خرجنا متعادلين، من جراء ألم قدمي ومن تجنبه للهجوم خشية الخطأ أو الخسارة بعد أن أدرك أنني الأفضل، سعيد كان نموذجا محليا بسيطا مما رأيته لاحقا من بطل العالم، الفارق أن الأخير كان يتجنب الخطأ من أجل الفوز، أما سعيد فلم يكن يريد الفوز، بل لم يرد الخسارة!

شربيني لا يرحم أحدا، لا يوقف التدريب في حالات الإصابة ولا يفهم معنى التعب، فعل هذا مع الجميع ومعي أيضا، بعد قليل كانت مباراتي الثانية، حسان كان يهجم عليَّ بشراسة دب جائع، خطوة واحدة إلى الجانب كانت كافية ليسقط أمامي على وجهه دون أن أمسه لشدة اندفاعه، الغريب أنه لم يتعظ، بل كرر الأمر بتهور أكبر، هذه المرة كانت قدمي تنتظره وهو يسقط، لم أتعمد

أن تكون قوية لكن وجهه اصطدم بقدمي في لحظة رفعها لأعلى، انقلب على ظهره وسقط على الأرض بلا حراك للحظات، ثم قام ممسكا بوجهه والدماء تسيل منه من كل ناحية، ساد صمت تام، حاول أحد زملائه مساعدته فدفعه غاضبًا:

ـ سيبني..

ثم انطلق مبتعدا وغاب عن بصري.. توترت الأمور، لم يتكلم أحد سوى شربيني، الذي قال لهم في سخرية غاضبة:

ـ آدي الخواجة..

لم يجب أحد، رأيت في عيونهم نظرات كراهية واضحة، أجلسني شربيني إلى جواره وواصل الباقون تدريبهم بلا حماس، كان السعيد تحديدا ينظر إليَّ بغضب هائل، كنت أريد أن أقول إننا ـ ببساطة ـ نلعب، لكنني آثرت الصمت.

بعد قليل سمعت ضوضاء آتية عن بعد، بدت كهمهات غاضبة لعشرات الأسود في غابة برية، حدقت لأرى أمامي عن بعد عشرات الرجال والشباب والصبية يأتون حاملين النبابيت مهرولين.

صاح واحد من اللاعبين في توتر:

ـ إلحق يا كابتن.. ولاد أبو حسان جايين ياخدوا بتار أخوهم!!

ثأر؟! مجرد مباراة تدريب، هممت بقول شيء ما لكنني وجدت شربيني يجرني من يدي ويجري في هلع، لم أحاول أن أشرح له فكرة الروح الرياضية، انطلقت أجري معه وجرى الجميع فأدركت أنهم يعرفون أن أولاد أبو حسان ثأرهم مع الجميع.. لا أعرف حتى الآن من صاحب البيت الذي خبأني فيه شربيني، ولماذا كان فرن الخبيز ضخما بما يكفي ليحتويني، كانت الحرارة قاسية والعرق يتصبب مني لا سيما وأن الفرن

كان دافئا من بقايا خبيز الصباح.. أكثر ما كنت أخشاه أن يدخل أولاد أبو حسان فيجدونني في الفرن.. فيحبسونني فيه ويشعلون النار!

٢٠

فريدة غيرت صورتها الشخصية/

Farida changed her profile picture

صورة جديدة لعلم مصر أو لفتاة صغيرة باكية، هكذا أصبحت كل الصور الشخصية التي تضعها بعد أحداث الثورة، مرة واحدة وضعت صورتها من الجانب الأيمن لتخفي الندبة الطويلة التي أصبحت علامة قبيحة تشوه الجانب الآخر، قبل الثورة أيضا كانت تفعل ذلك غالبا، اختارت ممثلة هندية تحمل شيئا من ملامحها مع فارق شاسع في الجمال، أعرف أنها لم تكن ترى نفسها جميلة، وفهمت مع الوقت أن حسابات الفيس بوك التي تحمل صورا متكررة لأشخاص آخرين، أو زهور أو مناظر طبيعية، غالبا وراءها نساء يفتقدن الكثير من الثقة بالنفس أو بالملامح.

لم أعرف من هو رجب الوكيل إلا أيام الثورة، أشهر فجأة سلاحه في وجه الجميع عندما احتاجته المعركة، كانت المعركة محتدمة، والأطراف متعددة، حماس الشباب وقوته ورغبة الثورة التي طغت على الجميع، نظام اخترقت جذوره طبقات الأرض على مر السنوات، دهاء أجهزة مخابرات وأمن وداخلية وخارجية تبحث عن المقود الذي سيوجه الحدث الضخم، عرفت أن رجب الوكيل لم يكن ضعيفا، لكنه كان أحادي القوة.. المال!

كنت أقلب محطات التلفزيون بحثا عن الأخبار الجديدة، ظهر

لي فجأة بشاربه المميز وصوته الأجش، من خلفه لافتات وصور لم أنتظر حتى أتبينها، أمسكت بهاتفي واتصلت بفريدة ضاحكا:

ـ علمتِ أبوكِ الثورة!!..

كان الصوت عاليا حولها في الميدان، وصوتها كان قلقا جافا، أفسد عليَّ المزحة، أخبرتها بأن الحاج رجب في التلفزيون، لكنها لم تفهم ما كنت أعنيه، لحظة تركيز قليلة في الشاشة كانت كافية لأعرف أنه كان في ميدان وهي كالعادة في ميدان آخر، وساعات قليلة كانت كافية لأعرف أنه كان من قادة الغزو التاريخي على ميدان الثورة.

استخدم رجب الوكيل سلاحه الوحيد الذي يعرفه، تعامل مع الثورة على أنها مشاجرة في قهوة بلدي، قبل ذلك بسنوات كانت لابنه مشاجرة شهيرة في النادي مع أحد أبناء رجال الأعمال المكافئين للأب، كانت مذبحة، أحضر كل منهما سيارات ممتلئة بخليط من البلطجية والعمال «المخلصين» وتحول الشارع إلى ساحة قتال مخيفة، منطق الأب لم يختلف عن منطق الابن، بلطجية ومأجورين، أتخيل واحدا منهم يسحب نفسا عميقا من سيجارة «بانجو» مغشوشة ثم يقول:

ـ باشا الميدان كبير ومحتاجين نسيطر عليه، ومش هنعرف نخش بعربيات.. سيبهالي بقى!!

هكذا في تصوري على الأقل ظهرت فكرة الجمال والأحصنة، فكرة حمار مأجور يقوده غول لم يكن يعرف ما سيفعل هناك، بدا المشهد هزليا للحظة ثم مخيفا للحظة ثم قبيحا إلى الأبد، ما فعله رجب الوكيل يختصر كل شيء؛ عندما يفكر الأغبياء.. ما صرفه من نقود في ذلك اليوم أمَال الدفة إلى الجهة العكسية بعد أن كادت

تستقر، خسر ماله وخسر ظهيره وخسر ابنته، ترك واحد من بلطجيته علامة غائرة بمطواة صغيرة على وجهها وهو يجري بحصانه قبل أن يسقط، غادرت فريدة منزله في اليوم التالي لتنحي الرئيس، استقلت عنه وهي تعلن تبرأها منه في كل مكان.. ولم يغير من موقفها مطلقا أنه اعتذر لها سرا، ثم اعتذر في برنامج تلفزيوني علنا وهو يثني على الثورة ويعلن رصد مبلغ ضخم لعلاج مصابيها.. ولا أحزنها أنه تراجع في موقفه بعد ذلك وأصبح يلعن الثورة كل يوم، قبل وبعد أن أصبح وزيرا في إحدى الحكومات الجديدة!

عانت فريدة مع هذا الرجل حتى النهاية، ترك آثارا قبيحة في كل مكان من حياة ابنته، حتى وجهها، ولا أعرف هل يساوي ما فعله قيمة ما أمدها به من مال.. أم أن هناك خاسرًا في أحد الطرفين؟ الأكيد أنك تستطيع أن تحذف كل الناس من حسابك عدا من تسلمتهم مع الحساب من اليوم الأول.. الأسرة.

جاءت لزيارتي بعد أيام وعلى وجهها ضمادة كبيرة، وصفت لي جرح وجهها بالجرح الطولي القبيح الذي يمتد من زاوية العين حتى زاوية الفم، لا تعرف شيئا عمن هاجمها سوى أنه، كان يمتطي حصانًا ويميل يمنة ويسرة بيده التي كانت تحمل سلاحا يترك آثاره على الوجوه.

بدت لي فريدة متماسكة وهي تؤكد:

- وشِّي اتشوه.. بس البلد تستاهل، لو الثورة دي مكملتش.. أنا هأموت، آه على فكرة.. صاحبك هو اللي شالني لغاية المستشفى الميداني..

القماح كان عظيما، هكذا وصفته فريدة في بقية الحوار، ظهر هو ورفاقه فجأة في ذلك اليوم، اندمجوا في المعركة وحققوا فيها

انتصارات متتالية، ظللت أحدق فيها صامتا، فسألتني عما أريد قوله، تهربت من الإجابة.

ـ أبويا كان معاهم.. عارفة.

ثم انسابت دموعها في صمت وهي تتحسس الضمادة التي غطت وجهها، أخبرتني أنها قررت مقاطعته إلى الأبد، بل وستقوم برفع قضية حجر عليه لأن ما فعله هو ورجاله في الميدان كان عملا جنونيا، سألتها عما تنوي فأجابت بأنها ستتفرغ للوطن، بدأت تحكي لي مفهومها عن التغيير، كان يختلف تماما عن أحلام بدوي، فريدة لم تكن تحلم بمال أو سكن، أحلامها تخطت ذلك بمراحل.. تحلم بدولة متقدمة حرة، تتحدث عن تعليم جديد لا ينتج أمساخا شائهة كل ما تفكر فيه هو القرش، كانت تحلم بالمستقبل.

ـ من سيحكم؟

أجابت في جملة واحدة إن التطور هو الحل، التحرر من كل القيود التي جذبت هذه البقعة من الأرض إلى الوراء، بدت لي أحلامها أكثر رومانسية من أحلام طفلة صغيرة بأمير مسحور، تناست أن هناك قيودًا لا يمكن التحرر منها إلا بتفجير عقول الملايين وزرع عقول جديدة، عندما قلت ذلك هزت كتفيها في استخفاف وقالت: التعليم هو الحل، بمجرد تغيير نظام التعليم سيتغير كل شيء، ستكون هذه قضيتي..

حضر القماح بعد التنحي، ليخبرني أن الإسلاميين هم من غيروا مسار الثورة، أخذ يحكي لي حكايات متالية عن المعارك التي حدثت، أخبرته بفخر عما قالته فريدة الوكيل عنه، وأنها تريد أن تشكره مباشرة، فابتسم في خجل وتواضع.

وعندما سألته السؤال المعتاد عن المستقبل أجابني بتأكيد أن الإسلام هو الحل، وأننا سدنا العالم عندما كانت الشريعة الإسلامية هي المرجعية، سألته عن رأي شركاء الثورة فأجاب باقتضاب وهو يدير رأسه إلى الجهة الأخرى:

ـ الثورات تنجح بالمؤمنين.

فأجبته في حدة:

ـ فريدة وبدوي كانوا مؤمنين بالثورة أكتر منك يا مصطفى.

٢١

الاهتمامات/Interests

خرجت من الفرن فجرا بعد مجيء المستشار كامل، لم يكن غاضبا لكنه كان يستشعر خطورة الموقف، أصر على عقد جلسة صلح بيني وبين أعمام وأخوال حسان مجتمعين وهو يشرح لهم أن ما حدث كان مجرد لعبة مثل التحطيب، قمت لأقبل رأس حسان الذي أدارها بعيدا في غضب، لكن كبير العائلة أعلن قبولهم الصلح.. واعتزال ولدهم.

كانت تلك هي أكبر الأزمات التي واجهتني معهم، شعورهم بأنني أقصيت واحدا منهم جعلهم أكثر عداء تجاهي، أصبحوا أكثر عنفا في المباريات وأكثر حرصا كذلك خشية أن ألحق بحسان فردا جديدا، تعلمت أنا أيضا الحرص، أصبحت ألعب على أن أتجنب ضرباتهم دون أن أوجه ضربات قاضية، بمرور الأيام ذابت الحواجز رويدا رويدا، قضيت هناك شهرين تقريبا، مع إجازات قصيرة إلى القاهرة كل أسبوعين.. كنت أسعد عندما أسمع أمي تقول في غضب أن ملامحي تتغير من جراء الشمس والإجهاد، جسدي أيضا

كان يتغير، فقدت ما يزيد على ثمانية كيلوجرامات في تلك المدة، وكنت سعيدا بذلك، أما أفضل ما تعلمته خلالها فكان التعايش مع مختلف الظروف والبشر، ودون شروط مسبقة.

تقبلني السعداوية تماما مع الوقت، أصبحت واحدا منهم بشكل ما، اكتشفوا أنني لست «خواجة» رغم أنهم لم يسحبوا مني اللقب، وتيقنت أنا أنهم ليسوا مجرد وحوش يلعبون لعبة قتالية لأن العنف جزء من سماتهم الشخصية، كما برر سيادة المستشار ممارستهم لها، استنكرت رأيه فأجابني بسؤال:

ـ طيب قوللي يلعبوا لعبة زيّ دي ليه؟

لم يكن لديَّ جواب، لكنهم بشر حقيقيون، ربما أكثر إنسانية من كل من عرفت، بدأت أحضر معهم الإفطار الجماعي الذي يقيمونه بعد التدريبات، تعلمت أن أستلقي مثلهم على التراب في نهاية اليوم مراقبا نجوم السماء وحالما بما هو أبعد منها، تحدث كل منا عن عالمه، أصبحت ملما بعمل كل واحد منهم وبجزء كاف من حياتهم الشخصية، بسطاء.. السؤال الوحيد الذي كنت أحاول دائما أن أطرحه هو لماذا يمارسون لعبة كهذه.. لا هم يحتاجون إلى تدريبات دفاع عن النفس ولا هم في ظرف يسمح بالرياضة من أجل الرياضة..

دهشتي الأكبر كانت عندما بادرني أحدهم بنفس السؤال، كنا نجلس بعد الإفطار فقال فجأة:

ـ أنت بتلعب ليه يا خواجة، وبتبهدل نفسك معانا ليه!!

ألحت تلك الجلسة على ذاكرتي عدة مرات على مدار حياتي، تعلمت أن أضع نفسي مكان الآخر لأفهم همومه واهتماماته، هم أيضا لم يفهموا لماذا أمارس الرياضة وأنا ابن المدينة المضيئة وقريبي عضو مجلس الشعب عن الناحية، كنت قد سخرت منهم

في بداية الحوار لأنهم رغم كل ما يعيشون فيه يمارسون لعبة مغمورة في أقاصي الصعيد.. وفي نهايته أدركت أنهم كانوا أحق مني بالحلم، فهم يريدون الحياة لا المجد.

حلم ضاوي لم يكن البطولة، بل كان الطائرة، يتمنى أن يدخل المنتخب ليتمكن يوما ما من الهرب في شوارع أوروبا ليبدأ حياة جديدة.. أخوه الأكبر قضى أسابيع في البحر بين الموت والحياة قبل أن يصل إلى اليونان ليجد الشرطة تنتظره لتعيده.. كررها أربع مرات وفي الخامسة كان الموت ينتظره في قاع البحر.

حسيب طموحه أبسط، في كلمتين «السرية الرياضية»، كل أخوته وأقاربه عانوا في التجنيد الإجباري، لا يمتلكون مواهب ولا حرف، لذلك نصحوه جميعا أن يبحث عن رياضة ما يلعبها ليصبح واحدا من هؤلاء الذين يأتي لهم الصول في مركز التدريب ليأخذهم ممثلين لأسلحتهم في المسابقات الرياضية، حيث النعيم.

السعيد كان يريد أن يصبح كبير القرية في أي شيء، يجلس مع أصحابه على المقهي ليلا ليدخن معهم المعسل ويحكي لهم عن أمجاده في قيادة الفريق، هو من بدأ الفريق مع الكابتن شربيني، وهو من ظل يعمل على زيادة عدد اللاعبين لكي يظل الفريق في تزايد، وبالتالي يزيد عدد من ينادونه بالكابتن سعيد «البطل».

أما شربيني شخصيا فقد عاد من دراسته في كلية التربية الرياضية بعد أن وجهوه للعبة لم يكن يعرف عنها شيئا، مثله مثل كل من دخلوا الكلية دون أن يمارسوا أي رياضة، جمعوهم فيما أسموه بالألعاب الأخرى.. اختار أكثر لعبة مغمورة ليوفر الوقت ويقلل من حجم المنافسة ويعيش في القاهرة.. لكن القاهرة لفظته بالرغم من كل شيء، لذلك عاد إلى البلدة وعمل في المدرسة الإعدادية

صباحا، فيما شكَّل هذا الفريق ليستمر حيًّا على حد قوله.

عندما سألوني بعدها عن سبب ممارستي هذه اللعبة بالتحديد، لم أجِبهم بالحقيقة، شعرت أنني مرفه وأنهم أحوج مني بالفعل، لم أخبرهم أنني بدأتها بعد أن ضربني تلميذ ضخم في المدرسة أمام الفتيات، فقررت أن أمارس الجودو.. تجاوزت تلك المرحلة لما بعدها بسنوات:

ـ تحقيق الذات.. مش عاوز حياتي تبقى حياة عادية من غير ما أسيب أي بصمة.

استعرضت ردود الأفعال على وجوههم، وجدتهم جميعا يحدقون فيَّ كما لو كنت أتكلم بالهيروغليفية، فابتسمت في استسلام بينما أقول:

ـ أنا زي حسيب، عاوز أدخل سرية رياضية.. علشان ما اتبهدلش.

رغم أني وحيد، ولن أجنّد في القوات المسلحة.. هزوا جميعا رءوسهم في فهم وتعاطف.

٢٢

علاقة/Relationship

ـ آآآي..

قلتها وانحنيت بعد أن أصابتني ركبتها الرفيعة في موضع حساس جدا، رفعت رأسي لأنظر إلى ملامحها، كانت على وشك البكاء.. لم تكن الضربة قوية بما يكفي لأسقط لكنها كانت مؤلمة للغاية..

واصلنا المباراة وأنا مندهش مما يحدث، كانت ريم تصارعني في جنون.. تهجم عليَّ بعنف لا يناسب ملامحها، تكيل إليَّ ضربات

متتالية أتفاداها فتسقط، ثم تنهض وتهاجم مرة أخرى، في خضم انفعالها كانت الضربات الخاطئة كثيرة، وكانت هي ضئيلة الجسم رقيقة القوام.. جسدها أقرب إلى راقصة باليه منه للاعبة تايكوندو، ضحكت بصوت عالٍ حين وجدتها تتعلق بملابسي في إحدى حركاتها، وكانت تلك مخالفة صريحة، كان المشهد مضحكا بلا شك ويداها تجذب القميص الرياضي الذي أرتديه بينما قدماها تضربان من أسفل كما لو كانت تتشاجر معي في حديقة للأطفال، أشرت إليها:

ـ إهدِي..

لم تفعل.. بل استفزتها ضحكتي فواصلت صراعها مع وحشها الذي هو أنا، لم أجد بدا من أن أمد يدي وأمسكها من وسطها الدقيق لأرفعها إلى أعلى وأنا مستمر في الضحك، أفلتت قميصي غصبا عنها لكن قدميها لم تتوقفا عن الحركة.. بدت كطفلة صغيرة غاضبة يحملها أبوها في الهواء.. تعالت ضحكات كل الواقفين في صالة التدريب.. وصاحت هي في حدة:

ـ نزلني..

تركتها معلقة في الهواء للحظات حتى هدأت.. رفعت رأسي متفحصا ملامحها لأول مرة منذ رأيتها، كنت أعرفها جيدا وأشعر بحيويتها وبنظراتها، ولم يكن ذلك هو أول تدريب مشترك لنا، لكني لم أتفحصها قبل ذلك، جمالها هادئ وغير ملفت بعكس ريهام.. سمرة برونزية هادئة.. شفتان متوسطتان، وأنف دقيق حاد بما يكفي ليزن وجهها، شعر أسود مسترسل غطى جزءا من وجهها يتطاير يمنة ويسرة مع ثورتها.. وعيون بنية داكنة متسعة، وما لا يزيد على خمسين من الكيلوهات هي ما يزنه جسدها الذي أحمله بين يدي!

ـ إهدي وأنا أنزلك.

اقترب المدرب غاضبا لينهرنا ويوقفنا عن «لعب العيال» على حد قوله، لم أتمالك نفسي من الضحك المستمر وهي تحاول النزول وأنا أقول:

ـ هتموتني..

ثم أنزلتها ببطء متعمدا أن أضع جسدها بأكمله على بعد سنتيمترات قليلة مني دون أن أفلتها، أمالت رأسها إلى الخلف لترفع شعرها عن عينيها، رأيت في عينيها اللامعتين بالدموع معنى جديدا للاضطراب، لدهشتي اضطربت أنا أيضا، وضعت يديها على يدي وهي تفكهما من حول وسطها في رقة، مع ذلك لم أفلتها، فأنشبت أظافرها فيهما.. صحت متألما بشكل مفتعل.. نظرت إليَّ بتردد للحظة ثم انفجرت في البكاء.. اقترب مني الكابتن هاني:

ـ اتلم يا عمر.. إنت جاي من الصعيد مش على بعضك ولا إيه!

أفلتها معتذرا بعد أن فهمت ما يرمي إليه، ثم أبديت دهشتي من عنفها في التدريب، ابتسمت هي في طفولة بين دموعها لأول مرة، ثم قالت:

ـ تستاهل..

ضحك هاني وهو يعقب:

ـ يا حبايبي. قلتلي أنت كنت بتتمرن فين بقى؟

لم أستطع أن أقاوم الابتسام، التفت إليها وأنا أميل برأسي متعجبًا، بدا لي على وجهها رسم لم أره ثانيةً في حياتي؛ رسم الحب.. الصافي الصافي الصافي، لم أستطع التركيز في تدريب ذلك اليوم، قررت أن أبحث عنها بعد التدريب، كانت تجري نحو الباب، وقفت أمامها وأنا أبتسم.. أمسكت بيدها الدافئة فارتجفت للحظة ثم استكانت تماما، قضينا سويا ساعتين من أجمل ما مر عليَّ في حياتي.. وشعرت بأنها ستصبح كل شيء فيها.

٢٣

صندوق الرسائل/Inbox

ريم

«أبي يا تمثال الجليد، لاحظ أنني أحبك من نظراتي وكلماتي مع أبيك دون أن تكون أنت موجودا. فهل يمكن أن تخبرني أي نوع من البلاهة القلبية كنت تحملها في صدرك لكيلا تلاحظ ذلك؟

نظرت إليك بعد عودتك في إمعان، أصبحت مكسوا بلون برونزي داكن بعد عودتك من الصعيد، رغم أنني كنت أفضل لونك الأصلي، إلا أنني لا أنكر أن ذلك اللون أيضا أضاف إليك مسحة إضافية من الوسامة والرجولة التي لم تغب عن ملامحك منذ عرفتك.

وجدتك فجأة محاطا بأربع أو خمس فتيات، وبدأت الضحكات تتعالى بينما تحكي لهن حكاية الشهرين.. كنت قد قررت أن أبلغك بمشاعري بطريقة أو بأخرى، بعدما أيقنت أنك لا تفهم لغة العيون. الابتسامة لن تكفيك فكل هؤلاء يبتسمن لك، وجرأتي لا تفي بمصارحتك، أعددت لك هديتي الخاصة التي لم أكن أعرف إن كنت تذكرها، بينما أحفظ تفاصيلها بشكل كامل، أعددت لها لأيام، حزام تايكوندو أسود يزدان باسمك كاملًا، في نهايته حرف وحيد يقف منتظرا أن يقترن باسمك، حرف الراء بالإنجليزية، خالتي هي التي أحضرته معها من إنجلترا، كانت قد أخبرتني في مكالمة أنها رأت متجرا للأدوات الرياضية يعد مثل هذه الأحزمة للرياضات القتالية، أحضرت لي واحدا مثله، عليه اسمي بالكامل يطارد الحرف الأول من اسمك وقد وقف منفردا في غرور، واشتريت بطاقة ملونة مكتوب عليها بحروف كبيرة:

وقفت أدور من حولك في حيرة، لم تمنحني اهتماما يكفي لأعطيك هديتي في حقيبتها المزينة، قررت أنك لا تستحقني ولا تستحقها، شعرت برغبة عارمة في أن أصفعك وأجري مبتعدة عنك، بعد قليل بدأ التدريب ووجدتك أمامي، على بعد سنتيمترات، وكانت المهمة المطلوبة مني لحسن الحظ أن أضربك، وكانت المرة الأولى التي يتوافق فيها ما بداخلي مع الظروف المحيطة، لذلك لم أتردد!

نسيت كل قواعد اللعبة، لم يبق لي سوى حنقي الشديد، كنت أبكي من داخلي في غيظ بينما أكيل لك كل ما أمكنني من ضربات وركلات، وأنت تضحك فتزيد من غيظي، وعندما رفعتني لأعلى وشعرت بأنفاسك تلفح وجهي ورائحتك تهز مشاعري وتخترقني خارت قواي، طلبت منك أن تنزلني ولم تكن رغبتي الحقيقية، كنت أريدك أن تضمني بقوة، غاب كل شيء من حولنا وانفجرت في البكاء، رأيت الدهشة في عينيك تستحيل فهمًا لأول مرة.. أنا أحبك أيها المغرور، هذا هو قدري.. أن أحب جبلا جليديا مثلك، أنزلتني على مهل وبحنان لم أنتظره، وتقارب الوجهان في لحظة لن أنساها ما حييت، حتى لمحت وجه الكابتن هاني يقترب ويفسد علينا كل شيء. وانخرطت في البكاء، بعد التدريب كنت أهرول لأغادر النادي شاعرةً بقهر شديد، وجدتك تسد طريقي، فلم أجد كلمة أفوه بها، لم أحتَج لكلمات، أمسكت بيدي كما لو كنت تساعدني على عبور طريقي إليك، حاولت أن أفلتها لكنني لم أستطع، مشينا سويا في صمت بينما الكفان المضمومتان تحكيان كل شيء، وعندما ناولتك هديتي سألتني بصوت دافئ لم أعتده منك:

- إنتِ بتحبيني بقى.

لم أجب، كان سؤالا أجبته بالفعل، وانتظرتها منك صريحة فلم تأت، كنت لطيفا أكثر من المعتاد، حكيت لي عن نفسك وعن أحلامك الكبيرة كل شيء، وحكيت لك عن أحلامي التافهة.. ولا أدري إن كنتَ قد فهمت بالفعل في تلك الجلسة أني أيضا أحمل في قلبي حلما كبيرا، رغم أنني لم أصارحك به».

٢٤

صورة/Photo

الدانمارك: ١٩٨٤

صورة صبي في السادسة عشرة من عمره.. ورجل أوروبي ضخم يمسك به ويدفعه أمامه بصرامة.. تذكرت أبو سهيل عندما التقطها وأنا أحاول منعه..فابتسمت.

انضممت إلى المنتخب بعد أن فزت ببطولة الرجال الأولى، كنت أخشى شعبان المجند القوي، لكنه لم يشارك، جاءتني الفرصة على طبق من ذهب، فقد كان هو المرشح الأول بينما أَلِيه مباشرة.

ما زالت ذكريات تلك البطولة تسكن عقلي وقلبي، أول مرة أرتدي فيها زيًّا موحدًا للفريق، مكتوبًا عليه اسم مصر، أول مرة أرى نظرات المسافرين المليئة بالاحترام، أول طائرة أركبها مع المنتخب، والأهم..أول مرة أرى فيها كيم..

بيني وبين زي منافسات التايكوندو مشاعر غريبة، متيم أنا به، اللحظة التي كنت أرتدي فيها واقي الصدر الملون بالأحمر أو الأزرق، وأشعر بالمدرب يشد حباله جيدا ليضمه حول صدري، كانت تشعرني بالأمان، درعي الواقي الذي سيحميني من ضربات

خصم لا يرحم، كنت أمرر يديّ عليه بامتنان كما لو كان سيشعر بهما، أمسك بعدها بواقي الرأس المبطن وأقبله قبل أن أضعه على رأسي، ثم أرتدي أوقية الساعد والساق وأربطها بلفة من الأربطة الطبية اللاصقة لكيلا تسقط أثناء اللعب، ويبقى في النهاية واقي الخصية الذي يشبه قطعة ملابس داخلية للرجال، الجزء الأمامي منه كنصف كرة مفرغة لتحيط بما ينبغي حمايته جيدا، أول مرة رأيته في هذا في التدريب رفضت ارتداءه لأنه بدا مضحكا، مع أول ضربة أصابتني في هذا الموضع رقدت على الأرض أتلوى فعرفت قيمته، وأصبحت بيني وبينه صداقة الضرورة لا صداقة المحبة كباقي الأوقية.

في بطولة العالم، كانت لواقي الصدر رائحة مختلفة، تشبه رائحة السيارة الجديدة من الداخل، كل شيء كان جديدا، خسرت مباراتي الثانية بصعوبة من لاعب متوسط المستوى، لم أحزن، كنت مهيئًا للخسارة، أشعر بأني أصغر من الحدث، لم أكن قد فكرت حتى تلك اللحظة في أن أصير بطلا للعالم بأكمله، وأن الأمر وإن بدا صعبا سيتغير مع الوقت.. جلست وسط المدرجات في رضا أتابع باقي المباريات، كانت الأجواء مدهشة بألوان تبدو أكثر بهاءً مما اعتادت عيني رؤيته، المستويات متفاوتة لكنها جميعا رائعة، تجري على وتيرة مفعمة بالحماس، مباريات تنتهي كما بدأت وأخرى تنقلب في لحظة إلى عكس ما بدا في البداية.

شعرت فجأة بترقب غير معتاد، كانت العيون كلها معلقة بلاعب واحد، ظهر عند مدخل الصالة فضجت المدرجات بأكلمها بالهتاف والتحية، اتجه إلى الملعب الرئيسي، فأوقفت الملاعب الفرعية مباراياتها.. ملت على مدربي الكوري لأسأله بفضول:

ـ ما الذي يحدث ؟

أشار إلى عينيه بأصبعيه وهو يقول دون أن ينظر إليَّ:

ـ انتظر.. وسترى!

كانت مباراته الأولى، دخل منافسه فلم يكترث به أحد سوى زملائه، وعندما بدأت المباراة، اتسعت عيناي ذاهلتين لكني لم أستطع رؤية ما يحدث بالتفصيل، فقد كان المدرج الذي جلست عليه مرتفعًا، كانت تفاصيل حركاته أسرع من استيعابي.. ذلك الكوري القصير ذو الوجه البشوش والملامح الودودة. جونج كيم.. كنت حتى هذه اللحظة أتساءل عن أفلام بروس لي بطل السينما الشهير، هل هي حقيقة أم مجرد سلسلة من خدع سينمائية.. حتى رأيته!

كان يتحرك بسرعة مذهلة مقارنة بالجميع، كما لو كان يرقص بضرباته، يقفز إلى الأمام ثم إلى الخلف مع توالي الضربات برشاقة مبهرة، ينتظر أن يبدأ خصمه بالهجوم فلا يتراجع كما تعلمنا في التدريبات، بل إن لكل ضربة من المنافس عقابًا أعده لكيلا يتجرأ على المحاولة مرة أخرى، غالبا يزيد ذلك من أخطاء المنافس فيفتح له المجال لمزيد من الضربات، وعندما يقرر الخصم ألا يهجم مرة أخرى، يبدأ كيم في هجومه الذي يختلف كثيرًا عما عرفت من قبل، فدائمًا ما تسبقه قفزة أو حركة رشيقة بالقدم الأخرى، لينشغل بها المنافس عن الحركة الأساسية التي ستصيبه لا محالة..

شعرت بانبهار.. صحت بأنفاس متقطعة:

ـ إنها لعبة أخرى غير التي نعرفها..

ابتسم المدرب وهو يهز رأسه موافقا:

ـ صحيح.. لا أحد يستطيع أن يفعل ما يفعله كيم.. إنه الأفضل في العالم..

في تلك اللحظة تحديدا قفزت من مكاني صارخا، فقد رأيته يقفز في الهواء عاليا ويدور دورة كاملة تنتهي بضربة عنيفة في وجه خصمه الكوبي الضخم، انتهت بسقوطه على الأرض بلا حراك!

كيف بدأ الحركة وكيف أنهاها؟! لم أفهم شيئا مما شرحه المدرب..سألته عن اسم تلك الحركة ولماذا لم نتعلمها فأجابني بأنها حركته الخاصة، وصفها باسم كوري طويل لم أستطع حتى أن أكرره وراءه.. فهمست بانبهار:

ـ ٣٦٠ درجة!!

نظر إليَّ في استفسار:

ـ دائرة كاملة في الهواء..وليست نصف دائرة كما نتعلم..

عشقت الـ ٣٦٠ رغم أنني لم أفهمها في حينه، انطلقت سريعًا أبحث عن مكان خال خلف المدرجات، تأكدت من أن أحدا لا يراني وبدأت أحاول تنفيذها، لكني فشلت..كنت أقفز عاليا وأدور فأسقط، كانت قدماي تصطدمان في جزء منها..كانت تلك هي الحركة السحرية في نظري، وأصبح كيم بدون شك، هو الساحر الأكبر والأمهر!

في ذلك اليوم تعلمت شيئين: الأول أن الاختلاف ينبع من الإبداع، خروجك عن المألوف والبحث في داخلك عما لم يره غيرك، والثاني أن الهجوم ليس خير وسيلة للدفاع.. بل إن التعقل خير وسيلة للدفاع والهجوم.. العبرة ليست بمن يهاجم أو يدافع.. بل متى تدافع ومتى تهاجم!

انتظرت مباراته التالية بفارغ الصبر.. قررت أن أنزل إلى أرضية الملعب لأراقبه عن قرب، اكتشفت أن ذلك مستحيل، الأمن يقف متربصا ويمنع دخول الجميع باستثناء لاعبي المباريات التي ستبدأ، وقفت أتلفت حولي حتى رأيت صبيا يحمل ممسحة ودلوا صغيرا

يدخل أرضية الملعب، فدخلت معه وجلست بجواره.. ومن هذه المسافة القريبة اختلفت الأمور تماما..لكنني لم أتمكن من استيعاب التفاصيل.. فقد ظللت مشفقًا على من يواجهونه حين شاهدته عن قرب، إنه بقفزاته يقطع المسافات بشكل لا يتناسب مع اتساعها، كما لو أنك تعبر الطريق السريع فتفاجأ بسيارة مندفعة أسرع من تقديرك.. فإما أن تعود بسرعة أو تصدمك بلا رحمة.. وكيم كان يدهس الجميع.

سقط منافسه على الأرض وقد سالت الدماء من أنفه بغزارة، اندهشت حين وجدت حكم المباراة يشير إليَّ لأدخل.. مرت لحظة قبل أن أستوعب إشاراته التي دعتني لمسح أرضية الملعب من دماء المنافس، وهو يشير إلى الدلو والممسحة المنتصبة بجواري.. بحثت عن الصبي الذي كان يجلس إلى جواري فوجدته في ملعب آخر، وقفت أتلفت في اضطراب..فكرت أن أدخل بهما لأراه عن قرب.. لكني لسبب ما لم أستطع فانطلقت راكضًا.. شعرت بيد ثقيلة تمسك بي وتجرني إلى الخارج، كان حارسا ضخما..حاولت التخلص من قبضته، لكنه لم يفلتني وأخذ يصيح بكلمات غاضبة لم أفهم منها شيئا.. التفت في حرج فرأيت كيم ينظر إليَّ باندهاش.. وقبل أن أخرج من الصالة أضاء فلاش كاميرا أبو سهيل في عيني وهو يضحك..ثم رافقني إلى الخارج.

للوهلة الأولى ظننته أوروبيا بوجهه الأبيض المائل إلى الحمرة وعينيه الخضراوين.. أشحت في غضب:

ـ No photos please.

ضحك ساخرا:

ـ هلا. إنت الزلمة الجديد المصري؟ شفتك إمبارح عمتلعب..

شاطر وقبضاي...بس ليه فتت هالفوتة؟

حدقت فيه حائرا فقال باللهجة المصرية وهو يضحك:

ـ ليه دخلت الملعب؟

ابتسمت في حرج وقصصت عليه أسبابي، اكتشفت أنه كان لاعبا سابقا بجانب عمله كمصور صحفي، أومأ متفهما وهو يقول:

ـ والله بيستاهل.. بيذكرني بمحمد علي كلاي...

أخذ يحكي لي عنه، كان قد أجرى معه حوارا صحفيا، عرفت كيف أتى كيم من قرية صغيرة في كوريا ليصبح نجما في بلده ثم في العالم.. أخرج من حقيبته صورة له وأهدانيها.. ثم ربت على كتفي وهو يسأل:

ـ معك كاب؟

ـ كاب؟

ـ كاب.. كاسكيت.. جيب واحدة وراح فوتك تقعد على طرف الملعب في المباراة الجاية.

ووفى أبو سهيل بوعده، في المباراة النهائية كنت جالسا على طرف الملعب أرتدي الصديري الخاص بالمصورين وأحمل كاميرا أبو سهيل.. أما الكاب فكان خشية أن يتعرف عليَّ الحارس الضخم الذي مر بجواري أكثر من مرة، فأخفي وجهي خلف الكاميرا متظاهرا بالتصوير..

كانت لحظة خاصة جدا، لم أصدق أنني أجلس وبيني وبينه أمتار قليلة..تفحصت ملامحه جيدا كما لو كنت أحفظها..أو ربما لأتأكد أنه كائن بشري. الملامح المعتادة للشرق الأقصى؛ شعر ناعم طويل وعينان ضيقتان وأنف يميل إلى الفلطحة، لا تبدو عليه الشراسة التي اعتادوا أن يطالبونا برسمها على وجوهنا، فقط تركيز

شديد خالٍ من مسحة العنف المصطنع التي كنت أراها في مصر، هدوء وثقة حتى أثناء اللعب كمن يؤدي عملا يحبه. أعاد كيم لي حلم طفولتي بأن ألعب كما لو أنني أعزف آلة موسيقية.. الهارب مثلًا.. هو أنسب آلة استطعت الربط بينها وبين الملعب.. ربما لكوني كنت أعلم أني سأكون في الوزن الثقيل نهاية الأمر! عرفت أن ذلك اليوم يمثل بداية جديدة في حياتي.. مرحلة ما بعد سعيد الحنش ونبابيت قرية السعداوية.. أنهى مباراته بفارق كبير كالمعتاد، رفع يديه ليحيي الجمهور بسعادة رافعًا علم بلاده بفخر.. تساءلت حينئذ عما إذا كانت الأيام ستمنحني لحظة مماثلة ذات يوم.. تحرك بتواضع واقترب من مكان جلوسي بجوار باقي المصورين.. وقف في مواجهتنا فبدأت الصور تتوالى.. شعرت بأنه ينظر إليَّ تحديدًا ويبتسم بمزيج من السخرية والدهشة، كذبت نفسي واعتبرت ذلك وهما.. لكنه أقترب مني ووقف في مواجهتي، مد يده ليصافحني فصافحته وأنا أكاد أسقط من الانفعال.

لم أفهم لماذا اختارني، حتى مد يده إلى كاميرا أبو سهيل الضخمة التي كنت أحملها، ليرفع عن العدسة غطاءها الأسود.. فتعالت ضحكات المصورين الواقفين من حولي.

٢٥

Omar shared a song / عمر قام بمشاركة أغنية

Risin' up straight to the top
Had the guts, got the glory
Went the distance
Now I' m not gonna stop

كانت هذه الأغنية رفيقتي طوال المشوار، ما زلت أسمعها من آن لآخر عندما يغلبني شعور الضعف، لم أفكر يوما في ترجمتها للعربية.. أغنيها كما هي.. وأحسها بلغتها التي أجيدها بحكم الدراسة..

أنهض بحثا عن القمة

أمتلك الشجاعة وأملك المجد

قطعت شوطا

والآن لن أتوقف

غنيتها مرارا.. تغير الآن جزئي المفضل، رغم أن الأغنية بأكملها لا تزال صالحة لوصف حالتي، أقربها لقلبي أصبح الجزء الذي يقول فيه:

Don't lose your grip on the dreams of the past

You must fight just to keep them alive

لا تفلت قبضتك على أحلام الماضي

عليك أن تقاتل لإبقائها حية!!

فقْدُ الأحلام شعور قاس وحياة جافة، تستيقظ لتفكر فيما مضى ولا تجد أمامك غير الفراغ، فراغ شاسع مخيف تشعر بأنه يبتلعك رويدًا، بدوي ورفاقه فقدوا أحلامهم على أرض الواقع، بينما فقدت أحلامي بعدما حققت مجملها، ثم صرت عاجزا عن تحقيق المزيد.

صباح يوم الجمعة الذي نزلت فيه إلى الميدان رآني أبي أستعد للنزول مع بدوي، سألني في توتر إلى أين سأذهب «والبلد مولعة»، أخبرته بأنني أريد أن أذهب إلى النادي، عارض للحظات ثم وافق، لم يتصور أني سأذهب للميدان الكبير، كنت أريد أن أكون جزءا من الحدث، وعندما عدت قبيل الغروب بوجه جريح، بصحبة الطبيب الشاب، ثار عليَّ ثورة عارمة وهو يقول:

طول عمرك دماغك ناشفة.. وتستاهل اللي بيجرالك!

كانت تلك هي ثاني كذبة كبرى في حياتي، الأولى جاءت بعدما أنهيت دراستي في الثانوية الإنجليزية والتي كانت عاما واحدا آنذاك.. كانت درجاتي مرتفعة بشكل ملحوظ، وكان اتفاقي مع والدي أن أذهب لأبناء عمومتي في أمريكا.. لكنني طلبت تذكرة للسفر إلى كوريا مع المنتخب المصري، أخبرته بأنهم استبعدوني لأنني لم أنضم للمعسكر بسبب الامتحانات، وأن عليَّ أن أتحمل نفقة السفر والإقامة بالكامل، وأن تاريخ العودة سيتحدد من هناك، وافق على الفور، فقد كانت فرحته عارمة بعدما أثبت أن الرياضة لن «تضيع مستقبلي» كما كان يظن.

أوصلني بنفسه إلى المطار، كان عدد لا باس به من لاعبي المنتخب ينتظرني بملابس الفريق المزدانة باسم مصر أعلى الظهر، سلموا جميعا على أبي، غبنا عن ناظريه بداخل المطار، وانتظروا حتى ركب سيارته وغادر كما اتفقنا، ثم عادوا إلى بيوتهم.. فلم يكن هناك معسكر خارجي من الأساس.. كل ما كان هناك رغبة محمومة في السفر وأصدقاء «جدعان»، ريم أيضا كانت تريد المجيء لكنني رفضت بإصرار، خشيت أن تفضحني بدموعها القريبة؛ دموع المودع لا المسافر، رضخت بصعوبة نهاية الأمر.

بعد رحلة طويلة، وتوقف في دولتين مختلفتين وصلت إلى سول عاصمة كوريا الجنوبية. كنت أمسك ببطاقة الرجل الكوري، الذي بدا مهمًا حين منحها إليَّ مع نهاية بطولة العالم حين سألته عن سبيل للتدريب في كوريا.. أجابني ببساطة:

ـ تعال إلى كوريا وأهلا بك.. الكل هناك يلعبون التايكوندو.

كان مكتوبًا عليها «سكرتير عام الاتحاد الكوري».. هو الذي

أشار عليّ بأفضل توقيت يمكنني فيه الذهاب هناك.. أغسطس.

لمحت طاقم الطيران والمضيفات يغادرون المطار، شرحت لهم الأمر فابتسموا جميعا، كان الرجل محقًّا.. جميعهم مارس التايكوندو في المدرسة، أما الطيار فكان بطلا محليا للعبة، قبل أن يشغله طيران الهواء عن طيران الأرض!

حملوني معهم في سيارة المطار، كانوا ودودين.. سألوني كثيرا عن مصر، فبعضهم لم يسمع بها رغم عملهم في الطيران.. كانت رحلاتهم محصورة في العالم الذي يعرفونه؛ آسيا، أوروبا أحيانا.. لا يعرفون أُمًّا للعالم.. كل بلد هي أُم للعالم بشكل أو بآخر من منظور أبنائها.. ضحكت كثيرا حين سألتني إحدى المضيفات:

ـ مصر في أفريقيا أم في الشرق الأوسط؟

أجبت بأنها تنتمي لكليهما، فاتضح لي أنها كانت تظن الشرق الأوسط منطقة منعزلة عن أي قارة!!

ما استوعبته لاحقًا أن مصر ليست إلا مصر؛ لا يمكنني تصنيفها كدولة أفريقية بشكل خالص، لأن لأفريقيا طقوسًا وشكلًا ولونًا وطباعًا تغلب على أكثر شعوبها.. ولا يمكنني تصنيفها ـ ببساطة ـ كدولة عربية كما في المعنى المعتاد، لأن مفهوم الدول العربية بملابسهم ولكناتهم يختلف تماما عند جميع مواطني العالم عن واقع مصر التي أعرفها.. ربما أستطيع أن أضمها لدول الشمال الأفريقي.. مع اختلاف بيّن في الطبائع واللكنات.

أوصلوني لوجهتي وودعوني بحب وأدب جم، عرفته بعد ذلك جزءا أصيلا من طبائع الكوريين، نزلت لأعبر البوابة فوجدت حارسا واحدا لا يتحدث الإنجليزية بالطبع.. كانت البطاقة التي أحملها مكتوبة بالإنجليزية من جهة وبالكورية من الجهة الأخرى،

هز رأسه بتفهم وأشار إلى الفراغ بما يعني أن عليَّ أن أمشي لمسافة غير قصيرة.. فشكرته واتجهت حيث أشار.

اكتشفت على الفور أنني أصعد طريقا محفورا في جبل متوسط الارتفاع.. على يميني ويساري غابات كثيفة، كانت تلك اللحظة تعبيرا حقيقيا عن مشوراي، هوس تام بالرياضة.. وطرق لا أعرف أين تأخذني بينما يدفعني الإصرار إليها دفعا.. ومرتفع قاس إلى حد ما سأخوضه وحدي، المطر الذي هطل بغزارة كان استكمالا للصورة.. لن يكون الأمر سهلا!!

متعة السير تحت المطر في ذلك الجو الأسطوري ألهمتني كثيرا، وضعت سماعات جهاز التسجيل الصغير الذي كان من لوازم الرياضيين في تلك الفترة، أدرت شريطا إنجليزيا لأغانٍ ارتبطت بفيلم عالمي عن بطل ملاكمة شق مشوارا صعبا، كان ذلك هو فيلمي المفضل.. والأغنية Eye of the tiger

وصلت بعدما قطعت مسافة استغرقت ما يقرب نصف الساعة على ذلك المرتفع وأنا أغني تحت المطر، وجدت أمامي مبنى الاتحاد الدولي، هو نفسه كان ساحرا بالنسبة لي.. يبدو كمعبد آسيوي مربع وضخم، واجهته من أعمدة حجرية أنيقة مستديرة، وسقف تميل أطرافه إلى الخارج كأكواخ خشبية، أما الطوابق فواجهاتها زجاجية شفافة تبطنها ستائر حمراء داكنة.

وقفت أحدق في المبنى والماء يسيل من ملابسي وحقيبتي، دخلت ردهة الاستقبال فوجدت سكرتيرة لطيفة نظرت إليَّ بشفقة، قدمت لي كوبا من مشروب ساخن مائل إلى الصفرة، طعمه أقرب ما يكون إلى تراب الخماسين.. لكن دفئه بدا ممتعا.. مددت لها يدي بالبطاقة.. طالعتها ثم قالت لي بالإنجليزية:

ـ لن يأتي اليوم.. ربما غدا.

ربما؟

قلتها وكدت أبكي من خيبة الأمل، حاولت أن تهدئ من روعي وهي تسألني عن سبب مجيئي، فحكيت لها بعجالة..

ـ من مصر؟!!

سألتني، فأومأت بحسرة.. ابتسمَت بحماس وهي تقول:

ـ اجلس!!

جلست فوق مقعد جلدي، بدأتْ هي في إجراء سلسلة من المكالمات المتتالية، فأضفتُ صفة جديدة لصفاتهم على الفور؛ الحماس في العمل.. لا يعتبرونه عبادة كما نعتبره لكنهم يرونه الحياة، كل مهمة لهم هي أمر حتمي لابد من إنهائه في أقرب وقت، وعلى أفضل وجه.. لا يتكاسلون عن شيء مهما كان صغيرا.. نظرَت إليَّ مشجعة، وقالت:

ـ سيحضر بعد ساعة!

٢٦

بحث عن صديق/ Searching for a friend

أخرج مجلدا صغيرا من درج مكتبه وهو يفتش فيه حائرا ثم صاح:

ـ مصر!!

وضع أصبعه على الخريطة وهو يحاول حساب المسافة التي قطعتها من هناك، ثم قال وهو يضحك كما لو أنه قابل مجنونا:

ـ قل لماذا مرة أخرى؟

أجبته في خجل:

ـ أريد أن أتدرب معكم..

ثم استجمعت شجاعة إضافية:

ـ بالتحديد مع جونج كيم!!

انفجر ضاحكا مرة أخرى:

ـ أووو.. أنت بالفعل مجنون.. لا أحد يتدرب معه....

صمت في إحباط، قام مربتا على كتفي قائلا:

ـ لكن لا تقلق.. أنت مجنون، لكنك مقاتل، عندما أعطيتك بطاقتي لم أتخيل أبدًا أنك ستأتي..كنت أظنك تتكلم فقط، لكن طالما جئت سأكون عند وعدي، مع أني لا علاقة لي بالتدريب، سأقدمك إلى أحد أصدقائي، المهم أن تكون لاعبا جيدا..

تجاهلني بعدها تماما، أجرى مكالمة هاتفية وقدم لي مشروبا آخر من التراب الأصفر الساخن ثم انشغل بأوراقه ومكالماته، بعد وقت لم أحصِه دخل علينا رجل قصير القامة عمره يتجاوز الستين، بنيته أقرب إلى الملاكمين رغم السنين البادية فقط في تجاعيد وجهه، عيناه خطان عريضان يحيرانك في الآلية التي يرى بها..

كان غاضبا على الأرجح، يتحدث لغته فحسب.. أعتقد أنه بادر بالرفض لكن الرجل الآخر أرغمه على القبول، ثم قال لي بضيق لم يظهره من قبل:

ـ سيختبرك لمدة يومين..ثم يخبرك إن كنت ستبقى أم تعود إلى بلدك!

شكرته وانطلقت مع مدربي الجديد.. مستر هان سونج لي!

لم يرحب بي، كان يتمتم كل بضعة أمتار يقطعها بسيارته الصغيرة بسلسلة من الجمل لم أعرف كنهها، أخذني إلى فندق صغير في مواجهة الجامعة التي يقوم بالتدريب فيها والتي عرفت

لاحقا أنها إحدى أهم جامعات كوريا في الرياضة عموما..وفي رياضتي بالتحديد.

فجأة أصبح كل شيء جيدا، الإقامة رخيصة، والمكان قريب، سأعبر الشارع للجهة المقابلة فقط، وسيختبرني المدرب.. وأنا مستعد.

عرفت قيمة شربيني والسعيد وباقي رجال قرية السعداوية عندما بدأ الاختبار، كان من الواضح أنه قرر التخلص مني مبكرا.. أشار إلى الطريق المنحدر الصاعد إلى الجامعة وطلب مني أن أقطعه عدة مرات مع أفراد الفريق، وعلى وجهه ابتسامة سخيفة.. بدأت الجري فورًا وأنا أبتسم، ما أجمل الجري على طريق ممهد بلا أحجار، استحضرت الكلاب الضالة وأنا أسعى للحفاظ على صدارة الترتيب، كانت حالتهم البدنية أفضل مني كثيرا لكني لم أكن الأخير، كنت في المنتصف.. متوسط اللياقة والقدرة.. نفس الشيء حدث في جميع التدريبات، بدأت أشعر بثقة تتزايد مع كل مرحلة.. ابتسم الكوري العجوز لأول مرة مع نهاية اليوم، صافحني لأول مرة، واستعان بالطالب الوحيد الذي كان يجيد الإنجليزية ليبلغني قراره: لا مزيد من الاختبارات، سأتدرب معهم لمدة أسبوعين، بعدها سيشاركون في بطولة كوريا، وستكون هناك راحة لمدة ثلاثة أيام ثم يبدأ التدريب مرة أخرى، أول ما تبادر إلى ذهني عندما انفرجت أساريره هو أن أسأله عن حلمي الكبير: جونج كيم، لكني لم أجرؤ على ذلك.

لا شيء في الحياة منفرد، كل شيء خليط، عندما ذهبت إلى كوريا كنت أظن أن اللعبة شيئان بسيطان، عقل وجسد..ذكاء ولياقة بدنية.. عرفت هناك أن للجسد عناصر كثيرة.. تعلمت في السعداوية

الجلد، التحمل والصبر.. أما هنا فتعلمت السرعة والرشاقة.. أن تتحول من ثور إلى غزال رشيق يصعب الإمساك به..تقفز وتطير وتغير اتجاهات جسدك في كل لحظة.. ربما لم أصل إلى جونج كيم..لكني وصلت إلى بداية طريقه.. التدريب حركة.. والوقت يسبقك، لذلك عليك أن تستغل كل ثانية.. لم أتعلم منهم جديدا لكني تعلمت الجديد فيما عرفت من قبل.. في نهاية فترة التدريب، كنت قد صرت شخصا آخر بشكل ما.. أصبحوا هم أيضا يعانون في الإيقاع بي، بعد أن كنت هدفا سهلا للجميع، أخبرني المدرب أنه فخور بالفترة التي قضيتها معهم..وأنني ساعدتهم مثلما ساعدوني.. وطلب مني أن أحضر معهم البطولة وأن أسجل كل ما أراه في دفتر صغير أهداه إليَّ، واحتفظت به إلى اليوم، لكني لم أكتب فيه كلمة واحدة لأنني ببساطة لم أرَ شيئا.

جلست متحفزا في الصالة الكبرى في نفس المبنى الذي بدأت منه رحلتي، اختار لي مدربي الجديد مكانا مميزا في المقصورة الرئيسية لأتمكن من رؤية جميع الملاعب، السقف مزين بكتابات كورية والحوائط تحتلها صور بالحجم الطبيعي لأعظم أبطالهم، أجلت عيني في الصور بحثا عن صورة بطلي المفضل.. وجدتها في المنتصف..يرتدي زي التايكوندو وحول عنقه عدد لا نهائي من الميداليات ورأسه وذراعاه لأعلى..

تساءلت عما أحتاجه لتحتل صورتي مكانا كهذا في مصر، ابتسمت متحسرا لأني أعرف أنه مستحيل، لا يكفي أن أصبح بطلا للعالم ولا للكواكب مجتمعة ليحدث ذلك، الأمل الوحيد أن أتحول إلى واحد من لاعبي كرة القدم في الناديين الكبار هناك وأحرز هدفا بأي جزء من جسدي في مرمى المنافس.. عندها فقط سأصبح بطلا قوميا.

ظلت عيناي معلقة بصورته، اخترقت أنفي رائحة نفاذة تشبه رائحة التفاح الأخضر وشعرت بجلبة إلى جواري فانتبهت، أدرت رأسي لأجد عددا من الكوريين يحيطون برجل متوسط القامة، كلهم يحيونه في سعادة.. اتجه مباشرة إلى الكرسي المجاور لي وجلس في سكون، حدقت فيه مذهولا.. للحظة ظننت أن تحديقي في صورته هو ما جعلني أرسم ملامحه على وجه رجل آخر.. لكنه كان جونج كيم!

٢٧

مجموعة/Group

من شرفة المنزل كنت أراقب الطريق، تبدو الأمور هادئة تماما لكن الأخبار تأتي متضاربة كل ساعة، يقولون في بعض المحطات التلفزيونية إن أصدقائي يندحرون والثورة هباء والجثث تملأ الطرقات، ثم أنباء أخرى عن انتصارهم ورفع راية تغيير الواقع إلى الخير أو الشر، عصام يقول إن الجيش سينزل ويستعيد السيطرة ليعيد كل فرد إلى مكانه، وأنا.. أنا أبتهل إلى الله فقط أن يحفظ لي أصدقائي الثلاثة، أن أجدهم في نهاية اليوم عائدين محملين بحكايات النصر أو الهزيمة، نبكي سويا أو نحتفل سويا، أو نفعل أي شيء، سويا.

من أعلى، لم تبد لي الدنيا مختلفة كثيرًا عما أعرفه، نفس الشوارع التي أعرفها والنادي على الجانب الآخر، فقط قل عدد المارة وندرت السيارات، ثم ظهرت بقاع من التجمعات الصغيرة حول حلقات من الأضواء المتراقصة، بينها فجوات واسعة يسير فيها الأفراد ببطء ويتلفتون في حيرة ليحددوا المكان الذي سيختارونه للاستئناس،

حالهم يشبه حال بدوي الذي كان ينتقل من حلقة لأخرى في ليل الميدان بحثا عن الصحبة التي لا ينتمي لأي منها.

ـ دي اللجان الشعبية!

أشار عصام إلى الدوائر المتعددة وهو يمط شفتيه في استياء، ثم بدأ يتقيأ كل ما سمعه في التلفزيون على مدار اليوم، الشرطة انسحبت، الجيش يؤمن المقار الحيوية، وأقسام الشرطة احترقت، والمساجين خرجوا من السجون بعد أن فتحت أبوابها ببساطة متناهية.

حدثني عن مذيع ظهر على الشاشة ليقول بصوت بارد جاف مؤنبا من جلسوا في منازلهم مترقبين في عجز ما ستسفر عنه الأحداث:

ـ احموا ممتلكاتكم!!

لم أصدقه في البداية، لا يمكن أن يصدر عن التلفزيون الرسمي تصريح كهذا طالما لم يزل للبلد رأس، أدار القنوات باحثا حتى وجد مذيعة أخرى تكرر الأمر بنبرة هلع مفتعلة، شعرت بالخوف، ليس على نفسي فلم أعد أخاف عليها منذ زمن، لكن على رفاقي الذين كانوا هناك، وتساءلت في قلق عمن سيحميهم إذا حانت اللحظة التي قرأت عنها كثيرا في كتب التاريخ من شتى بقاع الأرض؛ اللحظة التي يصفها طرف بلحظة القضاء على الفوضى، ويراها الطرف الآخر مذبحة.. وأطراف أخرى شرا لا بد منه.

هواتفهم المحمولة تجيبني برد ثابت صار يصيبني باكتئاب إلى اليوم؛ «الهاتف قد يكون مغلقا أو خارج نطاق الخدمة»، صوت أنثوي بارد يبدو آدميا لكنه يحمل جمود المعادن، من الشرفة إلى التلفاز إلى حوارت عصام التي تأتي كما لو كان كل ما يحدث لا يعنيه، يبدو لي كمن يتابع مباراة في الدوري العام حقق فيها فريق من الدرجة الثالثة هدفا مفاجئا في مرمى البطل، مجرد مفاجأة مثيرة لكنها لن تدوم.

طلبت منه أن يساعدني على ارتداء ملابسي كي أنزل الشارع، بدت عليه سعادة مفاجئة وهو يؤكد لي أنه كان سيقترح ذلك، ثم التقط مضرب بيسبول كنت أحتفظ به في خزانتي منذ زمن طويل، خبط عليه في سعادة وهو يؤكد لي أننا سنحتاجه لـ«حماية أنفسنا»، ثم وقف أمام المرآة للمحة قصيرة وهو يضعه على صدره فكتفه ويبتسم في رضا.

لم يكن المتجمعون في تلك الجلسات يعرفون الكثير عما يحدث، تشعر أنهم في حفلة تنكرية كبرى. هكذا بدا لي الأمر وأنا أجلس في الدائرة التي كانت تتسع رويدا رويدا، كل ساعة وكل يوم، أرواح يجمع بينها الخوف والحيرة وجدوا أنفسهم طرفا في معركة موازية لم يتمنوها، فالخصم يبدو كوحش أسطوري، اللصوص والبلطجية والقتلة الذين سيأتون لاحقًا لينهبوا المنازل ويقتلوا الجميع، كل واحد اختار لنفسه حلم طفولته الأولى في عالم الجريمة، هناك من رأى نفسه ضابطا وآخر تقمص دور البلطجي وثالث يؤدي وظيفة المخبر، يجري يمينا أو يسارا ليعود بخبر عن لص أمسكوا به أو سيارة تطلق النار على الناس وتبتعد، اتضح بعد ذلك أن جميع الحكايات مجرد وهم، مجموعة شباب يمسكون عصيا ومواسير معدنية وأسلحة بيضاء وقد ارتدوا أوشحة مزركشة وطواقي صوفية كعصابات الأفلام الأمريكية، رجال على المعاش يجلسون في توتر ليوجهوا الشباب وهم يبتهلون إلى الله أن يزيح الغمة، رجل وحيد يرتدي حلة داكنة وربطة عنق أنيقة جاء قبيل منتصف الليل وأوقف سيارته الأنيقة أمام مكان جلستنا ثم حيَّانا في ود، عرف نفسه باسم اللواء حمدي ثم طلب من حارس العقار أن يجمع كل خفراء الأراضي وحراس العقارات، فتح سيارته ليخرج

منها حقيبة ممتلئة بقطع متنوعة من الأسلحة وهو يلقي تعليماته ويوزعهم على مداخل ومخارج الشارع، من يأخذ قطعة سلاح يسلمه بطاقته الشخصية أولا، ثم كتب في ورقة صغيرة أسماءهم ورتبها في مناوبات متتالية على مدار الليل، مؤكدا عليهم أن يكون الضرب في الهواء فقط.. ومن سيخالف التعليمات سيكون مصيره أسود من الليل.

عندما رأوني للوهلة الأولى بدا التوتر على بعضهم، وشفقة أزعجتني على البعض الآخر، لا سيما عندما عرفهم أحد سكان العقار إليّ كبطل رياضي سابق، تنهد أحدهم بشكل تلقائي وهو يقول:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

حاولوا إثنائي عن المشاركة وهم يؤكدون أن وجودي لا داعي له، استسلموا في النهاية لإصراري، ثم تآلفوا معي وبدأت سلسلة الأسئلة المعتادة بشكل مباشر وغير مباشر، والسؤال الشهير عن رفيقي:

ـ ده نفس اللي حصل لمحمد علي كلاي؟

فأبتسم متجاهلا الإجابة أو أكتفي بتأكيد أن الأمر مختلف تماما، الحقيقة أنني استمتعت بصحبتهم وبالأجواء المثيرة، أصوات صياح وصراخ، طلقات نارية تأتي عن بعد، وجماعات صغيرة تجري في اتجاهات شتى، أقنعت نفسي ـ وأقنعوني ـ أن ما نفعله مشاركة حقيقية في الأحداث، كنت منحازا لأصدقائي وما يسعون إليه أكثر من كوني مؤيدًا لفكرة تغيير النظام، أعرف أن الأمر أصعب كثيرا من أن ينقلب رأسا على عقب بمجرد تجمع الملايين، واحد فقط يعرف كلمة السر يستطيع أن يهزم كل من لا يعرفونها مهما حاولوا. وكانت رؤيتي ولا تزال للجان الشعبية أيضا مطابقة، كل هؤلاء الجالسين في ترقب وعلى وجوههم إمارات القوة والعزم على

الدفاع عن أنفسهم لن يصمدوا لهجمة واحدة من عصابة محترفة تحمل السلاح وتعتزم النهب والقتل، في وقت المعركة الحقيقية لن يصمدوا، حتى هؤلاء الخفراء المساكين الذين تسلموا صفقة سلاح لم يرونه من قبل.. جثة واحدة تسقط بطلقة أو «بسنجة» مجرم محترف ستفرق أكثرهم، ومع الجثة الثانية سيجري الباقون إلى منازلهم ويضعون مائدة الطعام خلف الباب ولن يبقى سوى أفراد قلائل ممن يملكون قلوب المحاربين.. وهؤلاء هم من يُقتلون.. لأنهم لا يهربون!

صارت اللجان الشعبية جزءا من يومي، لأول مرة منذ سنوات أصبح لديَّ روتين ومجموعة من البشر أجالسهم بانتظام، زادت الطمأنينة وبدأ الأمر يتخذ منحى جديدا، حول الكبار الأمر إلى جلسة مسائية تشبه جلسات المصيف، أكواب الشاي والعصير، فطائر وبسكويت.. أرسلت زوجة أحد المشاركين كعكة بالمكسرات والكريمة، كانت الحوارات من أقصى اليمين لأقصى اليسار، مؤيد ومعارض وخائف، لا أحد يكره الآخر بل يضحكون في ود، بدت الأمور على ما يرام على الأقل في هذه المنطقة، لكن الأيام التالية كشفت الحقيقة.

٢٨

إعدادات اللغة/Language settings

오마 엘크핫.

هكذا يكتب اسمي باللغة الكورية، يدعم جهازي هذه الكتابة رغم أنني لا أحتاجها مطلقا، لكنني أحب رؤية حروفها، نسيت الكثير مما تعلمت، ولم يبق لي سوى رسم الاسم ليعيدني إلى أيام أعشق ذكراها.

سلني عن المصادفات مرة أخرى، فأجيبك أنها مكافأة من الله للساعين، ركبت طائرة لآلاف الأميال وحيدا في طريق المجهول لألتقي بهذا الرجل.. رسمت خطة طويلة وألقيت بنفسي في بحرها لأصل إليه، لو لم ألتق به هناك لكنت التقيته في مكان آخر في وقت ما، إنها مكافآت السماء لمن يسعون.. ما تطلبه يأتيك بشكل أو بآخر.. هذا ما أومن به وعندي من الأدلة العشرات، من قدري ومن أقدار الآخرين!

لم ينظر إليَّ، ولم أستطع أن أشاهد أي شيء وأنا أفكر فيما سأبدأ به حواري معه، كنت أدير رأسي في اتجاهه كل بضعة ثوانٍ إلى أن التقت عيوننا للحظة واحدة عابرة، فابتسمت، ابتسم محييا ثم واصل مشاهدته للمباريات.. ظننته سيعرفني لكن لم يبد عليه ذلك.. لم أملك الشجاعة الكافية لأبادره الحديث.. وعندما قام من مكانه مغادرا فجأة كدت أبكي وأنا أشعر أنني أضعت بترددي الفرصة الوحيدة.

تعلمت من ندمي في تلك اللحظة، لم أتردد بعدها أبدا.. كل أنصاف الفرص يجب أن يصحبها فعل لتعرف ما كان يمكن حدوثه، خض التجربة كاملة حتى إن كان مصيرها الفشل، فهذا أفضل من أن تلوم نفسك لبقية عمرك أنك لم تفعل.. شعرت بغم شديد، قررت أن أبحث عن مدربي لأطلب منه أن يعيد إليَّ الفرصة؛ فرصة الحديث مع رجل كان يجلس على بعد سنتيمترات مني لكني ترددت حتى ذهب. قمت من مكاني مسرعا فوجدته أمامي مرة أخرى ومعه شاب يشبهه إلى حد ما..لكنه أضخم كثيرا ومفتول العضلات.. أشار هو إليَّ فأوقفني الشاب بيده قائلا:

ـ انتظر..

عرفت بعد ذلك أنه شقيقه وأنه ذهب ليحضره بعد أن تذكرني ليقوم بدور المترجم..

ـ أنت المصور الفاشل.. وعامل النظافة الذي يجري من الملعب!!

ابتسمت في حماس، كانت ملامح شقيقه أكثر حدة وهو يترجم ما لم يبدُ على وجه أخيه بنفس درجة الغضب، كانت ملامحه أقرب للفضول، يريد أن يعرف من أكون ولماذا فعلت ذلك، وكيف عرفت أنه سيأتي إلى القاعة.

عندما أخبرته أنني أتيت من مصر لكي أتدرب معه، اتسعت عيناه في دهشة لم تخلُ من إعجاب.. لم يكن العالم صغيرا كما أصبح الآن.. كان يدرك مشقة الأمر جيدا.. تحدثنا سويا بملامح تعجب متتالية تزايدت عندما استطاعا تقدير المسافة التي قطعتها وطبيعة البلاد التي أتيت منها.. قال شقيقه ليتأكد:

ـ Egypt؟

كررتها وراءه فمط شفتيه مستبعدا الأمر وسألني مرة أخرى وهو يرسم مثلثا بيده:

ـ Pyramids؟

ـ Yes.

ـ You are crazy!!

جاء هذا التعليق من كيم شخصيا، فابتسمت أنا في حماس، ولم أعقب.

أشار إلى مقعدي فجلست في المنتصف بينه وبين شقيقه، توالت الأسئلة عن مصر والعرب والتايكوندو هناك.. ثم عن سني وأسرتي، اكتشفت أن طقوس العائلات هناك تتقارب معنا بشكل ما عندما سألني ببساطة:

ـ وهل وافقت أسرتك على أن تسافر وحيدا؟

حكيت له قصة الخدعة التي فعلتها، وعن زملاء المنتخب الذين أدوا دور الممثلين المساعدين حبا في صديقهم، فانفجرنا سويا في الضحك.. فرد سبابته وهو يهزها مع ترجمة أخيه الفورية:

ـ أنت خطير.. وأصدقاؤك رائعون..

ثم تشاغل عني بمباراة بدت مهمة، كان يشجع بحماس أحد اللاعبين فشجعت معه تلقائيا، بمجرد أن انتهت المباراة قام من مكانه، أشار إلى شقيقه الذي استدار بعد أن تحدثا سويا في عجالة ثم قال:

ـ الكثيرون طلبوا منه فرصة للتدريب معه لكنه كان يرفض، أنت تختلف..كلهم طلبوها عندما كانوا يلتقون به مصادفة، أو عندما يأتون هنا للتدريب مع منتخباتهم.. أما أنت فأتيت بحثا عنه دون أي ضمانات.. لذلك فهو يقول لك إنك تستحق الفرصة.

مد كيم يده ليصافحني في ود، ومد يده بورقة كتب فيها عنوانا بالكورية أشار إليها وهو يقول:

ـ هنا..بعد نهاية البطولة بيوم.. السابعة صباحا.

لم أستطع إخفاء فرحتي، بمجرد أن غادرا نزلت لمدربي الكوري لأخبره فبدت عليه الدهشة والسعادة في آن واحد، أعطيته الورقة التي كتبها لي كيم بخط يده فابتسم بارتياح وشد على يدي بقوة وهو يقول شيئا ما ترجمته بحدسي:

ـ حظا سعيدا.

ثم انشغل بلاعبيه سريعا، لم أشاهد بقية المباريات وإن تظاهرت بذلك، بحثت إلى جوار الفندق عن مكتبة، اشتريت كتابا لتعليم اللغة الكورية للأجانب «بدون معلم»، قضيت الأيام الثلاثة أذاكر بمعدل يقترب من اليوم بأكمله برغم أنني كنت أجلس في

المقصورة الرئيسية وأحمل الدفتر وأتظاهر بالمشاهدة والتسجيل حين يراني المدرب.. لم أرد إغضابه فلم أكن أعلم ما سيأتي ولا مقدار حاجتي إليه بعد ذلك.

أصبحت أعرف صوت الحروف وأجيد كتابة اسمي في يوم واحد، وتكونت عندي في نهاية اليوم الثالث حصيلة من الكلمات البدائية اخترتها بعناية، التحية والسلام والشكر، الساعة والأرقام، وأسئلة أساسية سأحتاجها مثل كيف نفعل ذلك؟ مرة ثانية من فضلك، اليمين اليسار والأمام والخلف.. والجملة الأهم: أين هي في القاموس!

كنت أعرف أن أخاه لن يكون جزءا ثابتا في التدريبات، وكنت أفضل أن يصبح تواصلنا مباشرا بدون وسطاء.

٢٩

عمر كتب ملاحظة/Omar wrote a note

أول أيام الجامعة، أول بطولة محلية، أول بطولة عالم، أول يوم في زواجي ويوم تدريبي الأول مع كيم، هذه الأيام التي تحمل أكبر قدر من انفعالات الترقب في حياتي.

استيقظت بنشاط لا يتناسب مع إشارة عقارب الساعة إلى الرابعة والنصف فجرا، تقريبا لم أنم، كنت أتقلب في سريري وأنا أراجع سيناريوهات متعددة لما يمكن أن أقوله أو أفعله، ثم أتذكر كلمة من الكلمات الكورية التي لم أكن قد أجدت حفظها بعد فأقوم لأراجعها، أول مفاجأة غير سعيدة كانت في معرفة المسافة إلى هناك، لن تقل عن ساعة فالسادسة صباحا ساعة ذروة في شوارع سول، كل شيء يبدأ هناك مبكرا وينتهي مبكرا، اليوم يبدأ السادسة

صباحا وينتهي في الخامسة مساء.. أما في مصر فالأيام تبدأ في التاسعة صباحا ولا تنتهي.

استغرق التاكسي ساعة.. وصلت في الموعد لأجده ينتظرني حاملا على كتفه حقيبة صغيرة..

ابتسم مرحبا وهو يقول بإنجليزية مقبولة:

ـ أهلا.. هل نمت جيدا؟ هل وجدت الطريق طويلا؟ هل أنت مستعد؟

قالها على التوالي كما لو كان تلميذا يقوم بتسميع ما حفظه، ابتسمت وأنا أجيبه بالكورية:

ـ أهلا بك، اسمي عمر، أنا أتكلم القليل من اللغة الكورية.

فضحك وأخرج من حقيبته كتابا لتعليم الإنجليزية للكوريين وقاموسا عكسيا لما أحمل، فأخرجت أنا أيضا أسلحتي اللغوية، الكتاب والقاموس، حدق فيهما مندهشا للحظات، ثم خبط على كتفي وهو يضحك بصوت عال، احتجنا لبضع دقائق بعدها لنستخرج سويا من كتبنا ما أراد أن يقوله:

ـ هذه علامة مبشرة.. نحن نفكر بطريقة مشابهة!!

بالفعل كانت كذلك، الأبطال في كل المجالات وفي كل معارك الحياة يفكرون بطريقة خاصة، الحلول.. لا يقفون أمام العقبات، كل شيء يتحول للغز يستلزم حلًّا، غالبا ما يكون بسيطا مهما بدا صعبا، لم يتوقف أي منا للحظة ليتساءل كيف يمكن أن نتواصل بغير لغة مشتركة.. بل في نهاية التدريب معه والذي استغرق ما يقرب من ثلاثة أسابيع أصبحت قادرا على التواصل باللغة الكورية والعكس. الضعفاء فقط هم من يقفون أمام العوائق لينظروا في تحسر ويقولون:

ـ يا للأسف!!

جلس كيم على الأرض ثم أخرج من حقيبته «ترموس» صغير وكوبين من الخزف، صب فيهما مشروبا ساخنا تصاعدت أبخرته لتخترق أنفي، شعرت بنشوة غريبة كانت تثيرها فيَّ دائما رائحة القهوة لا سيما في الشتاء رغم أنني لم أكن أشربها حتى ذلك التاريخ، كانت أمي تقول إنها مشروب الكبار، عندما أصبحت منهم لم تثر فضولي، أحببت رائحتها في أيديهم لكني لم أستسغ طعمها.

لكني لم أعترض، أخذت رشفات صغيرة متتالية، كانت ثقيلة مُرَّة لأنه لا يضيف إليها أي سكر، لاحظ ملامحي فقلب صفحات كتابه وهو يشرح لي أنها منشط جيد للرياضيين، وأن عليّ أن أعتادها قبل المباريات والتدريبات دون إفراط لأن نسبة محددة منها مسموح بها أما الكثير منها فيؤدي إلى استبعاد اللاعبين من البطولات مثل أي عقار منشط.

أجواء ذلك اليوم ورائحة قهوته وابتسامة كيم المرحبة وأعمدة صالة التدريب وحوائطها محفورة في رأسي حفرًا، أستيقظ من نومي كثيرا على بقايا أحلام مختلفة يجمع بينها شيئان، المكان والرائحة.

يتحول كيم عند التدريب لشخص آخر، لا يمزح ولا يضحك، ترتسم نظرة جامدة على وجهه، حتى عند الراحة يبدو شاردا تماما وهو يفكر فيما فعله وما سيفعله لبقية التدريب.. لا تنفرج أساريره إلا بعد نهاية التدريب كما لو كان في اختبار صعب..كان هذا أكثر ما تعبت في مجاراته فيه.. النفسية والتركيز، وكان هذا أكثر ما يغضبه مني في البداية.. كان يرى أنني أتدرب بأريحية شديدة لا تناسب الموقف، أول مرة قالها بغضب:

ـ تدرب كما لو كنت في مباراة.. خف من أخطائك وزد من تركيزك، أنا أشعر بنفس الخوف قبل التدريب كما لو كانت البطولة.. التدريب أصعب لأنك تنافس نفسك لتصل إلى ما لم تصل إليه من قبل..

لكنني لم أستطع أن أصل لما يريده.. ويبدو أنه لم يبد سعيدا بأدائي لذلك سألني في عصبية:

ـ هل تصلي؟

لم أجب فعاجلني بحدة:

ـ كل الأديان تصلي.. تفكر في إله وتصلي له، تخشع وتصمت وتحاول ألا ترى أو تسمع شيئا من حولك.. هل تستطيع أن تتدرب بطريقة مماثلة؟

حاولت قدر استطاعتي، أكثر ما شتتني هو أنه لم يكن يتدرب كما عرفت في القاهرة وفي السعداوية وحتى في كوريا مع الفريق الآخر.. كان يتحرك طوال الوقت.. نحلة محبوسة في إناء زجاجي هو الملعب.. من المستحيل أن تمسك بها.. وإذا حاصرتها ستلسعك.. وعلى خلاف غيرها كيم نحلة لا تموت حين تلسعك.. بل تتبع اللسعة بأخرى سريعة، فقد كان يرى أن اللحظة الأمثل لتهاجم فيها خصمك هي التي تلي مهارة ناجحة.. لا وقت للاحتفال ورفع اليد والنظر إلى الجمهور بسعادة كما كنت أفعل، عليك أن تزيد الفارق بينك وبين الخصم..

أما مهارات اللعبة فكان يتعامل معها بما يمكن أن نسميه التحرر التام، لا يوجد إطار للمهارة.. توجد أسس فقط.. افعل ما تريد وأضف إليه كما تشاء.. الضربة المفردة يمكنها أن تصير مزدوجة.. كما يمكنك أن تضيف قفزة ما لأي مهارة أرضية.. لماذا تصد ضربة

بيدك إذا أمكنك تفاديها دون أن يمسَّك المنافس.. كانت له فلسفة خاصة في اللعب.. لهذا أطلقت عليه:

ـ الفيلسوف!

لم نكن نحتاج إلى التحدث أثناء التدريبات، كنت أقلده فقط.. وكان هو يتعمد أن يبطئ حركاته لأتعلمها منه رويدا رويدا، كانت نظرات الإعجاب تقفز من عينيه وهو يراني أحاول وأسقط عدة مرات، حتى أحاكي ما يقوم به، صارحني بدهشته من قدرتي على المتابعة وصارحته بدهشتي من قدرته على فعل أي شيء.. في اليوم الرابع من التدريبات قدم لي ضربته الجديدة القديمة ٣٦٠ درجة!

قال لي كيم إن تغيير الأوضاع وسرعة الهجوم في الحياة أيضا له قيمة خاصة، كلمة حب مفاجئة لفتاة كانت تظن أنك لا تراها، كلمة رفض لصديق اعتاد أن توافقه فيما يريد، ضربة عنيفة توجهها لشخص اعتاد أن يضربك ويفلت، فترة تدريبي مع الفيلسوف كانت تكوينا لشخصيتي الحقيقية.. في الملعب والحياة.

كانت متعة خالصة، حياة جديدة انشغلت بها عن كل شيء، طعام كوري ومذاكرة اللغة الكروية وتدريبات قاسية.. انتبهت فجأة لتآكل نقودي نظرًا للمسافة التي أقطعها يوميًّا، حاولت أن أذهب بالمواصلات العامة فوجدت الأمر مرهقًا جدا، في نهاية الأسبوع أدركت أن ما بقي من المال لا يكفيني إلا لأسبوع آخر.. كانت منطقة التدريب نائية، وبرغم ذلك استجمعت شجاعتي وطلبت منه أن يسمح لي بالمبيت في صالة التدريب.. نظر إليَّ في حيرة، شرحت له الموقف ففكر طويلا ثم قال:

ـ دعني أرتب الأمر!

كل ما حدث بيننا مكتوب عندي في الدفتر الذي أهداه لي المدرب

الكوري، لم أكتب مذكراتي أبدا إلا في تلك الأيام، أسجل كل ما أرى وأفعل وأسمع، أقتطع منها أجزاء وأرسلها لريم لكي أشركها فيما أراه، لو وجد الفيس بوك آنذاك لكنت أضفت إليه حكايتي معه وشاركتها ليراها الجميع، ما تبقى منها في صور محدود للغاية، أعظم أزرار الحساب في رأيي هو زر المشاركة عندما تكون صادقا وتشارك حياتك أنت وما تعيش مع من يحبونك ليعيشوا معك.

٣٠

ريم أرسلت لك صورة/Reem sent a photo

عمر.. هذه صورة رسالة قديمة.. هل تذكرها؟

«عزيزتي ريم، وحشتيني بجد.

لم أشعر بحاجتي إليك مثلما أشعر بها هذه الأيام رغم أنني في غاية الانشغال، لكني أحتاج لأن أحكي لأحد، فالأمر أعظم مما تتخيلين.

أنا حاليا أتدرب مع جونج كيم العظيم، وأتعلم الضربة التي حاولنا فك طلاسمها سويا. ربما يجب أن أصف لك هذه الضربة بالتحديد بعد أن فهمتها، تدربي عليها إلى أن أعود فلها أسرار خاصة يمكن أن تصلح لحياة بأكملها، وأنا سأعلمك المزيد قريبا عندما أعود.

هذه الضربة تختلف عن كل شيء، تكسر الحدود والمسافات والقواعد، لم أعرف ذلك إلا حين رأيتها عن قرب.. حاولي أن تفهميها، تعرفين جيدا كيف نقف في الملعب بخطوة تشبه خطوة المشي العادية، قدم في الأمام وأخرى في الخلف، في هذه الضربة نرتكز على القدم الأمامية وندور بالخلفية كما لو كنا نرسم بها نصف دائرة على الأرض.. فيتبدل وضع

فيتبدل وضع القدمين.. وتأتي الضربة من القدم الأخرى.. وتكتشفين أن المسافة التي تقطعها الضربة تضاعفت بسبب نصف الدائرة التي قطعتها قدمك.. كل ذلك يحدث في قفزة واحدة ليكون تفادي تلك الضربة مستحيلا، هل فهمت شيئا؟ لا يهم.. شرحها كتابة في غاية الصعوبة، سأريها لك حين أعود».

صندوق الرسائل/Inbox

ريم

هل تصدق أن قلبي لم يزل يدق عندما أرى حروفا تشبه حروف خط يدك؟ أو ورقا يحمل حروفا كورية كالتي كانت تزين أوراقك؟ وتتعالى دقاته كثيرا عندما أجد نفسي في أي مكان من الأماكن التي اعتدنا أن نلتقي فيها. لذلك تمنيت ألا أراك مصادفة في أي مكان.. فقلبي غالبا سيتوقف.

وصلني خطابك الأول فاحتفلت معك من هنا.. قفزت على سريري في فرحة وجريت في أرجاء المنزل واحتضنت أمي، عمر سيتدرب مع أشهر أبطال العالم كما يصفه، لا أعرفه، لكن طالما عمر سعيد فأنا أيضا سعيدة، مقابل البعاد يستحق الصبر، جلست لأكتب لك خطابا أحفظ أجزاء منه عن ظهر قلب.

«أحبك وستقف حياتي إلى أن تعود، حافظ على نفسك وأخبرني كل ما يحدث، لماذا لا ترسل إليَّ خطابا كل يوم فأتلقاها جميعا متتالية؟ هل مكتب البريد قريب من مكان تدريبك أم بعيد؟ إذا كان قريبا فاذهب كل يوم.. وإذا كان بعيدا فاذهب كل يومين، أريد أن أعرف كل شيء».

«هذه الخطابات ستكون حياتي إلى أن تعود وستكون من

أفضل الذكريات التي سنحملها معنا بقية عمرنا، عندما نجلس وسط أحفادنا لنحكي لهم كم كنت عظيما وكم تعبت في مشوارك حتى البطولة، فأنا أعرف وأومن بأنك ستصبح بطلا للعالم يوما ما، ويومها ستكون مدينا لي بقبلة على الهواء مباشرة أمام كاميرات التلفزيون والجمهور».

«كل شيء هنا على ما يرام، وبالنسبة لي فقد قررت أن آخذ إجازة من حياتي بأكملها حتى تعود، لكني سأتدرب بانتظام لكي أستطيع أن أضربك كما فعلت في المرة الأولى».

«قبلت خطابك وارتديت ملابس التدريب وذهبت إلى النادي، جريت ما يقرب من ساعتين دون أن أشعر بالوقت، ذلك اليوم والأيام التالية مباشرة كانت الفترة الوحيدة في حياتي معك التي شعرت فيها بأنك ملك خالص لي وحدي رغم أنك لم تكن في يدي ولا أمام عيني. فعلت ما طلبته منك، كنت تكتب لي يوميا خطابا طال أو قصر. أي روعة عشتها في تلك الأيام.. العشوائية والانتظار السعيد، أجلس في البيت في ترقب، يدق الباب وأنا في أي مكان فأقفز من مكاني وأنهي الجميع عن فتح الباب، أركض في اتجاهه كعداءة حواجز أوليمبية، يتضح أنه إنذار كاذب ولا يخصني فأرجع في إحباط، تضحك أمي وتعانقني، ويتظاهر أبي بأنه لا يعرف ولا يفهم شيئًا مما يحدث، لكن ابتساماته القلقة تخونه من آن لآخر، لحظة وصول الخطابات كانت لها طقوس خاصة، ابتسامة واسعة في وجه ساعي البريد، ثم أدس الخطاب في جيبي وأمشي بهدوء مصطنع حتى غرفتي، ثم أدخل وأغلق الباب بإحكام لكي أقرا.. أحبك؟».

اللحظة التي شعرت أنني ملكة العالم بأسره جاءت عندما فتحت

الباب لأجد ستة خطابات جديدة، وخطك الأنيق يزين آخرها:

«أحبك ولم أعد أستطيع أن أنتظر يوما كاملا لكي أرسل إليك خطابا جديدا، سأكتب إليك بعد كل تدريب».

«لماذا تصورت أنني امتلكتك تماما في تلك المرحلة؟ كنت لم أزل مراهقة. لم يكن لديك سواي! أنا كنت زر الإعجاب الوحيد في حسابك إلى أن تعود من منفاك الاختياري، وأنت كنت تريد كل شيء في الدنيا، وكنت تريد كل نساء العالم الجميلات، كنت أرى ذلك في عينيك، وأرى محاولاتك الدائمة لكي تنتزع إعجاب كل جميلة من حولك حتى وإن لم تكن راغبا فيها، ما لم تعرفه وقتها يا عزيزي أن امرأة واحدة تحبك يمكن أن تصنع لك عالما كاملا تسكنه إلى الأبد، أما من هو مثلك.. فلا يسكن أبدا بل يظل مطارِدا ومطارَدا إلى الأبد، وعندما عدت من هناك سألتني عن وصول خطاباتك إليَّ ولم تسألني لماذا لم أرسل إليك الرد أبدا.. فلم أخبرك بأنك نسيت أن ترسل العنوان!».

٣١

شخصية عامة/Public figure

ظهر خالد فاروق ـ الكاتب الصحفي والإعلامي الشهير ـ في اللجنة الشعبية فجأة بعد يومين، لم أكن أعرف أنه يسكن في بناية مجاورة، لاقَى ترحيبا خاصا بالطبع، لم أهتم فقد اعتدت رؤية المشاهير، هو أقل منهم جميعا، جميع مقالاته كانت برائحة النفاق، يمدح أو يهجو فتشعر برائحة المصالح تفوح من السطور.

رغم أنهم جميعا كانوا يرددون عنه نفس الكلام إلا أن الشهرة لها

بريق جذاب، كانوا يتحلقون حوله، ينتظر إلى أن يزيد عدد الجالسين ثم يبدأ حكاياته، ما حدث في القصر بالأمس وما سيحدث غدا، يتكلم كثيرا بثقة العارف وينصت قليلا ثم يقاطع المتحدث وهو يعلن أن الأمر أخطر من فهم العامة.

حتى ذلك التاريخ لم يكن خالد بالشهرة التي اكتسبها مع تطور الأمور، تقلبت الأمور عشرات المرات وظل هو طافيا على السطح، كان يمضي بعض الوقت في حواراته ثم يأخذ ركنا قصيا ويخرج جهاز الكومبيوتر المحمول وينهمك في الكتابة، شرح لنا بفخر أنه يعد كتابا عن الأحداث فأثار فضولي، سألته عن عنوان الكتاب ومحتواه فأدار جهازه في اتجاهي لأرى اسم الكتاب متصدرا الشاشة: «الجالسون في مواجهة المؤامرة».

بدأ يقرأ لي مقتطفات من الكتاب، كان يتحدث عنا جميعا، وصفني في الكتاب بالبطل الذي لم يمنعه مرضه من رفض المؤامرة التي حاكتها أطراف دولية ضد مصر، حديثه كان يبدو شرحا تفصيليا لما تبثه قنوات التلفاز المحلية عن الأحداث، يتحدث عن رجال يتكلمون لغات غريبة وأموال بالعملة الصعبة تدفع للمتظاهرين ووجبات طعام خاصة بالآلاف توزع على الثوار، إيمانه بما يقول كان محيرا لي، فهو لم يتحرك من منزله منذ بداية الأحداث لكنه أكد لي ببساطة أن لديه مصادر موثوق فيها.

كان يسابق الزمن ليلا ونهارا، أكد لي أن كتابه سيخرج إلى النور في اليوم التالي من القضاء على تلك المؤامرة، وذلك هو سبق الكاتب المحترف.

بدأت أعداد الجالسين تقل تدريجيا كما زادت، بينما يقف

شباب بعرض الطريق ويطلبون من المارة بطاقات إثبات الشخصية، ويفتشون السيارات.

اكتسبوا نوعا من القوة والغطرسة تطابق ما ثار عليه القابعون في قلب الأحداث، أصابني القلق حين رأيت الأمر يخرج عن السيطرة، يضربون بأيديهم على السيارات ويتحدثون مع راكبيها كما لو كانوا يمتلكون الطريق.

تعالت الأصوات فجأة عندما رفض رجل ثلاثيني أنيق إبراز بطاقته، كنت جالسا إلى جوار خالد نراقب ما يحدث، حاولوا إنزاله من سيارته بالقوة فاندفع صادما اثنين منهم، فتجمع العشرات حول السيارة، وانقضوا عليه بجنون.

دقائق قليلة وكانت السيارة محطمة تماما والرجل ينزل من سيارته والضربات تنهال عليه من كل جانب، ظهر اللواء حمدي وأطلق عيارين في الهواء فأوقف المعركة للحظات، خلص الرجل من بين أيديهم بصعوبة وأخذه إلى المكان الذي كنا نجلس فيه.

كانت رأس الرجل تدور في كل اتجاه، وعيناه قلقتان وهو يردد:

- سيبوني.

أشعل اللواء حمدي سيجارة وهو يبتسم، فتسببت لي في نوبة سعال قصيرة، فأطفأها معتذرًا ونظر إلى ضيفه وهو يقول في استياء:

- لو سيبناك كانوا هيقطعوك، خليك معانا أحسن!

بدت على ملامح الرجل نظرات الاستنكار، أراد أن يقول شيئا ما لكنه تردد، فوجئت بحمدي يقول في حسرة:

- إيه اللي بيجرى في البلد يا حضرة الضابط؟

نظر إليه في دهشة، أخرج حمدي حافظته وفيها كارنيه العمل القديم، ثم أشار إلى سيارته قائلا بفخر:

ـ أرقام العربية: ج أ د، ٤٥٦.

استعاد الرجل هدوءه فجأة، استراحت ملامحه وهو يسأل:

ـ حضرتك خدمت فين؟

ـ أمن عام.. خرجت من كام شهر.. أول ما شفت نمر العربية قمت علشان ألحقك، كنت عارف اللي هيحصل.. قولي بقى فيه إيه؟

نظر إليَّ ولم يتكلم، حاول اللواء أن يطمئنه من ناحيتي لكنه لم يفتح فمه، تحركا سويا بعيدا ووقفا يتحاوران في توتر، شعرت بأجواء الإثارة تحيط بي، تشاغلت عنهما بمراقبة السيارات التي تقف واحدة تلو الأخرى في استسلام، وبالشباب الصغار الذين يفرضون قانونا خاصا بهم وهم يتحدثون مع ركاب السيارات بمسحة واضحة من جنون العظمة.

لم يقترب أحد من اللواء حمدي وهو يركب السيارة المحطمة ويقودها بنفسه، تحرك بها ببطء ثم غابا عن ناظري، ثم عاد بعد دقائق وهو يتنهد بغضب:

ـ المؤامرة طلعت كبيرة قوي، بس ربنا هيحفظنا إن شاء الله..

ثم نادى على شباب المنطقة وهو ينهرهم بحدة على ما حدث، أجابه أحدهم في برود:

ـ ما رضيش يطلع بطاقته، وبعدين شكله مش مريح..

صفعه اللواء حمدي على وجهه في غضب:

ـ يعني كنت هتاخده اشتباه يا روح أمك؟

نظر إليه الشاب في غضب، بدا الأمر خطيرا لولا تدخل المحيطين، أمسك أصدقاء الصغير به ليمنعوه من ارتكاب حماقة، وأحاط الخفراء وحراس العقارات باللواء وهم يمسكون بالأسلحة

التي وزعها عليهم منذ أيام، دقائق وتم فصل القوات، جلس حمدي يتصبب عرقا ويطلب من أحد الواقفين بجواره أن يأتي له باسم وعنوان هذا «الولد»!

لذت بالصمت حائرا من انقلاب الأوضاع، بدا لي أن شيئا لن يتغير، في كل الأحوال سيكون هناك هؤلاء وهؤلاء، ومن هم مثلي يجلسون في ترقب، كان خالد يراقب عن بعد ويكتب على جهازه بغير توقف، لم أفهم أبدا لمَ كانت اللجان الشعبية توقف السيارات بهذا الشكل، وما الذي كان يفيدهم عندما يعرفون مهنة صاحبها، وما كانوا سيفعلونه إذا لم يجدوا معه إثبات شخصية، هل كانوا سيحتجزونه في بيوتهم؟ بدا الأمر مجرد استمتاع طفولي بتبدل الأدوار في اللعبة الكبرى الأشهر.. عسكر وحرامية.

٣٢

أماكن/Places

مساحات شاسعة من الخضرة تحيط بالطريق الضيق، السيارة فارهة والمقاعد وثيرة أغوص فيها وأنا أتأمل ما حولي، المطر غزير يهطل على السيارة، حجم قطرة المطر أكبر من المعتاد، درجة التكييف الدافئة وبخار أنفاسنا على الزجاج الداخلي يزيدان من شعوري بالرفاهية، يجلس أخو كيم في المقدمة إلى جوار سائق لا يقل عنه ضخامة، كلاهما يردد الأغنية المنبعثة من جهاز التسجيل، اللحن هادئ وجميل، خليط من البيانو والجيتار مع صوت عريض لمطرب، يختلف ذلك عن تصوري للأغاني الآسيوية وقتها التي كنت أتخيلها موسيقى نحاسية سريعة تصدر من مغن يمشي كرجل آلي مرتديا الزي التقليدي، مددت يدي

إلى الزجاج ورسمت على البخار قلبا متوسط الحجم بشعور لا إرادي، مسحته سريعا قبل أن يراه كيم.

سور يتجاوز ارتفاعه ثلاثة أمتار ظهر ساترًا ما وراءه، توقفت السيارة عند البوابة الضخمة ونزلنا في وسط المطر من أجل تفتيش سريع، ثم فتحت البوابة لأرى حديقة تكاد تساوي حجم المزارع التي كانت حولنا، وقصر يقف شامخا في المنتصف تماما.

الشكل الكوري التقليدي، السقف المموج المائل الممتد خارجا لمسافة حول البناء الأساسي، والأعمدة الحجرية في المدخل، والزجاج كاشف عن مساحة الدور الأرضي بأكمله، حجم المبنى ضخم، ثلاثة أدوار أنيقة، نوافذ متكررة في الدورين العلويين، ومسبح يبدو كبحيرة صغيرة تبتلع نقاط المياه الساقطة من السماء مرحبة في شوق.

ابتسم كيم في ود وهو يربت على كتفي، ناداني هامسا «مرحبا أخي» فنظرت إليه في امتنان وتساؤل، سحبني من يدي إلى الداخل ووقفنا متجاورين على سجادة بلاستيكية لنخلع نعالنا ونسقط ما علق بنا من الماء.

سألته في انبهار:

ـ أين أنا؟

فأجابني:

ـ في الجنة.

أجلت ناظري فيما حولي، مساحة شاسعة وأثاث قليل نسبيا، مائدة طعام فرنسية أنيقة مطعمة بالذهب في القاعة الكبرى، ضخمة، يحيط بها خمسة وثلاثون كرسيا، لم أخجل من أن أتوقف خصيصا لكي أحصيها، كرسي على رأس المائدة وسبعة عشر كرسيا على كل

جانب، تجاورها مائدة طعام أخرى بنفس حجمها وإن كانت تقل عن نصف ارتفاعها، تحتوي على عدة مواقد صغيرة لتخدم الجميع على الطريقة الكورية، لا يحيطها كراسيّ، بل عشرات المساند الإسفنجية الوثيرة، نفس عدد وتوزيع أماكن الجلوس على الرأس والطرفين، خلف مقعدي رأس المائدة على الحائط الكبير عدة صور للمكان من عشرات الزوايا، وفي المنتصف لوحة أنيقة مكتوب عليها بخطوط يدوية متباينة الأناقة والدقة:

ـ مرحبا بكم في الجنة.

بالإنجليزية والفرنسية، وبعد عدة سطور بالعربية، وبينهما عدة لغات لم أتعرف إليها، كيم لم يكن يمزح، يطلقون على القصر الجنة بالفعل، طريقة الكتابة تؤكد أن الأمر اعتمد على كتابات الزائرين بخط اليد، يوجد إمضاءات وأسماء متعددة من شتى بقاع الأرض.

ـ أين أنا؟

أشار كيم هذه المرة إلى صورة معلقة على حائط آخر، رجل كوري متوسط العمر، وعدة صور متتالية له في مراحل عمره المختلفة، حولنا يوجد عدد من البشر يبدون من جنسيات مختلفة، السيدة العجوز كانت تجلس وسط رفيقاتها وتتحدث بعصبية، نظرت إلى ملامحها الحادة فشعرت بالخوف.

ـ أنت في قصر الزعيم.. The boss.

تسمر الجميع فجأة، مالوا برءوسهم في اتجاه محدد مؤدين التحية الكورية التي أصبحت أحفظها، انحنيت معهم محييا، انحنى هو أيضا للجميع ثم اتجه إلى ركن من الأركان وجلس على الأرض مسندا ظهره إلى الحائط، تحلق الموجودون حوله في دائرة واسعة، أخذني كيم من يدي وأجلسني بينهم، رحب بي الرجل الكبير بود شديد، ثم استأذنني

في الحديث مع رجاله قليلا قبل أن يعود إليَّ، أشار إلى أحد الجالسين فعاد سريعًا حاملا أطباق طعام ومشروبات، وضعوها لي على المائدة الفرنسية الأنيقة، كنت جائعا بالفعل، أشار البوس إلى صديقي فقام ليجلس إلى جواري، لم يجب عن أيَّ من أسئلتي، فانهمكنا في الطعام سويا، أنهى حديثه مع رجاله وانتظرنا حتى انتهينا من طعامنا، ثم أشار إلينا لنجلس إلى جواره.. على الأرض، أشار إلى شقيق كيم ليقترب، عرفت لاحقا أنه واحد من طاقم حراسته الشخصية، وهم أيضا من يرشحون له ضيوف الجنة على مدار العام، طلبة مغتربين، أبطالًا رياضيين، كل من يحتاج مقرا ومعينا، البوس بنفسه هو من يحدد من يستحق، ثم يضمنه واحد من حراسه لكي يأمنه.

ترحيبه الشديد خلق بيننا ألفة كسرت مهابة اللحظات الأولى، سألني عن أسرتي ودراستي وبطولاتي، قدم لي نفسه كرجل أعمال شهير، الوصف الغامض في كل أنحاء العالم، لم أعرف أبدا طبيعة أعماله ولم أهتم، عرفت فقط أنه من يرعى صديقي وعددًا آخر من الرياضيين والطلبة في كوريا منذ أعوام طويلة، سمع عنه في بداياته فقرر أن يتبناه ليصبح بطلا، فأصبح، توقفت عن الكلام وانطلق هو في الحكي، عن أول مرة سمع فيها عن كيم وأول مرة رآه فيها، ثم وياللعجب.. وجدته يحكي عن مصر.

يتحدث البوس بطلاقة وهو ينظر في عينيك عندما يريد أن يعرف منك شيئا أو أن يقنعك بشيء ما، ويغمض عينيه على ما فيهما حين يحكي، يرجع إلى الماضي ويحكي بشجن غريب، في فترات من عمره كانت المنطقة التي جئت أنا منها حلما لمن يريد أن يبدأ حياته، ضحك بصوت أجش وهو يقول:

ـ ستتغير الأمور، ثم ستتغير مرة أخرى وأخرى وأخرى.

السيد الكبير كان يعرف كل شيء، يتحدث الإنجليزية بطلاقة، ويعرف الكثير عن مصر، حدثني عن الأقصر وأسوان والأهرامات، أبدى أسفه على اغتيال السادات وتشجيعه للانفتاح وسعادته بمعاهدة السلام مع إسرائيل، يحب محمد علي كلاي أيضا ويجيد تقليد حركاته وهو يتفادى الضربات بتمييل رأسه إلى الخلف، قام من مكانه أكثر من مرة برشاقة ليؤدي حركة أو يشرح أمرا، فنقل إليَّ الكثير من حماسه.

في نهاية التعارف اصطحبني لغرفتي، منحني غرفة أنيقة على النظام الكوري شرح لي اسمها: (أو ندول).. بلا أسرَّة.. مجرد أرضية مرتفعة مبطنة، يتم تسخينها من أسفل.. ودولاب خشبي كبير، بدون حمام، التحرك داخل المنزل يجب أن يكون بقدمين حافيتين.. كل مرة كنت ألتقي فيها بالبوس كنت أشعر أنني انتقلت إلى فيلم سينمائي عالمي وسأؤدي فيه دورا ما.. دور الخواجة مرة أخرى!

ـ شكرا جزيلا.

قلتها وأنا أشد على يديه باحترام، هذا الرجل سيعيد إليَّ فرصة البقاء من أجل التدريب مدة إضافية، أخبرني أن هذه الغرفة منذ أسبوع، كان يقطن فيها شاب أردني يدعى أحمد، لا أدري لماذا لمعت في رأسي أفكار متضاربة عندما سمعت الاسم، انتهزت انشغاله في تفقد نظافة الغرفة، ملت على كيم لأسأله عن ديانة البوس فنقل السؤال إليه، تغيرت ملامحه فجأة، رسم على وجهه ابتسامة لم تخف غضبه وهو يقول:

ـ أنت هنا في الجنة، ثلاثة أسئلة لا يسألها أبدا سكان الجنة لبعضهم، الأول ما دينك، والثاني أغني أم فقير، والثالث لماذا أنت هنا!

غادرني تاركا في نفسي شيئًا، لا يبدو الأمر مريحا على الإطلاق، تجولت في غرفتي لأستكشفها: مكتب صغير جلسته على الأرض أيضا، ودولاب أصغر من أن يكون للملابس.. حاولت فتحه فبدا ذلك صعبا، عدة دقات على قفله ثم محاولة أخرى كانت كافية ليفتح الدولاب.. ولتسقط عشرات الكتب!!

شعرت بالخوف في وسط غربتي وأنا أتفحص الكتب، كلها بالكورية لكن بعضها مترجم إلى لغتين، القرآن مثلا كان بالعربية والكورية، والأناجيل كانت مترجمة من الإنجليزية، وكتب أخرى عليها رموز صغيرة ورسوم تبدو دينية، لا أدري لماذا فزعت، هذا الرجل يعمل في السحر غالبا، أو ربما لصالح منظمة دينية مجهولة، ظللت أرتجف طوال الليل وأنا أشعر بشياطين صغيرة تتحرك في غرفتي، استخرجت جميع المصاحف من بين الكتب الموجودة، كان عددها أربعة، وزعتها حول السرير وأنا أردد آية الكرسي الحافظة وأستعيذ بالله من السحر والشياطين.. ثم حاولت أن أنام منتظرا الصباح ليكشف لي عما يريدونه مني، في الفجر ترددت كثيرا في مغادرة الغرفة لدخول الحمام لكني لم أستطع المقاومة، وعندما ضللت طريقي إليه انتهى الأمر بشج رأسي بمسدس ضخم.

٣٣

معلومات شخصية/ Personal information

تأجلت التدريبات لثلاثة أيام نتيجة جرحي بالرأس، السيدة العجوز هي التي حددت المدة، ثلاثة أيام من الرفاهية التعويضية التي تشبه ما بعد جراحة استئصال اللوزتين لطفل مدلل، كان البوس يبحث عن تعويضي بأي شكل رغم أنني لم أكن ناقما على أي شخص.

ثم بدأنا مرة أخرى، سيارة أنيقة تنتظرنا قبل الموعد لتقلنا إلى مكان التدريب، في أيام اللياقة البدنية نكتفي بالجري في المزارع المحيطة، أو بتدريب قصير في حديقة القصر أحيانا، أخبرني كيم أن القصر فيه قاعة كبيرة ومجهزة للتدريبات، أكبر من التي نذهب إليها في رحلتنا اليومية، لكنه لا يهوى التدريب فيها لأنه يشعر بأنه مراقب. لاحظ تعجبي فقال ضاحكا:

ـ القصر فيه كل شيء.. انتظر حتى تراه يوم السبت.

حاولت أن أتخيل ما يحدث، لكن الحقيقة كانت مختلفة، لم أصل بخيالي إلى أي نقطة قريبة منها، سوى ما سأفعله أنا.

تحول القصر تماما فجأة، لا أدري متى وضعوا كل تلك الزينات الملونة، كرات حمراء تتدلى من الأسقف لامعة بخيوط ذهبية عليها كتابات بلغات مختلفة، كل ما يوجد ويكتب في هذا القصر تستخدم فيه كل اللغات الحية والميتة أحيانا، يريد أن يؤكد لنفسه أنه أبو العالم، وأن جنته مستعدة دائما لاستقبال الجميع، أحبال من الضوء مشدودة بين جوانب حديقة القصر لترسم خطوطا فوق رءوس الجميع، مطربة بدت لي شهيرة وفرقة موسيقية أنيقة تجلس وراءها، وموائد الطعام والشراب في كل مكان، اجلس فقط وستجد نفسك في المكان الصحيح، ستجد عشرات النُّدل والسقاة، وفتيات يتسكعن من حولك لو كنت وحيدا.

كنت أراقب ما يحدث من نافذة غرفتي، أعدادا غفيرة من البشر تتوالى على الدخول، مئات السيارات الأنيقة تتوقف لينزل منها أشكال وألوان من البشر، أغلب السيارت تحمل أعلاما لدول مختلفة، وأغلب الضيوف يمشي وراءهم شخص أنيق يقف في ركن قصي منتظرا أوامرهم.

أدركت ما أنا مقبل عليه، أغلقت باب الغرفة وحاولت أن أستغرق في النوم، لم أكن ملاكا لكنني كنت أعرف ما أريد، والحفل فيه كل ما يخيف لاعبًا في مثل عمري، تدخين وخمور وفتيات ليل!! عندما شعرت بخطوات تقترب وتدق بابي، كتمت أنفاسي، تعالت الدقات أكثر وسمعت صوت البوس وهو يصيح، بدا مصرًّا على إخراجي لكنني لم أستجب، توقفت الدقات بعد دقائق وغادر غاضبا، فابتسمت في ارتياح، زادت الحفلة صخبا وتوالت أصوات مختلطة، غزا الضيوف كل الغرف تقريبا عدا غرفتي، لكن المحاولات كانت متعددة.

لا زلت أحفظ ملامح البوس جيدا بعد كل هذه السنوات، لا أعرف كيف أقولها لكنه رغم ملامحه الكورية بدا مألوفا، يصلح كجد مصري طيب. وجهه مستدير وملامحه باردة، قصير القامة ممتلئ الجسد كلاعب كمال أجسام معتزل، يرتدي دائما حلة كاملة بألوان غريبة لامعة في الغالب، اللون النبيذي والأصفر الفاقع والأخضر، ونظارات داكنة تغطي عينيه حتى في الليل.

في الصباح كانت العاملات ينظفن المكان، ظهرت وجوه جديدة على مائدة الإفطار من بقايا ليلة البارحة، اختلست النظر إليهم جميعا، هؤلاء أوروبيون، وهذا الرجل أفريقي، أغلب الظن أن الفتاة التي معه روسية، هذا الرجل عربي بالتأكيد لهذا يختلس إليَّ نفس النظرات، وهذا الرجل الكوري عانى كثيرا مع تلك الفتاة التي تبدو مكسيكية.

فتح الرجل العربي فمه ليتكلم فاكتشفت أنه إسباني، ثم تكلم الأفريقي فاكتشفت أنه عربي، سخرت من نفسي، العالم الحقيقي أكبر من الصور التي نرسمها في خيالنا حين نكون محبوسين في مربع صغير، فآثرت الصمت وتوقفت عن التوقع.

أنهيت إفطاري في صمت، أشار إليَّ البوس لأنتظر، حتى قام الجميع، أشعل سيجاره ونظر إليَّ متفحصا:

ـ لماذا لم تشاركنا في الحفل ليلة أمس؟

ثم أخذ نفسا عميقا نفخه في الهواء وهو يقول:

ـ أنت مسلم..أليس كذلك؟

دينك معلومة شخصية، هذا ما أخبروني به في القصر، ثم كان البوس أول من سألني عنها!

أجبته بإيماءة فابتسم قائلا:

ـ أنتم فقط من سيدخلون الجنة؟

لم أجب، فتابع:

ـ أنا أعرف الكثير عنكم.. أنا مسلم يا صديقي.. أشهد ألا إله إلا الله.

قالها بالعربية وبصوت جهوري.. نظرت إليه في دهشة فتابع:

ـ وبوذي ومسيحي ويهودي.. أنا أؤمن بكل الأديان التي جاء بها رجال صالحون.. وأؤمن بالخير والعدل والأخلاق.. ربما أي شيء من كل ما ذكرت يصل بي إلى النعيم الأبدي بعد الموت.. لكني أعرف أن هذا يجعلني بلا دين على الإطلاق.. لماذا لا يجلس رجال الأديان ويتفقون على إيمان واحد نختار بينه وبين اللادين، بدلا من أن تجد نفسك مؤمنا بعقيدة واحدة فرضها عليك مكان مولدك وإرث عائلتك؟

لم أحاول الرد، شعر هو بحرجي فقال بالعربية:

ـ إيش بيك؟

لم أكن قد نسيت ما وجدته في غرفتي، أتوجس شرا من الرجل ومن المكان بأكمله لكني أشعر أنني بلا اختيار، لكن خطتي كانت

معدة جيدا، سأغادر بمجرد أن تحدث أي محاولة لإجباري على شيء، لن أشرب ما يقدمونه لي إلا الزجاجات المغلقة التي أفتحها بنفسي، ولن أتحاور في أي شيء يشعرني بالخطر.

أشار إلى الصور المعلقة على الحائط وقال:

- ألا تصدق أنني آمنت من قبل؟ آمنت بكل الأديان ودعوت الرب بمختلف الصيغ.. هل ترى هذه الصور؟ هؤلاء أمي وأبي وإخوتي، في منتصف الخمسينيات كنت أعمل في الجانب الآخر من كوريا وأعود إليهم كل بضعة أيام.. فجأة هبط ساطور من السماء وقسم هذا البلد إلى نصفين.. صارت عائلتي في كوريا الشمالية وأنا في الجنوبية.. لا أعرف عنهم أي شيء ولا يحق لي رؤيتهم أو زيارتهم.. أنت مؤمن.. اطلب من ربك أن أعرف ما حدث لهم.. وسأومن على الفور.

أجبته في تعاطف حقيقي باللغة العربية:

- ربنا يهديك..

هز كتفيه كما لو كان قد فهم ما قلته:

- كل من يأتون هنا من كل مكان يرون أنهم على حق، ويحاولون أن يأخذوا بيدي إلى طريق النور، وكل واحد منكم يملك عشرات الأدلة على أن الآخر على خطأ، هناك دولاب صغير في غرفتك، ستجد فيه عشرات الكتب بالكورية، أتعرف ما تدعو إليه؟ أديان.. أديان متعددة.. كل واحد عاش في هذا البيت فترة أهداني بضعة كتب تدعو لدينه لكي ألحق به في المكان الأفضل بعد الموت.. أنا لا أحتاج دليلا أكثر من هذا على أنني بخير.. طالما كل هؤلاء سيشهدون لي في الحياة الأخرى سأذهب إلى جنة مثل هذه إن لم تكن أفضل.

في المرات الأولى فقط كنت أتوتر من كلام الرجل وأظنه مقدمة لنوايا ستتكشف، ثم اكتشفت بعد أنه يطمئن نفسه أو ينتظر ذلك ممن يحدثه، في كل مرة جلست فيها معه كان يتحدث عن الموت وما بعده بشكل أو بآخر، كان عمره السبعيني يخيفه من القادم لا محالة، وجولاته التي طاف خلالها العالم تحيره وهو يتساءل عن طريق النجاة بين كل من رآهم من الأخيار والأشرار، كان كافرا تماما لكنه يبحث عن الإيمان، في النهاية قال بصوت قلقٍ:

ـ أيًّا كانت عقيدتك يجب أن تعرف أن هناك آخرين سيدخلون الجنة.. السيدة العجوز التي في تلك الغرفة سيكون لها قصر خاص وتحت أقدامها عشرات الرجال يفعلون ما تأمرهم به..

ثم همس مطمئنا نفسه:

ـ وهذا هو العدل..

٣٤

أدخل كلمة السر/Enter password

البوس عاشق مخلص للكلام، حياته مليئة بالخبرات التي يخشى أن يرحل دون أن يستثمرها مثل كل شيء امتلكه، لهذا ينقلها للجميع ليكونوا ورثته، قرر أن يكون الأب الروحي، يجتمع كل من يأويهم قصره العجيب في موعد الغداء فيما يشبه طقسًا عائليًّا، ليحكي كل منهم عما فعله في اليوم السابق، سؤالي الدائم كان عن مجموعة السيدات العجائز، هؤلاء اللائي يجلسن على انفراد ولا يتكلمن كثيرا وعلى وجوههن علامات انكسار وألم هائل، عندما أصبت في رأسي وخيطت كبيرتهن الجرح بمهارة لم أعرف قدرها إلا بعد أن شفي تماما ولم يبق منه سوى خط صغير أدركت أنها كانت طبيبة أو

ممرضة محترفة على أقل تقدير، فازداد تساؤلي إلحاحًا، الغريب أن السؤال كان يخرس الجميع، لا أحد يجيب كما لو كان الأمر سرا حربيا خطيرا، واتضح أنه كذلك بالفعل.

قال لي كيم أن أسأل البوس، والأخير تردد طويلا عندما سألته ثم قال باقتضاب:

ـ ستعرف في الوقت المناسب..

كانت هناك جلسات خاصة لهن معه، ينضم إليهم رجال غاية في الأناقة، مسئولون حكوميون على ما يبدو من هيئة سياراتهم التي لمحتها مرة، يتوقفون عن الحديث عندما يمر أي من الكوريين، أما أنا فلا يكترثون كثيرا لوجودي، رأيت العجائز يبكين أحيانا ويصرخن أحيانا، ورأيت البوس وهو يقوم بنفسه ليحضر لهن أكواب الماء والعصير ويجلس في خضوع وتأثر لم أره عليه أبدا، ظل الأمر لغزا يشغلني، لكنه كان تساؤلًا بلا إجابات.

أما أنا فقد كان يعاملني كما لو كنت طفله الصغير الجديد، يسألني عن التدريب والضربات الجديدة ثم يسأل كيم عني وعن تدريبه معي، ويبدي أعجابه بإصراري ويشجعني وهو يحكي قصة مجيئي إلى كوريا لحراسه الكثيرين وضيوفه الذين يأتون من مختلف أنحاء العالم، وكان يحكي لي أنا قصص الآخرين.

عرفت أن البوس شاهد كيم يلعب لأول مرة عندما كان لم يزل في الخامسة عشرة من عمره، وأنه هو نفسه كان بطلًا للعبة، لذلك رأى فيه بطلا أسطوريا، تبناه ووفر له إقامة كريمة وتعاقد مع أفضل المدربين ليصنع منه أسطورة ونجح في ذلك، كنا نجتمع معا على الغداء، اعتبرني أنا أيضا من رعيته وأطلق عليَّ اسما خاصا.. «وايجوك».

ضحكت كثيرا عندما عرفت أن ترجمتها الحرفية باللهجة المصرية هو: الخواجة!

كان طيب القلب بلا شك، لكنه كان يحمل أفكارا خاصة اليوم الذي قذفني فيه أحد رجاله بمسدسه يوما خاصا، طلب من كيم إلغاء التدريب وأمر الرجل بأن يأخذنا في جولة بسيارته في أنحاء سول وأن يقدم لي عشاء خاصا في المطعم العربي الوحيد الذي كان موجودا في ذلك الوقت، أتى معنا وتعمد أن يهينه بطلبات متتالية في كل مكان نذهب إليه.. جعله يحمل حذائي الذي خلعناه على باب المطعم ويحمله على رأسه بشكل أغضبني شخصيا، لكنه لم يقبل طلبي بالتجاوز عن ذلك الطلب، ثم مال على كتفي عندما جلسنا متجاورين قائلا:

- يجب أن يكون عقابك على حجمك وليس على حجم الجرم.. إذا وقفت ذبابة على وجهك يجب أن تموت لأنها ضايقتك، إذا أهان واحد من رجالك ضيفا لك فقد أهانك أنت.. التسيب خطير.. أتعرف ميكافيللي؟

أجبته بتلقائية:

- بالتأكيد.

ضحك باستحسان وهو يعلق:

- عليك أن تقرأه جيدا.. ميكافيللي كان يصنع رجلا حقيقيا..

في نهاية اليوم أمره بأن يعطيني شيئين، مسدسه الذي قذفني به ورفيقته التي جرحني من أجلها، لدهشتي لم يبد الرجل أي اعتراض على أي منهما، في المساء سلمني كليهما، لم تكن لديَّ رغبة في أي منهما، وضع مسدسه في جيبه وأصر على ترك رفيقته. أسقط في يدي، أدخلتها إلى غرفتي، قضت معي ميس كيم ليلة كاملة..

شابة جميلة رأيتها بعيني عارية منذ أربع وعشرين ساعة.. وأنا على مشارف شبابي في بلد غريب.. وهي مأمورة غالبا بأن ترضيني، لذلك كان لابد أن أفعل شيئا، والحقيقة أنني فعلت، أوليتها ظهري وتظاهرت بالنوم في توتر، أما هي.. فقد نامت بالفعل، وكان كل ما فعلته أن جلست أتأملها وهي نائمة مستعينا على الشيطان ونفسي بكل ما أعرفه من آيات وأذكار، كل الأفكار دارت في رأسي على التوازي والتوالي، وعندما انحنت أمامي قبل أن تغادر هززت كتفي معتذرا فأومأت برأسها مبتسمة:

ـ السر محفوظ.

ثم حكيت لكيم أساطير عن تلك الليلة.

بقدر ما أحببت لهجة البوس واحترمت خبرته في الحياة كنت أخاف منه، أتى من عالم لا أنتمي إليه ولا أعرف عنه شيئا، أو للدقة أنا الذي جئته من عالم بعيد، أحمل له في قلبي الكثير من الامتنان والتقدير والتعاطف أيضا، لكني لا أستطيع أن أدعي الإعجاب به.

بعد أيام طويلة من التدريبات أخبرني كيم أنه يريد مني المشاركة في بطولة سنوية تقام في العاصمة اسمها بطولة اللاعبين الأجانب، لا يسمح فيها بمشاركة الكوريين، يأتي لها اللاعبون من جميع أنحاء العالم.. ويشارك فيها أفراد الجيش الأمريكي الموجود في قاعدة عسكرية كبرى هناك.. ثم عرفت طقوس البطولات عند الكوريين، عيد حقيقي.. في اليوم السابق للبطولة وجدت البوس يقيم لي مراسم خاصة.. استأجر طاهيا مصريا من السفارة أعد لي أطباقا كنت على وشك نسيانها.. أجلسني لأول مرة على رأس المائدة وجلس هو عن يميني ينظر إليَّ بينما آكل مبتسما.. في نهاية الوليمة أخرج لي هديته.. زي تايكوندو من نوع شهير على ظهره كتب اسمي وتحته اسم مصر..

وحزامًا أسود مشغولًا بخيوط ذهبية مكتوبا عليه باللغة الكورية اللقب الذي اختاره لي من أول يوم، احتفظت به حتى آخر يوم في مسيرتي في الرياضة ولعبت به كل بطولاتي لأني أراه فألا حسنا..كان الجميع يظن أن ما كتب عليه هو اسمي.. والكوريون فقط يسألونني في دهشة عن السبب الذي يجعلني أكتب على حزامي: الأجنبي!

لهذه البطولة سحر كبير في حياتي، مطبوعة في ذاكرتي بالتفصيل.. كان كيم يجلس ورائي في مقعد المدرب، وكان يعد لي بنفسه أكوابا صغيرة من القهوة قبل كل مباراة، أشربها في تركيز وآخذ من عطرها نفسا عميقا قبل الدخول إلى الملعب، لعبت مع فرنسي وكندي واثنين من الجنود الأمريكيين أحدهما في المباراة النهائية.. كنت ألعب بأسلوب كيم.. انتهت مباراياتي بفارق كبير لصالحي.. والمباراة النهائية جاءت تتويجا لأدائي بضربة قوية قاضية أمام الشاب الأشقر مفتول العضلات سليل البحرية الأمريكية.. المدهش أنها كانت بتلك الضربة السحرية..كان كيم من يجلس ورائي في مقعد المدرب..أمسك بيدي ورفعها عاليا وطاف بي أنحاء الملعب وسط نظرات غيرة وحسد رأيتها في عيون الجميع..

أما البوس الذي حضر بنفسه المباريات فقد نزل وحوله عشرات الرجال ليحييني في سعادة.. وسلمني الميدالية بنفسه فعرفت أن سلطاته تتخطى كثيرا القصر الذي يعيش فيه.. وفي المساء أقام لي احتفالا آخر أكبر من السابق.. وقدم لي عرضه الضخم في كلمتين:

ـ لا ترحل!

ابتسمت له في تقدير معتذرا، تمسك بعرضه ملحا وهو يعدد لي المغريات لكني أصررت، بدا متفهما لكنه حزين، ربما أنا وكيم من كنا نجعله يشعر بإنسانيته في وسط حياته الجافة القاسية.

مد يده لي بمظروف ضخم يحوي مبلغًا من النقود، رفضته في امتنان، استبدله هو في الصباح بساعة ذهبية وهو يودعني في المطار، أصر على اصطحابي إلى هناك وأخذني بين ذراعيه في عناق حزين لا يتناسب وملامحه المعتادة، آخر ما قاله لي قبل أن أرحل:

ـ إذا أردت أن تأتي في أي وقت أبلغني وسأرسل إليك تذكرة الطائرة.

كيم أيضا كان هناك، دمعت عيناي بينما أرى البطل يعانقني بحزن وبعينين دامعتين، ثم منحني سلسلته الفضية التي لا تفارق عنقه والتي أرتديها إلى اليوم رغم كونها بداية عثرة كبرى في طريقي وطريق مصطفى القماح..

٣٥

عمرقام بإنشاء حساب جديد/

Omar created a new account

أنا أيضا نزل ساطور من السماء كالذي قسم الكوريتين ليقسم أصدقائي إلى شمال وجنوب، تبادل الثلاثة الاتصال بي والسؤال عني حتى فقدت واحدا منهم، مع استقرار الأمر وتحول الميدان إلى مزار سياحي وكرنفال ضخم للحفلات والعروض الفنية أصبحوا يزورونني بانتظام، كانوا يرون الخطابات التي توالت هي مجرد محاولات يائسة لتغيير الوضع العام واستعادة رضا الشعب مرة أخرى، لكنني كنت أراها بوضوح محاولات لإضاعة المزيد من الوقت حتى يعاد ترتيب الصفوف، مع كل مرة كان أحدهم يأتيني وحده فيصف مايحدث من زاويته هو فقط، عرفت أن الفجوات بدأت في الاتساع. بدا الملعب مكشوفا لي تماما.. تخطى الأمر رحيل ذلك الرجل أو بقاءه.. السؤال أصبح.. ماذا بعد؟

عصام كان أول من تحدث معي عن المستقبل، كان يخبرني بأحلام شباب منطقته «الغلابة» على حد قوله، كانت لهم رؤية خاصة للأمر، يظنون أن الثروات التي سيتم مصادرتها من الفاسدين بعد القبض عليهم ستوزع على الشعب بالتساوي، أخذ قضمة كبيرة من التفاحة التي في يده وهو يقول ضاحكا:

ـ ابن عم قناوي تاجر الجملة حسبها لقى كل واحد هياخدله ييجي خمسة وتلاتين ألف جنيه.

خلال زياراته القصيرة كان بدوي يرى الأمر بشكل أكثر رقيا وثقافة، تحدث عن استعادة المشاريع التي باعتها الحكومة في السنوات السابقة، الحديد والصلب والنسيج وشركات التعدين، ثم تحدث عن حلمه في إعادة تصنيع السيارة المصرية القديمة، وعن انهيار أسعار العقارات بعد انتهاء احتكارها من «الشلة» المقربة من السلطة.

سألته:

ـ تفتكر مين هيمسك البلد يا بدوي؟

ابتسم في لامبالاة مؤكدا أن الأمر لا يهمه مطلقا، وأن أي شخص يحل محل هؤلاء سيكون أفضل وأكثر إخلاصا، ثم قال بنبرة ثقة أحببتها كثيرا أن الشعوب عندما تعرف طريق الثورة يصبح خداعها مستحيلا.. فهززت رأسي في صمت، كنت متشائما إلى حد كبير وخائفا عليهم جميعا، لكني لم أتوقع أبدًا ما حدث.

* * *

لم أستطع تحديد مشاعري يوم تنحى الرئيس، ربما لأنني في الصباح الباكر تلقيت خبرا شغلني عن كل شيء، وأفقدني ما تبقى من حواسي.

جلس عصام يبكي في انهيار، سألته عما جرى فأجاب:

ـ بدوي ضاع.

لم أفهم معنى الكلمة، فبدأ يشرح لي باستفاضة أنه كان دائم الاتصال بهم في كل يوم ثم توقف تماما فجأة، لم تعد أي معلومات تأتي عنه، زملاء الميدان أنفسهم اتصلوا ليسألوا عنه، بدأ عصام يسأل ويبحث حتى تأكد من اختفاء أخيه.

أجريت اتصالا بفريدة التي أبدت قلقا زادني توترًا، طلبت مهلة وتحركت، قالت إنهم عادة يلتقون من آن لآخر، لكل منهم مجموعته التي يتحرك معها وفي نطاقها، وعندما سألتها من هم مجموعة بدوي صمتت لتفكر قليلا ثم أجابت بأنهم يطلقون عليهم مجموعة الأفراد.

جلست متوترا أنتظر منها ردا، كنت أعرف أن معرفة خط سيره غاية في الصعوبة، بدوي كان يتحرك في الميدان وحيدا، يغني مع فرق الهواة التي تغني ليلا بصوت أجش يعبر عن جفاف الحياة من حولهم وبصوت عال بقدر الأمل الذي يملأ قلوبهم، ثم يصلي قيام الليل جماعة مع الواقفين على بعد أمتار قليلة، يختمها ويشارك في الدعاء والابتهال الجماعي ثم ينطلق إلى ناحية الفرقة التي كانت تؤنس ليله مرة أخرى.

أحيانا قليلة كان يقف في وسط مجموعة فريدة وأصحابها، كانوا أكثر فريق يهابه بدوي، ربما لأن فيه عددا كبيرا من الصحفيين والإعلاميين، بل والممثلين أحيانا. وضع على حائط حسابه صورته مع ممثلة شهيرة وكتب تحتها الحرية تجمعنا، وكان في عينيه لمعة من لا يصدق ما يجري معه.

من آن لآخر كانت تغزوهم جماعات اعتادوا أن يطلقوا عليهم البلطجية، يأتون ليلا أو نهارا أحيانا ليغزوا الميدان ويحرقوا بعض

الخيام، وفي النهار يتحولون لمجموعات صغيرة تتحرك بين الموجودين بغرض السرقة، وأحيانا في أدوار كومبارس متكلم أمام وسائل الإعلام مطالبين بعدم رحيل الرئيس.

على الشاشة وقف المسئول الحكومي الكبير شامخا لكنه كان يعاني من جسامة ما سيقول، خلفه يقف رجل على وجهه ملامح الغضب والألم والإحباط مجتمعة، لماذا اختاروا له ذلك المكان ليقف فيه، هل كان يريد أن يعلن عن وجوه غاضبة في الخلفية تتألم ولا ترضى بما يحدث؟ لا أدري تحديدا، لكنه تحول إلى ضيف دائم على حسابي الإلكتروني لأسابيع بعدها، انهالت عليه التعليقات الساخرة التي تصفه بأنه الرجل الواقف في خلفية المشهد، لم أجد الأمر مضحكا، خلفية المشهد أخطر من الصور التي تتصدره، المدرب الجالس في المباراة خلف أي لاعب قد يغير سير المباراة رغم أنك عادة لا تفكر فيه، أيًّا كان ما سيعلنونه سيكون بطعم شديد المرارة في حلقي، بدوي اختفى كما لو كان دخانا ابتلعته السماء، وفريدة ستحمل على وجهها إلى الأبد ندبة كبيرة من صنع مجرم تافه، والقماح سيتحرك مترنحا لأنه أسلم عقله إلى الأبد، أما أنا.. فكنت أسير جسدي وذكرياتي ومحاولتي الوحيدة لأموت بطلا.

في هذه الظروف العصيبة قرر الرئيس تخليه عن منصبه! ضحكت في عصبية، هو لم يقرر، منصبه هو الذي تخلى عنه، المؤامرات ليست عذرا عندما تنبري لمنصب مثل هذا أو حتى لمنصب أقل منه، موقعه كان يحتم عليه أن يمنعها، لكنه كان قد توقف منذ سنوات عن منع أي شيء.

فريدة أيضا لم تحتفل، كانت مشغولة بالبحث، أجرت تحقيقا

كاملا عن بدوي بعد أن أخذت مني صورته ودارت في أركان الميدان تسأل الجميع عنه، قابلت بعضا من أصدقائه وبعضا ممن كانوا يرونه في كل يوم، تزامنت إحدى الهجمات المعتادة مع وجود سيارة تأتي من آن لآخر لتجمع بعض شباب الميدان، أخذوا مرة واحدا من مجموعة فريدة فالتقطت عشرات الكاميرات عالية الجودة صوره وهو يؤخذ، ثم وهو يوضع في السيارة إلى آخر لحظة، لم تعلن أي جهة أنها من قامت باختطافه لكن في النهاية أجبرتهم الصور ممزوجة بقوة أسرته التي قد تساوي أو تفوق رجب الوكيل على أن يفرجوا عنه، ثم خرج هو ليقول إنه كان اختطافا بمذاق أمني.

كانت للقماح قصص مشابهة منذ أن انضم للميدان يوم الموقعة التي جرحت فيها فريدة، وبدأ يدافع عن الثورة ويصفها بأنها فرض عين! لأول مرة أصفه بيني وبين نفسي بالنفاق، هو ومن معه لا يؤخذون من الميدان لكثرتهم، أما بدوي.. فكان بلا سند. لذلك كان من السهل أخذه من أي مكان.

ثم توالت الحكايات التي تصف ما جرى له، رصاص قناصة وخرطوش في الصدر واختناق من الغاز.. و.. عشرات التكهنات والشائعات التي أطلق منها الملايين في ذلك الوقت، لكن الحقيقة الثابتة أن أحدا لا يعرف أي شيء، أنشأت حسابا جديدا باسم «هل رأيتم بدوي؟» وضعت كل الصور التي أمتلكها له وربطه بحسابي وحسابه الأصلي.. ذلك الحساب الذي كان آخر منشور فيه سؤال يسبق غيابه بيوم:

«هانت ولا إيه؟».

٣٦

قائمة الحظر / Block list

يتصدرها منصور بلا شك.

كان الزعيم الغامض الذي لا يقترب منه أحد. كل ما أعرفه عنه ثلاثية اشتهر بها، لواء، رئيس الاتحاد، قوي، أستطيع أن أضيف بكل ثقة أنه كان شريرا أيضا.

يقولون إنه كان يشغل منصبا مهما قبل أن تتم الإطاحة به مع عدد من القيادات، لأسباب لم يعلن عنها أبدا، كنت أتعامل معه عن بعد، أراه عجوزا متصابيا بقمصانه المشجرة وشعره المصبوغ بسواد لا يتناسب مع تجاعيد وجهه، سماره مشوب بالسواد لشرهه في التدخين، توجد أسفل عينيه أنصاف دوائر متتالية ومتدرجة في دكنتها، أصبحت أنا فجأة محط اهتمامه، فبمجرد عودتي من رحلتي الأولى إلى كوريا توالت انتصاراتي بفوارق كبيرة في البطولات الإقليمية المختلفة، أفريقيا والعرب والبحر المتوسط، بدأ اسمي في اللعبة يبزغ بشكل مختلف، وأجمع الكثيرون على أن هناك نجما جديدا يظهر في الأفق؛ لمن يهمه الأمر.

كان الأمر يهم اللواء منصور كثيرا، بدأت مشاكل تظهر بينه وبين وزارة الرياضة آنذاك لن تهدأ إلا بالحصول على ميدالية في بطولة العالم القريبة..

حضر بنفسه لأول مرة بطولة الجمهورية، كان وضعي يختلف، فأنا واحد ممن مثلوا مصر في بطولة عالم سابقة، خبر سفري إلى كوريا وتدريبي هناك سرى بين اللاعبين ووصل إلى اللواء منصور، أخبروني بأنه سأل عني بالاسم قبل انطلاق المنافسات فلم أهتم، كانت البطولة تزدحم باللاعبين من جميع أنحاء مصر، وكان أول

لقاء يجمع بيني وبين فريق قرية السعداوية منذ عام ونصف تقريبا، اكتشفت أنني أحبهم بصدق.. هم أيضا يحبونني.. تجمعوا حولي في ود وتوالى العناق والحديث عن الذكريات.. شربيني كان يخبرهم بالجديد عني في كل مناسبة وكانوا يشعرون بالفخر وبأنهم شركاء بشكل ما في تدريباتي، بدا ذلك واضحا في تشجيعهم الجنوني لي في كل مباراة لعبتها.. بطريقتهم التلقائية التي لفتت أنظار الجميع.

لم تكن مبارياتي صعبة.. لا مجال للمقارنة بين ما مررت به في عام ونصف العام تقريبا وما ألتقيه الآن.. قلقي الوحيد كان من شعبان، الذي كان ينتقل من دور لآخر في سهولة بقوته الخرافية.. لا سيما بعد أن تطور هو أيضا خلال الفترة السابقة، كنت أعرف أن النهائي سيجمعنا.. وأنها ستكون مباراة صعبة ما بين رغبتي في الثأر وثقته في استطاعته هزيمتي مرة أخرى حتى بعدما صرت أحد لاعبي المنتخب.

التقينا في نهائي البطولة بالفعل، وقف يراقبني وأراقبه في تحد واضح.. أعددت السيناريو المحتمل لطريقة اللعب وقلبته في عقلي عشرات المرات.. وبمجرد بدء اللعب تغير كل شيء.

كنت لم أزل مهتزا من خسارتي القديمة، لم أشعر بذلك إلا مع بداية المنافسة، كان هجومه غاشما وعشوائيا، وكانت خطتي مبنية على اللعب بطريقة كيم؛ الهجوم المضاد.

لم يمنحني الفرصة، بدا لي أنه يتعمد ضربي بقوة في أعلى فخذي، ضربات موجعة يعرفها فقط من شعر بها، تجعل قدميك ثقيلتين ورفعهما صعبًا، الغريب أن الحكم لم يحذره ولم يمنعه. أصبحت أحاول تفادي ضرباته المتتالية وهو يهجم عليَّ بوحشية مهما اتسعت بيني وبينه المسافة، نجحت بصعوبة في الوصول لوجهه بركلة قوية، استقبلها دون اهتزاز، بل هاجمني في نفس

اللحظة هجوما عنيفا آخر.. وانطلقت قدمه نحو صدري بعنف شديد.. حاولت أن أصدها بيدي ونجحت، لكني شعرت بألم رهيب سرى كالنار في ذراعي.. وانتهت الجولة الأولى لصالحي بنتيجة واحد لصفر.

خرجت متألما إلى الكابتن هاني.. قبل أن ينطق صارحته بالحقيقة:

ـ إيدي مكسورة!

نظر إليَّ في فزع، حاول أن يلمسها فصرخت من الألم.. طلب مني الانسحاب فرفضت في إصرار.. ربطها لي في استسلام ولم ينطق بكلمة واحدة تخص المباراة.. مع الجولة الثانية لاحظ شعبان كما لاحظ الجميع أن هناك خطبًا ما يخص ذراعي.. كنت أحاول إبعادها عن مرمى ضرباته حتى ولو كان ذلك على حساب جسدي..المرة التي اصطدمت فيها ذراعي بقدمه سقطت على الأرض صارخا.. وانتهت الجولة الثانية بثلاث نقاط لصالحه وبدا واضحا أن عليَّ الانسحاب من المباراة.. خرجت إلى مدربي منتظرا منه حلا فلم أجد. كان يفكر فقط في تلك اللحظة في حمايتي من اثنين.. من نفسي ومن شعبان!

في تلك اللحظة بالتحديد رأيت جسدا يقفز من فوق حاجز الملعب ويتجه نحوي مسرعا.. كان السعيد.. بطل القرية التي تدربت فيها سابقا.. اقترب مني في عجل.. نظر إليه الكابتن هاني بدهشة وهم بأن يقول شيئا ما.. قال لي سعيد بهلع:

ـ إيدك اتكسرت..صح؟.. ولا يهمك.. طلع له الحنش.. واخطف في الآخر!!

ثم خرج، تذكرت حنشه على الفور.. فكرة لا بأس بها.. سأستخدم رفع ركبتي في طريق ضرباته.. ستكون مخالفة.. ماذا في

ذلك؟ هو نفسه يلعب بسلسلة من المخالفات.. حتى وإذا خسرت سأكون قد حميت ذراعي منه بدلًا من الخروج منسحبا.. لا يجب اللعب مع عديمي الشرف بشرف لا يستحقونه.. بمجرد أن بدأت الجولة الثالثة أطلق شعبان قدمه في اتجاه بطني بحماسة مخيفة.. ارتفعت ركبتي فجأة في اتجاه قدمه.. وياللعجب.

رغم الألم الذي شعرت به في ركبتي أيضا إلا أن قدمه كانت أضعف.. ونشوتي في اللحظة التي سقط هو فيها كانت كافية لأنسى ألمي. كان النزال قد تحول إلى صراع قديم بين اثنين من العبيد.. ربما لهذا ضج الجميع بصيحات التشجيع، وحصلت على أول إنذار في المباراة خسرت به نصف نقطة.. وعندما نهض كانت وحشيته قد تضاعفت.. إلا أن ركبتي أصابت نفس المكان تقريبا فجعلته يتردد ألف مرة في الهجوم.. كانت فرصتي لأبدأ في اللعب بطريقة مدربي الكوري الأول.. طريقة الغزال.. أضربه وأهرب في رشاقة رغم ألم ذراعي.. تردده في الهجوم جعله بطيئا.. وضربته الثالثة أصيبت بركبة ثالثة.. تجاهلها الحكم ولم يعطني خصما جديدا.. شعبان أصبح هو الذي يخاف مني.. نجحت في الحصول على نقطتين فصار متقدما بنقطة واحدة.. ولوحة النتيجة تشير إلى أن ما تبقى يقرب من عشرين ثانية فقط.. تعمدت التظاهر بالاستسلام للنتيجة.. أمسكت بذراعي وتباعدت بيننا المسافة.. هو أيضا كانت على وجهه علامات الألم.. لم يعد يريد تأديبي بل أصبح مكتفيا بالفوز على البطل الجديد.. ابتعدت أكثر.. وتعاطف معي الكابتن هاني والجمهور بأكمله وصاروا يدعونني للاقتراب من أجل التعويض:

ـ ما ترجعش لورا..

لكنني أخذت خطوة أخرى إلى الخلف.. أصبح من المستحيل

أن يقطع أي منا المسافة في ضربة أو اثنتين..ألقيت نظرة سريعة على الساعة.. ثماني ثوان.. بدأت أعد في سري:

ـ ثمانية.. سبعة.. ستة..خمسة..

لم أهمس بالأربعة.. بل تزامنت الثانية الرابعة قبل النهاية بخطوة واسعة اقتربت بها منه.. ثم أطلقت ضربتي الفريدة الشهيرة مرة أخرى.. ٣٦٠ درجة.. وقفزة إلى أعلى جعلت شعبان أمام قدمي مباشرة.. أطلقتها إلى بطنه في قوة لتصيبه بدقة.. مال إلى الخلف للحظة.. كانت كافية لأسدد ضربتي الأخرى إلى وجهه كما علمني كيم استغلال تلك اللحظة بالتحديد.. تمالك شعبان نفسه سريعا.. لكنه لم يكن سريعا بما يكفي.. فقد ارتفعت الصافرة من لوحة التحكيم..لتعلن نهاية المباراة.

وجدت نفسي في تلك اللحظة أصيح في غضب تزامن مع صيحته الهادرة هو أيضا. ووجدت نفسي أقفز بين ذراعي السعيد الذي دخل إليَّ متجاهلا كل من حاولوا منعه من نزول أرضية الملعب مرة أخرى.. وعندما حملني على كتفيه تذكرت ما فعله معي كيم.. وشعرت بأن هناك رابطة ما بين كوريا والسعداوية.. وتساءلت في المساء وأنا في غرفتي عما كان سيصبح سعيد لو ولد في سول.. وعما كان سيصبح كيم لو ولد في السعداوية.. وأعلنت رأيي لنفسي بصوت عال.. كان كل منهما سيصبح الآخر.. بمنتهى الدقة!

٣٧

سياسة/Politics

ثم عرفت لأول مرة سياسة الرياضة!

أشرس أنواع السياسة وأوضعها في العالم بعد مقاعد الحكم

توجد في الرياضة، فكرت كثيرا لأعرف ما وراء ذلك، نجوم الرياضة المتميزون يتفرقون، يتفرغون إلى المهن التي يجيدونها أو إلى التدريب أو الإدارة، وفي الألعاب الشهيرة يتجهون إلى الصحافة أو الإعلام، تاريخهم يعطيهم دفعة في كل المجالات التي يطرقونها، يبقى من لا يجيدون أي شيء، هؤلاء لا يبقى أمامهم سوى أن يكونوا جنودا لواحد من السادة يتحولون بعد اعتزالهم إلى آليين يستخدمهم رجل غامض كالذي يظهر في أفلام الخيال العلمي، مقاتلون وأبطال عجزوا أن يصبحوا أي شيء سوى مخلب القط الشرس الذي سيمزق به وجوه المنافسين.

طلبني اللواء منصور في مكتبه في اليوم التالي مباشرة، كنت مرهقا من اليوم الطويل الذي انتهى باحتفال صاخب مع زملاء الملعب من كل مكان، تبعه ساعات أخرى في المستشفى، الطبيب لم يصدقني، نظر إلى صورة أشعة يدي مؤكدا لزميله بالإنجليزية أن قصتي مستحيلة فحجم الكسر أكبر من قدرة أي إنسان على التحمل.

ربما كان الإرهاق والألم سببين مباشرين لتوتري، لكن كان هناك سبب آخر، الكره من أول نظرة، لا يتحدث عنه أحد لكنه موجود، حائط داكن يحيط بقلوبنا في مواجهة بعض الأشخاص مع أول تعامل قريب معهم، منصور كان نموذجا لما أكره، هؤلاء الرجال الذين يبدون نوعا من السيادة والسلطة غير المستحقة، فقط لأنهم أكبر منك عمرا أو منصبا، استفزني مع افتتاحية كلامه، بدا كرجل سخيف يلتقي بطفل فيبتسم له وهو يقول:

ـ أهلا يا شاطر.. أنت في سنة كام..

سؤاله كان مختلفا.. لكنه مشابه في نغمته:

ـ أنت بقى عمر الخياط اللي بيقولوا عليه؟ ما أنت كويس أهه!

لم أجبه..بل ابتسمت بسخافة توازي سخافته، بدأ يكلمني عن نفسه مباشرة، يتلو أمجاده في خدمة الوطن في مواقع مختلفة، ثم بدأ يتحدث بكبر عن كراهيته لطباع المصريين عموما واللاعبين خصوصا، كان يراهم كسالى ومتمردين على النظام وعلى «الكبار»، ثم بدأ في سلسلة نصائح اللواء منصور الخاصة لكي أصبح بطلا عالميا.. اختصرها في كلمة واحدة هي الطاعة العمياء. لمن؟ ليس للمدرب ولا لأصحاب الخبرات..بل له هو شخصيا.. بداية توتر اللقاء جاءت مع سؤالي الساخر له:

- هو حضرتك مارست الرياضة؟

أشعل سيجارا كوبيا ضخما وهو يجيب بثقة:

- أنا بافهم في كل الرياضات.. وأخذت فرق صاعقة ورماية ودفاع عن النفس.

ثم بدأ يعدد لي الاتحادات التي ترأسها.. أدركت على الفور أنه مثل تاجر خيل لم يركبها يوما، يمكنه أن يعدد لك أنواعها وطباعها لكنه لا يستطيع أن يصف لك شعور فارسها ولا ما يدور في رأسه وهو فوق ظهورها.. لذلك لم أعقب.. بل تركته يثرثر في تاريخه وحكاياته حتى قال:

- هاعمل منك بطل عالم..

هززت رأسي شاكرا، سلسلة التعليمات والأفكار كان نصفها غبيا والنصف الآخر غير واقعي، تحدث عن معسكرات وتدريبات في دول أعرف أنها جميلة للسياحة.. لكنها لا تناسب التدريب لأنها ما زالت تتحسس خطواتها في اللعبة، ثم بدأ يحدثني عن أهمية إخلاصي للفريق و«له» شخصيا، بدأ يسألني عن زملائي في الفريق وما يقولونه عنه، ويتحدث عن الجميع باحتقار شديد،

بدا لي أنه اختبار مبكر لانقيادي تحت رايته واستعدادي لأن أكون واشيا بزملائي، ربما أكون قد غاليت في رد فعلي، لكن الأكيد أن رأيي ارتسم على وجهي بشكل أو بآخر فقد قطع كلامه فجأة:

ـ مش عاجبك كلامي؟

لم أجب، فقام من مكانه ليتفحصني كمحقق في قضية سرقة غامضة، كان قد قرر تغيير سير الحوار من عظمته إلى دونيتي، بدأ يتحدث في غضب عن أن مظهري يبدو مليئا بالرفاهية ويدل على أني شاب مدلل، مع كل وصف كانت ابتسامتي الساخرة تتسع بشكل جعله أكثر تحفزا، مد يده فجأة وجذب القلادة الفضية التي أخذتها من كيم فأمال عنقي في اتجاهه وهو يقول:

ـ فيه بطل تايكوندو بسلسلة؟

أفلت يده بغضب وعنف وأنا أجيب في حدة:

ـ وفيه رئيس اتحاد بقميص مشجر!!

تحرك المدرب الكوري لأول مرة ليفصل بيننا، لم يفهم الحوار لكنه فهم أن هناك توترا شديدا يحتاج إلى تدخله.. ابتعد هو عني وصاح ليفتح الباب مناديا على مدير مكتبه في غضب، فيدخل في هلع:

ـ الكلب ده يتحول للتحقيق..

ضحكت في استفزاز وأنا أجيب:

ـ علشان السلسلة ولا القميص المشجر؟

بدت ثورته مجنونة، انهال عليَّ بسباب لن أنساه، لم أجبه واكتفيت بابتسامتي، كنت أعرف أنه لن يستطيع أن يفعل ذلك، مصالحه الشخصية معي أنا، بطولاتي ونتائجي لن تجعل الأمر سهلا.. أشرت إلى مدربي ليغادر معي لكنه لم يفعل بل هز رأسه

رافضا في قلق، قمت من مكاني في اتجاه الباب لكنني توقفت قبل أن أغادر قائلا:

ـ على فكرة يا سيادة اللواء.. كل الاتحادات اللي أنت مسكتها معملتش حاجة.. غالبا علشان كده أنت مسكت اتحادات كتير..

ثم خرجت متعمدا أن أصفق الباب خلفي بعنف.

* * *

عرفت كيف تسير الأمور في الرياضة أيضا بعد ذلك الموقف، كل حساباتي كانت خاطئة، اللواء منصور أصدر قرارا بإيقافي، لم يعد من حقي ممارسة اللعبة، لم يحلني إلى التحقيق ولم يوضح الجريمة، فقط عقد اجتماعا لجميع لاعبي المنتخب والصحفيين ليقول لهم إنه قرر شطبي لسوء السلوك، أوضح أن الأخلاق أهم من الرياضة وأنه مسئول عن صناعة مجتمع وليس حصد الميداليات، وجدت اسمي بعد يومين متصدرا صفحات الرياضة.. أما الشائعات التي انتشرت عما حدث فكانت كثيرة.. أشهرها أنهم ضبطوني في وضع مخل مع واحدة من لاعبات المنتخب بعد البطولة التي فزت بها، ولم يفكر أحد عن السبب الذي لم يجعلهم يعلنون اسم شريكتي في الجريمة، أو يقررون شطبها..

ـ أصل هي اللي اشتكت..

هذا ما قاله الشخص الوحيد الذي زارني بعد أن اعتكفت في منزلي، موضحا حجتهم في إخفاء اسم شريكتي الوهمية في الجريمة، زميلي في المنتخب مصطفى القماح.. ذلك الإسكندراني «الجدع» كان هو الوحيد الذي وقف في الاجتماع مطالبا بالإعلان عن سبب العقوبة.. وهو الوحيد الذي غادر الاجتماع غاضبا معلنا أنه سيعتزل

اللعب إذا لم يجر تحقيق معلن معي، وعلى ما يبدو أن رأيه كان مؤثرا أيضا لأن قرارا جديدا صدر بعدها بإيقافه عن اللعب لمدة عامين، لعدم امتثاله لقرارات الاتحاد.

مصطفى كان أقرب مني للسياسة الرياضية، أخبرني أن الاتحادات لها دور مهم في السياسة بشكل عام لأنها البوابة الأقرب للحكومة في تعاملها مع الشباب، شرح لي لأول مرة لماذا يتم الجمع بين وزارتي الشباب والرياضة.. قال لي في جملة واحدة قصيرة:

- الاسم الأفضل لها..وزارة تهدئة الشباب بالرياضة!

فهمت الكثير بعد ذلك الحوار، لماذا تتحول مباراة رياضية إلى عداء مزمن بين بلدين، ولماذا يتم التركيز على الألعاب الشعبية حتى وإن لم تحقق نتائج، الأمر واضح، الانشغال بجدول الدوري العام أفضل من الانشغال بالجدول الدوري في الكيمياء.. الأول سينتهي باحتفالية الصعود والهبوط في نهاية الموسم.. أما الثاني فسيؤدي إلى تساؤل مرير عن صناعة القنبلة الذرية.. وهنا مكمن الخطورة!

أردف مصطفى بعد أن شرح لي كل ذلك:

- النظام معتمد على تشتيت الناس..كل واحد لازم ينشغل بنفسه وبحاله وينافس التاني..

ثم رسم دائرتين في الهواء بأصابعه:

- أكبر تجمعات عندنا مسموح بيها هي تجمعات مشجعين الكورة.. لو دخلوا في السياسة في يوم ممكن يعملوا ثورة مخيفة، وأكيد هتحصل في يوم من الأيام!

اكتشفت مصطفى القماح في ذلك اليوم.. مدرس العلوم الهادئ الذي كان يحفظ القرآن كاملا، لأول مرة وجدت نفسي أتحدث في السياسة، كان ثوريا هادئا، شرح لي السبب في الاعتماد على كوادر سابقة في جهات سيادية داخل الاتحادات الرياضية لأنها تمثل

خلايا صغيرة في خدمة النظام الكبير، وعن دعم الوزارة للعقوبات القاسية لأنها نموذج مهم لوأد التمرد في أمور تافهة لكنها درس مهم في إخضاع العقول.. اللواء منصور رجل فاسد.. فضائحه متعددة، يتاجر بكل ما يخص الاتحاد، شركة الملابس والأدوات التي يستخدمها اللاعبون بالأمر تخص زوجته، دخول المنتخب والخروج منه بقرار مباشر منه، الكل يعرف ذلك لكن هدوء الأمر في الاتحاد يعني أنه رجل ناجح.

ـ الشوشرة هي الحل..

هذا ما أكده لي في نهاية حواره، لو شعر الكبار أن اللواء منصور يفقد سيطرته على القطاع المسئول عنه..سيأتي بنفسه إلينا لكي ينهي الأمور.

نظرت إليه بإعجاب وامتنان، الجالس في مواجهتي يحمل قلب بطل وعقل مثقف، إذا تم استثماره سيكون نجما من نجوم هذا الوطن، لكني عرفت بمرور السنوات أننا لا نجيد صناعة النجوم.. ولا حتى الحفاظ عليها لكننا نحترف إسقاطها من السماء.

٣٨

صندوق الرسائل/Inbox

ريم

«لماذا اختفيت فجأة من حياتي؟ لأنك كنت تمر بمشكلة، أو كارثة كبرى كما وصفتها لي فيما بعد، كعادتك، تحيا معي طالما أنت وحدك وتعيش وحدك طالما كنت معي.

أنا عرفت ولم أيأس ولم أضعف، ولم أصدق أنك على علاقة بأخرى، ذهبت إلى اللواء منصور لأتكلم معه فاكتشفت أنه متوحش

على عكس ما كان يبديه معنا، فما لا تعرفه عنه هو أنه كان يحمل شخصيتين متضاربتين، إحداهما تخرج مع فريق الرجال والأخرى يحتفظ بها لفريق الآنسات.

كان رجلا وضيعا بما يكفي لمساومتي بشكل ما، لم يطلب مني شيئا مباشرا لكنه كان لزجا متصابيا، ثم انقلبت مساومته سريعا في تجاهك أنت.

طلب مني صراحة أن أجلس معك وأعقلك، وأن تقدم اعتذارا مكتوبا في الاتحاد ويتم إعلانه في جميع الصحف، لم يستدعِ الأمر إخبارك لأنني شخصيا رفضت ذلك، ثار عليَّ أنا أيضا وقال ما معناه أن اسم الفتاة التي يقيم معها عمر علاقته السرية يمكن أن يتسرب إلى الصحف، ثم أشار إليَّ!

هددني بأنه قد يتهمني بعلاقة جنسية معك إذا لم نرضخ، أتدري يا صديقي؟ لم يكن الأمر يستحق كل ما فعله بك، وإبعادك لم يكن نتيجة لتصعيد الأمر بينكما في تلك الجلسة، كان قرارا اتخذه قبل أن يلتقي بك، نجم صاعد بقوة يمتلك كل المقومات ليسكن أي مكان يختاره في السماء الآن ولاحقا، فإما أن يبدي رضوخا من البداية أو يختفي إلى الأبد، ذلك ما قرأته بين سطور كلماته في تلك الجلسة:

اللي زي عمر ده لازم ينزل مناخيره من السما يا إما أكسرهاله..

ده بيقف قدامي من دلوقتِ.. أمال لو بقى بطل العالم هيعمل إيه؟

هما دول اللي علشان كسبوا لهم ماتشين بيبقوا فاكرين نفسهم ينفعوا يبقوا رؤساء اتحادات.

اللواء منصور كان يريد أن يكسرك مبكرا أو ينفيك إلى الأبد، كان يختبر قدرتك على طاعته، وطبعا أنت رسبت باقتدار.

جانب شيطاني من عقلي تمنى لو نفذ تهديده وسرب اسمي

للصحف مقترنا باسمك، كانت الفكرة مجنونة وكنت أتظاهر برفضها أمام نفسي، لكني كنت أحب كل شيء يربطني بك، كنت قد وهبتك اسمي وقلبي فلتفعل فيهما ما تشاء، حتى إذا رآني العالم كله مذنبة ومتهمة بفضيحة، أنت تعرف الحقيقة، لن أسقط من نظرك، ربما تتعاطف معي أكثر.. إذا امتلكتك أنت فليذهب العالم بأكمله إلى الجحيم.

لم ينصفني أحد في معركتي من أجلك سوى مصطفى القماح، أنت شخصيا لم تقف معي، كنت تهرب مني، لكني لم أكن أنتظرك لكي أواصل السعي في سبيلك، كلمت كل المدربين واللاعبين لكي نفعل شيئا، مصطفى القماح فقط أيدني وابتسم لي في أخوة وهو يقول:

ـ إنتِ مش أجدع مني!

وأعلن توقفه عن التدريب، كنت أظن أنه سيكون البداية في سلسلة طويلة من الإضرابات سيقوم بها كل من يعرفون أنك على حق. عرفت لأول مرة أن الحق يباع ويشترى في هذا العالم.. كلهم باعوا الحق واشتروا رضا اللواء منصور. أما القماح فاشتراه بثمن باهظ دفعه بالتقسيط.. حياته بأكملها.

بحثت عنك في كل مكان، لم أستطع الوصول إليك في النادي، ولم تجب على اتصالاتي، لم تسمح لي بأن أقف إلى جوارك، لكني لم أخف عليك للحظة. كنت أعرف أن رجلا مثلك لا يمكن أن يقف في طابور المهزومين لوقت طويل، رغم غضبي منك في تلك الفترة إلا أنني التمست لك ألف عذر وعذر، كنت أعرف أنك جريح بشكل ما وتشعر أنك فقدت كل شيء، أحببتك أكثر لأنك لم تخضع ولم تضعف..

لكني بدأت أشك في أنك ستكون لي يوما ما، شعرت أنك سراب كلما اقتربت منه في أي لحظة اختفى عني.. وكنت على حق».

٣٩

خروج/ Sign out

لا توجد على حائطي أي صور أو تعليقات تؤرخ لتلك الفترة في حياتي، يبدو الأمر كما لو أنني جمدت الحساب وخرجت منه لشهور. رسالة ريم التي تلقيتها بعد سنوات طويلة هي التي ذكرتني بكل التفاصيل التي لم يبق منها في حياتي سوى ما حدث لمصطفى القماح.

لم أعرف أبدا تمييز مشاعري في تلك الأيام من حياتي، لكني كنت أترنح كلاعب تلقى ضربة قوية على رأسه، يتظاهر بالتماسك رغم انهياره التام.

أعرف جيدا ما فعلته، انعزلت عن حياتي المرتبطة باللعبة ففقدت حماسي ومشاعري للحياة بأكملها، لا شيء يستحق، تفقد كل شيء في لحظة وترى كل الأمور تسير رغم غيابك، الرياضة نفسها كذلك، تهجرك لعجزك أو إصابتك أو انشغالك، وتهجرك إذا وجدت من هو أفضل منك، هكذا حالها في العالم كله أما عندنا فيضاف إليها أب يمكنه أن يحكم عليك بالابتعاد.. فما بالك عندما يكون أبوها هو اللواء منصور.

عرفت أن كل محاولات الوساطة التي أجراها العديدون باءت بالفشل، فهو أعلن بصراحة أن الأمر منتهٍ لأنني «قليل الأدب»، بدأت بالاتصال بالصحفيين الذين كانوا يجرون ورائي واحدا تلو الآخر.. وفي كل مرة كان الرد يأتي في منتهى الحماسة، ثم نجلس

ونحكي ونكتب ونلتقط بعض الصور..ثم أنتظر النشر فلا يأتي، وتأتي إجاباتهم على أسئلتي مائعة لا تفهم منها سوى شيء واحد، أن الأمر ليس في يد هؤلاء الشباب، مصطفى أيضا لم يهدأ لكنه كان قليل الحيلة، وريم كانت تطاردني بالهواتف على مدار الأيام إلى أن تصل إليَّ لتخبرني عن عشرات الاتصالات التي أجرتها بالصحفيين والأقـارب، لم أرد أن أخبر أبي لأنه كان في تلك المرحلة من حياتي يرى بوضوح أنني أوشكت أن أصبح راهبا في دير رياضتي.. حتى وإن استطاع حل الأمر كنت متأكدا أنه سيجد الأمر فرصة ليؤكد لي أنني أقامر بشبابي كما كان يقول كثيرًا.. خير الأمور الوسط، لكن الوسط ليس هو الفكرة الأمثل عندما تريد أن تصبح بطلا للعالم.. في النهاية اضطررت للجلوس أمامه في استسلام لأقص عليه الأمر.

للخبرة ثقلها في الحياة كما هو الحال في الملاعب، أبي لم ينفعل كما كنت أتوقع، ولم يخبط المائدة براحة يده متسائلا عن كيف يحدث ذلك، بل مط شفتيه في استياء وهو يفكر طويلا، وجهه الأبيض المستدير لم يحمر انفعالا.. بل تنهد وهو يحسبها جيدا.

رأيته بعدها وهو يجري عشرات الاتصالات، لم يكن أبي رجلا عاديا لكنه كذلك لم يكن قويا بما يكفي، طبيب شهير بما يكفي لتكون له شبكة علاقات واسعة في كل مكان لكنه لا يملك أن تخرج طلباته بصيغة الأمر. بمرور الأيام أصبحت أتجنب سؤاله عن الأمر لكيلا أسبب له حرجا لا ذنب له فيه، إلا أن طول اعتكافي في المنزل ولحيتي التي طالت لأول مرة كانا إلحاحا كافيا عليه، ونظرة العجز البادية في عينيه وعصبيته عليَّ وعلى لعبتي والرياضة كانت كافية لأفهم ما يحدث. وعندما انفجر في وجهي غاضبا ليتهمني

بالوقاحة مع رجل في سنه وفي موقع مسئوليته بعد لقاء مع صديق «مهم»، أدركت أن سطوة اللواء منصور وصلت إلى بيتنا بشكل ما.. فتسلل اليأس لقلبي لأول مرة.

كم أضرت بي تلك الفترة كثيرا رغم أنني كان عليّ أن أستفيد منها، عندما حكيت لمصطفى القماح ما حدث ضحك بمرارة وعصبية وهو يقول:

ـ أبوك بقى بوكسر..

لم أفهم، ولم يوضح لي.. بل جاءني بعد يومين في زيارة قصيرة كانت هي بداية إدماني للقراءة رغم أنني لم أهواها قبل ذلك، أهداني كتابا لأقرأه اسمه «مزرعة الحيوانات»، ابتسمت عندما رأيت الاسم، ظننته كتابا طفوليا فضحكت وأنا ألقي به على المائدة ساخرا من صديقي، شعرت بالحرج عندما انفعل قائلا إنها رواية شهيرة في العالم رغم أنها ـ أو لأنها ـ ممنوعة من التداول في أنحاء كثيرة منه.

الفائدة الوحيدة لفترة إبعادي على يد منصور؛ عالم الكتب والقراءة، العالم الذي لم أقتحمه إلا مع توافر الوقت لي آنذاك، أغلب من يحترفون الرياضة هنا لا علاقة لهم بالقراءة مطلقا، بين التدريب والنوم والدراسة أو العمل لا يوجد أي وقت للثقافة، لكنها كانت البداية، لم أحب ذلك الكتاب كثيرا لكنني أحببت القراءة، ومصطفى لم يتأخر عن إمدادي بالمزيد.

عرفت بوكسر في تلك الرواية.. الحصان القوي المتفاني في عمله الذي بالرغم من كل مزاياه لا يجرؤ على رفض ما يأمر به الأخ الأكبر.. قرأت تلك الرواية بعد ذلك في عشرات المواقف.. وفي كل مرة كانت نظرتي لها تتغير بتغير موقفي.. وعلى مدار عشرات

الأعوام أطلقت أسماء شخصياتها على العشرات ممن عرفت.. لاسيما الخنزير الأكبر نابليون.. ورأيت نفسي في تلك المرحلة سنوبول الناجح الشريف الذي كان لا بد من الإطاحة به لأنه لم يكن مطيعا بما يكفي.

توقفت المحاولات فجأة من كل اتجاه، لم يكن هناك بد من الاستسلام، لم أعلن لنفسي ذلك لكني أخبرتها أن عليَّ التفرغ لدراستي، أصبحت لأول مرة ملتزما بالحضور والمتابعة والمذاكرة.. احتجت لأن أشعر بنجاحي في اتجاه جديد، فريدة هي التي دفعتني لذلك بمنتهى الحماس واحتلت مساحة كبيرة في حياتي، كانت تنتظرني تحت بيتي في كل صباح وترافقني لمحاضراتي في جامعتي الكائنة بميدان التحرير.. وكنا نذاكر سويا ونأكل سويا.. تأكدت في تلك الفترة أن ما تحمله في قلبها تجاهي يفوق مجرد الزمالة أو الصداقة، لكنها لم تطلب مني أي شيء، صحبة هادئة مخلصة بدون أي التزام أو مخططات، على عكس ما كانت ريم تبحث عنه باستمرار.

في هذه الفترة عرفت مجتمع الجامعة الأمريكية كما لم أعرفه من قبل، في البداية كدت أمله سريعا، ثرثرة ثم محاضرة ثم ثرثرة ومحاضرة أخرى، كان هؤلاء هم أصدقاء النادي وأبناء معارف أبي، حياة تكاد تكون فارغة تماما لولا كتب مصطفى القماح، لكن بقية اليوم لا شيء، حفلات الهالوين، والعام الجديد، أعياد ميلاد، صالات ديسكو دخلتها لمرة وحيدة ثم كرهت ظلامها وصخبها وجنون من فيها ومنافساتهم الخاوية من كل شيء..

تعمقت أكثر في الجامعة، بدأت أنضم لأصحاب النشاطات الذين اكتشفت أنهم بكثافة التافهين لكنهم أقل صخبا، ربما لكونهم

أكثر إنتاجا، عرفت لأول مرة أن فيها جماعات دينية واجتماعية ومهتمين بالسياسة، ورأيتهم بعد ذلك يخاطرون بكل ما يملكون من مال ومناصب من أجل تغيير حال الوطن، ورأيت لاحقا السعداوية ومن مثلهم ممن يملكون اللا شيء يقاومون هذه المحاولات في مشهد هزلي! فريدة ابنة الوكيل نزلت مطالبة بالتغيير وشربيني ومن معه وصفوهم لي بأنهم خونة ومأجورون، رغم أن فريدة التي قاطعت أباها وغادرت قصرا مساحته تساوي مساحة السعداوية بأكملها تقريبا واستأجرت شقة صغيرة في شارع قصر العيني.. لماذا ثارت فريدة؟ فريدة المصرية كانت تحب الناس.. وتحب العمل.. وتحب المخلصين..لكني لم أفهم أبدا لماذا لم تقبل فريدة الأنثى ريم، بينما تقبلت ريهام!

٤٠

عمر قام بالتعليق على هذا/ Omar commented on this

فيديو قصير يمثل إعلانا لفيلم كوري حديث اسمه العرش، إعجابات وتعليقات بالآلاف بالإنجليزية والكروية على صفحة صديقي، شعرت برجفة قصيرة وأنا أشاهده، ثم أضفت تعليقي:

Jong Kim, Do you remember when I asked you how come this story is not presented as a new movie?

سمعت تلك القصة من البوس فارتجف جسدي، في المساء ظللت شاردا إلى أن سألني كيم عما يدور في رأسي.. فأجبته أن تلك هي أكثر قصة أثرت فيّ على الإطلاق، لأنها حقيقة.

أسوأ أنواع السجن هو ما يبدو معه الإنسان حرا رغم كونه حبيسًا، وأوضع مساندة للظالم أن تجد لنفسك مبررا لتقبل ظلمه فلا تكتفي

بالصمت، بل تؤكد لنفسك وللجميع أن المظلوم يستحق ما وقع له، وجد الكثيرون فيما قاله عني مخرجا أمام أنفسهم لكي ينسحبوا من مساندتي، وتطايرت الشائعات بإضافات لا تنتهي عن فواحشي، فلم يكن أمامي سوى العزلة التامة.

حرمني اللواء منصور من حياتي، الرياضة، فقط لأنه يرى أنني تجاوزت حدودي في حواري معه. حدد العقوبة ثم وجد الجرم لا يكفي فعدله بما يكفي ليخرس الجميع، أو على العكس ليتكلموا عن عدله ودفاعه عن الأخلاق والشرف حتى لو كان على حساب أقرب لاعبيه إلى الميدالية، محاكمات الأمير سادو التي تتكرر في كل مكان وزمان كما كان البوس يقول دائما.

تكاد قصة الأمير سادو تذهب بعقلي، حكاها لي البوس فظننتها قصة خرافية، ثم قرأت عنها لاحقا وجمعت صورا حقيقية أو تخيلية لأبطالها، عرفت أنها واقع لم يستطع أحد نسيانه هناك، شغلتني لكني لم أتوقع أن تصبح هاجس حياتي، حياتنا كلها صناديق كهذه، الظلم والمرض والفقر..وحتى الأجساد عندما تشيخ أو تمرض، أصبح جسدي أنا قفصا معدنيا باردا محبوسة فيه نفس الروح التي لم تتغير ولم تنهزم، روح الصغير الذي عاش يبحث عن البطولة حتى حققها، لكنه عالق الآن، يحاول الخروج كل يوم عشرات المرات فيجد القفص محكم الغلق تماما.

لم تكن أسطورة، بل كانت حقيقة، أتخيل ذلك الأمير الذي كان في أجمل مراحل شبابه، السابعة والعشرين، طفولة بائسة تحت حكم ملك قاسي القلب بالدليل القاطع، حتى وإن كان سادو مجنونا، لم يفعلها الإمبراطور إلا خوفا على العرش.

تقول الحكاية إن سادو كان وليا للعهد، لكنه لم يكن محبوبا

من أبيه، لأنه كان متمردًا. أظن هذا هو السبب الحقيقي في كل ما حدث له، لم أصدق الحكايات الأخرى التي أشاعت إدمانه الخمر، أو أساطير قتله لنساء القصر الواحدة تلو الأخرى، تبدو قصصا غريبة كالتي يرددها خالد فاروق في برنامجه عن الذين تمردوا هنا، الأباطرة لا يقتلون أبناءهم إذا فسدوا، بل إذا أصبحوا خطرا على العرش.

كان القانون في تلك الحقبة يمنع الحكم على أفراد الأسرة المالكة بالإعدام، لذلك اختار الإمبراطور لولده مصيرا آخر، سطره في مرسوم ملكي وأعطاه لزوجته لكي توقعه كأم وريث العرش، لا شك أن لحظات قليلة من التردد مرت بها، لكنه لم يكن ليسمح لأي رحمة ترددت في صدرها أن تعارض قرارا أصدره هو من أجل الإمبراطورية العظيمة، أن يحبس ولدها في صندوق حتى الموت، هكذا لا يكون إعدامه إعداما!

كيف مرت تلك اللحظات على الأم؟ وكيف مرت الأيام التالية عليها وهي تعرف ما يحدث وتسمع همهمات ابنها المستنجدة؟ لا تذكر الحكاية أي شيء ولا يوجد أي رواية تاريخية ثابتة سوى أن الملك يونج جو (الرحيم) أصدر أوامره بأن يتم وضع الأمير حيا في صندوق من قش الأرز ويحكم إغلاقه عليه، ويُترك ليلاقي مصيره المحتوم.

ثمانية أيام قضاها الأمير الشاب في عامه السابع والعشرين في ذلك الصندوق، لا أعرف عدد الصيحات التي أطلقها ولا ما دار في رأسه وهو يختنق رويدا رويدا في صندوق لم يكن مصمتا لتكون الميتة سريعة، إلى أن انتهت الحكاية نهاية مرضية للملك الذي لم يقبل إعدام ولده.

سادو تعني كما أخبروني «الذي سيتم ذكره في أسى»، وأنا أذكره في تساؤل عن عدد من لاقوا مصيرا مشابها لأنهم لم يكونوا على

هوى الملك، ولا يستطيع أحد أن يفعل شيئا، سيبقى فقط الكتبة ليبرروا ما حدث بالجنون أو الخيانة أو الخطر على باقي البشر.. لكن الحقائق تبقى غائبة.. والتاريخ لسان وآذان بلا عقل، لكن الحقيقة أن الرجل قتل ولده مختنقا من أجل كرسي الحكم.. أنا رأيت من يتصارعون على كرسي أتفه كثيرا من كرسي الإمبراطور، فعرفت أن لعبة الكراسي ملعونة، لا تعرف الرحمة.

عندما غاب بدوي تخيلته في صندوق مماثل، ينتظر موته ويصرخ باسمي فلا أستطيع إنقاذه لأنني مقيد في كرسي معدني قبيح، بدوي لم يكن خائنا على الإطلاق، كان حالما.. وجد موجة تستحق أن يحاول ركوبها لكنه كان أضعف من أن يفعل، غالبا كان الأمير الشاب يحلم بالتغيير، بدت عليه بوادر ثورة مبكرة أو على صفاته ما يؤكد أنه قد يصبح مناسبا لمنصب الإمبراطور يوما ما، كان صالحا وقويا وذكيا بما يكفي ليتهمه أبوه بالشذوذ والقتل والجنون، حتى يقتله مختنقا وسط صمت الجميع، لكن التاريخ لا يصمت بسهولة على ما يبدو.. فقد تخطت الحكاية حاجز الزمان والمكان حتى وجدتني.. أو أنني من وجدتها، لأحمد الله في النهاية لكوني لست سادو، ومنصور لم يكن أبي الإمبراطور، لكن لعنة الحكاية أصابتني بالتأكيد.. فهذا الجسد يحبس روحي داخله بشكل متطابق، وكلانا لم يملك كلمة السر للخروج من صندوقه.

٤١

مكالمات/Calls

أول مكالمة جاءتني من كيم كانت مفاجأة كبرى غيرت مسار حياتي أو أعادتها لطريقها مرة أخرى. لم أخبره في أي من

خطاباتي بما حدث لي، كنت أراه عارا يستحق أن يخفى، أرسل لي خطابا يسألني فيه عما إذا كان المنتخب المصري سيشارك في إحدى البطولات الشهيرة التي تقام في مدن أوروبية، أخرت الرد متعمدا، لم يكن لدي رد بعد انقطاعي عن الفريق، ثم جاءتني منه رسالة غاضبة.

عاتبني على إخفائي الأمر، عرف من لاعبي الفريق الذين شاركوا في البطولة ومن المدرب الكوري الذي وصفه بأنه كان على وشك الموت كمدا.

لم يكن هناك بد من رسالة جديدة تحمل كل التفاصيل، تخيلته وهو يقرأها في دهشة تامة، ثم يرسل إليَّ خطابا معزيا ومقترحا عليَّ ألا أيأس. لكنني لم أتوقع أن يكون خطاب الرد على هيئة برقية يطلب فيها أرقام هاتف المنزل والموعد المناسب للاتصال..

بالفعل جاءتني منه مكالمة في الخامسة صباحا بعد أن أخطأ في حساب فارق التوقيت عاتبني مرة أخرى، ثم طلب أن أرسل إليه برقية تحمل معلومات كاملة عن اللواء منصور، اسمه وأرقام هواتفه ومكان عمله، وصورة شخصية له، لم أتردد في إعطائه كل المعلومات، كنت أعرف أن له اتصال بالاتحاد الدولي سيحاول استغلالها، لكنني لم أكن متفائلا، صراع منصور معي صراع مستقبلي طويل الأمد، وليس خلاف لاعب مع رئيس اتحاده «الأب»، ولأني أعرف أنه على قدر الأمل تكون الصدمة؛ تشاغلت سريعا بالدراسة مرة أخرى وبالجامعة الأمريكية وفريدة الوكيل والجو الجديد، لهذا لم أتألم كثيرا عندما لم يأتني رد من صديقي.. فقط فهمت ما حدث!

ثم جاء الرد متأخرا بعض الشيء، مكالمة في وسط النهار من

مكتب اللواء منصور شخصيا، لم أفهم شيئا وأنا أراه يحدثني عن علاقة الأب والابن التي لم ينسها.. وعن طموحه الكبير ليراني بطلا للعالم، كما كان يحلم.. لم يكن هناك مجال للرفض أو التراجع.. لكن لهجته اللينة شجعتني على أن أضيف:

ـ ومصطفى القماح؟

أجاب برفض حاد وقاطع، حاولت أن أذكره بأن مصطفى لم يكن طرفا في المشكلة، لكنه أصر على موقفه بغضب تام، بدأ يردد نفس الكلام الذي كان يقوله عني.. قلة الأدب والعصيان والتمرد، ثم يتحدث عني أنا فيؤكد لي أنه عفا عني لأنني أستحق، تأكدت في تلك اللحظة أن قربانا ما تم تقديمه تحت قدمي اللواء منصور من أجل العفو.. كان من المستحيل أن أعرف تحديدا بعد كل المحاولات السابقة أيهم هو الذي أنهى أزمتي.. لكنني شعرت بقوته في كل لمحة من لمحات اللواء منصور.. الغريب أنه لم يكن غاضبا ولا محتدا، بل كان منتشيا سعيدا، يخبط على كتفي كل دقيقة تقريبا ويضحك على نكات سخيفة يقولها أو لا يقولها، المهم أنني رأيت الملعب مفتوحا لي على مصراعيه.. فوضعت شرط رجوع مصطفى القماح معي إلى المنتخب أو ألا يرجع كلانا.. صمت للحظات بدا عليه فيها الضيق لأول مرة، ثم قال وهو يضغط على كلماته:

ـ بكره تكونوا في المعسكر..

فابتسمت وأنا أكاد أسأله.. من وراء هذه الطاعة المفاجئة!!

* * *

الأصدقاء حياة، بعضهم عطاء بلا مقابل وآخرون أخذ بلا عطاء، ومنهم المرابون الذين يعطونك وينتظرون منك أضعافا مضاعفة،

أصبح مصطفى رفيق غرفتي في المعسكر ومكونا واضحا في شخصيتي التي لم تدم بعد فراقنا طويلا لكن بقيت آثاره واضحة، كان نهرا أغتسل فيه وأنهل منه كل يوم. أستيقظ صباحا على آيات القرآن التي يبدأ يومه بتلاوتها، ثم أغوص معه في الكتب التي ملأ بها الغرفة، كان يقرأ في كل شيء، وأخذني معه في طريقه، كان يتنقل من الأدب إلى السياسة إلى التاريخ، لا حدود لما يقرأ، عرفت لأول مرة أن هناك كلامًا ممتلئًا ومالئًا.. وصرت أفهم جيدا ما هو الكلام الفارغ عندما أتحدث مع معظم اللاعبين.

كان يجيب كل أسئلتي في الحوار المسائي، حدثني عن الجماعات الإسلامية التي كانت تنتشر في مصر آنذاك وعن كراهيته لها جميعا، وعن تمرد غير مبرر للأمن المركزي الذي أطاح بوزير داخلية رآه الأفضل وعن رؤيته له كخيانة، حدثني عن الحب والموت والموسيقى والحياة، وعندما سألته عن تقسيم الكوريتين وأخبرته بما وصفه لي البوس عن ضربة الساطور، حكى لي وهو يهز رأسه أسفا عن الصراع الأمريكي الروسي الصيني في بلد آخر والذي انتهى بقسمة كاملة لشعب واحد لا تزال حية إلى الآن، اتسعت الفوراق بين الكوريتين إلى أن أصبحتا شعبين منفصلين تقريبا، ثم بدأ في مقارنة موسوعية متحدثا عن تقسيم ألمانيا وتفاصيل اتفاقية تقسيم مشابهة في الشرق الأوسط:

- التقسيم ضريبة.. ضريبة خسارة الحرب في ألمانيا..وضريبة الصراعات السياسية في كوريا..وضريبة التفاهة والضعف كما حدث لنا!!

أصبحت مثقفا بالمصاحبة، يمسك كتابا ويختفي بين صفحاته فأمسك بكتاب آخر، عرفت لأول مرة أن أمل دنقل رجل وليس

امرأة وعشقت شعره.. وانبهرت بذلك الكتاب اللعين الذي سمعت عنه في الجانب الآخر من العالم.. أمير ميكافيللي.

كانت التدريبات فرصتي لرد ما آخذه منه، كنا نتدرب سويا، هو كان في الوزن الثقيل وأنا في الوزن الذي يسبقه مباشرة، علمته كيف يتحرك ويضرب ويتفادى.. مع الوقت تحول مصطفى من ثور إلى مشروع غزال غير مكتمل لأنه كان ثقيلا جدا، لكن على الأقل أصبح يتحرك جيدا.

كانت بطولة العالم تقترب، والفترة التي قضيتها في التدريبات لم تكن كافية لأستعيد مستواي كاملا بعدما فقدت منه الكثير.. مع ذلك اجتهدت قدر استطاعتي، انتظرت رفيق تدريبي في صالة المطار طويلا لكنه لم يأت، رغم أنه حتى الليلة السابقة كان يتحدث معي عن أحلامه في هذه البطولة، كنت أجري كالمجنون في جنبات المطار والإذاعة الداخلية تنادي على رحلتنا.. إلى أن وجدت هاتفا بالعملة.. جاءني صوته مكتوما ليخبرني أنه لن يستطيع السفر لمرض والده المفاجئ، كان الحزن في صوته واضحا.. أغلقت الهاتف وهززت رأسي في أسى وأنا أتساءل عن القدر الذي أصبح يخيفني كثيرا بعد ذلك اليوم، تلك البطولة بالتحديد كانت فارقة في حياتي الرياضية.. وغياب القماح عنها كان فارقا في حياته بأكملها.

في هذه البطولة تحديدا عرفت أني أصبحت لاعبا آخر، لأول مرة أتخطى مباريات العالم بسهولة وأبدأ في التفكير بالاستعراض، لا أزال أذكرها كما لو كانت بالأمس.. انتصرت على لاعب أردني ثم آخر برازيلي.. وصلت إلى الدور ربع النهائي.. مباراة واحدة كانت تفصلني عن الميدالية.. لكني خسرتها!

كان أمريكيا ضخما أسمر البشرة، أصوله الأفريقية بادية، قوي

بما يكفي لإفساد معظم محاولاتي بقوة تصاحبها مهارة كافية كيلا يقع في الفخاخ التي حاولت نصبها، انتهت المباراة بتعادل سلبي بلا نقاط، وكان على الحكام اختيار الأفضل فنيا.. تيقنت من الخسارة، لكن صيحات الجماهير التي جاءت مستهجنة للقرار.. واللقاءات الصحفية التي توالت بعدها والصور التي التقطها الكثيرون لي وهم يطلبون توقيعي جعلتني أعرف أنني على الطريق الصحيح!

جونج ظهر كما هو، فاز في كل مبارياته بسهولة، سيظل دائما تعريف البطل في رأسي مرتبطا بذلك الشخص.. أن تعتلي فلا تهبط مرة أخرى، تتقدم فقط، لهذا اقتحم اسمه موسوعة الأرقام القياسية، الرجل الذي احتكر بطولات العالم لعشرة أعوام متتالية، بطولة كل عامين تقريبا، كان الأبطال يتحركون إلى أعلى وأسفل، أما هو فظل ثابتا في مكانه حتى تركه بإرادته للقادمين من بعده.

ـ مستواك تراجع كثيرا.

كان هذا رده على تهنئتي له بالفوز.. بدا لي أن خسارتي أفسدت عليه فرحة فوزه أو ربما لم تكن فرحته طاغية بفعل الاعتياد، جلسنا سويا في أعلى نقطة في المدرجات، كان يحدثني بهدوء بإنجليزيته التي تطورت كثيرا بما يكفي لتوصف بالطلاقة..لم يتوقف عن متابعة لغته بعد رحيلي.. كان فارقا واضحا بيني وبينه.. أنا توقفت عن التدريب طوال الفترة التي أبعدني فيها اللواء منصور.. وتوقفت عن متابعة اللغة الكورية مع يوم رحيلي من كوريا.. لامني في غضب شديد عن ابتعادي عن رياضتي تحت أي ظرف.. ثم فاجأني بأن البوس هو من وراء عودتي للتايكوندو، منح منصور توكيلا خاصا للأدوات الرياضية الكورية بلا شروط تقريبا، تحمل هو كل شيء وقدم له عرضا سخيا مشروطًا بكلمة واحدة:

ـ عمر الخياط يعود للمنتخب.

سأظل أتساءل دائما عن ذلك الرجل، لماذا فعل كل ذلك من أجلي.. ما الذي كنت أمثله إليه؟ ربما كما قال لي كيم، إن الرجل عانى في حياته كثيرا الذلك يساعد الجميع، اللواء منصور في الجانب الآخر من العالم كان شرا متحركا.. يستمتع بعرقلة الجميع!

عرفت لاحقًا أنه استبعد القماح من تشكيل البعثة في اللحظة الأخيرة لـ«عدم الجاهزية الفنية».. أرسل إليه أحد رجاله ليلة السفر ليخبره بذلك وهو يحضر حقيبته وقلبه يدق من فرط السعادة والانفعال، كان انتقاما واضحا وصريحا، تعمد رئيس الاتحاد أن يتركه يبذل جهده وينفق أحلامه ثم يحطمها قبل السفر بساعات ليزيد من وجعه ويترك في صدره علامة لا تنمحي بسهولة، أما القماح الذي قضى ليلته يبكي ويدعو ويشكو إلى الله ظلم الوالي فقد جلس في الصباح في انتظار مكالمتي..وأعد حكاية مقنعة عن مرض والده ليضمن ألا أتخلف عن السفر أو ينشغل عقلي بأي شيء سوى ما كنت مقدما عليه كما قال بعد عودتي، بدا مختلفا، اختفت من ملامحه حماسة الأبطال وبدت عليه مرارة كانت تتزايد في كل لقاء، قدم شكاوى متتالية لم يستجب لها أحد في وزارة الرياضة، كانوا يحيلونها إلى الاتحاد كما لو كانوا يتركون الحكم للجاني في القضية المرفوعة ضده، وكان هو يحيل شكواه إلى الله، منصور لم يتركه، أوقفه ستة أشهر ثم ستة أشهر ثم عامًا كاملًا ولم يسمح لي بالحديث في الأمر بعد أن استقرت علاقته بالشركة التي كانت ثمنا لعودتي، توالت خساراته بعد ذلك حتى المستوى المحلي.. أصبح كلامه في كل مرة نلتقي فيها عن أن العدل مفقود في الدنيا ولا أمل فيه إلا عند الله، وأن الوقت الذي يضيع منا في الرياضة الآخرة أولى

به.. وعندما زارني في بيتي يوما حاملا لي كراتين ضخمة مليئة بكل كتبه القديمة، أهداها إليَّ وهو يخبرني أنه لم يعد يريدها لأنه متفرغ تماما للقراءة في الدين، اعتزل اللعب إلى الأبد واتجه إلى التدريب في أندية صغيرة فقط لأنه رأى فيه مصدرا إضافيا للقمة العيش الضرورية، كان لا يزال متزنا حتى هذه اللحظة لكنه جريح، عرفت أن منصور نجح في تحويله من الأمل في الحياة إلى أمل أكبر في الموت، ظللت أحدق فيه للحظات، ثم سألته عن المؤمنين في كل الأديان، هل كانوا مأمورين بالموت في سبيل الله أم بالعيش في سبيله؟

قال لي بثقة شديدة:

- أنت مش فاهم!

أجبته بثقة بينما أشير بعلامة تشبه علامة النصر:

- إحنا مأمورين بالاتنين يا مصطفى..

فكررها بعطف العاقل على المجنون:

- أنت مش فاهم.

لكني فهمت الآن يا مصطفى، منصور وأمثاله اغتالوك واغتالوا الملايين مثلك في جميع بقاع العالم.. همشوهم في حياتهم وانتزعوا من صدورهم الأمل في حياة مشرقة، أصبحوا يفكرون فقط في الغروب.. ويتمنون غروبا يأتي بسقوط الشمس في وسط الأرض مفجرا كل شيء.. أنا شخصيا كنت أتمنى أن تتاح لي فرصة بلا عقاب لأخنق منصور بيدي يوما ما وأنا أراه يكبر ويتوحش أمامي على رءوس العشرات.. كنت أشتري أدواتي الرياضية من الخارج من أنواع أخرى غير النوع الذي جعله هو إلزاما للجميع في كل مكان في مصر، لأنني لم أرد أن أضيف ولو بضعة جنيهات

لرصيده.. كانت ثروته تتزايد بشكل طردي مع حقدي عليه وكراهيتي له.. تمنيت أن يكون ذلك التوكيل العالمي سببا في خراب يصيبه هو وكل سلالته يوما ما.. لم أعرف أن ذلك سيحدث.. ولم يخطر ببالي مطلقا من سيفعلها!

٤٢

صندوق الرسائل/Inbox

ريـم

«عودتك إلينا كانت أسعد أيام حياتي رغم أنك لم تعد نفس الشخص الذي كنت أعرفه، أفضل أم أسوأ؟ لا أدري. فمعاملتك معي لم تتغير كثيرا، لكنك أصبحت تتكلم في شئون الدنيا والسياسة بجدية أكثر مما كنت تفعل، تحاول أن تحلل كل شيء يحدث من حولك. كنت تفعل هذا معي فقط.. وكنت أراك تستعيد الكثير من حيويتك وضحكاتك عندما تظهر أي فتاة أخرى أمامك. أصبحت رفيقة تدريبك، بعدها نجلس ونخرج سويا بدون كلمة حب واحدة.

تحمل الفتاة العاشقة في قلبها إصرارا على المحاولة لا يلين، قاومت كل إحباطاتي في حبك، أخبرتك أنني لا أريد شيئا من هذا العالم سواك، كنت أجلس في غرفتي ليلا لأحدد ما سأفعله معك في اليوم التالي.. غيرت تسريحة شعري فلم تلاحظ..وقفت أمام المرآة كالمجنونة أحاول أن أجعل ضحكتي أكثر خلاعة لكي أستثيرك فلم يحدث.. اشتريت شورتا قصيرا لأرتديه في تدريباتنا سويا فاكتشفت أنك لا ترى في التدريبات شيئا سوى أحلامك بالفوز.. ما الذي كان يمكنني تقديمه إليك؟ لماذا لم تردني؟ هناك

لحظات كان العرض فيها مفتوحا لك على مصراعيه لتقتنص كل ما تريده مني لكنك لم ترد شيئا! كل محاولاتي انتهت بهزائم أمام غرورك وحماقتك، لماذا لم تفهم أنني كنت فرصة عمرك؟!

لم أعرف ما تريده، لو أن هناك عملية تجميل تحولني إلى الفتاة التي تحلم بها لكنت أجريتها من أجلك. لماذا لم أهجرك وقتها؟ كنت أنتظر كلمة الحب منك وأترجم أي نظرة أو فعل منك إليها، كنت أريد أن أصدق، الآن أقول لبناتي ألا يصدقن إلا الحقيقة.. أنت لم تحبني يوما، فعلت من أجلك كل شيء إلا أن أتكبر عليك وأترفع عن مرافقتك ولو ليوم واحد.. أي قاعدة تلك التي يروجون لها في بلادنا.. أن أحب وأتمنع عنك وأرهقك وأرهق قلبي لكي أمتلكك، لست نادمة على أي شيء أعطيته.. أنا كنت الطرف الشريف في معركتي الخاسرة.. كل الأطراف خسرت في النهاية، أنا وأنت وريهام، لم يحصل أي منا على ما أراده.. لأنك كنت غبيا».

٤٣

رحلة عمل/Business trip

سافرت إلى كوريا مرة أخرى مع المنتخب، فاختلف الأمر، لا سياحة ولا انبهار بعالم مختلف، عمل فقط، عندما تعرف ما تحتاج يكون التسوق أسهل كثيرا، تعرف جيدا ما ستبحث عنه لتضعه في عربتك، وتعرف ما تريده بمجرد أن تقع عيناك عليه.

لم أكن تائها في سول مثل المرة السابقة، أبي كان يعرف أنني سأتخلف عن الفريق بعد المعسكر وسأبقى هناك لستة أشهر كاملة.. اعتذرت عن دراستي، لا توجد أرباح بدون إنفاق، كان لابد أن أستثمر جزءًا من عمري على حساب الأشياء الأخرى، ريم التي

لم أستطع أن أحبها كما أرادت كانت جزءا من الأشياء الأخرى، كنت أكبح جماح نفسي أمامها، أستطيع أن أحصي المرات التي انفردت فيها بها وفكرت أن أقفز فوق كل الحواجز تاركا توقيعي داخل جسدها إلى الأبد، لكني لم أفعل أبدا، بيننا قبلات وعناق ولمسات دافئة، لكني لم أترك فيها أثرا لا ينمحي.

من أجلي أم من أجلها؟ أحيانا أقول إنني لم أرد أن أغلق أبواب الانسحاب، لكني كثيرا ما أفكر في حياتي بأكملها، كنت أحب الحب، شعور الارتياح والدعم والاحتياج، وكنت أخشى إدمانه أو إدمان مشتقاته بما فيها الجنس، لا وقت لأضيعه في جولات أخرى سوى جولات الملعب، ولم أرد رغبة جامحة أخرى تنافس رغبة الفوز!

رفض أبي بالطبع تضحيتي بعام دراسي من عمري، لكن مع إصراري رفع راية قبول الأمر على أن أدفع الثمن لاحقا كما قال، فقط تأكد من أنني أعرف ما أريده فتركني لأخوض معركتي كيفما أريد، هذا من أستطيع أن أطلق عليه الأب الجيد. موجود بمنتهى الوضوح طوال الوقت.. لكنه يتوارى عندما يتأكد أنني لن أضل طريقي، لا أحد يراه ولا حتى أنا لكنني أعرف أنه موجود ويتابع دون تدخل، الأب الجيد هو مندوب الله على الأرض في حياة أبنائه.. أما ذلك الرجل الذي يقف عائقا بين أبنائه وبين كل ما يريدون لأنه يقيم كل شيء بحساب رغباته الخاصة، فهو مندوب أباطرة الأرض الأشرار الذين يفسدون حياة رعاياهم، حائط ضخم مخيف لكنه يتضاءل كلما كبروا، وسيأتي يوم لا محالة سيكونون قادرين على النفاذ من خلاله إلى الضفة الأخرى.

قضيت مع الفريق ثلاثة أسابيع كاملة في فندق صغير، أحمل

جزءا آخر من ذكرياتي الضاحكة هناك، لم أكن أفهم لماذا تعمل معظم الغرف هناك بنظام استضافة قصيرة بلا وجبات ولا أطعمة، بعد أيام من المراقبة أدركت أنه يقدم خدمة خاصة للعشاق لا تتجاوز الساعتين، يكفي أن تدخل الغرفة لتعرف أنها تحتوي على كل شيء سيحتاجونه.. سرير كبير وحمام واسع وأرواب بيضاء وتلفزيون كبير يعرض أفلاما متنوعة من ضمنها أفلام جنسية على مدار ساعات اليوم.. وذلك بالتحديد أكثر ما كان يزعجنا لا سيما في فترات الليل الممتدة، لذلك شكل المدرب الكوري معي فريقا للتفتيش الليلي، وتركنا لريم مسئولية غرف الآنسات.

تنقلنا في التدريبات من مكان إلى آخر؛ فريق الجامعة التي ينتمي إليها صديقي الذي كان غائبا عن كوريا في تلك الفترة، اللعب معهم يبدو فنا راقيا يميل إلى الرقص التعبيري الأنيق، فرق في مدن قروية يلعبون بجدية السعداوية وإن كانوا أكثر فنا.. وتدريبات فريق الجيش..حيث كانت عقوبة خسارة أي لاعب منهم هو الضرب على ظهره بعصا كبيرة ضخمة، وحلاقة شعره من درجة واحد إلى درجة صفر والتي لم تختلف كثيرا.

هؤلاء تحديدا كانوا الأكثر قسوة بين الجميع، تدربنا معهم خمس مرات ولم نعرف اسم واحد منهم، ولم نر ابتسامة واحدة.. كان منهم اثنان رأيتهم بعد ذلك على منصات التتويج في بطولات العالم.. لم يبتسما وقتها أيضا.. وكانت تلك هي المرة الوحيد التي رأيت فيها أبطالا للعالم فلم أتمنَّ أن أجد نفسي في موضعهم..بل شعرت تجاههما بالشفقة.

كنت أضع حقيبتي على ظهري في الصباح وأنا أعرف أن اليوم بأكمله خطوة واحدة في طريقي للبطولة.. وأن ما سأفعله هو ما

سيحدد إن كانت خطوة واسعة أم صغيرة أم مجرد وقفة في مكاني بلا تقدم في الطريق الذي رسمته لنفسي.

تغيرت نظرتي للتدريبات تماما، تدريبات اللياقة الصباحية هي المباراة التي تتنافس فيها رغبتي في البطولة ضد ميول نفسي وجسدي، أنا من عليه أن يحارب الإرهاق والتعب والملل وضيق الصدر وآلام الجسد في سبيل ما سيأتي، كانوا يتحدثون بحسد عن المسافات التي صرت أقطعها في الجري ويصفونها بالأسطورية، لكنهم لم يلاحظوا أنني طالما بكيت بينما أجري، فدموعي كانت تخفيها قطرات العرق، كنت أبكي من فرط التعب في اللحظة التي أشعر فيها أنني لم أعد أستطيع نقل قدمي خطوة واحدة، كنت أشعر بهزيمة إرادتي النكراء أمام ضعف جسدي، أسقط لاهثًا في نهاية المطاف، لم يفهم أحد منهم لماذا كنت أنهي تدريبات الصباح على الأرض كل يوم، ولم أخبرهم أنني كنت أخرج بالفعل كل ما لديَّ، ثم أعود إلى غرفتي لأبدأ في استرضاء جسدي الخائن، ماء دافئ ومشروبات مليئة بالأملاح وتدليك ذاتي لكل عضلة تتدلل وتعلن غضبها من مجهود الصباح، أظنني كنت أبكي كل يوم.. كنت قد حددت طموحي في الوصول إلى أفضل حالة بدنية في ذلك الجزء من المعسكر، حتى ولو كان ذلك على حساب كل المنافسات التي سأنخرط فيها في المساء.

مصطفى القماح القديم كان سيفهمني، هو أول من علمني أن الدنيا بأكملها صراع بين ما تهوى وما تريد، أخبرني يوما أن أسوأ ما يمكن أن يحدث لبشر هو أن يصبح هواه هو إرادته، وأن أفضل ما يمكن أن تصبح إرادتك هي هواك، طبقت ذلك على حياتي بأكملها، الهوى غالبا هو الأسهل والأكثر إمتاعا، أما الإرادة فهي

البحث عن الأصعب. بدون الجهد تصبح الإرادة مجرد أحلام تافهة مشوهة، أما إذا اتحدت الإرادة مع العمل فالناتج يكون وحشا كاسرا يكتسح كل ما أمامه، ظننته لا يهزم.

أعرف الآن وحشين آخرين أصبحا مصدر رعبي الدائم؛ ضعف الجسد وقصر العمر! جسدي لم يخني في تلك المرحلة، أصبح يفاجئني مساء، كان يطاوعني في كل ما أريده، يقفز ويضرب ويدور ويتفادى. بدأ شعور نشوة غريب يتسلل إلى نفسي في كل يوم.. شعور بالثقة يخبرني أنني على وشك أن أحقق حلمي بشكل ما، اللاعبون الكوريون كانوا أفضل من الجميع في كل أنحاء العالم.. وكان وقوف أي لاعب مصري من الفريق بقوة في مباراياتنا ضدهم شرف في حد ذاته حتى لو انتهت المنافسة بخسارته، لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لي.. كنت أتخطى المباريات واحدة تلو الأخرى، كنت أفوز أكثر مما أهزم.. أصبحوا يبحثون عن أفضل من لديهم لملاقاتي.. وكانت الكفة غالبا تميل لصالحي.. حلقت رءوس أفضل أربعة لاعبين في فريق الجيش، وعندما خسرت واحدة من المباريات مع لاعب أتوا به من فريق آخر بصعوبة جئت لهم في اليوم التالي حليق الرأس، نظروا إليَّ في دهشة فابتسمت وأنا أقول:

- أنا أيضا أعاقب نفسي على الخسارة..

فابتسم المدرب لأول مرة وربت على كتفي، وقال لي بثقة:

- أنت مختلف.

لم أدرك أن حلاقة رأسي بهذا الشكل ستجعلني واحدا منهم، بدءوا جميعا يقفون من حولي أثناء التدريبات، كل واحد منهم كان يعطيني فكرة أو توجيهًا مختلفًا. لا شيء يقربك من البشر مثل

شعورهم تجاهك بأن أحلامكم ومخاوفكم وطموحاتكم واحدة. كان كل واحد منهم يريد أن يصير بطلا للعالم ويعلم أن أحدا لن يرحمه إذا لم ينتهز الفرصة. أنا أيضا كنت مثلهم.. وكنت قد قررت ألا أرحم نفسي إذا لم أفعل.

فريقي لم يكن كذلك، لم أجد من يفهمني بعد القماح.. لم أفهم أبدا لماذا يتوقفون عندما يتعبون.. ولماذا يختلف الأمر في غياب المدرب عن حضوره، الفهم كان يختلف! كانوا ينظرون إلى وجودهم ضمن الأفضل في مصر كحلم تحقق أخيرًا، ويتضاءلون في المنافسات الأكبر. كيف يمكن أن يصبح مجرد الوجود في المنتخب طموحًا، ومجرد المشاركة في بطولة أملًا، بالطبع لكل إنسان قدراته، وفي النهاية سيكون للعالم بطل واحد، لكن أليس من الأولى أن تقطع المشوار حتى نهايته لتعرف أين أنت، وألا تكتفي بالهزيمة مبكرا جدا أمام ضعفك وهواك..قبل أن يهزمك مرة أخرى منافس أقل منك، لكنه أكثر مثابرة.. ويالكثرة من رأيت على هذا النحو.

٤٤

بحث/ Searching

اكتشفت أن عصام يحمل قلب إنسان حقيقي، وإن كان بلا رؤى سياسية تقنعني! هلعه على أخيه واستعداده للتضحية بكل شيء من أجل الوصول إليه زاد من تقديري له، الحكم على الآخرين من خلال مواقفهم السياسية ليس مناسبا في حالة شاب مثل عصام، لا يعرف ولا يملك أي شيء.. حتى قوت يومه، وحتى إذا سمح له حسابه الإلكتروني بوضع آرائه كي يراها الجميع.

تحركنا سويا في رحلة البحث عن بدوي في كل مكان، بدا الأمر مستحيلا، القاهرة بأكملها في حالة متداخلة من الفوضى والغضب،، الشرطة غابت تقريبا بعد تنحي الرئيس، والفوضى عارمة، في الأيام الأولى اكتفيت بالاعتماد على خدمات أبي الذي أبدى قلقا صادقا، استعان بصديق قديم متقاعد من الشرطة أرسل واحدا من رجاله، ثم بدءوا في البحث بلا أخبار جديدة.

أتفحص حائطي فأجد بصمات بدوي على كل صفحة منه، هو الحائط نفسه، أفكر هل يمكن أن يعود؟ فلا أجد مفرا من أن الاعتراف أني فقدته إلى الأبد.

كان عصام يرفض الذهاب للبحث عنه في المشارح، كان يؤكد أنه لم يمت، ربما يكون مختبئا أو معتقلا، لكن صديق أبي أكد أن المكان الوحيد النظامي الذي يمكن أن نبحث فيه هو المستشفيات والمشارح، كانت الأمور قد بدأت تهدأ، قررت أن أبدأ في البحث عنه بنفسي، لم يجد عصام بدا من مرافقتي، يقف عند أبواب المشرحة متوترًا ينتظر ما سأخرج به من أخبار، ويتفادى لمسي مرددا آيات قرآنية.

تتحرك السيارة بي بين شوارع القاهرة الخاوية نسبيا، فريدة رافقتني في رحلة البحث، امرأة أربعينية رشيقة بجرح على الوجه لم يجف، ورجل فوق كرسي متحرك يبدو أكبر من عمره يدخلان إلى المشرحة بتوصية خاصة في وقت كان الجميع يظن أن التوصيات قد اختفت، تدفعني أمامها لنخترق الزحام بصعوبة، ثم نقلب باحثين بين الجثث التي تراصت على المناضد المعدنية والثلاجات الكبيرة، الأعداد الزائدة ملقاة على الأرض وقد تم تسليط مراوح ضخمة عليها لزيادة التبريد، للشتاء البارد الذي كان يكتسح القاهرة

وقتها فضل في حفظ تلك الجثث، أما القماح فلم يعد معنا، كان منشغلا بالتواجد وراء رفاقه حيث يذهبون.

المشاهد كانت مفجعة، أغلب الجثث لشباب يبدو كزهور اقتطفت من أغصانها في مطلع الربيع، أجساد باردة دون أن تلمسها، رائحتها لا تناسب بهاءها الخارجي، والدماء بحور، طلقات في الرءوس والصدور، وطعنات في الظهور لن يعرف أصحابها ولا غيرهم من أين جاءت، كادت فريدة تسقط من طولها مرة وكدت أسقط من فوق الكرسي عشرات المرات، أدركت أن ما يقال غير صحيح، لم تنته المعركة، تراجع أحد الأطراف لكن البقية موجودة، كان الطبيب الشرعي يتحدث ببساطة لا تناسب الموقف مطلقا وهو يؤكد أن الطلقات كلها تأتي من أماكن مرتفعة، كان يحمل في قلبه كراهية واضحة لفكرة الثورة ولكل ما يحدث، يتعامل مع الجثث بفظاظة كما لو كان ينتقم منها، نهرته فتراجع قليلا وهو يبرر موقفه بأن البلد بأكملها تتعرض لمؤامرة كبرى، وأن المأجورين هم من يقفون وراء ما يحدث، أجلت نظري في الجثث التي عرضها علينا، شباب مكدود الجسد ضعيف البنية، تكاد تشم رائحة الكتب والأوراق التي أمضوا أعمارهم يطاردونها وتطاردهم بحثا عن أمل جديد.

ونحن في طريق الخروج من مشرحة زينهم كانت فريدة تبكي من هول ما رأت، تردد مغمغمة وهي تضع يدها على جرح وجهها: كله فدا مصر، كله فدا مصر، أمام البوابة كان هناك بائع متجول يبيع أكواب الشاي للأهالي المفجوعين في أبنائهم.. على مائدته جهاز يُطلق أغنية عن الثورة سادت مصر في ذلك الوقت ثم اختفت معها، امتدت الأيادي لتغطي الوجوه في اللحظة التي كانت الأغنية

تتحدث فيها عن الموت، لم أجد ما أقوله سوى أن أطلق تنهيدة طويلة مشيرا بأنفاسي إلى السماء.

تحركنا في اتجاه مستشفى قصر العيني، لم ننطق أنا وفريدة بكلمة واحدة، دخلنا المشرحة مع مرافق وفره لنا مدير المستشفى بناء على توصية جديدة، كانت الأعداد أقل، والآلام واحدة، انتابني شعور غامض كئيب، بدأنا في وصف بدوي لعامل المشرحة، بدأ يتحرك معنا بين الجثث كاشفا وجهًا تلو الآخر.. وعندما كشف الجثة الثالثة.. أطلقت صيحة هائلة لا إرادية.. ثم أغمضت عيني على صورة الجسد الملقى أمامي.. واختنقت بالدموع، وتذكرت فجأة أن بدوي لم يكن المفقود الوحيد، وأن وراء كل جثة رأيناها أسرة تبحث وأمًّا على وشك الجنون.

٤٥

خروج/Sign out

أصبحت كوريا وطنا إضافيا لي، غادرها الفريق فحملت حقائبي متجها صوب منزل البوس، لأستكمل المعسكر بمفردي، استقبلني بحفاوة أب يلتقي ولده المسافر، وارتسمت على وجهي ابتسامة واسعة حين قال لي:

ـ غرفتك تنتظرك.. الغداء سيكون جاهزا في الحال.

كيم ليس موجودا، هو أيضا في معسكر تدريبي في الولايات المتحدة وسيعود بعد أسبوعين، لم يضايقني ذلك كثيرا، كل رياضي يبحث عن تدريبه في مكان مختلف عن الذي اعتاده ليزيد من مهاراته، سأبدأ تدريباتي بدونه لأكون جاهزا لما أريده منه في هذه المرة.. اللمسات الأخيرة، خصص لي البوس سيارة خاصة

أتنقل بها من مكان لآخر.. ستة أماكن تنقلت بينها بالتبادل.. لكل منها ذكرياته الخاصة. عندما أسمع اسم أي منها إلى اليوم يدق قلبي بعنف شديد: جامعة شيدي، جامعة يونج إن، فريق شركة كوجاس وفريق شركة سابواي، وفريق الجيش، ومدربي الذي تلقفني من أول مرة ذهبت فيها إلى كوريا، وتلقفني مرة أخرى.. ماستر لي!

ـ شاهدت مبارياتك في بطولة العالم.. كنت أتوقع منك الأفضل.

جاءت الكلمات على لسان اللاعب الذي طلب منه أن يترجم لي، حاولت الدفاع عن نفسي فقاطعني بحسم:

ـ أنت لست جونج كيم.. ولن تصبح مثله..

نظرت إليه في دهشة.. فأردف على الفور:

ـ يمكن أن تصبح أفضل أو أسوأ، لكن نسخة أخرى منه مستحيل. الأمر مثل الصوت، لا يمكنك أن تقلد صوت شخص آخر حتى ولو كان أجمل، ربما يمكنك أن تفعل في جملة أو اثنتين.. لكنك تبدو أحمق لأنك تريد أن تصبح نسخة منه.

كان الكلام مفهوما والتعليمات واضحة، وماستر لي بدأ يعود بي إلى بداياتي.. كان يبحث عن شيء ما.. يتركني لأتدرب بعيدا وأعود إليه فيبحث مرة أخرى.. إلى أن أشار إليَّ بمترجمه في أحد التدريبات قائلًا:

ـ أنت حاد الذكاء.. لا أحد يفعل مثلك..

ثم بدأ يتحدث عن ملاحظاته على عدة مباريات متتالية.. وكيف أني أصبحت أحاول طوال الوقت أن أضع اللاعب المنافس في وضعية تناسب ما أريده، ثم قال ببساطة:

ـ تلعب بهم أفضل مما تلعب معهم.

أنارت كلماته في رأسي ضوءا خافتا. نعم، كثيرا ما كنت أحاول

في المباراة أن أجعل اللاعب المنافس طامعا في حركة ما أريدها، وكثيرا ما نجحت في ذلك، ماستر لي جعلني أحول ذلك الأمر من خاطرة تنتابني من آن إلى آخر إلى أسلوب لعب، وجعلني أعتمد مرة أخرى على المهارات البسيطة، هكذا بدا لي المكسب أسهل.

وجودي في قصر البوس بدون كيم كان خطأ فهمته متأخرا، كان يحميني من عالمهم، يعرف متى نبتعد ومتى نقترب. كانت الأمور تسير على ما يرام إلى أن دعاني البوس في أحد الأيام إلى حفلة أقامها على شرفي الخاص، كان فيها عدد من الرجال القادمين من أطراف العالم، بدا الأمر لطيفا في البداية وهو يخبرهم بأنه يحتفل بابنه المصري.

مع دورتين من الكئوس بدا لي أن الأمور ستتطور لما لا يحمد عقباه، لذلك آثرت الانسحاب، قمت مستأذنا فأشار إليَّ بصرامة لكي أجلس، قال لي وهو يضحك وفمه المفتوح يسكب سوائل مختلطة، إنه لم يكن لي أن أنصرف من حفل يقيمه لي لذلك وجبت عليّ العقوبة، قام بخلط كمية من الخمور من بضعة زجاجات مختلفة ثم أضاف إليها كمية من الماء وطلب مني أن أشربها دفعة واحدة وهو يضحك..

ضحكت أنا أيضا وأنا أنصرف، ظننته يمزح لكني فوجئت بالمزيد من الأمر والصرامة في لهجته، أعطى كل رجل ممن حوله زجاجة كاملة وأمرهم بأن يشربوها على دفعة واحدة وهو يصفق في استحسان، ثم نظر إليَّ مرة أخرى وهو يقول:

ـ الآن دورك.. اشرب!

لم أشرب..بدأ هو يهذي بكلام كوري لم أفهمه ولم يترجمه أحد.. ميزت فقط كلمة مسلم التي تكررت عدة مرات.. ثم أشار

إليَّ بإشارة حادة فهمت منها أنه يأمرني بمغادرة المنزل، كان الوقت قد تخطى منتصف الليل، جمعت ملابسي في غضب، وعندما مررت بهم كان المشهد أمامي مدهشا لن أنساه ما حييت!

كان واحد من رجاله يقف وقد أسقط بنطاله وانحنى أمام البوس الذي كان قد خلع حزامه الجلدي الأسود وأخذ يضربه على مقعدته بقسوة.. والرجال جميعا يضحكون.. المضروب أيضا كان يضحك والضارب كانت تقطع ضحكاته ضغطة طويلة على أسنانه قبل أن يلسع صديقه أو تابعه مرة أخرى، نظرت إليهم باشمئزاز وأنا أقول بالإنجليزية:

ـ أنا راحل..

أجابني في غضب وهو يؤدي بذراعه المعنى ذاته:

ـ F . . k you

فابتسمت بتحد وأنا أخرج من الباب وسط ذهول رجاله الذين لم يشاركوا في حفلة السكر. أوقفني أحدهم وهو يلومني على ما فعلت... ويرجوني أن أنتظر للصباح:

ـ لا تغضب.. إنه لم يعنِ ما قال..

ـ أنا لا أشرب الكحوليات وهو يعرف ذلك..

ـ لماذا لم تجامله ولو برشفة صغيرة؟

قلت مباشرة:

ـ إنك لن تفهم!

ـ أنا أفهم.. هو قال منذ قليل..

ـ ماذا قال؟

أجاب بتردد:

ـ إنك مسلم!

ـ ما قاله أكثر من ذلك..

ـ إنه لا يعي شيئا مما يقول.

ـ هل تظن ذلك؟

أومأ برأسه فتابعت:

ـ إذن لماذا يتذكر أنه البوس حتى وهو مخمور؟.. ولماذا عرى الآخر مقعدته لسيده وهو مخمور؟!.. كلهم يعون ما يقولون وما يفعلون.. لكنه لا يعي كيف يسيطر على نفسه.

أشحت بيدي مستاء وغادرت، لا أستطيع أن أقول إني كنت غاضبا أو حتى قلقا، اعتدت كوريا واعتادتني، ومعي من النقود ما يكفي لأعود لمصر في أي وقت أريد، كانت تلك هي الـ«لا» الثانية في حياتي لواحد من «الرؤساء» لم أندم على الأولى ولن أندم على الثانية، المشكلة أن الوقت كان متأخرا على التحرك، لم أمانع عندما عرض عليَّ أن يوصلني إلى أي مكان، اخترت الفندق الصغير الذي أقمت فيه المرة الأولى، إلى أن يطلع النهار وأعرف ما سأفعل، لكني لم أنم، تنهدت وأنا أرى الشيطان يتمثل أمام عيني في صورة اللواء منصور.. والقماح الذي طرد من قصر آخر لأنه لم ينفذ الأمر.

استيقظت على صوت طرقات ثقيلة على باب غرفتي، فتحت الباب لأجد أمامي البوس واقفا وقد احمرت عيناه وتضاعفت تجاعيد وجهه، دخل وتهاوى فوق المقعد الوحيد دون أن ينتظر مني أي تعليق، استعاد هيئته التي أعرفها وهو يقول:

ـ أخبروني أنني طردتك من المنزل..

أجبته بابتسامة دون أن يكون في قلبي أي غضاضة:

ـ لا تشغل بالك.

رد بهدوء:

ـ سأقول لك ما لم أقله لأحد من قبل، آسف.

- لا داعي للاعتذار، كنت سأرحل على أي حال.. وأشكرك على الفترة السابقة..
- لماذا ترحل؟
أجبته بثقة:
- أريد أن أتدرب مع بعض الفرق خارج سول..
قال على الفور:
- قل لي أين تريد أن تذهب وسأساعدك.
لم أعلق..
ابتسم هو بعظمة الكبير بينما ينهض قائلا:
- أنا أيضا يا ولدي أغضب ولكبريائي حدود، على الأقل أنا حاولت أن أرضيك.
أجبته بصدق:
- مكاني لم يعد القصر.. أنت ساعدتني في الوقت الأصعب.. شكرا لك.

قام من مكانه منحنيا على طريقة التحية الكورية، فانحنيت أنا أيضا.. فوضع يديه الاثنتين على كتفيّ وهو يقول:
- لم أرد أن تنتهي الأمور بيننا بهذا الشكل..
تنهدت وأنا أقول بصدق تام:
- من قال إن الأمور ستنتهي؟

غادر بغير انفعال واضح، لم أكن غاضبا منه، أحمل في صدري عرفانا لما فعله، استضافتي في بيته وإعادتي لممارسة التايكوندو بعدما كدت أن أتوقف عنه، غفرت له كل شيء، لكنه بالفعل لم يعد مكاني، ضغطت زر خروجي من حسابه بإرادتي.

كان البوس ديكتاتورا رغم ما يبدو من طيبة قلبه، فرد يدور حوله كل شيء، يملك المال والقوة، ثرت عليه رغم أن الأمور كانت تبدو

أيسر وأنا في كنفه، لكنها لم تكن بالصعوبة التي توقعتها، بالفعل لم يستغرق الأمر أكثر من يوم واحد لتنظيم الأمور.. كل الجامعات والشركات التي أتدرب معها كان فيها سكن خاص للعاملين أو الطلبة.. جميعهم عندما عرفوا بانتهاء استضافة البوس لي عرضوا عليَّ الإقامة لديهم.. قررت أن أقيم أسبوعا في كل مكان.. في هذه الفترة بالتحديد أصبحت كوريًّا.. صرت آكل بالعصي وهذا الجزء الأسهل.. أما الأصعب فقد كان في اعتياد الأكلات الكورية، أصعبها كان ما يطلق عليه «الكمشي» وهو غالبا مصنوع من ورق الكرنب المخلل وكان مقررا ثابتا في الوجبات الثلاثة، وأنواع أخرى أقل شهرة لكني وطدت علاقتي بها جميعا.

حملت حقيبتي ودرت على المكان تلو الآخر، بدأت أتناسى أنني مصري الأصل.. نسيت أني سأعود.. أصبحت أتدرب في كل وقت وكل مكان ولا أفكر في شيء غير التدريبات.. إلى أن عاد كيم من السفر.

عندما التقيت بكيم كان يعرف كل شيء عن كل شيء، حكايتي مع البوس، وأماكن التدريبات وما حدث لي في كل تدريب.. الحقيقة أنني تعجبت.. فضحك وهو يقول:

ـ أخي هو مسئول متابعتك من قبل البوس!

لعنة.. البوس وأمثاله لعنة يجب أن تعرف مداها، الدخول بينهم يختلف عن الخروج الذي غالبا ما سيكون مستحيلا.. كلهم كالأطفال المدللين الذين لا يقبلون شريكا في ألعابهم.. ويريدون أن يجمعوا كل الألعاب التي يرونها حتى وإن كانت تخص غيرهم، ثم يرفضون التفريط فيها، البوس يتجسس عليَّ.. يريد أن يتأكد أنني أتدرب فقط ولم أجد بديلا له ليرعاني، كيم لم يهمه كثيرا ما حدث.. ولم يصدمه مطلقا:

ـ كنت أعرف أنكما ستختلفان ذات يوم.. أعرفك وأعرفه..

- ما الجديد هذه المرة؟
- أنت. لم تعد الخواجة، لن تدخل غرفتك وتختبئ فيها حتى يرحلوا، لهذا كانت المواجهة قادمة.
- هل قابلته؟

أومأ بالإيجاب، وأنه طلب منه أن يحاول معي مرة أخرى لكن كيم أخبره أنني لن أعود، كيم لم يكن يعرف هل قال ما قاله بالإنجليزية أم بالكورية.. لكنه استغل الأمر على أي حال أن ما قاله كان مؤلما وغير مقبول بالنسبة إليَّ.

هل عرفت ما قاله؟

أومأ برأسه وهو يقول:

- قال إنكم مسلمون..لا تأكلون الخنزير ولا تشربون الخمور.. لكنكم تفعلون كل شيء آخر..تجامعون الرجال والأطفال الصغار ذكورا وإناثا..

صمت برهة ثم قال:

- اعذره.. هو يحبك..لكنه لا يحب..

بترها فأكملتها أنا:

- المسلمين..

ابتسم في حرج:

- العرب عموما.. أو كليهما..

٤٦

Omar shared a quote / عمر شارك اقتباسا

«لن تدرك قيمة الأيام الجيدة إلا بعد أن تمرَ بالأيام السيئة» القائل مجهول.

الشارع ضيق إلى حد كبير، صفان ممتدان من الباعة بطول الشارع يمينا ويسارا، أمام كل منهم مائدة خشبية يعرض عليها بضاعته، من يبيعون الأطعمة مطهوة أمامهم مواقد وقلايات ضخمة، بعضهم يمتلك المتجر الذي يقف أمامه والباقون يفترشون المكان كل يوم في الصباح، عالم الحيوان والنبات المأكول بأكمله، أصناف متنوعة من الخضراوات التي أعرفها ونباتات خضراء غريبة.. الأسماك تعرض حية في أحواض زجاجية كبيرة وما تختاره يتم إخراجه وطهوه، رءوس الخنازير المعلقة على خطافات كبيرة ورائحة طهوها مع خلطة من الأعشاب والبهارات النفاذة في أوان ضخمة.. كان لابد وأن تثير غثيان شخص مثلي لم ير الخنزير حيا أو ميتا من قبل، لكنه سمع عنه آلاف الشائعات.

المكان مزعج برائحته وبضجة المساومة والزحام الشديد الذي يجبرك على المشي بجانبك لتوفر المساحة التي تحتاجها بين الأجساد، دون أن يخلو الأمر كل بضعة أمتار من كوع أو كتف أو وطأة قدم خلال رحلتك.

تفرغ كيم لي تماما، بقي في بيت البوس ورتب لي إقامة زهيدة قريبة من مكان التدريب، هذه المرة بالتحديد كان الأمر مختلفا جدًّا.. الخلطة السحرية التي أخذتها من ماستر لي، أن تبحث عن الطريقة التي تناسب لعبك وتجعلها أساس المباراة.. لا تنافس الآخر في منطقته هو.. أصبح كيم شخصيا يعاني معي.. وبعد أسبوع واحد من التدريب قالها لي مؤكدا:

- أصبحت تزعجني بأسلوب لعبك.. أنا لا أفهمه.

فابتسمت في نشوة حين تأكدت من أني صرت ألعب في منطقة أخرى تخصني وحدي، سألته على الفور:

- هل تعتقد بأني يمكنني الفوز في بطولة العالم القادمة؟
- بهذا المستوى؟ غالبا.. لكنْ شيء واحد فقط قد يؤثر على فرصتك في الفوز!

لم يخبرني كيم إلى أين نحن ذاهبان، وجدت نفسي معه في سوق مأكولات، فثار شكي في أن ما كان ينقصني في نظره غالبا هو وجبة دسمة «ترم عظامي» كما كانت جدتي تقول، أكدت عليه في وسط الزحام أنني لا آكل الخنزير..فضحك وهو يؤكد أنه يعرف.. كان يجرني من يدي كطفل صغير يخشى عليه من الضياع في الزحام، انسل من بين اثنين من الباعة وهو يقبض على يدي بقوة، فتبعته بصعوبة، اكتشفت أن هذا السوق الضخم يحتل شارعا مليء ببنايات قصيرة، لا يزيد ارتفاعها عن دورين أو ثلاثة، أشار كيم لأحد المداخل فتبعته وأنا أساله إلى أين نحن ذاهبان فيجيب:

- لا تقلق..

أدرت رأسي من حولي ونحن نصعد السلم درجة تلو الأخرى، كانت الأجواء غامضة، قررت أن أذكره بشيء آخر:

- لا أمارس الجنس..

ضحك مرة أخرى وهو يقول:

- هذا شيء آخر ينقصك.. لا أدري كيف يمكن أن تصل لهذا العمر بدون جنس.. أنتم أبطال.

فضحكت أنا هذه المرة وأنا أجيبه بالمصرية:

- يا عم ابعد عني الله لا يسيئك.. أنا مش ناقص.. ربنا يحفظنا..

توقف فجأة أمام باب شقة في الدور الثاني، طرقه بأدب، فتح الباب شاب صغير السن انحنى أمامنا حتى كادت رأسه تصل إلى ركبتيه، رددنا التحية سويا ثم دخلنا.

شقة خاوية من كل شيء، فقط أرضية خشبية كالعادة، ولا يوجد أي وسائد أو مفروشات، أوراق من الشجر وقطع من الأخشاب والحجارة ليجلس عليها القادمون، على الحوائط أيضا قطع كلها بحالها في الطبيعة دون أي تدخل بشري، قطع من الخشب، عظام وأحجار ملونة،ولا شيء آخر.

غاندي حليق الرأس وبملابسه البيضاء الرمزية وعصاه وبدون نظارة وبملامح كورية صريحة، هذا هو الوصف الأكثر دقة لذلك الرجل الذي دخل علينا، يتحدث بلهجة أكثر رقة من تلك التي اعتدت عليها وبدون المطة التي أعتدها في نهاية كل كلمة.. فكل من رأيتهم لابد أن ينهوا الجملة بطريقة تبدو لي كمغني أوبرالي في نهاية قطعة من الأغنية، أما هذا الرجل، فكانت كلماته مبتورة في النهاية بشكل واضح، لكنة أخرى أكثر هدوءا، أشار إلى أحجار على الأرض تغطيها بعض أوراق الشجر الجافة فجلسنا، أما هو فجلس على الأرض مباشرة وهو ينظر لكيم الذي بدأ يحكي له في إسهاب.. واسمي يتكرر من آن لآخر.

وجه الرجل لي سؤالا، بدأ كيم يترجمه:

- «إنه يسألك...».

لم أدعه يكمل، قلت على الفور:

- من الذي يسألني؟

- سأخبرك لاحقا..لكن أجب..

- بل الآن!

وجه كلامه للرجل معتذرا على ما يبدو..بدا الرجل متفهما وهو يهز رأسه هزات إيجاب متتالية قصيرة، بدأ كيم يشرح لي:

- هل تعرف يوم العُطل؟

ـ العطل؟

ـ نعم..

كانت أول مرة أسمع فيها المصطلح الذي عرفته بعد ذلك جيدا، The day off. اليوم الذي يطلق عليه الناس اليوم السيئ عندما تجد كل الأحداث تعاندك، ويطلق عليه الرياضيون يوم العطل لأن جسدك وقدراتك وحظك وكل شيء يعاند مكسبك، أعترف أنني عاصرته كثيرا بشكل أو بآخر دون أن أفهم تفسيره، لكن صديقي العالمي أبهرني بخطته للتعامل مع يوم العطل.

أخبرني كيم أن هذا الرجل يستطيع أن يحدد مواعيد يوم العطل بالنسبة لي، وأنه ليس الوحيد في كوريا الذي يستطيع تحديد ذلك، لكنه الوحيد في العالم بأسره الذي يستطيع تغيير مواعيد يوم العطل لكيلا يتعارض مع مواعيد البطولة.. كنت بالفعل أريد أن أضحك لكني تحرجت من صديقي ومن الرجل الجالس أمامي.

بدأ السيد غاندي الكوري في إلقاء أسئلة متتالية عليَّ، بينما يكتب إجاباتي بقطعة حجر على لوح خشبي كبير باللغة الكورية، تاريخ ميلادي وتاريخ ميلاد أبي وأمي، لوني المفضل وحيواني المفضل الذي لم أكن أعرفه وقتها لكني اخترت النمر بسبب أغنيتي المفضلة، ألقى نظرة سريعة على كفي وقدمي وتحسس رأسي، ثم بدأ يرسم دوائر حول بعض الحروف وعيناه تضيقان في تركيز شديد.

ارتفع حاجباه في دهشة هو يقول:

ـ صاحبك لا يوجد لديه يوم عطل هذا العام..

نقل لي كيم الأمر بسعادة وإيمان بالغين.. أنا بلا يوم عطل، بدأ غاندي يكرر عمليات الحساب، على ما يبدو أنه يعيد حساباته، وجه كلامه لكيم فشرح لي أن هذا غير معتاد، لا بد أن يكون هناك على

الأقل ستة أيام كل عام يحدث فيها هذا الأمر، وإلا ترحل للعام التالي مضاعفة، وأنه لسبب ما لا يستطيع أن يجد أيام العطل..

قلت ساخرا:

ـ ممتاز، شكرا.. هيا بنا..

بدا لي أن أحدا لم يسمعني، كان غاندي جادا جدا وكيم متأثرا بحالته. ظل الرجل يعيد حساباته إلى أن قال فجأة:

ـ ربما يكون محظوظا..

ثم قام من مكانه وأحضر إبرة طويلة وضعها على النار إلى أن احمرت.. وأشار إلى كتفي فقال لي كيم:

ـ سيحتاج إلى شكة صغيرة من كتفك.

كانت الإبرة الخارجة من النار تؤكد أن الأمر لن يكون مضرا، رسم شكلا ما على كتفي بالنقط التي يوخزني فيها، خمس عشرة وخزة متتالية أذكرهم جيدا، على شكل يشبه علامة الاستفهام، ثم أحضر كأسا زجاجيا وشفط به الدماء كما لو كان محقنا.

ـ حجامة؟!.. قلتها في دهشة.

فهز رأسه نافيا:

ـ لا توجد هاجاما..

كنت أعني حجامة المسلمين وكان هو يعني (هاجاما) لقب توصف به السيدات المسنة احتراما، ابتسمت وأنا أشرح له أن ما يفعله غاندي هو من الطب الإسلامي، فهز رأسه وهو يؤكد لي أنه من الطب الكوري وأنه موروث أبا عن جد.

خرج دمي في الكأس داكنا ومليئا بالقطع المتجمدة، بدا الرجل في هزه إلى أن تخثر تماما وأصبح صلدا.. ثم نادى بصوت عالٍ:

ـ دانجو..

فدخل كلب صغير بدا لي شبيها بالكلاب التي كانت

تجري ورائي في السعداوية، المعتادة في مصر، ألقى غاندي أمامه ما تجمع من دمائي، فشعرت بغثيان مشابه لما شعرت به وأنا في السوق، تشممها الكلب وأدار رأسه بعيدا، فنظرت إليه بامتنان لأنه لم يأكل شيئا مني، أدرت رأسي إلى ذلك الرجل الواقف أمامي فرأيت على وجهه شيئا من عدم الارتياح..لكنه ابتسم فجأة ومد كلتا يديه ليصافحني وعلى وجهه علامات تأثر شديد:

- أنت بخير.. لا توجد أيام عطل في طريقك.. ستكون لاعبا عظيما مثل صديقك..استمتع بحياتك!

جاءني الكلام مترجما على لسان كيم، ثم تكلم الكورية مع الرجل فبدا لي أنه يعتذر لأنه لن يستطيع الكشف على كيم اليوم، وسيمنحه جدول عطلاته لاحقا، سألت كيم عما قاله فابتسم في أسى ولم يجب، وأنا لم أهتم كثيرا.

٤٧

صفحة شخصية محدودة المعلومات/Limited profile

جسد قوي آخر مهزوم دون مواجهة مباشرة كالتي اعتاد أن يمر هو بها، طلقة نارية في مؤخرة رأسه، على الوجه علامات ارتياح ورضا ليتني أعرف ما وراءها.

لم نتذكر ونحن نقلب في الجثث بحثا عن بدوي أن كل هؤلاء من المفقودين، حتى رأيته، وعندما عدت إلى المنزل وأجريت اتصالي بصحفي رياضي أعرفه منذ سنوات طويلة صاح في أسى:

- أنت متأكد إنه هو؟ أهله قلبوا الدنيا عليه!

عبد الرحمن الطويل، صنع يوما البهجة للجميع، تعلق في عنقي

ودرت به دورة في الهواء، ثم وقف يرقص في دائرة كبيرة كان محيطها أبطال رياضيون من أفضل من أنجبت مصر.

كانت بطولة مجمعة كبرى، دورة الألعاب الأفريقية، كل دولة تشارك بأبطالها في كل اللعبات، وفي نهاية الأمر يتم اختيار الدولة الفائزة بناء على عدد الميداليات الكلي. المنافسة محتدمة والجدول يتغير كل ساعة تقريبا، مصر تتنافس مع دولتين على الصدارة، لكل منهم لاعب واحد تبقى في مسابقة وحيدة، وزن الثقيل في رفع الأثقال.

عبد الرحمن الطويل كان هو اللاعب المتبقي، وفي منافسات وزنه لاعب من كل دولة من الدول المتنافسة، أمل مصر محصور في حصد ذهبية واحدة من الثلاثة التي يتنافسون عليها، واحدة فقط تضمن لمصر الصدارة، لكن عبد الرحمن كان أصغر المتسابقين وأقلهم خبرة، أشفقت عليه وأنا أرى كل من في المبنى المخصص لنا يأتونه حاملين أحلامهم وطموحاتهم:

شد حيلك يا عبد الرحمن..

الميدالية يا عبد الرحمن

أنت الأمل يا عبد الرحمن..

وعبد الرحمن الذي كان قد تجاوز السابعة عشرة بقليل يرفع يده للجميع بعلامة النصر، متمنيا إرضاء طموحهم وإرضاء نفسه، وعلى ملامحه يبدو القلق معرقلا رغبة الفوز.

في أيام البطولات لا أعرف النوم إلا قبيل الفجر، خرجت من غرفتي سعيا لتمشية نهايات الليل بجوها النقي، وجدته جالسا أمام مقر البعثة في توتر، سألته إذا ما كان يعرفني فأجاب بالإيجاب، كنت أعرف أن الأرق خطير على أي لاعب ليلة مباراته، لذلك حاولت أن

أساعده، عرفت يومها عبد الرحمن جيدا، كان بورسعيدي الأصل، أسرته كانت ميسورة الحال عندما كانت مدينته منطقة حرة للتبادل التجاري، تدهورت الأمور كثيرا بعد أن صدر قرار بإلغاء ذلك الأمر، استمرت الحياة لكن كل شيء أصبح عسيرا حتى الحياة بنفسها، كل ما يحيط به أصبح حملا ثقيلا يساوي أو يزيد عن الأحمال التي يرفعها هو في كل تدريب..

عبد الرحمن الذي كان على وشك أن يتنافس في الصباح كان يرتجف، جلست إلى جواره، حكيت له عن سنوات من الفوز والهزائم، كل شيء يمر في النهاية، ابتسم عندما أكدت له أن الخسارة تزداد وطأة كلما زادت خبرتك وسنواتك في الملاعب.. أما عندما تكون مشاركتك الأولى فيحتسب لك المكاسب فقط.. أما الخسائر فلا تحتسب عليك، هدأ قليلا فرافقته حتى باب غرفته.

مساء اليوم التالي عاد عبد الرحمن في أجواء تشبه احتفاليات انتصار جنود الرومان يوم العودة، مصر في صدارة البطولة بعد أن احتكر عبد الرحمن الميداليات الذهبية الثلاثة لوزنه في رفع الأثقال، ارتداها ووقف يرقص وسط الجميع، ثم اقترب مني ومنحني عناقا حارا خاصًّا.. زاد من شعوري بالشراكة في النصر والفرحة.

ثم تابعت أخباره بعد ذلك أثناء عزلتي ضمن من كنت أتابع أخبارهم من الأبطال، له أكثر من صورة على حسابي الكبير، حكيت لبدوي عنه أكثر من مرة..ولم أتصور أن الأيام ستدور لنلتقي مرة أخرى، وهو جثة هامدة مصابة بطلق ناري في رأسه من الخلف.

تمنيت لو أعانقه مرة أخرى وأؤكد له أن موته لم يكن هباء، لكني لم أكن واثقا من ذلك.

استمرت رحلة البحث عن بدوي أسابيع طويلة بلا فائدة، كانت

تأتينا دعوات من آن لآخر تعلن العثور عن شبيه له أو جثة مجهولة جديدة فأجري اتصالا بعصام ليذهب، أخشى أن يتكاسل فأذهب معه، ثم نعود بجرحين جديدين أحدهما بسبب من رأيناه والآخر لأننا لم نجد مبتغانا.

التقت فريدة بالقماح في منزلي بعد فترة طويلة، جاء ليؤكد عليَّ المشاركة في استفتاء سيتم قريبا من أجل تأييد إعلان دستوري جديد، ستتلوه انتخابات سيشارك فيها (الإخوة) على حد وصفه، ثارت عليه واتهمته بخيانة الثورة التي ضاع بدوي فيها وقتل عبد الرحمن. كان مصطفى القماح هادئا، أقسم لي ولها أن هذا هو المخرج الوحيد من أجل الحفاظ على ما حدث، وأن الحكومة الحالية مع الشعب، ويجب أن نحافظ عليها، نظرت إليه فريدة باحتقار وأدارت وجهها إلى الجهة الأخرى، أنا لم أكن مع أي منهما، بدا لي الأمر كدور شطرنج تعقد ولم تعد فيه أي حركات إضافية تبدو صحيحة.

المواجهة بينهما بدت قبيحة في عيني، الفريق ينهار، الجميع يريد أن يلعب منفردا، أما أنا فكانت حسرتي على بدوي وعبد الرحمن تشعرني بمرارة أكبر من مناقشة الأمر الآن، طلبت منهما الانصراف، فانصرفت فريدة على الفور دون أن تتكلم، نظر إليَّ القماح في ترقب فكررت طلبي له بالذهاب، سألني عما إذا كنت أطرده فلم أجب.

قبل أن يغادر استدار في اتجاهي وهو يقول:

ـ أنا مش خاين، هُمَّ عاوزين يخربوها.

هكذا فجأة أصبح رأي القماح وعصام في اتجاه واحد.. يتطابق مع ما يقوله خالد فاروق كل يوم.

٤٨

مرحبًا/Welcome

أدهشني كم الطاقة التي حصلت عليها بعد لقائي مع غاندي، وفهمت لماذا أقسم لي كيم أنه لا يلعب بطولة واحدة قبل أن يمر عليه لكي يغير له يوم العطل، الحالة النفسية.. ثقة الفوز التي يبعثها في قلبك رجل يملك ما يكفي من الإمكانات ليفعل. التصديق.. الإيمان.. كل ما تحتاجه لتغير كل شيء هو أن تقتنع بأنك تستطيع، لا أعرف هل ما شعرت به يتعلق بالإيمان فقط أم أن الحجامة التي أجراها لي أثرت عليَّ بشكل إيجابي.. أدمنتها بعد ذلك حتى في مصر وأصبحت لي زيارة شهرية أو أكثر في حالات الإصابة. لا أتصور الأمر نفسيًّا فحسب، فأنا لم أكن مؤمنا بها ولا كنت من مريدي الرجل، آمنت بقدراته بعدها بكثير، وإن لم يُفِدني بما يكفي.

تسارعت الأيام في طريقها لبطولة العالم، سيجيء الفريق المصري لكوريا قريبا من أجل المشاركة، كان مخططًا أن أعود لمصر قبل البطولة بأسبوعين لأجمع ما أحتاجه وأعود لكوريا مرة أخرى مع الفريق لكني لم أفعل، كانت الخطة تهدف لتغيير حالتي النفسية وكسر الملل، لكني لم أملك كوريا، أرسلت لأمي بقائمة طويلة من الاحتياجات، وأرسلت نسخة أخرى لريم خوفا من ضياع الخطاب الذي لم يكن له طريق سوى البريد العادي، ورقة طويلة بيضاء سلمتها لي ريم لاحقا ضمن مقتنياتنا المشتركة. وطابع مستطيل عليه صورة مبنى الاتحاد الدولي الذي بدأت حياتي الثانية فيه، من بين ذكرياتي مع ريم يظل ذلك الخطاب الورقة الوحيدة التي أمسك بها وأطلق تنهيدة حسرة حين أراها.. خطابات الحب

المتبادلة بيننا تذكرني فقط بأنني خسرتها، أما هذا الخطاب تحديدا فيذكرني بحياة الحب التي خسرتها بالكامل.

لو أن هناك زرًّا لإيقاف الحياة أو تبطيئها عند مرحلة واحدة من العمر لاخترت تلك بلا مناقشة، كنت أملك كل شيء، لكن هل كنت سأضغط عليه في وقتها قبل أن أعرف الآتي؟ لا أظن.. كنت سأطمع في الأجمل، هذا ما فعلته وأفعله دائما، قطار العمر لا يحكم عليه من عربة واحدة، عليك أن تدخل عرباته واحدة تلو الأخرى إلى أن تصل آخرها فتعرف كل شيء.

ذهبت لاستقبال فريقي في المطار، ريم تركتهم جميعا خلفها وجرت عليَّ لتأخذني بين ذراعيها في لحظة جنون رائعة، تحرجت للحظة ثم تركت لها نفسي بينما تبكي في غضب:

ـ طوّلت أوي يا عمر.

كنت مشتاقا إليها، ومشتاقًا لمصر ومشتاقًا للهجة مصر التي انسابت في أذني، تتضاعف المدة حين تكون بلا رفيق في بلد غريبة عنك، كل من حولنا كانوا يتلاقون بأحضان وقبلات كانت كافية لكي أسقط حساباتي، أنا أيضا قبلتها واحتضنتها.. دق الجرس في صدري بعنف ليخبرني أني أحبها رغم الجمود الذي أحمله تجاهها، خروجها من الطائرة في المقدمة بهذا الشكل لم يكن مصادفة، ريم كانت تريد تلك اللحظة وأعدت نفسها لكي تستمتع بكل مشاعرها دون أن تخشى من القادمين وراءها، لذلك سبقتهم بكثير، هذا ما تصورته في لحظة الحدث وأكدته لي بعد ذلك.

استكنت للحظات بين ذراعيها ثم تخلصت منها برفق، وأنا أرى رأس شعبان تطل من بعيد، عيناه سجلتا نهاية اللحظة، ظل ينظر نحوي باستياء وشفتاه تتحركان حتى وقف بجوارنا وبصق

على الأرض فجأة، وكان ذلك أفضل ما فعله، أمسك به جندي شاب واقتادوه لمكتب المدير لكي يدفع غرامة تساوي مائة دولار تقريبا بعدما جعلوه ينحني ليمسحها، أنا فقط من كانت معه نقود كورية لكني أخفيتها، ظل اللواء منصور يدور باحثا عن مكان لتغيير العملة، ثلاث ساعات قضاها شعبان محبوسا في المكتب، لكني لم أشفق عليه أبدًا، بل أشفقت على ريم مما سيقوله عنها..

انتقلت مع الفريق لفندق آخر، رفضت أن أقيم مع شعبان في نفس الغرفة، كدنا نشتبك سويا عندما قال في وسط الجميع:

ـ تلاقوه عاوز يقعد مع السنيورة في أوضة واحدة.

أبعدوني عنه، لكن السنيورة لم تتركه.. تسللت إلى جواره ببطء ونظرت في عينيه فابتسم ببرود، فهوت على وجهه بلطمة رائعة أشعلت الموقف تماما، وعندما حاول في ثورته الهجوم عليها وقف الجميع في طريقه، وتدخل اللواء منصور في الحوار معلنا أن الأمر يستدعي تحقيقا عند العودة لمصر لكي تظهر التفاصيل، وبدا ميله لصف شعبان الذي منحه فرصة هائلة لإضافة بند جديد لرصيدي لديه.. لكني لم أهتم.

أحببت ريم فجأة وبجنون في تلك الرحلة، حضن المطار ولطمة وجه شعبان الضخم وسط الجميع والحقيبة الضخمة التي أتتني بها بعد أن أضافت عدة أشياء كنت قد نسيتها أو لم أكن أظن أني سأحتاجها.. مصحف صغير ليوم اللعب، وكاميرا حديثة بفيلم جديد ستة وثلاثين صورة، وعلبة فيتامينات مستوردة، وبرطمان عسل أبيض وعلبة تمر!

ليس عليَّ أن أشرح للقماح ولا لشعبان كيف قبلتني في المطار ثم أهدتني مصحفا، لا دخل لهم بالأمر.. في المباريات يتم خصم

نقاط منك إذا تدخلت في سير المباراة باعتراض على طريقة إدارة الحكم.. فترى كيف يكون رأي حاكم الكون عندما يرى سفهاء يحاسبون بشرا آخرين؟ وفي تلك النظرة الساخرة التي ارتسمت على وجه شعبان وهو يسمعها تقول لي قبل المباراة بصوت خافت وهي تمسك بيدي:

ـ ربنا يوفقك..

ثم لقنتني بعض آيات القرآن!!

فعلق هو في اقتضاب:

ـ ربنا يحرقكم..

كان الأمر يختلف عن كل ما مر بي من بطولات عالم سابقة، لا توجد نفس الرهبة ولا الانبهار بالمكان ولا تفحص الملامح، البطولة كانت في بلدي الجديد، في نفس القاعة التي التقيت فيها كيم العظيم، والكوريون الذين أصبحت أتكلم شيئا من لغتهم وآكل طعامهم هم الجمهور. لم أرفع رأسي أثناء دخولي الصالة لأجيل بصري فيما حولي كما فعل الجميع، كنت أنظر إلى الأرض، أبحث عن مكان خطواتي القادمة، لا أريد خسارة جديدة، أنا على أعتاب العشرين، لابد أن آخذ خطوتي الأولى، ولا أعرف أين سأذهب إذا لم تتحقق.

المشوار طويل، صعوبته تكمن في وجود آخرين كان لديهم من العزم ما لديك، وبذلوا من الجهد ما بذلت، هنا فقط تتدخل الموهبة ثم التوفيق، يسقط كل الحمقى الذين كانوا يتقاعسون في منتصف الطريق، هكذا تصبح من أبطال العالم.

الأرجنتين والصين وألمانيا، كانت هذه هي الدول الثلاثة التي التقيت بأبطالها على التوالي في طريقي إلى منصة التتويج، لم أعد

مجرد لاعب دولي كالباقين، كل شيء اختلف، حتى المدرب الجالس ورائي، كيم العظيم كان يستغل الأوقات التي بين مبارياته ليقود مبارياتي، مدربي لم يمانع تشجيعا كبيرا لا يلقاه أي لاعب أجنبي أثناء مبارياتي حتى لتظن أن من يلعب شاب كوري يملك شعبية متوسطة. لاعبو كل الأماكن التي تدربت فيها يعبرون بحماس عن تعاطفهم معي ورغبتهم في فوزي، النفوس البشرية البسيطة تتشابه في مشاعرها، فقد رأيت السعداوية كلهم في المدرجات في ذلك اليوم.

مباراة ربع النهائي كانت الفقرة المرعبة، بين أن تصبح واحدا ممن سيعتلون المنصة ليصيروا ضمن القائمة الأبدية لأبطال العالم وبين أن تؤجل أحلامك لعام آخر لا يعرف أحد ما سيحدث خلاله، كانت المباراة أمام بطل ألمانيا، والتوتر شديد والآداء سيئ.. وكان هو متقدما عليَّ حتى نهاية الجولة الثانية، خرجت منها فوجدت كيم يصيح بغضب:

ـ اهدأ وستفوز بسهولة.

و هذا ما حدث.

فزت، فعلتها وسينضم اسمي إلى قائمة من حصدوا ميداليات بطولة العالم في لعبتي، أنا أنتقل إلى سماء رياضتي، أنهيت المباراة فرقدت على الأرض في سعادة، وريم قفزت من فوق المدرجات لتجري في اتجاهي لكن حارسا من الصالة حملها كعصفور وأعادها إلى مكانها في المدرجات، أما كيم فقد ابتسم إليَّ في سعادة وهو يشير إليَّ مهنئا، ثم ابتعد بضع خطوات والتفت لي فوجدني جالسا على الأرض مبتسما فتغير وجهه كثيرا، لكنه لم يتوقف بل انطلق ليستعد لمباراته، بعد أقل من ساعة كانت مباراتي النهائية، مع بطل كوريا الجنوبية.

كيم اختفى من المشهد تماما، لانشغاله بالاستعداد لمباراته أو لأنني سأنافس زميله في المنتخب، كان اللاعب الآخر يعرفني وكنت أعرفه، هو من فاز بذهبية وزني في بطولة العالم السابقة، تحول الجمهور بالطبع من تشجيعي لتشجيعه، وخسرت هذه المباراة، خرجت راضيا مبتسما، وجدت يدا تجذبني من كتفي في شدة، التفت لأجد كيم واقفا في قاعة الإحماء قبل أن يدخل من أجل مباراته النهائية، نظر إليَّ بهدوء وهو يقول:

- خسرت.. أليس كذلك؟

هززت رأسي وكتفي في آن واحد، فقال:

- كنت أعرف ذلك.. لهذا لم آت إليك قبل المباراة.. رأيت الرضا في عينيك مبكرا..

ثم سكت للحظة ورسم على وجهه ابتسامة غير مكتملة وهو يقول:

- مبروك.. مرحبا في نادي أبطال العالم..

عانقته في امتنان، فخبط على كتفي بمحبة، ثم رسم ملامح أخرى تختلف تماما، وانطلق إلى الداخل، جلست أفكر فيما قاله وفي الأفكار التي توالت على ذهني قبل المباراة، كانت السعادة تغلب عليَّ أكثر من التوتر على عكس المباريات السابقة، أعطيت نفسي شعورا بالرضا جعلني المقاتل الأقل شراسة في المعركة، وعددت لنفسي مزاياه وأسباب زيادة فرصه عني، المباراة في كوريا، والجمهور وراءه، وكوريا هي التي تحصد كل ميداليات بطولة العالم، وهذه هي ميداليتي الأولى في بطولات العالم.. كل هذا دار في رأسي فأصابني بوهن وجعلني أنتظر الهزيمة.

في نهاية اليوم وبعد الاحتفالات والصور علمني كيم درس ذلك

العام، أنت لم تفز بالبرونزية فهي ليست فوزا، أنت فقط حصلت عليها حين خسرت قبل النهائي.

خرجت بشعور فوز منقوص، كيم كان بطلا يفكر من منطلق من لا يخسر، بالفعل أنهى كل أعوام ممارسته بلا هزيمة في أي بطولة محلية أو دولية أو عالمية، صورته شامخة حتى الآن في موسوعة الأرقام القياسية، كائن بشري بسيط لم يخسر لمدة ثماني سنوات، حتى عندما اعتزل في عام ١٩٨٧، قال إنه قرر الاعتزال لينهي تاريخه بشرف، لكنهم ألحوا عليه فعاد مرة أخرى من أجل الدورة الأوليمبية.. وفعلها مرة أخرى وفاز بالذهبية!

٤٩

عمر أضاف معلومة جديدة/ Omar added new info

بطل عالمي مغمور، كان هذا باختصار هو وصفي في الفترة التي تلت تلك الأيام، مغمور لأن الاحتفاء ببطولتي انحصر فيمن يعرفونني وفيمن يمارسون رياضتي والأماكن التي أتردد عليها، وفي قلة من الناس الذين يقرءون الأخبار الصغيرة في أطراف صفحات الرياضة والتي لا تحمل صورة ولا تفاصيل أكثر مما تحتمله بعض السطور عدا بعض الجرائد التي نشرت الخبر على مساحات كبيرة تكفي لسرد كل شيء عن حياة اللواء منصور صاحب الإنجاز الفريد، أحدها على حد ما أذكر نسي أن يذكر اسم صاحب الميدالية ـ أنا! ـ واكتفى بذكر مزايا المنظومة العظيمة التي يقودها رجل محترف.

لكني كنت منتشيا، وضعت قدمي على طريق عاهدت نفسي على ألا أتركه أبدا إلا إذا عجزت عنه. ريم كانت معي في كل

مكان، وكانت قد تحولت في قلبي إلى نبع حقيقي أنهل منه كل شيء، كل ما أحتاجه فقط هو أن أحلم ولو لمرة واحدة وأصرح بما في رأسي. لأجده أمامي.. كانت ريم قد حزمت أمرها تماما على ما يبدو.. ستعطيني كل ما تملكه من حب وطاقة ووقت ومال وجسد. كل ما عليَّ هو أن أمد يدي لأنهل ما أريد.

شهور متتالية وريم تحتفل بي، فرحة حقيقية تجعلها تمشي في كل مكان لتتحدث عني، ندخل مطعما لتقول للجميع:

ـ إنتم عارفين مين ده؟

ثم تلقي كلمتها التي أصبحت مأثورة:

ـ ده عمر الخياط بطل العالم في التايكوندو.

ثم تشرح وهي تركل بقدمها الهواء:

ـ زي الكاراتيه كده.

فيهنئني الجميع ويحيطون بي وأجدها توارت من المشهد، أفهم جيدا أنها كانت تفعل ذلك لأظهر بشكل براق أمام الجميع وأستمتع بتهانيهم. لا لكي تشاركني اللحظة بأنها «حبيبة بطل العالم».

ثم التقيت بأسرتها كاملة.

كانت دعوة ملحة منها ومن الأم للقاء في النادي، الأب كان موجودا، تاجر سيارات يملك معرضا صغيرا، استقبلتني الأم أيضا بحرارة ودفء شديدين، شعرت بكل نظرة وكلمة منها أنها كانت ترجوني.. ريم تحبك فلتأخذها أو تتركها.. لكن أرجوك ألا تكسر قلبها، أما الأب فكان يرمقني بنظرات تساؤل وشك.

دار الحوار بيننا في عدة اتجاهات، أكثرها عن الرياضة وبطولات العالم، عن مهارة ريم في التدريبات، وبدايتها في اللعبة، بدت الأجواء مريحة، لكنه كان ينتظر مني شيئا لم يأته، سألني مباشرة:

ـ وإنت عاوز إيه من ريم يا عمر؟

فتوقف الجميع فجأة عن مضغ الطعام.

أجبته بسلسلة من اللعثمات والحروف المختلطة فهز رأسه في فهم، بينما نظرت إليه الأم والابنة في نفس اللحظة نظرة عتاب غاضبة، كرر سؤاله فلم يجد ردا، قام على الفور ولم أره بعدها مرة أخرى..

لم آكل، تركني الرجل مع نفسي بسؤاله الذي لم أجبه، الأنثتان اللتان كانتا إلى جواري لم تفهما ما حدث.. لكنني فهمت، لم أكن ممن يتلعثمون في الكلام ولا يترددون في الإجابة عن أي سؤال من أي شخص، قضيت أعواما من عمري أواجه الوحوش منفردا في أقفاص نطلق عليها الملعب، لا مجال للتردد ولا الخوف إذا كنت ممن يفوزون في النهاية. أنا لم أجب لأن الإجابة لم تكن حاضرة ولا تلقائية.. الإجابة لم تكن موجودة في قلبي ولا في عقلي. ونظرة الرجل الثاقبة وكبريائي الذي لم يقبل أن أكذب أمام أي كائن بشري لأي سبب لم يسعفني.

ماذا أريد من ريم؟ في ذلك الوقت كنت أريدها كما هي، رفيقة طريفة وصاحبة وعاشقة. اعتدتها بعد فترة طويلة من المقاومة، ولاشك أنني كنت أحب فيها الكثير، لكن الهدف كان أكبر ولا وقت للانشغال بشيء آخر، أكثر ما أحببت فيها كان حبها لي، أما ما أريده منها فلم أعرفه، وضعني الرجل في مواجهة أمام نفسي.. لم أستطع أن أجيبه أنني أريدها زوجة، ولا استطعت أن أقول إنها مجرد صديقة.. ولا أنني لا أريد منها أي شيء، فقد كنت أحتاج إليها بالفعل.

ظلت ريم تنظر إليَّ في صمت، الأم تجمدت تماما ووضعت أدوات الطعام ومسحت فمها بالفوطة الصغيرة، لم أعقب فأشارت

إلى ابنتها، تحركتا سويا، لكن ريم عادت إليَّ بعد عدة خطوات لتقول في عجل:

ـ أنا مش عاوزة منك حاجة يا عمر.. خد وقتك وما تقلقش!

٥٠

صندوق الرسائل/Inbox

ريـم

«فقدتك إلى الأبد بعد لقائك مع أبي، لم أغفر له ذلك حتى مات وهو يعرف أنني لم أسامحه، الآن أتمنى أن يسامحني هو، حاول أن يحميني من نفسي ومنك، أنا أيضا كنت أعرف.. لكنني ارتضيت أن تطول علاقتي بك بأي شكل، أبي أغلق علينا جميعا الباب، جعل كلًّا منا ينظر لنفسه في المرآة ويعرف الحقيقة..

انتظرتك بعدها فلم تأت، ذهبت إليك في يوم عيد ميلادك، كعادتك لم تنصفني، أصبح ظهورك أيها البطل العالمي مع غريمتي هو الحقيقة.. وفريدة الوكيل أصبحت تجري خلفي لسبب ما، كلما رأتني تبكي وتعتذر لي وتعترف أنها كانت سببا في كل ما حدث.. ريهام امتلكتك تماما وطردتها من حياتكما بشكل غير مباشر.. أصبحت تبدي رفضها لوجودها وتتهرب منها.. لم تدعها حتى لحفل زفافكما بعد ذلك.

لم أستطع أن أسامحها، دموعها لم تشفع لها بل جعلتني أنا أيضا أبكي على كل ما حدث لي منها..قلت لها بكل جوارحي:

ـ أنا باكرهك..

تزوجت مبكرا بلا شك، كان لابد أن أبحث بعد ذلك عن رجل

يملأ حياتي بعدك، رغم أن المقارنات كانت ظالمة، كنت أبحث في رجلي عن مواصفاتك وعقلك ورائحتك، كنت أفكر في بطولاتك ونجاحاتك وأحلامك وأتابعها عن بعد، أي لعنة أكبر مِن أن تعيش امرأة مع رجلها لتفتش فيه عن رجل آخر، لم يدم زواجي لأكثر من شهور قليلة.. هجرني بعدها وهو يقول:

ـ ما تتجوزيش تاني يا ريم.. إنتِ متجوزة جواز نصارى!

لكننا عدنا لأنني وجدت صغيرة تتحرك في أحشائي، وقبل هو العودة تاركًا ما في قلبي لي، واشترط عليَّ فقط ألا يرى أي دليل على أنني لم أزل أفكر فيك.. وأنا قبلت».

٥١

لعبة/A game

اتسعت الفجوة بيني وبين ريم فصار ملعب التنس مقصدي الدائم مع سبق الإصرار والترصد، كانت ريهام قد أخبرتني أنها تمارس تلك اللعبة، وعندما رأيتها جالسة تنتظر تدريبها لم أستطع مقاومة جمالها في رداء التنس اللعين، ترتدي قميصا رياضيا أبيض بأكمام قصيرة وتنورة أقصر، تمسك بمضربها وتتفحصه كما لو كانت تعد مربعاته الصغيرة بأصابعها.. وقفت أتأملها طويلا، ريهام باهرة الجمال.. عيبها الوحيد هو أن وجهها يبدو خاليًا من الانفعالات؛ صعبة القراءة، ربما هذا ما استفزني في لقائنا الأول في وجود فريدة.. لكن مع تكرار اللقاءات القصيرة ظهر انطباع جديد كان يشعرني بالأمل، كانت فريدة حتى ذلك التاريخ موجودة غالبا في كل المرات التي التقينا فيها، تسألني عن بطولاتي ورحلاتي ثم

تضحك وتصخب وتبدي دهشتها ثم تسخر مني.. أما ريهام فكانت حجرا صلدا.. الشرق له طباعه الذكورية.. يحب الرجل الضعيف من تمنحه اهتماما يفوق حجمه ويسعى الرجل القوي وراء من تفعل العكس.. قمت من تلك الجلسة ومقاومة ريهام معركة كبرى في وجداني، قررت أن أخوضها بإقدام كامل.

عندما رأتني أمامها تظاهرت باللامبالاة، لكنها اضطربت كثيرا وهي ترحب بي، كانت تقاوم، قررت أن أبحث عن مدخل لأقترب صراحة، أنا ابن الرياضة وأعرف مداخل أهلها، الطريق الأسهل كان من ملعبها هي، خطفت المضرب من يدها متظاهرا بتفحصه، سألتها في تحد:

ـ تلاعبيني؟

ساحرة! كان هذا هو الوصف الأمثل لابتسامة التساؤل التي حاولت أن تجعلها ساخرة، اختباري الأول لأعرف هل هي مهتمة بي أم لا. إذا كانت غير مهتمة فسترفض، إذا كانت تتظاهر بتجاهلي لكسر غروري فلابد أن الفكرة ستعجبها.. فكرة أن تهزمني بشكل ما في أول منافسة بيننا، حسابات الرياضيين لها مقادير خاصة يعرفها أصحابها فقط، الفوز له قيمته التي تتخطى قيمة المباراة بمسافات.. تعمدت أنا أيضا أن أخفي سعادتي عندما قالت بتعال:

ـ هتخسر..

ـ أنا بطل العالم.

ـ في ملعب تاني.. دي مش لعبتك..

نظرت في عينيها مباشرة وأنا أضغط على كلماتي:

ـ لا دي لعبتي..

لم أنتظر.. أشرت إلى الصبي الواقف على طرف الملعب ليحضر

لي مضربا من الداخل وعددا من الكرات الصفراء، تقبلها الأمر وإشارتها للمدرب معتذرة عن تدريبها كانتا علامتين واضحتين في رصيدي.

ما لم تعرفه ريهام وقتها أنني أجيد التنس وأنني مارسته في طفولتي لسنوات قبل التايكوندو، وما لم أعرفه أنا هو أنها لم تكن لاعبة عادية، كانت بطلة بالفعل.. ربما هذا ما جعل مهمتي سهلة، كنت قد حزمت أمري قبل أن تلمس أولى كراتها الأرضية الترابية لتثير عفارها وتترك آثارها، ريهام لن تغفر لي هزيمتها، ستكرهني على الفور، ولن تستمتع بهزيمتي لو جاءت سهلة بسيطة، ستزداد غرورا وصلفا، يجب أن تنتصر في ملعبها بما يكفي لتشعر بنشوة تطلبها مرة أخرى ثم تدمنها رويدا رويدا، كانت تلك خطتي لأفوز بالجائزة الكبرى التي أبحث عنها، ريهام نفسها!

بدأت المباراة بتركيز شديد من كلينا، وسارت في الطريق الذي رسمته لها تماما. كانت الكرة المسكينة تروح وتجيء في حيرة بين مضربينا لمرات متعددة فيبدو الصراع متكافئا لبعض الوقت، لكنها كانت متميزة، أصبح كل همي أن أقاوم ثم تنتصر ريهام وتقتنص نقطة تضاف لرصيدي عندها. بدأت الكفة تميل تجاهي في الجزء الأخير، فارق القدرة البدنية لصالحي كان أكبر بلا شك، وبدأت هي تشعر بتوتر واضح زاد من أخطائها، وصلنا بالمباراة إلى النهاية المأمولة، ريهام وهي تطلق من حنجرتها الرقيقة صيحة انتصار، ثم ابتسامة غرور ساخرة ساحرة، مدت يدها لتصافحني بحرارة لأول مرة:

ـ أنت كويس؟

أجبتها بتهديد:

ـ المرة الجاية هاكسب..

هزت رأسها نافية:

ـ صعب.

ثم استدارت مغادرة، فابتسمت في انتصار.. أنا الفائز.. وهناك مرة قادمة.

٥٢

علاقة جديدة/ New relationship

لا أعرف هل هناك تقنيات يتعلمها أمثال منصور لإزعاج البشر أم أن كل ما كان يفعله موهبة خالصة.

شعبان، عدوي اللدود وأول من حاول إيذائي في الملعب أصبح رفيق غرفتي بأمر من اللواء منصور، كما صار بطل الوزن الثقيل بعدما قرروا رفع وزنه لكيلا نتنافس سويا.. سلني عن البساطة والسذاجة فأقول لك إنها شعبان، لم يكن شريرا كما كنت أظن، أما لماذا كان يكرهني فتلك حكاية أخرى:

أخبروه بأنني أتيت من أندية الأغنياء، حفروا في رأسه أننا هناك نشرب النبيذ بألوانه مع الغداء، ونجامع الفتيات بعلم أبائهن في الأماكن المترامية الأطراف، حكى لي عشرات الأساطير، كلها تذهب إلى نفس المصب الذي لفت هو نظري إليه، لخصها لي هو في جملة واحدة:

ـ انتوا ما تعرفوش ربنا!

المدهش أنه قالها لي بعد أن تابعني لثلاثة أيام في دهشة ليتأكد من أنني أصلي كل الأوقات.. أزعجه ذلك كثيرا، لا سيما أنه لم يكن يصلي بانتظام، أول صدمة تلقاها هو أنني لست زنديقا... فالأسطورة

تقول إن الصعايدة أطلقوا عليَّ الخواجة لأنني من أسرة منعزلة تقيم في عزبة ضخمة وتقيم حفلات تمتلئ بالخواجات.. ولا يحضرها المصريون أبدا.. وإذا أمسكوا بمصري في الداخل فإنهم يسلمونه للكلاب البوليسة لتمزقه إربا قبل أن تتسلمه الشرطة!

أجبته ببساطة:

ـ ربنا يسامحكم..

فأجاب باستنكار:

ـ هيسامحنا طبعا.. المهم يسامحكم أنتم!

شعبان كان يؤمن تماما بأن الجنة لم تخلق لأمثالي، قالها هو لي بعد ذلك في مواضع مختلفة، الفقراء فقط يدخلون الجنة، نقود الأغنياء لا يمكن أن تأتي إلا من الحرام، الغني يصبح غنيا لأنه يمص دم الفقير، ولا تسلني كيف رسخت تلك الفكرة في رأسه.

ثم خلق بيننا مرور الأيام ألفة جزئية، ما كسر كثيرًا من الحائط الصلب الموجود بيننا هو أننا صرنا نتشارك في التدريبات، ظلت قوته عنصرا مهما يضيف لي، بينما أصبح متميزا إلى حد كبير عندما اكتسب بعض مهاراتي، ليس مجرد وحش قوي.

لم نتطرق أبدا إلى موضوع ريم، كان يتجنب الحديث عنه لكيلا نختلف، وأنا لا أريد الخوض فيه لا سيما بعد أن توقفت ريم عن التدريب في المنتخب والنادي فجأة، لكن عندما كان اسمها يأتي في أي حوار كانت عيناه تدوران ناحيتي لتؤكدا كم كان على حق، وأنني تركت ريم بعدما أخذت منها كل شيء.

لا أملك إجابة عن هذا السؤال حتى الآن.

لماذا سعيت وراء ريهام وتجاهلت ريم تماما؟

الأغلب أن ريهام جاءت في الوقت المناسب لهذا فتحت الباب على مصراعيه سريعا، بينما أتت ريم مبكرا، فاعتدتها قبل أن أفكر

فيها بشكل جديد يناسب الإجابة الجيدة التي كان ينتظرها أبوها، كان وجودي في حياة ريم امتصاصا لأعوام طويلة من شبابها، تركت فيها علامات لم تستطع هي أن تتخلص منها حتى الآن.

أصبحت أراها تحوم عن بعد في أيام التدريبات وأثناء وجودي في النادي، بدت أكثر كآبة وأقل أناقة مما اعتدت رؤيتها عليه، وكانت غالبا تنتظر أول مرة سأقدمها فيها لريهام، لكني لم أفعل أبدا.

لم أعد حتى أجيب على اتصالات ريم، ولم أعد أذهب للتدريب في النادي سوى من أجل التنس، انتظمت في تدريبي مع المنتخب، وبدأت أشعر بمساحة الفراغ الذي تركه غيابها في حياتي، فكرت في الاتصال بها مرة أخرى لكن نظرة الأب وعيون الأم ودموعها هي شخصيا تجمعت في رأسي مرددة: كفى، أقبلت على ريهام أكثر، وجدت نفسي أطلب منها اللقاء خارج النادي فلم تمانع، كانت مستعدة تماما.

وعندما جلسنا في ذلك المطعم الذي اختارته بموسيقاه الهادئة وأضوائه الخافتة لم تنتظر، تكلمت هي هذه المرة، لأول مرة عبرت عن إعجابها بي منذ أول مرة رأتني فيها وأخبرتني أنها أصبحت تحب لعبتها أكثر بعد أن أصبحت أنا جزءا منها، وأن مباريات التنس التي «تهزمني فيها» أصبحت إدمانا لديها، قلت ضاحكا:

ـ المرة الجاية أنا اللي هاكسب.

ابتسمت وهي تنظر في عيني بدلال لم أره منها قبل ذلك:

ـ ما أنت كسبت خلاص.. أنا استسلمت..

ما الذي شعرت به في تلك اللحظة تحديدا؟ دفقة من الكهرباء أصابت جسدي وقلبي بالكامل، عضت على شفتها السفلى في دلال وخجل ونظرت في الأرض، ريهام تستسلم بالفعل، ظلت مطرقة طويلا فجعلتني أنهار.. قربت رأسي من أذنها وأنا أهمس:

ـ يعني إنتِ عارفة؟

رفعت رأسها فانسدل شعرها الكستنائي على عينها فرفعته بحركة سريعة من رأسها وهي تقول:

ـ المهم تكون إنت عارف..

أهديتها في دقائق كل كلمات الحب التي لم أستطع أن أصرح بها لريم رغم كل ما كان، لم تتردد وهي تردها لي مضاعفة، قالت لي إنها كانت تموت حين شعرت بأنها تفقد أثري إلى الأبد، ثم قالت لي كل ما أحب أن أسمع، خليطًا من الكلمات عن الرجولة والبطولة والثقة والوسامة.. أكدت لي أنها تحبني من أول مرة رأتني فيها لكنها كانت تخشى كثيرا من الكلام الذي قالته عني فريدة الوكيل في لقائنا الأول.. قالت لي إنها لم تضعف قبل ذلك.. ورجتني في كلمة واحدة ألا أكسر قلبها الذي أسلمته لي.. خرجنا معًا من النادي وقضينا المساء بأكمله في أماكن مختلفة اختارتها هي، فيلم رومانسي في السينما، ثم مكان أنيق على النيل مباشرة لا بد أن تعرف بالاسم لكي تدخله، رقصنا سويا، يدي على ظهرها القوي كانت حائرة، لم تكن لينة في يدي كريم، لكن لقوتها مذاقًا خاصًّا أيضا، سرنا بعدها سويا إلى السيارة فمدت يدها لتمسك يدي متشبثة بها في ضعف رغم قوة قبضتها، ريهام التي أثارت فضولي وهي أنثى متماسكة دكت كل حصوني وهي أنثى ضعيفة عاشقة، دخلنا السيارة ثم غبنا مباشرة في قبلة طويلة دافئة بدأتها ولم أنسها أبدا.

لا أدري من الذي انتصر فينا، رسمت خطة طويلة المدى من أجل تلك اللحظة، ربما تكون هي أيضا خططت، لا يهم كثيرا، المهم أنني كنت عاشقا، وأن مشاعري تجاه ريم بكاملها ذابت مع

أول لمسة لريهام الرقيقة، كانت أنثى قوية، تحيط حبها وتحكمه وتسير مجرياته، لا تجري وراءه كما كانت ريم تفعل، أصبحت ريهام تتحرك أمام حياتي لا خلفها، تفرغت لي تماما، تشاركني في كل شيء، طلبت مني كل معطيات حياتي جلسة تلو الأخرى، وبدأت تضع معي خطة تدريبي ومذاكرتي وتناقش مستقبلي بعد أن أعتزل الرياضة، كانت سيدة أعمال ناجحة بمعنى الكلمة، وصرت أنا أعمالها، تناقشني في مواعيد سفري ونظام تدريبي داخل وخارج مصر.. حجزت لي ميعادا مع طبيب تغذية مصري ألماني، فالتخصص لم يكن معروفًا كما هو الآن، وموعد آخر مع طبيبة نفسية من أجل إعدادي لبطولة العالم القادمة.. أخذت منها هي أيضا لائحة بالتعليمات لتجهيزي، كانت تتحدث معي عن ضرورة الفوز بالذهبية.. المشكلة التي كانت تواجهني داخل مصر كانت في انعدام فرص التدريب مع لاعبين مميزين يساعدونني على التقدم في اتجاه حلمي، وصعوبة السفر بعد أن فقدت عاما كاملا في دراستي في الكلية.. قدمت هي لي الحل الذهبي.. أن أدعو كيم للتدريب والإقامة معي في مصر لأي مدة تناسبه.. قالت في بساطة:

ـ هنبعتله تذكرة الطيارة.. ويقعد عندك في البيت.. ينفع؟

انبهرت بالفكرة، رحب أبي بالأمر لأنه كان توفيرا لكل شيء.. للوقت والنفقات ولساعات إضافية أحضرها في الجامعة. كيم لم يخذلني.. وفي المطار كانت ريهام تنتظره بجواري.. وصرت أشعر فجأة بأنني أستطيع أن أشكل عالمي كيفما أريد وأقدم لنفسي كل احتياجاتها وأنا متمسك بكل شيء، ريهام كانت تعرف جيدا كيف تفعل ما تريد ومتى تفعله، وكنت أقدر ذلك كثيرا.

٥٣

وصف / Describtion

الوَغْدُ: الأَحمقُ الدَّنِيءُ الرَّذْلُ
الوَغْدُ: الضَّعِيفُ الجسم
الوَغْدُ: خادم القوم بطَعام بطنه
رَجُلٌ وَغْدٌ: ضَعِيفُ العَقْلِ، أَحْمَقُ
الوَغْدُ: ثمر الباذنجان
الوَغْدُ: قِدْحٌ من سهام الميسر لا نصيبَ له.
هل يوجد المزيد؟ أجابني عصام بالنفي..

فطلبت منه أن يكتبها بالقلم على الحائط وأن يشاركها على حسابي الإلكتروني، وأن يضع إشارة للكاتب الكبير (خالد فاروق)، هو ليس من ثمار الباذنجان وليس أحمق، لكنه كل شيء آخر.

اقتحم خالد فاروق حياتي بعد فترة لا أذكرها تحديدا، مد رأسه كالثعبان داخل الغرفة وهو يلقي عليَّ تحية الصباح، ألقيت نظرة سريعة على ملابسي التي تتلوث كالعادة ببقايا الطعام بعد كل معركة من معارك الوجبات، عصام أدخله عليَّ مباشرة كما طلب منه، لم يستطع أن يرفض طلب النجم، لم يطلب مني إذنا، كثرة ظهوره في كل المحطات التلفزيونية في آن واحد كان مبهرا لكل «الغلابة»، وعصام واحد منهم.

فريدة ومصطفى كانا يسألاني عن طبيعة علاقتي بخالد فاروق ويطلبان مني أن أحكي لهما عنه، لا أعرف هل عرفته بما يكفي أم لا.

خالد في بداية الخمسينات، قصير ومنفوخ بشكل مضغوط، لا تشعر أن سمنته مترهلة، بل تشعر أن مكبسا ضخما ضغط كل دهونه

فحولها إلى كتلة شبه صلبة، غالبا كان يمارس تدريبات رياضية يتعاطى معها كمية كافية من البروتينات الطبيعية أو المصنعة، ثم توقف فجأة، فتحول إلى هذا الشكل شبه الدائري، حليق الرأس تماما ما يزيد من شعورك باستدارته، يرتدي نظارة طبية بإطار معدني رفيع، وصبغة الشاي والقهوة والسجائر تغطي أسنانه تماما.

جلس يدير رأسه في غرفتي في فضول مزعج، لم يتحرج في كتابة بعض الملاحظات وفي إلقاء بعض الأسئلة، كنت أشعر بعدم ارتياح، طلبت من عصام في حدة أن يأخذه إلى غرفة الجلوس، لكنه عقب ببرود:

ـ ما تخلينا هنا أحسن..

ثم خرج إلى الشرفة ليدخن سيجارة.

مصادر الكراهية أو حتى مجرد عدم القبول لا تكون مبررة دائما، ربما لمحة واحدة أو حوار قصير مع شخص يكونان حاسمين في أن تشعر بحاجز يفصلكما إلى الأبد، ولن نفهم ما الذي يجعل شعورك تجاه شخص ما يتغير مرة أخرى بعد فترة قصيرة أو طويلة رغم أنه نفس الشخص وأنت كذلك، خاصة إذا لم يصاحب الأمر حدث مختلف، خالد فاروق يمكن أن أحوله ببساطة إلى رسم بياني يعبر عن مشاعري تجاهه، محايد ثم كراهية ثم إعجاب، وفي النهاية يبقى منحنيان متساويان تماما.. الكراهية والإعجاب!

ارتفعت أسهمه كثيرا في مصر في الشهور القليلة التي تلت اختفاء بدوي، أطلقوا عليه كاتب الثورة بعد أن أصدر كتابه «في حماية المغامرة»، كل ما كتب فيه حوله إلى النقيض عندما انتصرَ الثوار انهالت عليَّ المكالمات لتخبرني بأنني موجود في فصل كامل من الكتاب تحت وصف: بطل حتى النهاية.

أعاد إليَّ عددًا لا بأس به من أصدقائي بعدما عرفوا أنني كنت أشرف على تدريب شباب المنطقة بعض حركات الدفاع عن النفس لكي يستخدموها في حالة حدوث هجوم من البلطجية الذين تم إطلاقهم من أجل إفشال مغامرة شباب مصر الأحرار، وأنني ـ رغم مرضي ـ ما زلت مدربا عبقريا لدرجة أن مجموعة من شباب الدقي العزل نجحوا في إيقاف مجموعة من المجرمين أتوا في سيارة ميكروباص بغرض اقتحام المنطقة، ورغم شراسة المعركة إلا أن استعداد هؤلاء الشباب ودقة تدريباتي كانتا كافيتين لدحر الهجوم.

أزعجني شعوري الخفي بالذنب، لم يحررني اعترافي لكل من هاتفوني بغرض التهنئة بالحقيقة الكاملة، لم يحدث، ولن يحدث، تعليم الدفاع عن النفس بهذا الشكل يستلزم سنوات طويلة قبل أن يصير ممكنا، فاروق كاذب، لم أتطهر تماما لأنني لم أستطع أمام حماس الناس وتفاؤلهم بالثورة وبكاتبها الأول أن أحكي لهم حقيقة الكتاب الذي يتكلمون عنه، الكتاب الذي كان يتحدث عن المؤامرة، وخالد فاروق الذي سب الثورة والثوار أمام عيني ألف مرة صار خطيبها وممثلها، حاولت التلميح بذلك لكن التعليقات المستنكرة كتمت أنفاسي، أقساها على نفسي كان يزعم أن مرضي وعزلتي هما السببان الرئيسيان لاضطرابي النفسي، وكراهيتي لرؤية أبطال يلمعون هو سبب محاولتي إخفاء الأمر وتشويه كاتبه!

مردود الحكاية كان مختلفا على ما يبدو في النطاق الآخر من العالم، نطاق من لا يعرفونني، هؤلاء استساغوا الأمر ووجدوا في تاريخي ما يدعم الفكرة، تجاوزت صفحة عمر الخياط التي لا أعرف من أنشأها في أيام قليلة ما يقرب من خمسين ألف مشارك،

وتوالت صوري وحكايات أغلبها وهمي من زملاء وتلاميذ لم أسمع بهم من قبل، ثم ظهرت صور عمر خياط وزوجته بتعليقات متتالية على الصفحة.

أخبرني خالد فاروق في ذلك اليوم أن الجزء الخاص بي ـ قبل وبعد المرض ـ من كتابه هو أكثر ما لفت النظر إليه، وأنه جاء لتوقيع عقد اتفاق من أجل تحويل حكايتي إلى رواية طويلة أو فيلم سينمائي، ربت على كتفي في قوة وهو يقول:

ـ أنت بطل كبير.. قدوة.. لازم الكل يعرف حكايتك.

هي ثورة ولا مؤامرة؟

كنت صادقا في سؤالي وكان يعرف ذلك، لكن ملامحه تغيرت للحظة وهو يقول بهدوء ساخر:

ـ أنت لسه فاكر؟ مش هتفرق.

يقول خالد فاروق في جزء من كتابه: «وهناك بين الوطنيين فصيل آخر، أراه لا يقل عنهم وطنية، هؤلاء الذين كانوا مع الرئيس الذي رحل حتى رحل، ثم احتفلوا برحيله في الميادين بسعادة طاغية، وأيدوا استلام المجلس العسكري للسلطة، وسيؤيدون القادم والقادم والقادم، هؤلاء يريدون الاستقرار ويحتاجون إليه وينشغلون بعملهم عن الحديث أو حتى مجرد التفكير فيما يحدث، ويعملون من أجل مسيرة السفينة دون أن يشغلهم من يقودها».

فتحت الكتاب على هذا الجزء، كنت قد رسمت دائرة كبيرة، قلت متعمدا تأنيبه:

ـ بتتكلم عن نفسك؟

أمسك الكتاب وقرأها بشكل سريع ثم وضعه بلا مبالاة وهو يقول:

ـ مش قوي.. إحنا دلوقت بنلعب قمار.. محدش عارف مين هيكسب.

ارتسمت على وجهي ابتسامة رفض مهذبة:

ـ المباراة خلصت والنتيجة أعلنت يا أستاذ.

لم يبتسم خالد، تردد قليلا، ثم قال بصوت هادئ:

ـ لسه.. الماتش ممكن يبوظ حتى بعد ما يخلص.. عارف إزاي؟

نظرت إليه في صمت.. أمسك مقبض باب في الهواء وجذبه وهو يقول:

ـ لو اتفتحت الأبواب للجماهير ونزلوا الملعب.. كل جمهور هيطحن لعيبة الفريق التاني.. وبعدين يطحنوا بعض..

ـ وبعدين؟

بدا عليه أعجابه بفكرته وهو يقول:

ـ وبعدين إيه.. نلغي نتيجة الماتش ويتعاد بسبب الشغب.. وساعتها هيتعاد من غير جمهور ولا لعيبة.. الله يرحمهم كلهم، قوللي بقى، أكتب حكايتك فيلم ولا مسلسل.

٥٤

انطباعات/Impressions

جاءني كيم فشعرت بسعادة غامرة، ذلك الصديق الرائع الذي استضافني وغير حياتي تماما، كنت أريد أن أحمله فوق كتفي وأدور به في كل أنحاء مصر، ريهام كانت سعيدة بوجوده أيضا، فطالما أرادت رؤيته، أعدت لنا برنامجا مطولا للتدريب والسياحة، كل يوم سيكون الغداء في مكان مختلف، سواء في بيت من بيوت العائلتين أو أحد

المطاعم التي اختارتها بعناية، كل نهاية أسبوع سيكون هناك تدريب واحد وثلاثة رحلات سياحية، الأهرام والقلعة والمتحف المصري، والحسين. و.. و..

لكن كيم أفسد علينا البرنامج بأكمله.

كيم يعرف ما سيفعله جيدا، لم تشغله العزائم ولم يهتم بالبرنامج السياحي ولم يبد حماسه للتدريب في صالة نادي الصيد الأنيقة المتسعة، بل أبدى دهشته من حجم النادي بأكمله ومن نظام الأندية الضخمة الموجود في مصر، قال لي ساخرا:

ـ أندية بهذا الحجم يجب أن يكون كل من يرتادونها أبطالا للعالم.

سكت قليلا ثم أضاف:

ـ أو ربما على العكس! التدريب لا يحتاج لكل هذه المطاعم والمقاهي..

كيف لم أفكر في أن كل أماكن التدريب هناك صالات صغيرة تساوي الغرض الذي ستعمل لأجله تماما، لا مجال للرفاهية، فاجأني كيم بسؤاله عن السعداوية، كنت قد حكيت له عنها قبل ذلك في أحد حواراتنا لا أذكره تحديدا، طلب مني أن نذهب إلى هناك.

ـ إنها صحراء صغيرة.

ـ ممتاز.

وافقت على مضض وأخذته في زيارة إلى السعداوية، عمي كامل رحب بي بشكل أكبر من ترحيبه بي في زيارتي الأولى، شعر بالاحترام تجاهي بعد أن أصبحت بطلا حقيقيا للعالم، في المرة السابقة كان يتعامل معي على أني شاب صغير أخرق من أقاربه، اليوم صرت بطلًا للعالم، ولتدريبي في القرية دور ضمني في استمراريتي

كذلك، أعد لنا غرفة في الملحق الموجود خارج المنزل عندما عرف أن معي صديقًا من بلد آخر. انطلق كيم في السعداوية.. كان يمشي بين الحقول في الصباح ويشير ضاحكا إلى المزارعين، يبتسم عندما يرى سيدة تساعد زوجها ويشير إليها ضاحكا وهو يقول:

ـ تذكرني بأمي..

أخرج لي صورتها.. كانت تحمل ثمرة كبيرة من الكرنب وتربط شعرها بمنديل مزركش يشبه ما ترتديه البنات في قرى مصر. كان يحكي لي كيف هي أيضا تساعد أباه في الحقل ويتحدث عن جمال حياته هناك. طلب مني أن نتدرب مع الفريق رغم أنه أصر على أن نتدرب منفردين عندما كنا في القاهرة، تجمع شباب الفرق حولنا وأخذوا ينظرون إليه في دهشة، أسموه الرجل الصيني في البداية، ثم أطلقوا عليه الخواجة وأصبحت أنا عمر.. الغريب أنني شعرت بشيء من ضيق لأنهم أخذوا لقبي وخلعوه عليه.. ثم شعرت بغيرة غامضة عندما لاحظت مع مرور الأيام أنه أصبح أقرب مني إليهم!!

قروي حقيقي، مع أول يوم تدريب نظر إلى ملابسهم وخلع ملابس التدريب الأنيقة وأصبح يتدرب في الصباح والليل بفانلته الداخليه هو أيضا، حاولت أن أقنعه بأن ذلك غير ضروري لكنه أصر، بدا لي مثلهم تماما، في أوقات الطعام يجلس وسطهم ويأكل من أكلهم ثم يغمض عينيه ويهز رأسه وهو يضحك إذا لم يعجبه الطعام، أصبحوا يتنافسون في إحضار أطباقه الخاصة طبقا لطلباته؛ الأرز المسلوق وقطع اللحم، لكنه وقع أيضا في هوى الفطير المشلتت والجبن القديم المملح، المشهد العبقري كان عندما أخرج من حقيبته عددا من العصي الخشبية التي في كوريا وبدأ يعلم الجميع كيف يستخدمونها، أصابتني قطعة لحم طائشة

في وجهي، كانت قطع اللحم تقفز من فوق العصي والأرز ينفرط في كل اتجاه والكل يضحك.. هو بالتحديد كان مستمتعا بالأمر إلى أقصى حد.

خريطة العالم الحقيقية تنقسم إلى نفوس وأرواح، طيبون وبسطاء ومحبون وعشاق للبساطة وآخرين، إذا هدمت تلك الحدود فستكتشف أن جميع البشر أرواح من عجينة واحدة تشكلها الظروف التي تصنعهم، تفرق بينهم فقط نفوس شريرة كما فعل الساطور في كوريا الكبيرة التي أصبحت دولتين، وفي الشرق الذي أصبح عشرات الدول والدويلات.

كان التدريب هناك مختلفا تماما في تلك المرة، زادت المتعة والصعوبات على الجميع، حتى كيم استمتع بالتدريب معهم وأبدى انبهاره بقدرتهم على تحمل التعب والمجهود بكل صبر، أما أنا فقد انبهرت بقدرة هؤلاء على تطوير مهاراتهم بتلك السرعة. كيم لم يكن مثلي، كان معلما بطبعه.. فصل ساعات تدريبنا عن الساعات التي كنا نتدرب فيها معهم لأنه كان يجعلها وقتا للتعليم، قالها لي بابتسامة عريضة:

ـ هؤلاء يجب أن نعلمهم.

تعلمت منه الرغبة في العطاء، أن تفكر فيما ستعطي مثلما تفكر فيما ستأخذ، كنت أراقبه وهو يشرح لهم كل شيء عن اللعبة وهم ينظرون إليه بعيون متعطشة. لماذا لم أفعل مثله في المرة الأولى؟ بررت ذلك لنفسي بأنني كنت محتاجا للتدريب.. لكنني عرفت لاحقا أن العطاء طبع، وهم مع عطاء كيم كانوا يتقدمون كل يوم عن سابقه.

في نهاية المدة غادرنا السعداوية وهم جميعا في وداعنا وفي

عيونهم دموع تلمع حزنا على فراق الخواجة، الخواجة الكوري وليس الخواجة المصري، أهداهم جميعا كل ما كان معه من عصيٍّ خشبية وملابس رياضية، كان يمد كلتا يديه بالهدية التي يحملها وهو يبتسم في سعادة.. وعندما كنا في القطار عائدين إلى القاهرة كان يبتسم وهو ينظر من النافذة شاردا.. ثم قال لي فجأة:

ـ كوريا مثل مصر تماما..

نظرت إليه في دهشة. فأردف موضحا:

ـ بشر طيبون تملؤهم العاطفة.. وسريعون في التآلف والمحبة.

٥٥

عمر قام بمشاركة السلام الوطني المصري/

Omar shared the Egyptian national anthem

من آن لآخر أقوم بمشاركة السلام الوطني المصري، مع صورة إلكترونية لعلم مصر وهو يرفرف بشكل ميكانيكي، تتراوح ردود الأفعال بين صمت تام أو ضغطات إعجاب، لأنهم لا يفهمون.

كولورادو سبرنجز ١٩٨٦.. حيث عرفت اللون الأخضر بشكل جديد، ورأيت الجبال أكثر جمالا من كل ما عرفت، لا تكسوها صفرة ولا رمال..بل خضار وسحب بيضاء ناصعة كما لو كانت بخارا هادئا يخرج من فم الجبل في يوم بارد فينتعش الرائي.

أحب سول لكن كولورادو لها طعم آخر في فمي.. هناك عرفت معنى الفوز الحقيقي.. كيف تقف فوق المنصة أعلى من الجميع وترى العيون معلقة بك، الألسنة جميعها تردد اسمك عدة مرات حتى تذكره جيدا ربما للأبد! الرياضة تاريخ، والتاريخ يصدق

حتما في ذكر النتائج رغم أنه قد يكذب في التفاصيل. لا يستطيع كائنا من كان أن ينكر أنني الفائز بذهبية كأس العالم في التايكوندو لعام ١٩٨٦، وأنني هزمت في الدور النهائي ذلك الكوري الذي هزمني في العام السابق.. وأن الكوريين حصدوا في تلك الدورة سبعة ميداليات ذهبية من أصل ثمانية.. والوحيدة التي خسروها كانت ذهبيتي.

هكذا أصبحت بطلا حقيقيا للعالم، لقبوني بالمصري (The Egyptian)، قد ترتعش الذكريات في ذهني أحيانا وتختلط الصور.. إلا تلك اللحظة التي رفعت فيها يدي لأعلى وهم ينادون باسمي لأصعد المنصة.. أذني تحمل نبرة صوت صرختي الطويلة:

ـ آآآآآآآآآآه..

لم أبك في تلك اللحظة بل ضحكت، كل المشاهد الجنونية التي مرت عليّ توالت أمام عيني، من القاهرة إلى أسيوط إلى سول ثم إلى كولورادو الجميلة.. لماذا لا يملك الإنسان فرصة لإيقاف الزمن؟ لماذا لا نملك حتى فرصة الاحتفاظ بمشاعرنا في لحظات السعادة العارمة لنسترجعها كما هي، بدلا من استرجاعها مشوبة بنكهة مرارة الحاضر؟ إنها اللعبة المفروضة علينا جميعا بقواعدها المرعبة، ربما يمكنك أن تكسب جولة وأخرى وأخرى.. لكنك في النهاية تنسحب مجبرا، ليحتل الملعب والمنصة بل وحياتك بأكملها آخرون.

كولورادو كانت البداية.. وكيم الذي احتضنني فوق المنصة وسط هتاف وتشجيع ودهشة الجميع الذين لم يفهموا ربما إلى الآن سر تلك الفرحة المجنونة لكوري من أجل فوز مصري،

لم يكررها بنفس المشاعر مرة أخرى، إحساس المرة الأولى في كل شيء لا بد أن يختلف، كان المشهد فريدا، التقطته عدسة أبو سهيل بحرفية.. بطل عالم كوري يجري على آخر قادم من الشرق الأوسط ليجذبه من فوق منصة التتويج ويحتضنه ويدور به في الهواء عدة دورات وسط هتاف الجميع.

السلام الوطني الذي عزف هناك كان يهنئني ويشكرني ويخبرني أن بيني وبينه وبين البلد التي نمثلها سويا عقدًا أصبح انفراطه مستحيلا، أحببت مصر في تلك اللحظة كما لم أحبها من قبل، أصبحت أدندن بسلامها الوطني في لحظات الشرود، ربما أحبتني هي أيضا في نفس اللحظة، واللحظات المتشابهة التي توالت سريعا جدا في نطاق سنوات قليلة، حصلت في ذلك العام وحده على بطولة العالم للجامعات وسمحت أوروبا لمصر بالمشاركة في بطولة أوروبا كفريق ضيف، وحصلت على الذهبية أيضا، مازلت أضحك بسعادة من آن لآخر بينما أشرح للبعض كيف أصبحت بطلا لأوربا، أنا القادم من مصر.

ذهبيتان أخريان في بطولات العالم، وفضيتان وثلاث برونزيات، ليصبح مجموع ميدالياتي في البطولات العالمية تسع ميداليات بعد إضافة ذهبيتي الأولى وبرونزيتي الأولى، وفضية أوليمبياد سول وبرونزية برشلونة، إحدى عشرة ميدالية وما يزيد على عشرين ميدالية في بطولات دولية وأفريقية وعربية متنوعة، مشوار لا يمكنني أن أقيسه أبدا بالسنوات، كل خسارة كنت أنتظر بعدها مكسبا، وكل مكسب كنت أنتظر ما يليه.. أما بطولتي الأخيرة فقد كانت هي السبب المباشر لاعتزالي بعد أن أدركت أني لن أقدم الأفضل.

٥٦

قام عمر بتغيير معلوماته الشخصية/

Omar changed his personal info

بطل رياضي سابقا، مدرب حاليا، ومتزوج من ريهام.

عامان مرا على الاعتزال والزواج، لم نحتَج وقتًا طويلًا لإنهاء ترتيبات الزواج، كل شيء كان معدا، أنا وهي وشقة في مواجهة نادي الصيد، وأسبوعا عسل في أوروبا بعد أن رفضت هي اقتراحي بأن نقضيه في كوريا كأغلَّب حياتي، عدت منهما لأنخرط في تدريبات المنتخب بقوة سعيًا وراء مجد جديد.

كانت بداية حياتي الجديدة براقة كبدايات مباراة يخدمك الحظ فيها فتتوالى النقاط في رصيدك، ريهام مليئة بالحيوية والحماس، من النوع الذي يجيد الوقوف في صف رفيقه ليدفعه لطريق النجاح بقوة، هي أيضا بطلة في رياضة تحتاج السرعة والقوة والمهارة، والحسم في اتخاذ القرارات، والغضب الشديد عندما يحتاج الأمر لذلك، مضى ما يزيد على عام هادئ نسبيا إلى أن رأيتها لأول مرة في فورة غضبها.. وكان من أجلي عندما عدت من أمستردام مباشرة إلى.. قسم الشرطة.

كانت أول بطولة عالم أشارك فيها بلاعبي الفريق كمدرب، اعتذر اللواء منصور عن السفر معنا قبل الموعد بأربع وعشرين ساعة فقط، طلبني إلى مكتبه وأعطاني النقود المخصصة للبعثة وهو يشرح لي بنودها، الإقامة والإعاشة والانتقالات والطوارئ.. لم أستسغ الأمر لكنه أصر:

ـ البركة فيك.. مفيش وقت.

جزئيا شعرت بالارتياح، وجود ذلك الرجل يوترني دائما

ويشعرني بأني مراقب، كنت متأكدا من أن هناك غرضًا سياسيًّا أكبر من قيمة الرحلة يجعله يعتذر، طالما لم يزل حيًّا فلن يفوت فرصة ظهوره في وسط بطولة العالم ليلتقي بشخصيات جديدة ويسوق توكيل أدواته الرياضية التي أصبحت هي النوع الأهم في الوطن العربي في ذلك الوقت.

الفارق بين أن تكون مسئوليتك عن نفسك ومسئوليتك عن الآخرين كبير، كنت أحمل نقود بعثة كاملة، آلاف الدولارات في جيبي لو ضاعت سينام كل هؤلاء على أرصفة أمستردام.

كانت في انتظارنا فتاة جميلة تحمل لافتة ملونة عليها شعار البطولة وأسماء المنتخبات المتوقع وصولها، اقتربت منها وأخبرتها أننا الفريق المصري فنادت على فتاة أخرى أوروبية الملامح أيضا، إلا أنها مدت يدها إلينا وهي تقول:

ـ أهلا وسهلا.. حمدًا لله على السلامة.

الجملة الوحيدة التي نطقتها بعربية متعثرة، اسمها كارول، والدها مصري وأمها هولندية، كارول كانت بداية ارتياحي، تتكلم عربية فصحى بلسان أجنبي، تحمل شيئا من دماء فريدة الوكيل وبقايا روائح الجدعنة المصرية، مصريتها كانت شيئا يعجبها بدرجة ما، قصت عليّ حكايات أبيها عن مصر وأمانيها أن تعيش فيها بارتياح وهدوء، ابتسمت وأنا أشعر أنها تتكلم عن مصر كما أتكلم عن السعداوية، فلا كارول ستتحمل الحياة في مصر ولا أنا سأتحمل حياة السعداوية.

تحسست حقيبتي بشكل عفوي فانفجرت في الضحك وهي تخبرني بأن تلك هي المرة العاشرة التي أتحسس فيها الحقيبة منذ التقينا، ضحكت أنا أيضا وأنا أؤكد أنني تحسستها ألف وثلاثمائة

مرة تقريبا منذ أن أقلعت الطائرة من القاهرة، لأول مرة أتحمل مسئولية مادية بهذه الجسامة، أومأت برأسها بتفهم وقدمت لي حلا عبقريا؛ أن أدفع الإقامة مقدما بمجرد وصولي إلى الفندق شاملة قيمة الوجبات الثلاث، فتنتهي مسئولية الجزء الأكبر من النقود، أعجبتني الفكرة، قررت أيضا أن أبدأ في توزيع بدل الانتقال اليومي الذي نمنحه للاعبين، هكذا يصبح الباقي مبلغ الطوارئ، حتى إذا ضاع سيمكنني تغطيته، ابتسمت وأنا أصافحها امتنانا:

ـ أنت عظيمة.

ضحكت في خجل، وصلنا الفندق، قررت أن أنفذ فكرتها لكني انتظرت حتى أعرف قيمة الإقامة تحديدا وأراجع نقودي، أعطتني أرقام هواتفها وغادرتني بهدوء، صعدت إلى غرفتي ووضعت النقود تحت وسادتي ولأول مرة منذ وصولي.. رحت في النوم.

رأيت نفسي في المنام أبحث عن النقود في كل مكان فلا أجدها، أشعر بالرعب وأجري في كل اتجاه بلا فائدة، ورأيت كارول واقفة تنظر إليَّ بضحكة ساخرة وهي تعد النقود، قمت من نومي فزعا.. بحثت عن النقود فوجدتها كاملة فتوجهت لمكتب حسابات الفندق ودفعت مقابل الإقامة، فخف الحمل كثيرا.

٥٧

حزن/Sadness

جن مصطفى القماح بلا شك، الشفقة كانت جزءا لا بأس به من مشاعري تجاهه، فقد كنت أتفهم جيدا رغبته في تغيير كل ما فات، زار أبي في عيادته وطلب محادثة أمي وأعطى بعض المنشورات لحارس العقار، ثم وزعها على الأبواب والسيارات وأمام وداخل

النادي، كانت قوائم انتخابية تحوي أسماء وصورًا لانتخابات مجلس الشعب التي دار عليها جدل كبير، كان حماسه مدهشا لأنه لم يكن يعرف عنهم الكثير، كنت أسأله عن أي منهم فيجيبني بالمكتوب في المطبوعات التي يحملها، مجرد وظائف لا تدل على شيء، ثم يردد كلاما متناقضا عن تشابه ذلك مع فكرة الأحزاب الكبرى في الدول المتقدمة، ثم يبدأ في انتقاد الدول التي يشبه من يدعمهم بها، سخر منه أبي، وأمي طوحت الورقة التي أعطاها لها من النافذة، وفريدة لم تعد تأتي إلا بعد أن تتأكد أنه ليس موجودا لكيلا تتشاجر معه أمامي مرة أخرى، أما أنا، فحاولت أن أجاريه لبعض الوقت، ثم أخبرته بأنني لن أمنح صوتي لاتجاه ما بل سأختار من بين الجميع، فمط شفتيه لكنه لم يتوقف عن الترويج لهم في كل زيارة، وإن تباعدت الزيارات.

ابتعاد القماح وإحباط فريدة وهي ترى اللعبة تخرج من بين أيدي «شباب الثورة» وتنتقل إلى اتجاه مغاير عن أحلامها هما ما جعلاني أتقبل خالد فاروق. أصبحنا صديقين على نحو ما، وصولي وانتهازي وحقير، وغد حقيقي لكنه ملأ الفراغ بكفاءة، ربما لخفة ظله وقدرته الفائقة على اختيار اللفظ المناسب في الوقت المناسب، أو ربما لأنه كان مصدري للتنفس بارتياح كامل، أصبح يزورني أسبوعيا ويجلس وأنا أحكي وأحكي وأحكي، في البداية كان يسجل فقط ثم بدأ يحكي هو أيضا، ثم صار جزءا من اللعبة، يأتي ببطاقات وأقوال مأثورة وصور لما يحدث ويضعها على الحائط أيضا.

يجيد الكلام ويجيد الكذب ويجيد الهجاء، السباب من اللزمات الثابتة في كلماته، مع تكرار الجلسات بيننا رفع الحرج وأطلق طبيعته، أصبح مسليا إلى حد كبير، ومضحكا أيضا، أذكر له اسم أي شخص معروف ليقول ببساطة:

ـ عارفه.

ثم يختار له ما يعني أنه شاذ جنسيا، بالعامية أو الفصحى أو بجملة فعلية يذكر فيها الفاعل أو يتركها بفاعل مجهول، والنساء كلهن عاهرات بشكل أو بآخر أيضا.. لكنه يتحدث دائما بتلقائية شديدة تجعلني أضحك، أبديت له تخوفي في إحدى المرات من احتمالية أنه يصفني بصفات مشابهة، فهز كتفيه في بساطة:

ـ لا والله بقول عليك راجل جدع، ولو إني ما شفتكش وأنت بصحتك كنت بتعمل إيه.

ذكرى مرور عام كامل مر على شق وجه فريدة بمطواة صغيرة صدئة، ذلك الجرح الذي أشعر به يمزق قلبي كلما رأيت وجهها الصافي وضحكتها المائلة على جانب واحد لأن الآخر محتل بندبة كبيرة، كانت قد انتابتني هواجس كثيرة في تلك الأيام، بداية من أول يوم من أيام الثورة الذي تزامن مع عيد الشرطة ومرورا بباقي الأيام، كنت أنتظر حدوث شيء كبير، لم يحدث أي شيء ضخم كما توقعت، فانتقل هاجسي إلى يوم التنحي الذي سيأتي في نهاية الثلث الأول من فبراير، قلت للجميع أن حادثا ضخما يقترب، حفلات الانتقام موجودة في كل مكان في العالم بعد أحداث كهذه، لكنهم جميعا لم يصدقوا مقولتي، أبي وعصام وفريدة، حتى خالد فاروق.. لم يصدق أحد.

لن أقتنع أبدا بأنها كانت مصادفة، اليوم الثلاثمائة وخمسة وستون من التاريخ الذي تدخل فيه رجال رجب الوكيل بحيواناتهم في مسار الثورة والمظاهرات فألقوا بكل الأحداث إلى هاوية اللارجعة، كنا جالسين في غرفتي أنا وخالد فاروق يقرأ لي فصلا جديدا مما كتب بينما أحكي له المزيد، الأمر يسير ببطء لأن خالد

يتضخم وينتشر، برنامج في إذاعة جديدة وآخر في محطة تلفزيونية شهيرة وضيف دائم في المساء لمختلف البرامج، لذلك فهو يولي كتابي أقل من عُشر وقته.

كنت أرحب به وأحكي له في جميع الأوقات إلا أوقات مباريات الكرة، فبيني وبين الملاعب بألوانها المختلفة عشق لم ينهه شيء على مدار السنوات، يشبه شوق المغترب إلى وطن خرج منه مقهورا، يحلم بالعودة ويعلم أن الرجوع مستحيل، بقيت لي متعة واحدة هي متابعة أي حدث رياضي بحماس يساوي حماس المشاركين.

خالد وعصام يحبون مشاهدة المباريات معي، يقول خالد إن تحليلي للملعب وأخطاء اللاعبين يجعلني أبدو كناقد أدبي بين طرفي كتاب يبدو بسيطا رغم أنه غاية في التعقيد، وكان يأخذ من تعليقاتي ما يغرسه في مقالاته لا سيما بعد المباريات الشهيرة في مصر، الأهلي والزمالك وفريق مصر الذي عانى في تلك الفترة من عثرة كبيرة لم يخرج منها بسهولة، مثله مثل كل شيء.

الملعب أخضر كالمعتاد، الفريقان يرتديان اللون الأحمر والأبيض، اسما الفريقين اللذين شاركا في ذلك الحدث مثيران للفضول أيضا، يحملان رسالة خفية، الأهلي أي القومي أي الشعب والناس، والمصري المنسوب للوطن!

تنتهي المباراة بخسارة الفريق الذي أشجعه - الأهلي - فيمد خالد يده إلى طبق المكسرات الذي أمامه ليأخذ منه حفنة كبيرة وهو يضحك، فهو يشجع الزمالك، أبدأ في التعليق ساخرا على أنه يمثل الطرف الثالث في تلك المباراة، وأن (القَرعَة تتباهَى بشعر بنت أختها)، يضحك ثم يبتر ضحكته ويغرق في الصمت فجأة، ألتفت إليه فأجد عينيه معلقتين بالشاشة في دهشة، عصام يسب على غير

عادته، أدرت رأسا تجاه الشاشة لأرى اللاعبين يجرون وخلفهم يجري آلاف الجماهير كما لو كانوا قافلة من الثيران البرية تنطلق في مشهد من مشاهد أفلام الغرب القديمة، يبدو المشهد مضحكا للحظة، الزحام المتزايد ينهي ابتسامات السخرية التي كادت ترتسم، خالد يقوم من مكانه في لحظة ويشير إلى الشاشة صارخا:

ـ يا ولاد الكلب.. يا ولاد الكلب.. يا ولاد الكلب.

لا أعرف من هم أولاد الكلب، خالد لم يخبرني أبدا، هل كان يتحدث عن هؤلاء السفاحين الذين يجرون في أنحاء الملعب، أم كان يتحدث عن أشخاص تقاعسوا عن حماية الطرف الآخر من الجمهور، أم كان يعرف شيئا لم يصرح به، فقط ظل يراقب ما يحدث وهو يكرر نفس الكلمة في ذهول كما لو كان قد فقد عقله، لم نفتح أفواهنا مرة أخرى في تلك الليلة، تنقلنا بين القنوات لنعرف ما يجري، تهاوى خالد في مقعده عندما أعلنوا أن عدد الوفيات اثنان، صرخ في غضب:

ـ قتيلان في مباراة كرة قدم!

كان يشعر بالدهشة وكنت أنا أشعر بالموت، انفجرت في بكاء قسري لم أجد لنفسي أي سيطرة عليه، أعداد الوفيات تتزايد في كل لحظة كما لو كانت شاشة حساب الليترات في مضخة بنزين سريعة، قفز العدد حتى تخطى السبعين، تركته على الحائط بقلم أسود سميك، وهجرت مشاهدة الكرة، ذلك اليوم كان آخر يوم شاهدت فيه مباراة كرة قدم، كرهت مشاهدة الملعب، جماهير تجري كصراصير قبيحة زاحفة في فيلم رعب مقزز تتراءى وتفسد عليَّ المشاهدة، «أولاد الكلب» أفسدوا عليَّ محبتي للكرة، من هم؟ لا أعرف، الذين خربوا البلد كما يصفهم أبي، أو الذين خربوا الثورة

كما تصفهم فريدة أو الذين أضاعوا فرصة الديموقراطية كما يصفهم مصطفى القماح، رغم أنه كان يقول إن الديموقراطية حرام.

اختفى خالد بعدها لشهور، أخبرني أنه حاول أن يكتب مقالا عن الحكاية فلم يستطع، وفي الحلقة التي قدمها حول الواقعة غلبه البكاء، أنا رأيت هذه الحلقة بالفعل، كان بكاء صادقا على غير عادته عرفت منه أن واحدة من قريباته فقدت ولدها الأصغر في ذلك اليوم، كان يعرفه جيدا ويحبه لهذا غلبته دموعه، سالت دموعي أنا أيضا وأنا أتخيل ولدي في نفس ذلك الموقف، هو أيضا يرسل إليَّ بصوره في مباريات الكرة، ولا أعرف كيف سأشعر لو عرفت بموته أثناءها.

عندما جاءني ليستكمل كتابه فبدا لي كما لو كان نسي الأمر، ذكرته بما قاله لي منذ عام واحد، إذا فتحوا الأسوار للجماهير، فهز رأسه في استحسان وهو يسأل:

ـ أنا قلتلك كده؟

ربما لم تكن لديه دراية بالأمر لكنه يجيد التفكير بنفس طريقة من فعلوها، أصاب وأخطأ على أي حال، أفسدوا الأمر بالفعل، لكنهم لم يطحنوا الغالب والمغلوب، بل طحنوا أنفسهم حتى وإن كانوا برداء آخر، كل من ماتوا مصريون وأهليون، وعلى يد مصريين وأهليين، نظرت إلى يديَّ اللتين كانتا ترتعشان وأخبرته في أسى ما أصبحت أقوله كل يوم، هذا الشعب يشبه خلايا جسدي، الخلايا الفاسدة فيه تضرب السليمة وتضر جهاز المناعة بأكمله، والعلاج صعب مثل حالتي تماما، كيف يمكن أن تقتل خلايا محددة من جسدك وتترك الصحيح منها، في السرطان تكون الأمور واضحة لأن الخلايا لها شكل يختلف، أما في حالتي وحالة مصر.. فيكون الأمر أصعب كثيرا لأن الخلايا المريضة مندسة باقتدار، والشبه واحد، تنكشف فجأة ثم

تختفي في الزحام، مثل الخلية اللعينة التي مزقت وجه فريدة ثم عادت في صورة أخرى لتقتل العشرات من جمهور مباراة كرة.

٥٨

بحث/ Searching

- خيانة بلا شك!

كنت قد اجتمعت باللاعبين مساء، ليلتان تفصلانا عن المباريات، تحدثت معهم عن أهمية الحدث وقيمة هذه البطولة بالتحديد، كان الحديث حماسيا، تفاءلت كثيرا، بدوا لي أكثر حماسا واطمئنانا من كل المرات السابقة التي حاضرتهم فيها، عادة ما يكون الخوف هو السائد في اليوم السابق للمنافسة، أما هذه المرة فكانت الثقة سائدة والبهجة والارتياح على وجوه الجميع، حاولت أن أزيد من حماسهم وأؤكد لهم أن الأمر ليس بالصعوبة التي يظنونها وأن كلًّا منهم يمكن أن يصبح بطلا للعالم، هزوا رءوسهم في ثقة.. وانتهى اليوم على ذلك.

في الصباح وقفنا في انتظار الباص الذي سينقلنا إلى صالة اللعب من أجل التدريب الأخير، لاعبتان وأربعة لاعبين كانوا معي بينما تأخر أربعة آخرون عن النزول، منهم شعبان الذي أصبح كابتن الفريق وقائده بالأقدمية لأنه يسبق الجميع - بما فيهم أنا - في السن.

كان الوقت يمر بسرعة.. تدرجت مشاعري، دهشة ثم غضبا ثم قلقا.. صعدت إلى غرف اللاعبين بحثا عنهم فلم أجدهم.. سألت فتاة الاستقبال فأخبرتني بأنهم غادروا على التوالي قبيل الفجر. للحظات لم أفهم أين ذهبوا؟ ما الذي يفعلونه.. تضاربت أفكاري بين احتماليات عدة.. الفكرة التي ألحت على رأسي هي حكايات

المنطقة الحمراء التي كانوا يتكلمون عنها.. ربما قرروا الذهاب فجرا والعودة سريعا.. اللعنة عليهم ألم يستطيعوا الصبر حتى ننهي ما جئنا من أجله؟

أبدت كارول قلقا موازيا. ربما وقع لهم شيء ما.. سألتني في توتر:

ـ معهم جوازات السفر؟

أجبتها على الفور:

ـ لا.. الجوازات كلها في غرفتي، لن نحتاجها في التدريب.

إذن يمكن أن تكون الشرطة اشتبهت فيهم ولم يجدوا معهم أوراقا.

تحركت إلى الهاتف واتصلت بوالدها ثم استدارت لتقول:

ـ أبي سيأتي معنا وسنحتاج جوازات السفر.

عدت إلى الغرفة متعجلا لأحضر الحقيبة الصغيرة، لكنها لم تكن موجودة.

عدت إليها وعلى وجهي صفة الموت الباهتة، فأدركت كارول ما حدث ببساطة:

ـ هربوا.. أخذوا جوازات السفر وهربوا!

لن يلعب أحد، لا بد أن تتواجد جوازات السفر مع اللاعبين ليتم تسجيلهم في البطولة، كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي تنتهي فيها مباراة قبل أن تبدأ. الموقف أسوأ مما توقعت، معي ستة لاعبين ولاعبات بدون جوازات سفر ولا أي أوراق ولا حتى نقود وأربعة آخرون هاربون، سنواجه جميعا تهمة إهدار المال العام، بعد أن سافرت بكل هذا العدد دون أن يلعب أي منهم، والمشكلة الأكبر في الإجراءات التي سأحتاجها لأستخرج لهم أوراقا يعودون بها إلى مصر، كانت كارول تعرف جيدا أن ذلك يحدث كثيرا، حالات

هروب اللاعبين والفرق متكررة، ليس بين المصريين فحسب، دول الشرق الأوسط وأفريقيا عموما وكل من يراوده حلم التحول إلى مواطن أوروبي. أردفت بعد لحظات:

- في النهاية هؤلاء من يعيشون هنا ويسببون لنا المشاكل والانتقادات، أكثر من مرة قلت لأصدقائي إن المهاجرين غير الشرعيين هم أسوأ ما يأتي من عندنا، وأن مصر مليئة بالشخصيات المثالية الناجحة لكن هؤلاء الناجحين لن يتركوا نجاحاتهم ليعيشوا في أوروبا، أما ما ترونه أنتم هنا فهم اللصوص والفاشلون.

أصحبت فجأة متعالية ووقحة، نقلتهم من خانة الأبطال إلى خانة المهاجرين المتسللين، كنت منحازا لأصدقائي رغم كل شيء، لم أستطع الصمت على ما قالت، وجدت نفسي أجيبها مدافعا:

- ليسوا لصوصا، هناك خطأ ما، وإذا لم يكن هناك خطأ فهم ليسوا فاشلين بالتأكيد، فنصفهم يهزمون لاعبي منتخبكم بفارق كبير.

أجابت في عصبية:

- طبعا لصوص، سرقوا المال وجوازات السفر، وسرقوا ما هو أسوأ.. حق زملائهم في المشاركة في البطولة.. لماذا تدافع عن مجموعة من الخونة وأنت أول من سيدفع الثمن.

لم أرد الدفاع عنهم، كنت غاضبا وكانت غاضبة لكنني لم أرد التصديق، السؤال الذي لم أعرف جوابه: هل كان اللواء منصور على علم؟ هل اعتذاره عن السفر في اليوم الأخير كان مع سبق الإصرار والترصد؟ أما هم فلم أكرههم ولم أغضب منهم للحظة ربما لأنني في تلك اللحظة عدت بذاكرتي لمكان بعيد، إلى قرية

السعداوية وضاوي الذي أعلن لي صراحة أنه يريد أن يلعب الرياضة ليتمكن من الهرب يوما ما في أوروبا، يومها لم أرفض حلمه ولا شعرت بأنه خيانة، ربما لأنني عاصرت حياته وعرفت كم المعاناة التي يعيشها.

تهاويت على الأريكة الموجودة في الاستقبال وطلبت من اللاعبين العودة لغرفهم، بينما لم تتوقف كارول عن الحركة، بحثت في كل ركن في الفندق، طلبت المفتاح ودخلت لتفتش غرفهم، لم تترك مكانا إلا وبحثت فيه، أجرت عدة مكالمة تلفونية سريعة، شرحتها لي:

ـ أبي، قال إننا لن نبلغ الشرطة لأن الأمر سيصير أكثر صعوبة بالنسبة إليكم.. سيأتي بعد قليل.

بعد دقائق قليلة وصل والد كارول، وعرفت أن كارول اسمها كارول نصر الشحات، يمتلك مطعما مصريا شهيرا لذلك يعيش في هولندا بين المصريين، شد على يدي في محبة وهو يقول:

ـ لا تقلق، الأمر بسيط..

كان يتحرك ببساطة ودون انفعالات إضافية أو مبالغ فيها، بدا لي مدربا على الموقف تماما، طلب مني أن أجتمع بباقي اللاعبين وأسألهم عن الهاربين:

ـ هل يوجد منهم من له قريب يعيش هنا، لأن لا أحد يهرب لينام في الشارع!

لكن الإجابة جاءت بالنفي، فتدخل هو قائلا:

ـ الله يسهلهم.. لكن أنتم بقيتم من غير أوراق، هيتم احتجازكم وترحيلكم عن طريق الخارجية زي المساجين، مين يعرف هم فين؟

بعد ثلاث دقائق كنا نعرف أن هناك أقارب لاثنين منهما، كلهم يعملون في مجال المطاعم، ابتسم عم نصر وهو يقول:

ـ في بيتها.. لا تقلق!

ثم بدأنا في جولة على مطاعم بعينها، تساءلت وأنا أرى عشرات المصريين البسطاء النازحين من قرى متعددة عما إذا كان هؤلاء من يريدون الهجرة عندنا أم أن هذا ما تريده منا أوروبا، من سيعيشون في القاع هناك، لن ينافسوهم في أي شيء لكنهم سيملئون الفراغ السفلي الذي لا يريده أهل البلاد، أغلبهم يحملون نفس القصة.. عصابات تهريب من البر والبحر، أغلبهم دفع نقودا تساوي كل ما استطاع الأبوان جمعه واستدانته وقفز هاربًا، بعضهم رد دينه وبعضهم يجد ألف عذر لكيلا يرده، وبعضهم فقد حياته إلى الأبد بعد أن اشترى بالمال حتفه في رحلة كتبها عليه حال الوطن.

الحزن، هو ما أشعر به الآن فقط حين أتذكر، وما شعرت به وقتها وأنا أرى كل هؤلاء الذين كانت أحلامهم أصغر كثيرا من تلك المسافة التي قطعوها، لم يكن المال هو الحلم الأكبر.. بل الأمان.. أن يجد كل منهم قوت يومه ويعرف أنه لن يموت جوعا.. لن أنسى ما قاله أحدهم:

ـ تصدق.. الحياة هنا من غير ورق أأمن من الحياة في مصر بكل الأوراق المطلوبة.. هنا فيه قانون.. عارف اللي هيحصلي بالضبط إذا قبضوا عليَّ كمهاجر غير شرعي.. في مصر معرفش هيعملوا فيَّ إيه إذا قبضوا عليَّ من غير بطاقتي الشخصية.

صمت للحظة ثم قال:

ـ أو ببطاقتي الشخصية.

درنا طوال اليوم على عشرات الأماكن، بدأت ثقة عم نصر

تهتز بالتدريج، شعرت بذلك وتأكدت منه تماما عندما قال لي في اضطراب:

ـ ما تقلقش.. حتى لو مالقيناهمش.. السفير صاحبي وأنا هاعرف أخلصلك كل حاجة.

أي غربة شعرت بها في ذلك اليوم؟ غربة كاملة وحقيقية، الغربة ليست فقط غربة المكان، هناك أيضا غربة الزمان وغربة الحال، الشعور بأنك في زمن لا يناسبك غربة، والشعور بأنك في حال لا يناسبك غربة أخرى، أعتقد أن لكل منا وطنًا عمريًّا، مرحلة عمرية تخصه وهي التي ينتمي إليها، وغالبا يعيش بقية عمره غريبا عن باقي سنوات عمره، هناك من تندهش مما يصلون إليه في شبابهم مقارنة بما رأيتهم عليه في طفولتهم، وهناك من يعيشون أفضل سنين عمرهم في المراحل الأخيرة، ما أسعد من ينتمي إلى كل مراحل عمره بلا غربة، غربتي بدأت مع المرحلة التي بدأت فيها أتحمل أخطاء الآخرين وحتى صوابهم، فالفارق الكبير بين أن تلعب بنفسك وبين أن يكون هناك لاعبون يمثلونك في المعركة، سمهم جنودًا أو شركاء أو أي شيء آخر.. في النهاية هم يمثلونك، بغبائهم وذكائهم وقوتهم وضعفهم. وعليك أن تتقبل الأمر.

عدنا إلى الفندق في نهاية اليوم دون أي دليل على مكان تواجودهم، رغم أننا زرنا رقما لم أستطع حصره من المطاعم والمحال التي يعمل فيها مصريون، جلسنا في مقهى يجمع العرب ودرنا على أحياء مختلفة، والناتج كان صفرا.. وهكذا أصبح علينا أن نذهب في الصباح إلى السفارة لنبدأ إجراءات استخراج أوراق تضمن لمن تبقى العودة إلى مصر، مع ما سيصحب ذلك من فضيحة غالبا لن تنتهي على خير.

لم أنم، شعرت بقهر وهزيمة لم أذقهما في حياتي، هزيمتي جاءت دون أن أؤدي حركة واحدة، لماذا لم يرحلوا بأوراقهم ويتركوا لنا الفرصة لنستكمل نحن المشوار على الأقل؟ غالبا لم يتعمدوا ذلك ولا يعرفون أن اللعب سيكون مستحيلا لباقي الفريق بغير جوازات سفر.. لكنهم يعرفون أن العودة لمصر بلا جوازات ستكون مهينة، كانت تلك أول مرة أشعر فيها بمرارة الخيانة حين تأتي من شخص وثقت فيه، لا يكون الشعور المؤلم داخلك بسيطًا كمشاعر الفشل أو الخسارة أو ما شابه، لكن يضاف إليها شعور بنار مشتعلة في صدرك، ما بين خيبة الأمل وشعورك بأنك كنت ساذجًا بما يكفي لتنخدع بهذه الكيفية، عرفت ذلك الشعور مرة أخرى بعد ما يقرب من عشرين عاما عندما تعرضت للنصب في قصة حياتي بأكملها.

٥٩

حوار/ Conversation

ـ ما أصعب اللحظات التي مرت بك؟

سألني خالد فاروق منتظرا إجابة محددة تستكمل شكل كتابه، سكت للحظة فقرر أن يوجهني كعادته:

ـ لحظة اكتشافك المرض.. صح؟

خاب أمله كثيرا عندما جاء ردي بنفي قاطع:

ـ الاعتزال.

فأجابني بسؤال:

ـ ولحظات المرض؟

ـ المرض كان أمر واقع.. والاعتزال كان قرار، تقبل القدر أبسط من اتخاذ القرار.

لم أكن مبالغا، الاعتزال مُر، قرار مخيف تتخذه من داخلك وتنتزعه من قلبك وعقلك انتزاعا، كل الاعتزال تَرك.. وكل الترك صعب، ريم.. الهجرة.. التقاعد.. الطلاق.. كلها اعتزالات.. أما اليأس من الحياة فهو الاعتزال الأكبر والأخير!

لا يوجد أسخف من هؤلاء الذين يقولون لبطل رياضي إن عليك أن تعتزل في قمة مجدك لكي تترك ذكرى طيبة، المشكلة لن تكون في الذكرى، ولا في مواصلة الانتصارات، الملعب حياة.. إذا تركنا للبشر اختيار موعد الموت فمتى يختارون؟ قمة الصحة والوسامة لترك ذكرى طيبة؟.. غالبا سيقاتلون من أجل البقاء لأطول وقت.. السؤال الأهم هل سيقبلون تحديد ميعاد موتهم حتى إذا أصابهم المرض والعلل أم سيتقاعسون باحثين عن بقاء أبدي حتى ولو على سرير معلقين بأجهزة التنفس الاصطناعي؟!!

قرار الاعتزال هو موت حتمي للبطل، سيقاومه كثيرا، جنون.. أعراض انسحاب مؤلمة من إدمان مرعب يجري في الدماء.. متى تقبل أن تتحول من جسد حي ومشارك إلى صورة على الحائط يترحم عليها من يعرفونك؟ لكني اتخذت ذلك القرار! في يوم يعتبره الكثيرون عظيما.. يوم حصولي على برونزية الأوليمبياد.. لماذا؟ ليس لشعوري بأنني في أوج عطائي.. بل لأنني عرفت أنني بدأت في طريق النهاية!!

لو أن الأمر بيدي لتوقفت عن الحكي عن حياتي عند ذلك السطر الذي اعتزلت فيه، أحيانا أعتقد أنني فعليا مُت وانتقلت لجسد آخر لكن في نفس الزمن وبنفس الاسم، قرأت رواية تتحدث عن انتقال الروح من أجساد الأحياء لأجساد الموتى، أنا كذلك.. انتقلت

روحي من جسد حي إلى جسد ميت فلم تستطع أن تفعل فيه شيئا سوى جعله يحرك رأسه.

رفض خالد فاروق أن تتوقف الحكاية عند اعتزالي، كنت أريدها حكاية بطل عظيم، أما هو فقد كان يرى أن الأجمل فيها هو أنني بطل مريض، لم تكن رؤيته لي صادمة فأنا أعرف، أصر على أن نواصل الحكي بعد مرضي واعتزالي، لاحظ تغير ملامحي فقال وهو يبتسم معتذرا:

ـ البلد فيها أحداث كتيرة في الفترة الأخيرة لازم يكون لك تعليق عليها، أنت جزء منها غصب عنك.

معه حق، كنت جزءا منها غصبا عني، وكذلك كان الكثيرون، شاركنا بحماس كما يشارك الناس في الجري وراء رجل يجري في الشارع وامرأة تصيح من ورائه: حرامي!!

تخليت عن دوري مبكرا، أواجه نفسي أحيانا بأنني حتى لو كنت في حالة طبية مثالية ما كنت لأشارك أكثر من ذلك بكثير، كنت مثل الكثيرين سأواصل إلى أن يرحل الرئيس وأنتظر ما بعده، وما كنت لأتكلم أكثر من ذلك مطلقا، فالأمور تعقدت مبكرا، لأن اللاعبين كانوا كثيرين.. وبدون مدرب واحد!

سيجعلني صمتي لجهلي بتفاصيل كثيرة أكثر حكمة وشجاعة ممن يجلسون مثلي أمام الحائط الأزرق الكبير يتأملون الصور والكلمات الآتية من آخرين ليحكموا على ما يحدث، لا أحد يملك كلمة السر التي تدخله إلى الحقيقة، أنا كان لي ثلاثة أنصت إليهم، الأول اختفى وبقي اثنان لا أدري من أصدق منهما لكني متأكد أن كليهما كاذب وكليهما صادق وكليهما تائه!

خالد أيضا كان كاذبا عندما تحدث عن اهتمامه برؤيتي السياسية

للأمور، الحقيقة أنه كان مهتما فقط بالبطل الذي قلب العالم رأسا على عقب ثم انتهى به الأمر مقعدا على كرسي متحرك، أما فيما يخص السنوات الأخيرة فقد كان مثل فريدة ومصطفى القماح، يحمل وجهة نظر خاصة يحاول تسويقها بأي شكل، كتب على لساني ما لم أقل وعلى جسدي ما لم يحدث..

لم أقل إنها الحلم ولابكيت بالدموع ولا نهضت من مكاني للحظات واحتضنته لحظة التنحي، هؤلاء الناس يملكون قدرة فائقة على تغيير الحقائق، عندما أراني النسخة النهائية من الكتاب أبديت اعتراضي على الأجزاء التي لم تحدث فيه فأجابني مبتسما بأن كل واحد يعرف شغله، لكني لم أرضخ. وضعت علامات خاصة على الأجزاء التي كنت أريده أن يغيرها فوافق على مضض، شطب عليها بقلم أحمر ملون ثم طلب مني أن أختم على الصفحة الأخيرة. بعد ما عرف أن لي ختما خاصا أستخدمه بعد أن صرت عاجزا عن السيطرة على ارتعاشة يدي وأنا أقوم بالتوقيع.

كنت مصرا على أن أختم كل صفحة كما أوصاني محام صديق طالما أن الأمر سيخرج على لساني ووصفًا لحياتي، وخالد لم يمانع أبدًا، انتظر حتى انتهيت تمامًا ثم قال باقتضاب:

ـ مبروك علينا.

ثم بدأ يثرثر في كل شيء، حكى لي عن بداياته عندما كان شابا قرويا جاء ليقطن شقة صغيرة في منطقة بين السرايات مشاركة مع اثنين آخرين من زملائه في كلية الآداب، وكيف كان يعمل مندوبا لبيع كتب الأطفال ليحقق لنفسه دخلا يساعده على مواصلة حياته، ومحاولته في البداية أن يكتب من أجل الحقيقة ومن أجل الناس، إلى أن اكتشف أن الناس لا تريد الحقيقة لأنها مُرة، وأن كل من

يتمسكون بالحقائق مصيرهم أن يقضوا النصف الأول من حيواتهم نكرات، والنصف الثاني أنصاف مشهورين.

كان يحمل همًّا ما يحاول التحرر منه، دارت عيناي معه في أرجاء الغرفة، أخرج صورة مشتركة لنا كان قد التقطها بهاتفه يوما ما، طبعها في حجم يقترب من حجم كف اليد، وقعها باسمه وأعطاها لي فختمت عليها وأنا أضحك، وضعها على الحائط في الطرف وهو يقول:

ـ احتفظ بها مع صورك.

شد على كفي وهو يصافحني قبل أن يغادر، ثم مال على رأسي كعادته وقبلها في ود، ثم همس في أذني:

ـ والله العظيم أنت بطل.. وهتبقى زي الفل..

فرفعت ذراعي في نشاط وأنا أقول:

ـ ما أنا زي الفل أهه..

ثم انفجرنا في الضحك، بدا لي غريبا بعض الشيء ثم عرفت أنه كان يودعني لأن نيته كانت ألا نلتقي مرة أخرى، ولأنه كان يعرف بالتأكيد أنني سأتمنى قتله.

٦٠

شعبان.. رحل/ Shaaban left

ظلام دامس من حولي بلا بريق أو أمل، جسدي يرتجف من البرد أو التوتر أو الغضب أو كلهم في آن واحد، تارة ألوم نفسي وتارة أسبهم واحدا واحدا، ثم أقوم من سريري دون أن أضيء النور لأنظر إلى الشارع، كنت ألعن حظي السيئ في كل لحظة، لماذا لم يفعلوها قبل ذلك؟ لأن اللواء منصور كان يعرف جيدا ما يدور في رءوسهم،

كان يحمي الجوازات أكثر مما يحمي النقود، ويجلس طوال النهار في الاستقبال ويمنع الجميع من الخروج أو الدخول إلا بإجراءات أمنية معقدة، كنت أراه سخيفا لكنني لم أفهم مغزى ما كان يفعله إلا الآن. إنهم يجيدون اللعبة من ناحية أخرى، كل ماهو بعيد عن الملعب، ويمسكون بخيوط تلك الأمور جيدا، لذلك عندما يأتي من هو مثلي يتركونه في الملعب يفعل ما يشاء ويظن أنه انتصر، بينما هم يلفون حول رقبته كل الخيوط الباقية.. حتى الموت. وعندما شعرت أني سأجن أمسكت بالهاتف واتصلت بريهام.

أكثر ما أعجبني في ريهام، أو أكثر ما أحببت، أنها كانت تمتلك قدرة فائقة على الانتقال من نقطة ماذا حدث إلى نقطة ماذا سنفعل، وبَّختني قليلا وهي تؤكد أنني ساذج لأن (شوية العيال ضحكوا عليك)، ثم بدأت تناقش الأمور بموضوعية وقوة وهدوء نسبي.

كتبت قيمة المبلغ المفقود وحولته إلى العملة المحلية ثم قالت بصوت هادئ:

ـ الفلوس محلولة، أهم حاجة بقى نشوف هيلعبوا ازاي.

كانت مستودعا للأفكار السريعة، استطردت أنها ستقوم بالاتصال بوالدها السفير السابق لكي يستخرجوا للاعبين أوراقا رسمية سريعة مؤقتة من أجل المشاركة، وأن عليَّ الاتصال بالبوس لأن اتصالاته في الاتحاد الدولي ستسمح باستثناء اللاعبين المصريين ومشاركتهم بالأوراق المؤقتة لحين استخراج جوازات جديدة، ثم قالت في النهاية:

ـ ما تفكرش في اللعيبة اللي هربوا غير بعد البطولة!

تلك المكالمة أعادت لي جزءا كبيرا من هدوئي الذي فقد، جلست بالفعل أرتب أفكاري وصوتها الصارم المطمئن يرن في

إذني بالتعليمات، لم تشعرني أن ما حدث كارثة كبرى.. ربما لهذا هدأت.. ونمت بملابسي من فرط التعب.

قبيل الفجر وجدت هاتف الغرفة يرن، قمت فزعا لأجيبه وأنا أتمنى أن يأتيني صوت عم نصر، لكنه لم يأت، ما أتى كان أجمل كثيرا.. صوت شعبان بنفسه، يخبرني أن النقود وجوازات باقي الفريق في الاستقبال، وأنه يعتذر عن أخذها بالخطأ، طلبت منه أن ينتظرني لكنه رفض.. اعتذر لي بإصرار وهو يقول:

ـ مفيش منه فايدة.. سيبنا نشوف حالنا!

ـ إنتم بتئذوني يا شعبان.

انطلقت جاريا من غرفتي حافي القدمين لألحق به، لم أنتظر المصعد نزلت السلالم في قفزات متتالية من الدور السادس حتى بهو الفندق، ابتسم موظف الفندق وهو يراني في هيئتي الرثة ومد يده بالجوازات، تفحصتها في لهفة.. أشار الموظف إلى نقطة ما خلفي فاستدرت لأجد شعبان واقفا يميل رأسه في اعتذار.. ترددت كثيرا فيما سأفعله.. لم يتردد هو في مد يده لي:

ـ أنا رجعت علشان الفلوس وعلشان جوازات باقي اللعيبة.. الحمار اللي خد الشنطة كلها كان خايف تمسكه، إحنا مش حرامية، أشوف وشك بخير..

كان عازما تماما، ما الذي كان ينبغي عليَّ أن أفعله في تلك اللحظة التي أتذكرها جيدا على مدار العمر؟ أن أقيده وأصيح في موظف الفندق ليطلب شرطة الهجرة؟ أن أصفعه على وجهه وآمره بأن ينتظر؟ لم أفعل أيًّا من هذا بل قلت له برجاء:

ـ ما تهربش يا شعبان.. أنت خسارة.. والله هتبقى بطل العالم.

أجابني بصوت منكسر:

ـ أنا عارف.. بس وبعدين؟

أجبت على الفور بحماس:

ـ هتبقى مشهور.

فابتسم ساخرا وهو يقول:

ـ وهو أنت مشهور؟

لم أجد لساني لأجيب، أنا مشهور فقط في دائرة من يعرفونني.. أما الدوائر الأخرى حتى الوسط الرياضي نفسه فلا تعرفني.. لم يمهلني لأجيب فتابع:

ـ والدك صرف كام يا كابتن علشان تبقى بطل العالم؟ وخدت كام؟

كان منطقه واضحا ومباشرًا بقدر كبير.. ولم يكن لديَّ ما أجيب به.. اكتفيت بالصمت فأجاب هو:

ـ أكتر من كل الفلوس اللي ممكن أكسبها في عمري لو قعدت في مصر وبقيت بطل العالم، أنا استنيتك علشان تعرف إني مش ندل ولا جبان، أنا باشتري عمري يا عمر.. إحنا مش غاويين نهرب ونتبهدل.. إحنا قاعدين في أوضتين مع سبعة غيرنا.. اللي مصري واللي هندي واللي باكستاني.. هنضف مطاعم ونغسل أطباق ونمسح أرضيات.. ومش هناخد حقنا علشان مفيش ورق.. تفتكر كنا عاوزين كده.. بس على الأقل عندنا أمل نبقى محترمين.. أنت محترم علشان أبوك وعيلتك وتعليمك. ما تستكترش علينا بقى..

ـ أنت عارف هيجرالي إيه بسببكم؟

استدار مبتعدا وهو يقول:

ـ ولا حاجة يا عمر.. بس إحنا لو رجعنا هيجرالنا كتير.. القانون

لا يحمي الغلابة يا أبو الكباتن.. ما تخافش.. والله ما حد هيلمسك.

ثم توقف قبل أن يخرج وهو يقول:

- خد بالك من سيادة اللواء يا عمر.. هو اللي قالنا إن مفيش رئيس بعثة، وإن جوازات السفر هتكون معاك أنت.. وممكن تضيع بسهولة.

- يعني إيه؟

- هو قالها كأنه بيوصينا عليك.. بس هو كان عاوزنا نهرب وقالنا السكة.

ثم انطلق كالسهم، اختفى، كانت في انتظاره دراجة نارية في آخرها صندوق عليه صورة قطعة مثلثة من البيتزا، قطعة وحيدة تنتظر من سيأكلها.

صعدت إلى غرفتي، جلست مكتئبا إلى أن طلع النهار، ارتديت ملابسي، أيقظت اللاعبين بعد قليل بنفسي ثم اتصلت بعم نصر وأخبرته بما جرى فضحك قائلا:

- فيهم الخير برضه.. استنى أنا جي.

جاء بعد قليل ومعه كارول، كانت السعادة بادية عليهما وهما يؤكدان أن نصف المشكلة قد حل، سألتني كارول لماذا لم أمسك به فأجابها الأب على الفور بأن ذلك لم يكن سيفيدني بشيء.. لا بد أنه كان مستعدا للهرب، وهروب واحد إضافي أو بقاؤه لن يغير من الأمر شيئًا.

طلبت منهما أن يتكتما الخبر تماما، ثم عقدت اجتماعا مع اللاعبين أخبرتهم فيه بما حدث، كانوا جميعا من اللاعبين صغار السن وكانوا يختلفون عن الهاربين، كانوا جيلا جديدا من أسر

متوسطة يريدون الرياضة جزءا من حياتهم لكنهم يملكون حياة عريضة في مصر، وهنا يأتي جمال الألعاب التي تعزف فيها منفردا، لو أن ما حدث كان لفريق جماعي لفقدتهم جميعا، لكن هؤلاء أبدوا لي قوة خاصة.. قاموا ليربتوا على كتفي ويؤكدون لي أنهم لن يخذلوني، كنت أعرف أن فرص فوزهم محدودة.. لكن على الأقل تمنيت آداء مختلفًا لأعلن عند رجوعي أنني أجدت في الجانب الرياضي حتى وإن خسرت في الجانب الأمني.

٦١

دخول آمن/ Safe check in

ذهبية وفضيتان وبرونزية لمصر في بطولة كأس العالم للتايكوندو ١٩٩٤، حدثني عن الحظ والصدفة والتوفيق لأجيبك أن ما حدث كان يتخطى كل ذلك، يتخطى كل المعادلات المنطقية والحسابات القادرة على تفسير ما حدث، كانت قوة عليا قررت ألا تنتهي مسيرتي في التدريب عند ذلك اليوم بفضيحة كبرى وباتهام بتسهيل هروب لاعبي مصر، المفاجأة كانت أكبر من استيعابي أنا شخصيا، ثلاثة من اللاعبين لم يتجاوز عمرهم الثامنة عشرة، والذهبية كانت من نصيب المخضرم الوحيد الذي تبقى ولم يهرب.

كنت صغيرا وقويا بما يكفي لأحتفل معهم بجنون كامل، وقفنا نقفز سويا وأذرعنا متشابكة داخل بساط الملعب، كانت دموعي تسيل في فرحة حقيقية تساوي حجم الانتصار الجديد، كنت أعلم أن ذلك لن يغير شيئا في مصيري القادم لا محالة، عقوبات لا نهائية أقلها استبعادي من تدريب المنتخب نهائيا، لكن على الأقل ستظل

تلك النتيجة تشهد للجميع بأنني كنت مشروع مدرب عبقري انتهى مبكرا بسبب هروب ربع فريقه في أول مشاركة لهم في بطولة.

دارت في رأسي على مر الأيام التي سبقت يوم عودتي سيناريوهات عديدة لما سيحدث، لكن ما حدث جاء مختلفا عنها جميعا، وصلت إلى المطار بعد بطولتي الأولى مع فريقي، توقعت تساؤلات صحافية ولغطًا إعلاميًّا متواصلًا، أما أن أجد ضابطا برتبة متوسطة ينتظرني عند منفذ الدخول.. فكان أبعد مما توقعت بمسافة كافية.

كان هناك عدد من الصحفيين بالفعل، انتظرني حتى أنهيت حواراتي والتقطت بضعة صور لي مع الفريق، ثم طلب مني أن أذهب معه، لم أعرف تحديدا إلى أين ولا أجابني عندما سألته، ثم عرفت، من المطار مباشرة إلى القسم، الضابط كان مهذبا معي للغاية، حاولت ريهام أن تدخل معي لكنني رفضت بإصرار، والضابط أكد لها أن الأمر لن يطول وأن المحامي سيدخل فور وصوله، فغادرت وهي تردد لعنات غاضبة.

جلست في غرفة صغيرة كئيبة منتظرا لبعض الوقت، على الحائط الأسمنتي رسوم مرتعشة كالثعابين، غالبا حرف الألف يليه حرف اللام ثم حرف مشوه لا تبدو معالمه واضحة. ربما عين وربما يكون فاء أو قافا واختفت النقاط من فوقه! حاولت أن أخفف توتري بتشاغلي بما تعنيه الحروف.. غالبا كان من حفرها يحلم بالعدل.. سألت نفسي عما سأكتبه لو أنني استكملتها، لم يكن الأمر محيرا بالنسبة لي إطلاقا، الكلمة كانت الفوز.

أفكر في الفوز في وقت مثل ذلك! لا شك أن الرياضة مسحت عقلي تماما، فوجئت بهم بعد قليل ينقلونني إلى مكان آخر لا يبتعد كثيرا، مبنى صغير مكون من دورين، أعرف مكانه جيدا حتى الآن

وأمر أمامه من آن لآخر وأبتسم، كيف تتحول كل الذكريات في مرحلة من عمرنا إلى مذاق حلو خالص حتى وإن آلمتنا، ربما لأنها تفقد جانبها المادي ولا يبقى منها سوى المشاعر، أنا الآن أتذكر لحظات النصر فأحب نفسي فيها، وأتذكر لحظات الخسارة فأحب نفسي فيها، وأتذكر لحظات الجهد فأحب نفسي فيها. أما عن اللحظات التي كنت فيها في صراع دائم مع من حولي والتي بدأت في ذلك اليوم.. فلا بد أن أعترف أني بكل صدق أكرهها وأتمنى لو أنني لم أعشها.

نقلوني لغرفة أنيقة لا تتناسب مع المبنى بأكمله، لم أعرف مطلقا إذا كانت تخص أمن الدولة أم المخابرات أو ربما الخارجية أو جهاز خاص ثالث، لكني بمجرد أن دخلت عرفت أن الأمر لن يكون سيئا كما توقعت، بدا الرجل الذي استقبلني ودودا إلى حد كبير، شجعني ذلك على أن أسأله بوضوح:

ـ هو أنا مقبوض عليَّ؟

ابتسم في هدوء:

ـ إطلاقا.. ليه بتقول كده؟ إحنا بس محتاجين نتكلم معاك كلمتين.

أبديت دهشتي من إصرار الضابط الذي استقبلني في المطار على أن أذهب معه على الفور رغم أنني طلبت الذهاب لمنزلي أولا والمجيء في وقت لاحق، لم يبد عليه الرضا وهو يرفع سماعة هاتفه مستفسرا عن الأمر:

ـ أنا مش قلت بلغوه وسيبوه يحدد معاد؟

ثم صمت للحظة وهو يعقب:

ـ منصور؟ هايل.. خلوا الضابط يستناني.

شعرت بغضب حاد يكاد يتفجر من رأسي وأنا أسمع اسم

منصور، ليس لأنني عرفت ـ بتعمد واضح من الرجل الجالس أمامي ـ بأنه وراء استدعائي الفوري الغاضب، بل لأنني شعرت أن الأمر منذ بدايته وصولا لتلك اللحظة قد يكون مكيدة صريحة الغرض منها التخلص مني مرة أخرى، حتى ولو وصل الأمر إلى الزج بي في السجن.

بدأت أحكي كل شيء بهدوء وبلا توتر، عام واحد مر على تدريبي المنتخب الأول بتوصية مباشرة من وزير الرياضة، كان يعرفني جيدا، رحل المدرب الكوري وبقي المنصب شاغرا فرشحني له الجميع، ودعمني الوزير بقوة، منصور لم يستطع أن يقاوم الضغوط، لكنه لم يكن راضيا عن ذلك، كان يعلن أنني ما زلت صغيرا، أما ما كان يخفيه فهو شعوره بأنني لن أكون طائعا له، وأنني على المدى الطويل قد أشكل خطورة عليه في منصبه، رغم أن فارق العمر بيننا كان يتخطى الأعوام الثلاثين.

كنت أعرف كل لاعب في الفريق، معرفة مختلفة عن أي مدرب.. هؤلاء كانوا زملائي في الملعب حتى الأمس، درستهم لسنوات بينما أنافسهم، رأيتهم من على الأرض، في المواجهة، وليس من أعلى المدرجات بينما أشرب القهوة، لكل منهم عيوب أحفظها كانت تعطلهم، ربما لهذا كان انتقالهم من مستوى إلى مستوى آخر ولتصنيف جديد كان سريعا بما يكفي ليظن الجميع أن في الأمر ضربة حظ، لكن الحقيقة كانت غير ذلك ومنصور فقط من كان يعلم، لم يكن لينطق بذلك، لكنه تأكد من أنني سأثبت أقدامي في أرضية الملعب كمدرب كما ثبتها كلاعب وربما تزيد تطلعاتي بعد ذلك.

ما لم أعرفه ولم أحسب حسابه أن الأمر أصعب كثيرا عندما

تنتقل من مقاعد اللاعبين إلى مقعد المدرب، لم أستوعب سريعا تغير المسئوليات، ولهذا دفعت الثمن.

كان الرجل يستمع إلى تفاصيل ما حدث باستمتاع تام، انفعل معي وضحك وابتسم، ثم قام فجأة هو أيضا ليربت على كتفي قائلا:

ـ يعني إنت بقى بطل قومي.. بس العيال ضحكوا عليك.. غلطة كبيرة منك.

لم أجب، كنت أشعر بسذاجتي بعد ما حدث، وكنت أعرف أن الأمر لن يمر ببساطة، بعد دقائق غادر الرجل الأنيق ودخل شاب في مثل عمري تقريبا لكنه لم يكن ودودا مطلقا.

ثلاث ساعات كاملة في أسئلة متتالية عن اللاعبين ومكان الإقامة وتوقيت اختفائهم، ثم أسئلة أخرى عن سبب عدم إبلاغي السفارة و.. و...

ثم بدأت الأسئلة تعاد بشكل آخر وبترتيب مختلف، عرفت على الفور أنني في تحقيق جاد حتى لو كان غير رسمي، لكنه خطير بما يكفي عندما بدأت الأسئلة تتوالى عن الدول المتنافسة والدول التي كانت مقيمة في الفندق، مرت أسماء كانت تثير توترا كبيرا عندما تسمعها في ذلك الوقت.. إسرائيل، إيران، أمريكا.. للدول عند هؤلاء الناس معنى أبعد من اسمها ولون العلم وطريقة اللعب، في النهاية غادر دون حتى أن يترك ابتسامة واحدة أو كلمة مجاملة، جاءني الرجل اللطيف مرة أخرى، سلم عليَّ بحرارة وهو يقول:

ـ خلاص.. جت سليمة!

لم يحدث أي شيء غريب بعد ذلك التحقيق، كل شيء سار كما توقعنا، أعلن اللواء منصور في مؤتمر صحفي ضخم عن سعادته بإنجاز الصغار رغم إهمال المدرب وهروب اللاعبين الأربعة،

واختتم تصريحه بالطبع بإقالتي من وظيفتي كمدرب للمنتخب بسبب إهمالي، لكن صحفيًا واحدًا صغيرًا قام ليسأله بحدة عن السبب الذي يجعل بعثة كهذه تغادر دون أن يكون معها مسئول إداري، وسبب أن يكون المدرب مسئولا عن جوازات سفر اللاعبين، بدأت الهمهمات تسري والتساؤلات تعلو شيئا فشيئا، وأصبح سيادة الرئيس فجأة هو المتهم بالتهمة التي حاول أن يلقيها عليَّ.

ثم قال الصحفي في حماس:

ـ قد نكون بالفعل أمام إداري فاشل.. لكنه مدرب عبقري.

تردد منصور كثيرا في الإجابة كعادته عندما يشعر أنه يسبح ضد التيار.. ثم أجاب بصوت مبحوح:

ـ أكيد.

أشار إليه مبتسما:

ـ أرجو أن تراجع قرار الإقالة..

تعالت الأصوات مؤيدة من كل جهة، نظر إليَّ منصور بطرف خفي غاضب، ثم أجاب:

ـ أكيد.

ثم أعلن الوزير في اليوم التالي التحقيق مع مجلس الإدارة لغياب رئيس البعثة، وتكريم المدرب واللاعبين.

٦٢

قراءة في كتاب/Reading a book

بطل العالم الافتراضي

أطلق خالد فاروق كتابه بذلك الاسم، كتاب رائع مصور بالألوان،

صورة الغلاف مؤلمة، علامة الإعجاب بشكل مختلف، الأصابع الأربعة يحيطون بجسد مصغر لرجل تظهر قدماه من أسفل فيبدو معلقا في الهواء والرأس بادية منحنية تحت الإبهام.. وعلى الأرض ميداليات ملونة ومبعثرة.

ضمنه كل الصور التي كانت على حائطي، خطابات ريم القديمة، قائمة الأصدقاء مكتوبة بخط اليد، كل ما كتبته على الحائط في غرفتي، والجدران نفسها، ولم أدر مطلقا متى فعل ذلك رغم أنني لا أذكر تركه وحيدا في الغرفة.

تفجرت في داخلي شحنات غضب متتالية، كنت جالسا على الكرسي أدير رأسي يمينا ويسارا كأسد حبيس محاولا معرفة ما ينبغي عليَّ فعله، لم أرَ الأمر مشينا لكني شعرت بانتهاك كامل لحياتي، سنوات طويلة وأنا منعزل لأني لا أريد الظهور بصورة مثيرة للشفقة أو الأسى، فعلها فيّ علوان، بل وأضاف إليها بعنوان كتابه ما جعلني مثيرا للسخرية أيضا.

فريدة كعادتها كانت من أحضرت لي الكتاب، كانت أكثر مني غضبا لأن جزءا كبيرا منه كان عنها وعن أبيها، أخذ صورا من حسابها الشخصي أضافها للموضوع، وتحدث عن الندبة التي أصبحت دائمة في وجهها، في نفس اليوم بعد قليل كان مصطفى القماح يدخل عليَّ حاملا نسخة أخرى، أهداه خالد فاروق فصلا تحدث فيه عن تحوله من بطل رياضي سابق إلى نصف إرهابي. مصطفى لم يكن غاضبا في هذه اللحظة، كان لا يزال يعيش نشوة انتصار من ناصرهم في انتخابات مجلس الشعب، كان يمسك بالكتاب ويضحك قائلا:

ـ أنا إرهابي ومدرب للكوادر الإرهابية؟ أنا مشفتش سلاح في حياتي غير وأنا في الجيش.

نظرت إليه فريدة باستياء وألقت عليه النسخة التي كانت تحملها وهي تقول غاضبة:

ـ ندل.. زيكم.

مصطفى لم يرفع رأسه ليواجهها، انصرف دون تعليق، عاتبتها فانفجرت فيَّ وهي تتحسس ندبتها البارزة:

ـ هيضيعونا.

ثم تجاهلت انصرافه تماما وهي تواصل حديثها عن الكتاب، حددت خطة عمل ثلاثية لمواجهته، الأولى رفع قضية مستعجلة، والثانية الظهور في برامج متتالية لفضح خالد فاروق، والثالثة هي علقة ساخنة يتلقاها أمام بيته ليتعلم الأدب.

مهما حاولت أن تخرج من جلدك وتتغير ستجد بقايا رائحة ما تعلمته من أبويك في دمائك، أبديت دهشتي واستيائي من الفكرة الأخيرة تحديدا، رمقتها بارتياب وأنا أرى أن ما تريد فعله يشبه ما فعله أبوها عندما استأجر مجموعة من اللصوص والبلطجية لتأديب «الخارجين عن القانون»، وهو أيضا يرى أن ذلك من حقه.

بادلتني النظرات وعلقت باستياء:

ـ خالتك سلمية ماتت.. خلينا في المفيد.

جلست أتفحص الكتاب، لم يكن يتحدث عني بل عن حساب فيس بوك ضخم ابتلع شخصا كانت له أهمية خاصة ذات يوم، انتهت بطولته فانعزل عن الناس وبدأ يعيش في حبس شبه انفرادي، يحصي عدد مرات الإعجاب على صوره القديمة والجديدة رغم أنه يتظاهر بعدم اهتمامه، هل هذا ما تحولت إليه حقا؟ مجرد صورة رمزية لرأس صغير في حساب فيس بوك تافه ضمن ملايين الحسابات في العالم ويعتقد أنه عالم حقيقي قابل للعيش بداخله،

تفاصيل أخرى داخل الكتاب لم أحكِها أبدا ولا يعرف أحد عنها شيئا، خالد فاروق صحفي مجتهد، أمسك بطرف الخيط وواصل السعي وراءه حتى وصل لكل أطرافه.

زملاء الطفولة والملعب، البطولات بتواريخها كاملة، صورة من حسابات أصدقائي أظهر فيها في مراحل عمري المختلفة، المدربون وزملاء الدراسة وزملاء الجامعة، عرفت أنه طلب من الجميع التفاصيل تحت شعار واحد، أنه يعد كتابا مطولا عن حياتي كبطل.

في منتصف الكتاب جاءت الصورتان متقابلتين؛ صورة الثورة وصورة التكريم، وضع هو تعليقا مقتضبا عليهما: البطل والآخر، عادتا لتحتلان صفحات الفيس بوك مرة أخرى بعد أن تم وضعهما ضمن قائمة من الصور والفيديوهات لأشخاص تغيرت مواقفهم من النظام قبل وأثناء وبعد الثورة.. قائمة شهيرة اسمها المتحولون.

٦٣

حملة دعائية/Campaign

أصبحت أرى منصور بشكل آخر، قفزة كبيرة من عدم الاتفاق إلى الكراهية المباشرة والعداء، منصور أكثر شرا مما ظننت، لا مانع لديه في فعل أي شيء ليتخلص مني، أصبح الصراع مكشوفا تماما، لم أستطع أن أقاوم مواجهته بأنني أعرف، القيتها في وجهه أمام الجميع في مجلس الإدارة:

ـ إنت اللي قلت للاعبين يهربوا.. أنا متأكد.

فابتسم بوحشية وبدت أسنانه البيضاء اللامعة بشكل مصطنع، ولم يجب، كنت أجلس على طرف المائدة الآخر فقام من مكانه وقطع المسافة ليقترب مني ويهمس في أذني:

ـ آه.. أنا، ومش هاسيبك.

ثم قبلني في وجنتي قبلة ساخرة بصوت قبيح، ضحك بعض الجالسين وصفق الباقون، وتوالت على مسامعي كلمات تعني أنني محظوظ لأن الرئيس راضٍ عني!

تذكرت الرجال وهم يحيطون بالبوس في كوريا الجنوبية، الفارق الزمني كبير لكن الشخصيات تتكرر، في كل مكان وزمان وعمل وهيئة، ربما في كل منزل وأسرة قد تجد واحدا منهم ليفسد عليك حياتك بالمقارنة بين طاعته وعصيانك، غالبا سيكون هو الخائن الأكبر بعد ذلك، لو أنشئوا لهم جميعا منظمة دولية أو اتحادا رياضيا وتصبح هناك بطولة يتنافسون فيها على خلع ملابسهم وأخلاقهم ومبادئهم أمام أسيادهم، أو ربما تصبح مسابقة للرمي.. صاحب أبعد كلمة وأعمق لفظ في الإطراء وإرضاء السيد، أو صاحب أطول مدة يقضيها في ترديد الاسم.. لو جاءتني تلك الفرصة فسأطلق عليه الاتحاد الدولي للنفاق، هناك لفظ مصري دارج أكثر دقة لهؤلاء، لكن ترجمته ستكون صعبة!

النفوس كالتحف الزجاجية، أخطاء من حولنا قد تترك عليها بصمات صغيرة أو كبيرة لكنها لا تغير في جوهرها كثيرا، نفخة بخار واحدة وقطعة صغيرة من القطن تنظف كل شيء، لكنها لن تحتمل أن تضغط عليها بكل ثقلك كما فعل معي منصور، لا شك أنه هشم نفسي وجعلها تتحول لقطعة كبيرة جارحة، نعم أنا الآن أدافع عن نفسي، وأعترف أنني فقدت روحي بين يدي ذلك الرجل، ولم أستطع إلا أن أتغير لأقف أمامه، كان لا بد من اللعب أمامه بطريقته، أو أن يلعب هو وحده بلا قوانين ويكون عليَّ أنا أن أحتمل وأسحق وأهزم.

انتهت المباراة الجديدة بيني وبينه بالتعادل، أربعة لاعبين هاربين في رصيده مقابل أربع ميداليات جديدة لمصر في رصيدي، سنحتاج لجولة أخرى تحسم الصراع، لكني استفدت من الجولة السابقة كثيرا، أدركت فجأة ما حدث، تم تصعيدي إلى مستوى جديد من اللعبة تحول فيها الخصم لوحش لا يرحم، لا يفكر في شيء سوى أن يخرجني من الحلبة حتى ولو كان خروجًا من الملعب إلى السجن، أطاح بي منصور تقريبا بضربة قاضية لولا أن القدر قرر أن يعطيني فرصة أخرى، الاختيار كان حتميا بين الانسحاب أو اللعب، هذا ما حدث لي، لم أتغير ولا توحشت كما قيل عني بعد ذلك، كنت فقط أدافع عن حقي في البقاء، ما زالت الدنيا نفس الغابة القديمة التي يؤكل فيها الطرف الأضعف، هذا ما فكرت فيه وقتها.. النباتات الساكنة تؤكل أيضا، وأكلة النباتات تأكلها الحيوانات الضارية.. إلى أن تقرر الأرض أن تبتلع الجميع.

لم أفكر مطلقا ولو للحظة واحدة في احتلال مكانه، لا أستطيع أن أتصور نفسي قميصا مشجرا وسيجارا وسلسلة ذهبية ورائحة عطر نفاذة كريهة مهما كانت طيبة، مقعدًا وثيرًا في درجة رجال الأعمال، وكلامًا معسولًا عن مجهودي في حالة الفوز والإطاحة بالجميع عند الخسارة.

منصور وأمثاله مجرد علقات، كائنات طفيلية تمتص دماء الجميع وتسبح في بحور عرقهم لتصل إلى مكان آخر، لكني قررت أن أحمي نفسي قدر الإمكان، تعمدت أن أكثر الظهور في الصحف بأجر وبدون أجر كي يصبح انتشاري حماية لي من قرار منفرد يتخذه مع كلابه المخلصة.

أجريت اتصالاتي بالبوس بعدما غبنا عن التواصل طويلًا،

أعدت علاقتي به إلى نقطة قديمة لشيء في نفسي، شعرت أن منصور يعرقل تدريبات المنتخب متعمدا، قدمت طلبا لمجلس الإدارة لإقامة معسكر تدريبي في كوريا الجنوبية فرفضه على الفور، بحجة عدم توافر الإمكانيات المادية، لم تعد حركاته وردود فعله غريبة بالنسبة لي، أتوقعها تماما، انتظرت حتى يُعلن سبب الرفض ثم تقدمت بورقتي الرابحة، كيم الذي أصبح عضو هيئة تدريس شهيرًا في كلية علوم الرياضة الكورية وفر لي وللفريق إقامة مجانية في السكن الجامعي شاملة التدريبات والتغذية وكل شيء، لم يهتم منصور، أصر على الرفض، فأدركت أن نتائج الفريق هي آخر ما يشغل غالبية من يحتلون مناصب سياسية في الرياضة، الأهم هو حماية الكرسي.

احتاج الأمر لحملة صحفية أخرى سريعة انتهت بقرار مباشر من وزير الرياضة بسفر المنتخب إلى كوريا، لمدة طويلة تكفي استعداداتنا لبطولة أفريقيا، وكانت تلك هي أبعد رحلة سافرت فيها، لا لبعد المسافة، لكن لبعدي أنا عن ذاتي السابقة.

٦٤

اتفاقية عمل/ Business deal

وقفت إلى جوار كيم أمام منزل البوس متأملا تفاصيله، أي حنين للمكان هذا؟ أحاسيس المرور أمام المدرسة القديمة ورؤية صور الطفولة السعيدة، قلبي يدق بعنف شديد، أرتجف من فرط الانفعال أو من البرد لا أدري لكن شعوري كان شعور العائد إلى الوطن في زيارة سريعة، رفيقي يراقبني ويبتسم، شعوري بأنني عدت لهذا المكان لغرض ما كان يزعجني ويشعرني بنوع من النفاق

أو الخيانة، حدثت نفسي بأن الأمر لا يتعارض وأن رجفة القلب هذه تدل على أنني لم أزل كما كنت، لكني أدركت أن القلب الذي يرتجف هو قلب يستمد حياته من روح ذلك الصبي الجريء الذي كان يحمل أحلامه على كتفه ويجوب العالم بحثا عن انتصار في معركة شريفة.. أما هذا الرجل الواقف أمام المنزل فقد رحل من هنا بقلب بطل، وعاد بعقل سياسي.

دخلنا المنزل فزاد اشتياقي، ما زالت غرفة الطعام كما هي تحديدا، الكراسي متراصة متتالية كما لو أنني تركتها منذ يومين على الأكثر، وتغيرت أشكال الجالسين لكن الخلطة واحدة.. لا ينقصهم سوى شاب جريء مجنون يأتي من الشرق الأوسط، وبطل عبقري يجيء من ريف كوريا ليصبح بطل أبطال العالم، كلاهما لن يتكرر.. التغيير أيضا أن عدد السيدات المسنات زاد بشكل ملحوظ، اقترب من العشرين، صارت لهن مائدة كبيرة تساوي المائدة الأخرى، وهذه المرة كن يتكلمن بصوت مسموع متداخل، وعندما نظرت في اتجاههم حيتني السيدة العجوز الجميلة التي داوت جرحي يوما وألقت نحوي قبلة في الهواء، فغمزت لها بعيني وأنا أضحك، كانت ترتدي ملابس أكثر أناقة من كل ما اعتدته عليها، وتبدو منتعشة، المكان بأكمله كان مرتبا بشكل مختلف، كراسي جلدية مرصوصة في دائرة واسعة كما لو كانوا يستعدون لاجتماع ما، ولافتات بيضاء صغيرة ملونة مكتوب عليها بالكورية، وحركة في كل مكان تختلف عن المعتاد.

كان البوس جالسا على رأس المائدة، لم يزل هو البوس رغم ما أخذه العمر من صحته، بدا أقصر وأضعف، تساءلت عما سأصبح عليه عندما أبلغ عمره، الواقع جاء أسوأ من تصوراتي، قام

من مكانه بصعوبة فاقتربت أنا منه مصافحا وأنا أضع يدي اليسرى تحت كوعي الأيمن كما يفعلون، نسي أو تناسى كل ما كان، عانقني كما نفعل نحن.. عناقا أبويا دافئا وهو يقول:

ـ أعرف عنك كل شيء.. لم تخذلني مطلقا..

عرف البوس بنتيجة فريقي في بطولة العالم فابتهج، وأعلن لأصدقائه أنه أصبح من شركاء مصر في اللعبة.. كالعادة ضحك الجميع.

لم أكن في عجلة من أمري، كنت أعرف أن اللاعبين جميعا سيكونون في سبات عميق بسبب فارق التوقيت وطول ساعات السفر، فقد كانت الرحلة في تلك الأيام تستغرق ما يقرب من عشرين ساعة بين طيران طويل وساعات انتظار في المطارات، كنت أريده بنفس القدر، جلست بجواره وهمست في أذنه:

ـ أحتاج أن أتكلم معك..

سحب نفسا من سيجارته وهو يقول:

ـ منصور.. أليس كذلك..

أومأت برأسي فضحك وهو يقول:

ـ كنت متأكدا من ذلك، هو أيضا يشتكي منك، لكني أخبرته أنك تخصني شخصيا وأن كل ما بيني وبينه معلق بما سيقدمه لك.. أخبرني أنه جعلك مدربا للمنتخب.. رغم أنك ـ على حد قوله ـ ما زلت ساذجا ولا تستحق.. وأخبرني أن اللاعبين خدعوك وهربوا بعيدا. تبدو مندهشا لأنني أعرف.

أشار إلى المقعد الذي كنت أجلس عليه:

ـ هذا مقعده.. منصور يأتي كل شهرين تقريبا، وللعلم، مجالسته في أوقات الشراب أفضل منك.. قل ماذا تريد منه!

منصور من الكلاب الخائنة، يأتي بحثا عن الرضا والمزيد من المال، ساءتني فكرة أنني أجلس على مقعده كما قال البوس، فقمت مستاء، فضحك وقام متكئا على ذراعي وهو يقول:

ـ هيا نذهب إلى الشرفة.

انتقلنا إلى الشرفة، جلس البوس هادئا وأغمض عينيه كما لو كان نائما، كيم كان جالسا إلى جواري هادئا أيضا، كانت تلك أول مرة يحادثني فيها البوس باللغة الكورية:

ـ ماذا تريد؟

أجبته بالإنجليزية:

ـ لا أعرف، أنا حائر وأحتاج مساعدتك.

ابتسم وهو يجيب:

ـ لا أظن.. هذه المرة أنت تعرف ما تريده لكنك متردد في إخباري.

حاولت أن أنفي لكنه لم يكترث مطلقا، بل تابع مباشرة:

ـ تريدني أن أنقل توكيل الملابس والأدوات إليك أنت؟

أجبته على الفور:

ـ مطلقا.. لم أفكر في ذلك للحظة..

صارحته بما كان في رأسي، كنت فقط أريد منه أن يساعدني بالضغط عليه مرة أخرى لكي يتركني أعمل، شعوري الدائم بالتهديد كان يزعجني، أريد أن أستمتع بعملي دون أن أكون مهددا..

يعشق البوس وكل من هم مثله اللحظات التي يسكبون فيها حكمتهم على الآخرين، بعضهم يقول هراء خالصا والآخرون يتحدثون من واقع خبرة حقيقية حتى وإن أصابهم بعض الغرور.. كان البوس من النوع الأخير.. لذلك كنت أنصت إليه جيدا، قال بثقة:

- لا فائدة هذه المرة، منصور لن يتغير، عليك أن تتخلص منه تماما، تلك المناصب الصغيرة يدعمها ثلاثة أشياء: مال أو منصب آخر يحميك أو صاحب منصب آخر تتبعه ليحميك، ومنصور لا يملك أي شيء سوى المال، والمال أتفه أطراف المعادلة، في البداية كان لديه منصب أو بقايا منصب، لكن السنوات التي مرت أبعدته كثيرا..

استغرق في تفكير قصير ثم قال مبتسما:

- التوكيلات يجب أن تنتقل لك.. أنت تستحقها..

هممت بأن أقول شيئا لكنه أكد أن الأمور ستكون أسهل مما أتوقع، حاولت أن أرفض شاكرا فأصر قائلا:

- أنت لا شيء من الثلاثة يا ولدي.. سأمنحك واحدة وابحث أنت عن الباقي، لكن احترس.. فاللعبة واحدة في كل مكان!

انتبهنا فجأة على صوت جلبة، رأيت أمام المدخل مجموعات تحمل ملامح جنسيات مختلفة وشبابا يرتدون ملابس واحدة وفتيات مدارس تحملن لافتات جميلة مكتوبًا عليها ما لم أفهمه. أشار إليَّ البوس فانتقلنا إلى داخل المنزل، الكل تجمع حول السيدات العجائز، نصفهن يجلسن على كراسي متحركة والنصف الآخر مبعثرات بين الوقوف والجلوس.. قام البوس مسرعا وتبعه كيم، كان المشهد مبهرا، بعض السيدات انخرطن في بكاء مر، وبعضهن كن في حالة صمت تام.. كان فضولي يقتلني، كيم أشار بأصابعه «انتظر»، اقترب مني وهو يقول هامسا:

- إيانفو..

نظرت إليه في جهل تام فتجهم وجهه وهو يقول ببطء:

- نساء.. الراحة!

٦٥

شعور بالمرض/ Feeling sick

لم أنطق بكلمة واحدة، أصبت باكتئاب حقيقي، ميل للغثيان ورغبة شديدة في النوم، تبع ذلك مصادفة على الأغلب حالة من الحمى الشديدة وصلت بحرارتي إلى الأربعين مصحوبة بإسهال شديد جعلني في حالة ضعف دائما ودوار يتحول لنوم مضطرب من آن لآخر.

بمجرد أن أغرق في النوم تستقبلني صورة السيدة ووك العجوز وهي تمرضني بعد أن شج المسدس رأسي، ثم تبدأ في الحكي باستفاضة، حكي فريد من نوعه بالنسبة لي، تحكي بالكورية بينما أرى المشاهد وأفهم وصفها وبكاءها وصراخها، نفس ما فعلته أمام الكاميرات التي وقفت أمامها بينما كان كيم يترجم لي وهو يكاد يبكي.

عرفت من هن العجائز اللائي يستضيفهن البوس في بيته منذ أعوام بعيدة، ويقدم لهن خدمة خاصة تصل إلى درجة التقديس، كل الإجراءات الحكومية أعدت لكشف الأمر بشكل رسمي، الترتيب كان من عند البوس، ثم تم تحضيره عن طريق الحكومة لكيلا تكون هناك أخطاء في مثل ذلك الأمر، يطلقون عليهن كما عرفت نساء المتعة، مجموعة من النساء اللائي عاصرن الحرب العالمية الثانية، كانت السيارات العسكرية اليابانية تختطفهن وتضعهن في معسكرات كبرى ليقدمن خدمات الراحة للجنود اليابانيين وقت توقف القتال، خدمات الراحة تعني تقديم كل شيء للجندي تحت تهديد السلاح، كل من حاولن الهروب عوقبن بالقتل أو بحصة مضاعفة من أجساد الرجال التي ستعتليهن، ووك كانت واحدة من الآلاف اللائي اختطفن واحتجزن لسنوات طويلة انتهت بانتهاء

الحرب، العار والشرف في الشرق الأقصى أيضا له تعريفات فريدة مختلطة مثل شرقنا تماما، يُحمِّل الضحية وزر ظلمها، غالبية المغتصبات رفضن العودة إلى أسرهن والحديث عما جرى، كن يخشين الفضيحة ويردن أن يستكملن حياتهن التي سحب من رصيدها أيام قاسية وطويلة تحت أجساد منهكة لرجال هم أيضا مغتصبون في خضم الحرب، رجال كانوا يحاولون أن يأخذوا من رحيق هؤلاء الفتيات الصغار ما يستحق أن يكون ختاما لحياة قصيرة على الأرجح بأمر الحرب.

واحدة فقط تكلمت بعد ما يقرب من خمسين عاما، بالطبع اتهمت بالكذب وبأنها كانت من محترفات تقديم المتعة للجنود بأجر، البوس صدقها وأواها في جنته، ثم أثار كلامها مشاعر أخريات، واحدة ثم أخرى ثم أخرى، اتضح أنهن كن كثيرات، أكثر مما كان أي إنسان يتصور، لم يخبرني أحد في البداية لأن الأمر كان في مرحلة الترتيبات، استغرق الأمر عشرات الأعوام لكشفه رسميا، في الوقت المناسب تبنته الحكومة الكورية وأعلنت عنه، فتحولت الحكاية لقضية قومية واتسعت حتى بلغت شابًّا مصريًّا صغيرًا جاء ليتدرب على التايكوندو، وتحول الأمر إلى هاجس أو إلى روح تتلبسني أثناء النوم.

شاهدت بعيني منصور وهو يغتصب ووك وأنا أحاول أن أحميها منه فيضربني بعصا طويلة على وجهي، وشاهدت نفسي وأنا أقتل منصور في غرفة ووك وهي تغسل وجهها بدمائه، لكني لم أر في أي من كوابيسي منصور ولا ووك في شبابهما، كل الأحلام كان فيها رجل عجوز متصاب وامرأة مسنة مصها الزمان مصًّا، وثالث يتأرجح بين الطفولة تارة والشباب تارة أخرى، لكن كل محاولاته لإنقاذ تلك المسكينة باءت بالفشل... كنت أنا.

فارقني ذلك الكابوس بالتدريج على مدار سنوات ثم عاد لي دفعة واحدة، وضعت فريدة فوق حائطي صورة لفتاة صغيرة صعيدية اسمها شريفة على ما أذكر، كانت تحكي عن شيء أطلقوا عليه كشوف العذرية، لا أعرف التفاصيل لكن الفتاة بدت صادقة، بينما كان مصطفى القماح ينكر، ثم يضطرب، ثم يعود ليقول إن الأمن يفعل ذلك لأن البغايا ومحترفات الدعارة قد يندسسن وسط المتظاهرات، قالت له فريدة محتدة إن العاهرات لا يبحثن عن رزقهن وسط المتظاهرين وميادين الثورات، فنظر إليها بازدراء وهو يقول في حدة:

ـ العاهرات بيروحوا كل حتة..

ـ أمك اللي بتروح كل حتة.

قالتها فريدة بغلٍّ شديد، نظرته وطريقته جعلاها تشعر بأنه يتعمد إهانتها فأهانته.. وقف مصطفى يحدق فيها للحظات.. بدا لي أنه سينقض عليها فنهبته بصوت حازم:

ـ هتعمل إيه يا مصطفى؟

تسمر مصطفى في مكانه، ثم أخرج كل مشاعره تجاه فريدة نوبة واحدة، اتهمها بأنها عاهرة بالفعل، عايرها بفساد أبيها الذي تسبب في الجرح المحفور على وجهها ثم أنهى هجومه قائلا:

ـ إنتِ لو محترمة مش هتيجي تقعدي مع اتنين رجالة في أوضة نوم.

ظلت فريدة تحدق فيه بذهول، شعرت بغضب شديد، أفاق مصطفى بعد أن رأى ما ارتسم على وجهي، وقف ينظر إليَّ وقد تمالك نفسه محاولا الاعتذار أو التبرير:

ـ سمعت هي قالت إيه؟

صحت فيه بوهن:

ـ اطلع بره يا مصطفى..

كررت فريدة ورائي:

ـ اطلع بره يا حيوان.. يا خاين..

نظر لي مصطفى وغادر، التفتُّ إلى فريدة قبل أن تستقر في المقعد الذي ألقت عليه جسدها:

ـ اطلعي بره إنتِ كمان يا فريدة، عاوز أقعد لوحدي.

٦٦

قام خالد بحظرك/Khaled blocked you

حكيت لخالد فاروق شيئا فكتب شيئا آخر وانشغل الناس بشيء ثالث، لم يلتفت أحد للبطل ولا التفت أحد للمرض بل توالت التعليقات الفيسبوكية في طريق واحد، يمشي فيه الناس في اتجاهين متضادين تماما.. بعضهم يرى أنني كنت منافقا عندما قابلت الرئيس وتسلمت منه الوسام.. ثم أصبحت شريفا عندما شاركت في الثورة عليه، وآخرون يرون العكس.. ما يجمع بينهم هو أنهم جميعا كانوا يلعنونني بسبب إحدى الصورتين.

لم أتمكن من الوصول لخالد فاروق،حاولت الدخول على صفحته فاكتشفت أنه قام بحظري، كنت أريد أن أقول له كلمة واحدة فقط..إنه وغد. لجأت إلى محامٍ شهير وعرضت عليه الأمر، قرر أن موقفي ضعيف وأن القضية الوحيدة المناسبة في هذه الحالة هي قضية نصب واحتيال، لأنه اتفق معي على تقديم قصتي بشكل واستغلها بشكل مختلف، أما فرصة المكسب الأكبر فهي في يد مصطفى القماح لأنه اتهمه بجريمة دون أي أدلة.

مصطفى وافق على الفور، رفعنا قضيتين منفصلتين بناء على

نصيحة المحامي، توقعت أن يتصل بي خالد فاروق لكنه لم يفعل، فقط شن عليَّ حملة في برنامجه بنفس الفكرة التي تبنتها صفحات الفيس بوك.. أنني رجل «بوجهين»، وصرح بأنني أقاضيه فقط لأنه رجل صريح حتى في حديثه عن صديقه.

لم يستغرق الأمر سوى شهور قليلة بعدها هدأ الأمر تماما، القضايا كانت تؤجل شهرا بعد الآخر لأسباب لم أعد مهتما بمتابعتها، لكن يظل هناك من يكرهون خالد فاروق، أعادتني وضاعته إلى الأضواء، وافقت على عمل عدة لقاءات صحفية دفاعا عن نفسي، لكني اكتشفت أنني لم أكن الموضوع الرئيسي مطلقا، كانوا يتصارعون معه من خلالي، كانوا يتعمدون إبرازي في صورة البطل الذي خدعه رجل وضيع، ليشنوا عليه حملة جديدة، وعندما خسرت قضيتي في أول درجة نشروا تحقيقا طويلا عن القضاء المصري وعيوبه.

كانت المفاجأة في الحكم في قضية القماح، أدانت المحكمة الكاتب بالسب والقذف وحكمت بحبسه ستة أشهر مع الشغل والنفاذ، زف لنا المحامي الحكم، جاءني صديقي القديم مرفوع الرأس واتصلت بفريدة لنحتفل لكنها رفضت.

مساء نفس اليوم وجدت خالد فاروق يزورني في منزلي مرة أخرى، ظهر كما ظهر في المرة الأولى بدون مقدمات، هذه المرة أخبرني عصام قبل أن يسمح له بالدخول، تسلل إلى قلبي شعور خفي بالتوتر، طلبت منه إعادة ترتيب كل شيء في الغرفة، ضغطت الريموت كنترول لأخفي الحائط الأزرق خلف الستارة البيضاء.. ثم اخترت طاقم ملابس أنيقًا عاونني عصام في ارتدائه وهو يؤكد لي أنه لا يستحق ذلك الاهتمام.

دخل عليَّ وهو يبتسم كما لو كنا تلاقينا بالأمس، صاح بلهجة مقيتة:

ـ والله وحشتني!

لم أدر كيف أجيب، توقعت بداية مختلفة للحوار لكنه فاجأني، جلس وطلب من عصام أن يحضر له أي مشروب بارد، نظرت إليه مندهشا فهز رأسه ومط شفتيه قبل أن يقول:

ـ أنا عارف إنك زعلان مني.. بس والله غصب عني..

ثم بدأ يبرر انشغاله ويتحدث عن أحوال البلد وعن التوتر السياسي الدائر فيها، ظللت أحدق فيه صامتا، ثم بدأت أستجمع نفسي قليلا فقاطعته فجأة:

ـ عاوز إيه يا أستاذ خالد؟

لم يفكر كثيرا، أجاب على الفور:

ـ عاوزك تقول لصاحبك يتنازل عن القضية... أنا هاكسبها في الاستئناف لكن مش عاوز شوشرة، القاضي اللي حكم عليَّ تبع الجماعة بتوعه.

قاطعته:

ـ مصطفى مش تبع أي جماعات.

أجاب مبتسما:

ـ محب، مؤيد.. مش هتفرق المهم إن القاضي في الاستئناف مش هيكون زي اللي فات.. ومش هيأيد الحكم، وبعدين أنت خسرت قضيتك، يعني ممكن أرفع أنا عليك قضية تعويض فخلينا حبايب.. والقضية دي قصاد القضية التانية.. ولا إيه رأيك؟

نظرت إليه باحتقار فأجابني بنظرة ثقة ساخرة، شعرت بغضب لم أبدِه وأنا أتحرك بالكرسي تجاهه وهو يواصل كلامه:

ـ الكتاب ده خلاك مشهور.. وهو ده الاتفاق اللي بينا.

أصبحت في مواجهته تماما، لامست ركبتي ركبتيه فنظر إليَّ مندهشا، كانت يداي ترتعشان أكثر من المعتاد، استجمعت كل ما أملكه من بقايا قوتي وأنا أوجه له صفعة من أسفل لأعلى لأضمن وصول يدي المرتعشة إلى هدفها، خرجت أضعف مما تمنيت لكنها مهينة، بدا عليه الفزع من المفاجأة فشعرت بارتياح لم أعرفه منذ سنوات، حاولت توجيه صفعة أخرى له لكنه تراجع إلى الخلف فلم أصل، مد يده ليدفعني فأمسك به عصام في عنف وهو يقول:

ـ لا مؤاخذة يا أستاذ خالد.. ما ينفعش!

ثم وقف بيني وبينه إلى أن غادر البيت متوعدا في غضب، أما أنا فأكثر ما أغضبني هو أنني لم ألتقط له صورة وهو يمسح مكان ضربتي بيد ويشيح بالأخرى في عجز لأضيفها إلى الحساب.

٦٧

عمر لم يزل مريضا/Omar is still feeling sick

أسبوعان من ثلاثة هي عمر المعسكر الذي عرفت فيه حكاية ووك قضيتها في السرير مع كوابيسي، وفي الثالث لم أتخلص من اكتئابي، لم يكن فقط تأثري من أجل تلك المرأة الجميلة التي مرضتني يوما ولاطفتني، لكن لأني كنت أشعر في ذلك الوقت بوضاعة العالم من حولي وانحطاطه، وأشعر بشكل ما أنني أنزلق فيه، الإنسان حيوان مليء بالغرائز والرغبات، حيوان شرس أهوج يتظاهر بالمدنية، تكشفه الحروب ويكشفه الجوع وتكشفه الحاجة وتكشفه المصالح والصراعات، الشعب الراقي المهذب كان يفتك بالصغيرات فقط من أجل ارتياح جنوده أثناء الحرب، والتي أنهتها

قنابل قاسية لا ترحم فتكت بالجميع، ألقتها عليهم من السماء أكثر الشعوب دعوة للعدل والرحمة والسلام.. فمحت بلدانا من على وجه الأرض.

ما زاد السواد من حولي أن فريقي نسيني تقريبا في غرفتي، اكتفى بعضهم بمكالمة من آن لآخر أو بزيارة سريعة يحكون لي فيها على عجل ما يحدث في التدريبات، لم يكن الأمر سيئا بالنسبة لهم مطلقا بل على العكس، كانوا يعرفون جيدا من ذلك الذي حل محلي إلى أن أشفى، غالبا تمنوا لي المزيد من الرقاد، كيم كان هو الذي يقوم بتدريب الجميع، سرعة الطفرات في مستوى اللاعبين كانت تدهشني وتؤكد لي أن طريقة التدريب هي السبب، كانوا دائما في مصر يتحدثون عن حقيقة موهبتي التي كانت سببا في أن أسبق الجميع، لكن الحقيقة أنني لم أكن تدربت معهم، مبكرا جدا حزمت حقائبي وأمري سويا في حقيبة واحدة وطفت على الأماكن المناسبة للتدريب، ربما لهذا أفلت.

أنهينا الاستعدادات وبدأنا في الاستعداد للعودة، ذهبت لزيارة البوس قبل الرحيل فأخبرني وهو يبتسم بثقة أن منصور انتهى.

سألته عما إذا كان يعني أنه فقد الوكالة فأجابني وهو يغلق يده اليمني على ما فيها متعجلا:

ـ أقول لك إنه انتهى، ورفض أن يعطيني التفاصيل.

قبل انصرافي شاهدت ووك جالسة ومن حولها صديقاتها، اقتربت منها، طلبت مني أن أحكي للناس كلها في «أفريقيا» حكايتهن، وعدتها بأن أفعل ذات يوم، لم أقاوم رغبتي في منحها حضنا دافئا وطويلا، حضن اعتذار نيابة عن العالم القبيح الذي علقنا فيه معًا، لم أستطع إخبارها بأن هناك رجلًا قضى لياليَ طويلة

في ذهني يتبادل اغتصابنا أنا وهي في فراش واحد، لم أنس ذلك الحلم أبدا.. ولم أنس مطلقا أن أؤكد لنفسي في كل صباح ومساء.. أنني لم أكن أبدا السبب فيما حدث لمنصور.

ضرب البوس منصور بقنبلة ذرية، تخيلت سيناريوهات متعددة لكني لم أتخيل ما حدث له، غالبا ولا البوس تصور أن يحدث ذلك؟ ما بين عودتنا إلى مصر وبين سلسلة المصائب التي توالت عليه مدة لا تزيد على شهر واحد، في المعتاد كان منصور يجري أمر التوريد ثم ينتظر وصول البضاعة ويرسل مبلغا على هيئة مقدم ثم يسدد ما تبقى على مهل على مدى شهور ممتدة رغم أن عقده لا ينص على ذلك، كل ما فعله البوس كان ببساطة أنه أخر توريد الأدوات الخاصة بمنصور لحين سداد كامل المقابل المطلوب، لم يتم إرسال الأدوات المطلوبة والتي كانت تشتمل على احتياجات اتحادات عربية يملكها شيوخ لهم وزن سياسي كبير، تدخل أولاد الحلال ليقنعوهم بأن المورد المصري احتال عليهم، انتقل الأمر إلى مستوى أعلى من منصور بكثير، هكذا جاء الأمر لمنصور لكي يرد النقود أو يحضر الأدوات المتأخرة.. وتزامن ذلك مع ورود فاكس من الشركة يخبره بقرارين.. الأول هو فسخ التعاقد بينهما والثاني هو سحبها لقيمة المقدم كاملا كما تقضي بنود العقد في حالة التأخير!

كانت هناك أيضا طلبيات أخرى صغيرة في جميع أنحاء مصر، وكانت هناك ديون تخصه عند شركات أخرى، وجد نفسه فجأة في واقع صادم لزج لا يستطيع الخروج منه، كل محاولاته مع مختلف الأطراف باءت بالفشل، وبالطبع عندما تأتي الأوامر يتبرأ الجميع من صلاتهم بك.

لم يفلس منصور لكن الشيكات التي تدينه توالت على النيابة يوما بعد يوم، والضغوط تزايدت، أصبح الوقوف أمام المد مستحيلا، اختفى فجأة، أشاعوا أنه اختبأ داخل مصر أو خارجها، في النهاية عرفت أنه هرب إلى خارج البلاد كما أوعز للاعبين أن يفعلوا، لم تنفعه علاقاته سوى في تسهيل خروجه لجهة مجهولة، غالبا قضى بقية عمره متنقلا من مكان لآخر حاملا دينه الضخم، ما زلت أؤكد لنفسي كل يوم أنني بريء منه، رأيته مرة واحدة فقط بعد سبع سنوات من ذلك التاريخ في تركيا، في إحدى البطولات التي جاء يشجع فيها المنتخب، كان منكسرا تماما، أمثاله عندما يفقدون السلطة لا يتحولون حتى لبشر معتادين، يتضاءلون تماما، ترى عليهم ذلة لم تكن تتخيلها، وجدته أمامي مجرد مهاجر مصري عجوز يحاول أن يعيد جزءا من ذكرياته مع الوطن، لم تبد عليه كراهيتي، أنا أيضا شعرت نحوه بالشفقة أكثر مما شعرت بأي شيء آخر، أقسمت له أنني لم أكن وراء ما حدث، البوس هو الذي فعلها فيه، هو نفسه انزعج عندما عرف ما آلت إليه الأمور، كان يريد أن ينهي التعاقد فقط ولم يتخيل أن ينتهي الأمر بهذا الشكل.

٦٨

وظائف/ Professions

تزامن رحيل منصور مع مجيء مولودي فتفاءلت، تجمعت العائلة لأول وآخر مرة تقريبا، جاء والد زوجتي مع زوجته من الإمارات في إجازة لمدة شهر متصل على غير العادة، أقاما معنا في المنزل، وكان

أبي وأمي يقضيان معنا طيلة ساعات النهار ويغيبان فقط وقت النوم، وأنا تفرغت لأستمتع بمولودي لا سيما أن الأمور كانت مضطربة على مستوى الإدارة في الاتحاد تماما، فالرئيس الذي شغل مقعده ما يقرب من عشرين عاما رحل فجأة.. والأمور ليست طيبة في كل اتجاه وجميعنا عاطل عن العمل فيما يشبه «إجازة».

احتفلت بوليدي قدر ما استطعت، لو كان الأمر مقبولا لأطلقت عليه جونج كيم، لم توجد في رأسي أي أسماء أخرى لذلك، تركت الأمر لريهام التي أسمته «حسين» على اسم معالي السفير الذي كاد يرقص من الفرحة، أنا أيضا كنت سعيدا، لم أستمتع به في حياتي سوى في تلك الأيام القليلة، كنت أحمل جسده الصغير وأغني له وأسأله وأنا أحمله هل سيكون امتدادا لحياتي أم غير ذلك، الآن لا أريد ذلك له بكل إخلاص.

اختفى منصور فظننت أن الشر انتهى، لم أر مثله من بعده لكني رأيت الشر يخرج من كرسيه ويحيط بمنصبه، كرسي المنصب مهما كان تافها له آفات ثلاثة، غرور الجالس ونفاق المحيطين ومصالح الأقوياء، حتى وإن وصل إليه رجل شريف فسيجد ثعابين المنصب تحيط به، المنافقين سيزينون له أفعاله ويثنون عليها حتى ليظن نفسه نبيا وكل من يعارضه عدوٌّ، وسيجبره الأقوياء على القيام بما يريدون أو سيقفون في مواجهته صفا حتى يرضخ، وفي جميع الأحوال سيكون العدل مستحيلا.

أصبح منصب رئيس الاتحاد شاغرا، فتحولت الأحداث إلى عربات قطار طويل تمر أمامي متتالية بسرعة مدهشة، والاختيارات في نفس السرعة.

هل ستركب أم ستظل واقفا في مكانك تنظر؟

بدأت الصراعات الخفية تخرج إلى السطح، تتوالى الشائعات على القادم رئيسا للاتحاد فيتحلق حوله الكثيرون ثم ينتقلون إلى من يرونه الأقوى، أنا لم أكن أفكر في أي شيء سوى استمراري في تدريب الفريق على وتيرته انتظارا للبطولات القادمة، وابتعاد منصور منحني دفعة قوية ورغبة في أن أحلق بفريقي عاليا.. في سماء الرياضة. تمنيت لو أبتعد تماما عن صراع المناصب.. لكنه كان المستحيل.

جاءتني فجأة مكالمة من سكرتيرة تتحدث العربية بلكنة غربية تطلب مني الانتظار على الخط لكي أتحدث مع المهندس/ حسن، سألتها في دهشة ومن المهندس حسن فأجابتني وهي تهمس كما لو كانت تخشى أن تسمعها الحوائط:

ـ حسن عبد المنصف، شركة...

لم يكن الاسم غريبا بالطبع! حسن عبد المنصف رئيس مجلس إدارة أكبر شركة مقاولات في مصر، الاسم المرعب والشركة الضخمة لها بعد سياسي واجتماعي كبير، لماذا يريدني؟ غالبا سيعرض عليَّ أن أنشئ فريقا في نادي الشركة.. في تلك الفترة بدأ اسم اللعبة يشتهر وبدأت الأندية الكبرى تتنافس من أجل الدخول في منافساتها، كانت تلك العروض تأتيني لأعرف عن قرب كيف تدار منظومة الرياضة إذا ابتعدنا عن كرة القدم.. هؤلاء هم من يسيطرون على الأمور، كانت كل لقاءاتي مع مسئولي الأندية تنتهي عند سؤال مكرر لم يكن يهمني كثيرا لكنه يجعلني أفهم عقلية ذلك الرجل الذي سأعمل معه.. كنت أسألهم جميعا:

ـ لماذا التايكوندو؟

أجابني أحدهم بابتسامة بلهاء وهو يقول:

ـ اللعبة اسمها حلو..

قررت استحالة العمل معه، لكن بعد أن التقيت باثنين آخرين تيقنت أن الأول كانت له وجهة نظر وجيهة على الأقل، أحدهما رجل أعمال شهير كان حفيده يقرأ سلسلة قصص شهيرة في مصر آنذاك، مؤلفها وصف بطلها بأنه يمارس رياضة التايكوندو، وهنا طلبت منه ابنته أن يجد لابنها مكانا يمارسها فيه، فقرر إنشاء فريق مباشرة وأعد لذلك الأمر أكبر ميزانية سمعتها في أي نادٍ، أما الآخر فقد شاهد فيلما لممثلة محلية جميلة ذكرت فيه اسم اللعبة، فقرر أن يضيفها إلى ألعاب ناديه.

لا أعرف إذا كان الباحثون عن المناصب بشكل عام يعانون من عيوب تخص القدرة على التفكير أم أن ذلك يختص بالرياضة تحديدا، خلطة الجهل والغباء والغرور طاغية في المجال على الكثيرين، أضف إليه السلطة المطلقة لتعرف أسباب كل ما تسمع عنه، أما من يلعبون بشرف فعادة ما يخرجون من الدور الأول في كل الصراعات.

كان حسن عبد المنصف مختلفا، ذكيًّا ومرتبًا ويملك نظرة بعيدة، اتضح أنه يريد إخباري بأنه قرر نزول الانتخابات التي ستعقد من أجل تغطية مقعد منصور، وأنه يريدني في فريقه، لم أكن قد تابعت موعد بدء الانتخابات، لكنه حدده لي بدقة، بدا لي مجنونا بالطبع ليتنافس في لعبة لا يعرف عنها شيئا، وعندما أبديت دهشتي ضحك في استهتار وأكد لي أن الأهم هو أن يكون قد مارس اللعبة الأكبر.. الانتخابات.

كان حسن عبد المنصف هو المضاد البشري الصريح لمنصور، أنيق ومهذب وخلوق، حاد الذكاء وكان صادقا وصريحا، عندما سألته عن السبب الذي يجعله يفكر في لعبة مثل التايكوندو أجاب

بصدق شديد أنه قرر دخول انتخابات مجلس الشعب القادمة ويحتاج أنشطة مختلفة وجديدة غير الهندسة لكي يستطيع المنافسة على مقعد دائرته، ثم أكد لي أن منصور لم يكن سينجح في الانتخابات القادمة على أي حال.. فهُم لا يريدونه بعدما ساعد اللاعبين على الهرب، لم يكن الرجل بعيدا عن دائرة صناعة القرار، كان يعرف كل شيء، أن منصور حاول التخلص مني وأنه ساعد اللاعبين على الهرب، لذلك «هم» لا يريدونه وأنه سيخسر في الانتخابات القادمة بعد عامين!!

المؤامرة ليست نظرية وخللًا عقليًّا كما يقول البعض، رأيت بنفسي ما يحدث من أجل كرسي صغير في اتحاد رياضي، التخطيط والترتيب والقتال والصراع، ورأيت أشرس وأحد من ذلك من أجل مقعد عضوية مجلس إدارة حقير في نادٍ متهالك، إذا ظللت أحكي لسنوات فلن أنتهي، كلما زادت قيمة الكرسي كلما زادت حدة الصراع، ليست المشكلة في الكرسي.. بل في النفس البشَرية الشرهة التي قد تفقد كل سيطرتها على ذاتها في لحظة انفجار الغرائز... والمناصب غريزة، أقرب ما تكون للجنس، قد تنساه تماما حين لا تفكر فيه.. أما حين يصبح الأمر على بعد أمتار قليلة وتقتنع أنه حق مكتسب لك فستتحول غالبا إلى وحش كاسر يفعل كل شيء، لإرضاء رغبته.

لم أقبل عرض عبد المنصف ولم أرفضه، في طريق عودتي إلى منزلي كان الحلم قد بدأ يتسلل إلى رأسي، الرجل الشرير رحل إلى الأبد، وعليَّ الآن أن أفكر جيدا لكي لا يظهر مرة أخرى في صورة جديدة، كان عبد المنصف نموذجا جيدا ومناسبا، يحمل أيضا ميزة كبرى لن أجدها بسهولة، لديه من المال ما يكفي لكي

ينفق على اللعبة التي ظلت محدودة الميزانية.. لن يكون لصا على الأقل، عرفت خطأ تلك النظرية عندما كبرت أكثر في الدنيا، اللص هو اللص والجشع هو الجشع، لن تكفيه كنوز الأرض ليتوقف.. منصور تغير فقط عندما سحبت منه كل أسلحته، اكتشفت أنني لم أعرف غيره منذ بدأت اللعبة، كان أصغر من ذلك بعشرين عاما تقريبا عندما أخذ الكرسي، وكنت طفلا صغيرا، رأيته بعيني وهو يأكل الجميع، يمضغهم ويبلعهم ويهضمهم ويخلفهم فضلات لا تصلح للاستهلاك مرة أخرى، مصطفى القماح وما حدث له أيضا دليل على ذلك، أكله منصور حيا، وكان على وشك أن يأكلني أنا أيضا لولا تدخل السماء في اللحظة الأخيرة، أرسلت لي رجلا من كوريا الجنوبية لأستمر في الملعب ثم أرسلت لي الميداليات الأربعة التي أتت بي مرة أخرى بعد أن كاد منصور يلقي بي بعيدا إلى الأبد، أعرف جيدا لماذا أراد التخلص مني.. لأني ببساطة كنت خطرًا داهمًا، وأعتقد أنه كان على حق.

بدا لي ظهور حسن عبد المنصف كرسالة جديدة، هو قالها.. كل مقاليد اللعبة ستكون في يدي أنا، كل ما يريده هو المظهر والاسم واستثمار الكرسي من أجل كرسي آخر. اللعنة على معتقداتهم الشرهة التي تدمن الكراسي الوثيرة، لكنه ليس مثلهم على أي حال.

بعد يومين أعلنت موافقتي، أقام حفلًا صغيرًا ومؤتمرا صحفيا أعلن فيه قراره بالترشح لرئاسة الاتحاد، وقفت إلى جواره في المؤتمر لأعلن دعمي له، حتى ذلك التاريخ لم يكن هناك سواه، نفس الصحفي الذي دافع عني يوما أمام منصور هو من سألني عنه، أجبته بأني لا أعرف عنه شيئا، تدخل صحفي آخر في الحوار ليتحدث عن إنجازات منصور في الفترة التي قضاها، عن نتائجي

الشخصية في اللعب في عصره، وعن نتائج الفريق في كأس العالم الأخيرة، عن شهرة اللعبة في عصره، وعن خبرته في منصبه الذي استمر فيه لما يقرب من ربع قرن من الزمان!! أردت أن أقول له بصراحة إنه رجل أبله ساذج، وأن أحكي أن منصور العظيم أقصاني من اللعب لولا تدخل رجل من الجهة الأخرى من العالم، وأنه تعمد هروب أربعة لاعبين مصريين أنفق عليهم لكي يثبت وجهة نظره التي تقول إنني لا أصلح، يبدو أن صمتي طال بما يكفي ليظن الصحفي أنه أصابني في مقتل، فأضاف وهو يبتسم في خبث:

ـ هل تظن أن المهندس حسن سيكون مثله..

أجبته على الفور بغضب:

ـ أكيد لأ! الفرق كبير.

فضحك ساخرا وهو يقول:

ـ الفرق إيه..؟!

كان عندي ما أقوله لكني لم أفعل بالطبع، أشار إليّ المهندس حسن لأهدأ، أخذت نفسا عميقا، لم يمهلني هو بعد أن شعر بأنه أمسك بطرف حكاية طويلة.. فكرر:

ـ الفرق كبير إزاي؟

ابتسمت وأنا أقول:

ـ الفرق كبير جدا.. ده مهندس وده ضابط..

جاء السؤال من طرف القاعة:

ـ ومين يكسب..؟

ضحك الجميع وابتسمت أنا ولم أجب.

بعد المؤتمر توالت الأسماء التي أعلنت تقدمها للانتخابات، ظل حسن عبد المنصف هو المهندس الوحيد في القائمة، أضيف إليها

حازم حمدي محاسب، ولواءان من الشرطة وعقيد من الجيش. ترشح حازم كان مفاجأة لي، كنا بمثابة أشقاء في المنتخب لسنوات طويلة، نلعب متجاورين لكني لم أتصور أن يقرر ترشيح نفسه، هو شخصيا لم يخبرني، ربما تصور أنني قد أعارضه، أو ربما شعر كما شعرت أنا بمجرد سماعي الخبر، كيف يمكن للاعب كنت أنا قائده في الفريق أن يصبح رئيسا لاتحاد أنا مجرد مدرب فيه؟

اتصلت به وعاتبته لأنه لم يخبرني قبل أن يتقدم، وتعللت بأنني الآن مرتبط بكلمة مع شخص آخر.

أجابني بصوت هادئ:

ـ ما تقلقش يا عمر.. أنا ما كلمتكش لأني عارف إن عمرك ما هتقف معايا!

لم أستنكر الأمر كثيرا في البداية، لكنه ناولني لكمة أخرى أشد:

ـ يا عمر أنت طول عمرك ما بتشوفش حد غير نفسك.. أنت مش واخد بالك ولا إيه؟!

تمنيت في تلك اللحظة أن أقتله، حاولت الدفاع عن نفسي غاضبا ورميته بسلسلة من الاتهامات لا أذكرها الآن، لكنه لم يتنازل عن هدوئه وهو يقول:

ـ الاتحاد كان منصور لوحده، والمنتخب أنت لوحدك، فين المدربين والمساعدين والكوادر والزملاء؟ فين بقية فريقنا يا عمر؟

ـ مش عاوزين يقربوا..

صمت لحظة ثم ضحك لحظة ثم قال في لحظة:

ـ محدش عارف يقرب يا عمر.. أنت بس مش واخد بالك.

٦٩

استعراض صداقة/Tracking friendship

محاولة الإنسان لرؤية حقيقة طباعه تساوي تقريبا محاولته لكي يميز درجة حلاوة صوته أو قبحه! ربما يجب أن تخرجه من حنجرتك وتضعه في أسطوانة لتسمعه بهدوء وتحكم بصدق، وبعد كل ذلك ستظل احتمالية الخطأ واردة جدا.

عندما كبرت واضطررت إلى وضع حياتي بأكملها في شرائط طويلة أمررها أمام عيني لأحكم على كل يوم فيها، ظلت هذه المرحلة أكثر مراحل حياتي حيرة واختلاطا، أنا أرى أنني كنت حتى ذلك الوقت على صواب كامل، كنت قد قضيت عاما مع المنتخب فقط، بالفعل لم أرد أن يشاركني أحد في نتائجي، كان حقي أن أحاول، وأن ينسب عملي لي، يكفيني أن اسم منصور يذكر متجاورا مع اسمي رغم أنه كان يحاول قدر الإمكان إفساد كل شيء، نصف فريق هرب بتعليمات مباشرة أو غير مباشرة منه، ثم أصبح الآن يذكر في المؤتمرات الصحفية على أنه صاحب الإنجازات.

وجود أي مدرب زميل معي في الفريق كان سيؤثر على مسيرتنا، لي خبرات خاصة وثقافة شخصية لن يستسيغها أحد، حازم نفسه الذي يتكلم عني كان يختلف معي أثناء تدريباتنا المشتركة في كل حركة وكل لحظة، كان لاعبا مميزا وبطلا، لكننا كنا دائمي الاختلاف، لذلك كانت الشراكة بيننا مستحيلة ولن تجلب لنا إلا التعطل والتعثر.

غيرة حازم حمدي مني لها تاريخ طويل وواضح، لو جاء في أي وقت آخر من تاريخ مصر لتصدر جميع المشاهد، كان يملك كل شيء أيضا.. وسيم وغني وأنيق وخفيف الظل وبطل عالمي، بدأ

نجاحه قبلي لكني لحقت به، وفي كل مرات نجاحه كان هناك آخر يسبقه، شاب مصري اسمه:عمر الخياط. عموما هو كان على حق في أنني لم أدعمه ولم أكن سأدعمه حتى لو عرفت قبل أن أرتبط بحملة حسن عبد المنصف، الذي بدأ في الصرف على حملته الانتخابية وعلى اللاعبين بسخاء شديد، كفة حازم حمدي داخل اللعبة ترجح أمام عبد المنصف الذي لا يعرفه أحد، لكن وجودي معه في كفة واحدة يجعله أقوى كثيرا.. ناقشت معه ذلك فأجابني ضاحكا:

ـ أنت على عيني وراسي.. بس مين قالك إن الانتخابات لها علاقة بأهل اللعبة؟

انتخابات الاتحادات لا علاقة لها باللاعبين ولا بالحكام ولا المدربين! لا علاقة لها بمن عرف رائحة البساط ودخل ترابه في فمه في سقطة مفاجئة ولا بمن يجرون في أنحاء الأندية بحثا عن لاعب جديد مثل ذلك الرجل الذي خدعني لشهر كامل لكي أصبح بطلا.

انتخابات الاتحادات صوت يدلي به مندوب من مجلس إدارة النادي حتى لو كان مجلس الإدارة بأكمله لا يعرف شيئا عن اللعبة، لذلك يأتي ذلك المندوب شاعرا بالغربة حاملا في يده ورقة صغيرة مكتوبا فيها اسم المرشح.. لكيلا يذهب بالخطأ إلى الآخر.. الذي لا يعرف أيضا، بعض الاتحادات الرياضية تتعمد عدم فتح الأبواب أمام مشاركة أندية جديدة لكي تظل قائمة الناخبين محصورة فيمن يدينون لهم بالولاء فقط. فيضحون بالرياضة.. من أجل الأصوات.

لهذا كانت فرص عبد المنصف تتزايد كل يوم، وبدأت أرى اللعبة جيدا، هدايا ومنح ستذهب إلى أندية فقيرة، دعوات عشاء خاصة

للتعرف على الأندية الأكبر، حسابات من أجل تبادل الأصوات من أجل انتخابات أندية أخرى، الانتخابات تقترب، والفجوة تتسع ليبدو الأمر محسوما في اتجاه محدد، هو أن المهندس الغني واسع الاتصالات هزم الضباط الثلاثة والمحاسب، والجميع!!

أسبوع واحد فقط قبل إغلاق باب التقدم للانتخابات حمل مفاجأة للجميع، مفاجأة كانت تستحق الوقوف عندها طويلا والبحث عما سيأتي من ورائها في تلك المرحلة، وتستحق أن يفرد لها صفحة منفردة في حياتي كما وضعها حسن عبد المنصف في صفحة خاصة جدا من دروس حياته.

سيادة اللواء علي الكيال، الرجل الذي ظهر فجأة، تعلمت من معرفتي بالكيال بعد منصور أن الناس ليسوا وظائف، بالفعل تترك الوظائف بصماتها على من يعملون فيها لكن يظل هناك جزء يعود إلى الشخص نفسه.. ثقافته وخبراته، الشرطة تحديدا تكاد تكون وظائف غير متشابهة، المسافة بين ضابط الجوازات وضابط المباحث تساوي تقريبا المسافة بين طبيب الجلدية وجراح القلب وتساوي المسافة بين محاسب البنك ومحاسب في محل قماش في وكالة البلح.

لم يعرف أحد شيئا عن اللواء الكيال في الرياضة، لكن تاريخه الشرطي كان عريضا واضحا على عكس سابقه، كرهت منصور.. أما الكيال!! لا أستطيع أن أحدد مطلقا، لا أنا ولا غيري، كان هادئا وبشوشا، يملك حضورا طاغيا وشخصية تمتلك قدرة لا نهائية على اجتذاب الجميع.

هو الذي سعى للقائي بمجرد أن أعلن ترشحه، كنت ورقة رابحة للجميع، فرغم أن أهل الصوت لا صوت لهم إلا أن

وجودي داعما يعطي انطباعا للجميع أنه من داخل البيت.. حتى من أجل الشكل العام.

نفس السؤال الذي ألقيته على حسن عبد المنصف ألقيته على اللواء الكيال، الرد لم يأت كما توقعت، لا كان معقدا ملتويا كما كان منصور يفعل ولا مباشرا صادقا كعبد المنصف، كان حلزونيا، سألته عن سبب ترشحه فأجاب بهدوء:

ـ المنافسة لازم تسخن.. وأنا من حقي أجرب.. عاوزك معايا..

فرفضت على الفور احتراما للرجل الذي أتحرك معه منذ ما يزيد على شهر، وبدرجة ما لأنني كنت أعرف أن فرصة الكيال أقرب إلى الصفر، لأنه ظهر متأخرا جدا، لكني فهمت أنه سيكون جزءا من اللعبة في الفترة القادمة، وسيظهر بعد ذلك في انتخابات قادمة بقوة تتناسب مع كل ما يملكه من دهاء.

حسن عبد المنصف لم يكن مثلي، بدا لي متوترا وكثير الاتصالات، حاولت أن أفهم منه فأجابني باقتضاب:

ـ الكيال مش راجل صغير.

ـ بس لطيف.

فانفجر في الضحك وهو يجيب:

ـ كلهم بيقولوا كده.

كنت مصرا على أن الوقت تأخر كثيرا على دخول طرف جديد في المعادلة، لكن المائدة بدأت تميل رويدا رويدا، انسحب اللواءان والعقيد وأعلنوا دعمهما للواء الجديد، بقي في المعادلة حازم حمدي الذي بدأت أسهمه تعلوا كثيرا، كل يوم تجد صفحة جديدة في جريدة جديدة تتحدث عن لقاءاته بمجلس إدارة نادٍ

جديد، ومحافظ جديد. بدا الأمر مدهشا بالنسبة لي حتى أنني اتصلت بحازم شخصيا لأسأله أجابني بغروره المعتاد:

ـ عادي يا أخي المؤيدين.. غريبة دي؟

لم تكن غريبة بما يكفي، لكن الأغرب كان ما أخبرني به عبد المنصف، أن الصحف لا تنشر ما يرسل إليها، لا بالشكل ولا الحجم المناسب، ولولا حملات شركته الإعلانية لما نشروا الدعاية التي تخصه.

ـ حازم حمدي ده ابن مين؟

أجبته بأنه مجرد شخص عادي وإن كان من أسرة غنية لكنه بدون نفوذ خاص، فأجاب بغضب:

ـ الكيال بيلعب.

فجأة حكمت الوزارة باستبعاد حازم حمدي لأنه لم يقدم أوراق اعتزاله اللعبة والقوانين تقتضي أن يكون اللاعب معتزلا قبل الانتخابات بعام على الأقل، لم يستطع أحد ولا حازم نفسه أن يثبت أن اعتزاله كان نهائيا، هكذا أصبح الصراع ثنائيا، الكيال وعبد المنصف، كنت أرى أن كل الفرص تصب في مصلحة المهندس إلا أنه هو شخصيا لم يكن مطمئنا:

ـ فيه لعب كبير.. وده معناه أن الخطة مرسومة.. بس مش هاستسلم.

لم يستسلم المهندس حسن، أخذني معه في جولات ميدانية لكل الأندية التي ستدلي بصوتها في الانتخابات، كانت أربعة عشر ناديا لا غير، أبديت حيرتي من العدد مقارنة بعدد من يمارسون اللعبة لكن الوقت لم يكن مناسبا، حفاوة الترحيب به وشهرته في كل مكان كانا سبب شعوري بالاطمئنان كثيرا، كلهم أجمعوا على

أن هناك دعمًا قويًا سريًا للكيال لكن «حسن عبد المنصف» أحق كما رأى الجميع.

ليلة الانتخابات نفسها أقام المهندس حسن مأدبة عشاء ضخمة، عرفني على كل من فيها، كانوا هم بالتحديد مندوبي الأندية الذين سيدلون بأصواتهم في الغد، بالتحديد عشرة من أربعة عشر ناديا. هذا العدد المحدود هو ما تركه منصور في القوائم لأنه كان يخاف وجود أندية أخرى، وضع شروطا مستحيلة للحصول على حق التصويت، وجعلها تنطبق على من يريدهم فقط. هؤلاء هم من يعرفون كيف يلعبون جيدا، لذلك لا يهزمون.

المنافسة والبطولة كانتا ما جمع بيني وبين حازم حمدي، والسياسة كانت ما فرقنا، وكانت الثورة ما جمع بدوي وفريدة ومصطفى القماح.. والسياسة ما فرق بيننا جميعا.

٧٠

اختبار/Test

لم أر في انتخابات الرياضة قبلها ولا بعدها أي نوع من الانتخاب الحقيقي، لا يوجد طرف يستحق الأصوات لأنه الأفضل أو الأجدر أو الأشرف، يوجد فقط طرف يجيد تجميع الأصوات أكثر من الطرف الآخر سواء كان هو الأفضل أو الأسوأ، وسائل جمع الأصوات غالبا غير نقية حتى وإن بدت شريفة أحيانا، خداع ووعود ونقود، تهديد وتخويف وإغراء، وأشخاص يشكلون فريقا كبيرا يوزعون أنفسهم على المناصب في اتفاق مسبق «من أجل الديموقراطية والعدل»!! الوطن كله على نفس الشاكلة، والإشكالية لم تكن في الرئيس الذي رحل بالثورة وحده، فكل الانتخابات التي حدثت بعد رحيله في هذه

المنطقة الساذجة من العالم انتهت عند واحد من ثلاثة، من مثل المال ومن مثل القوة ومن مثل السماء.

عندما قالت لي فريدة إن الشعب سيبحث عن أصحاب الثورة التي ناصرها لكي تكتمل الصورة لم أكن أؤيدها، خبرة السنوات القديمة كانت قد علمتني جيدا، قلت لها إن الانتخابات سيفوز بها واحد من الأطراف التي تفوز دائما في مصر، ضحكت في عصبية وهي تسألني عن مصدر ثقتي فأجبت ساخرا:

ـ من زمان أوي.

ثم بكت بعد ذلك بشهور في انهيار تام عندما نجحت كل التيارات الأخرى بشكل مقبول، عدا من تمنت هي لهم النجاح، سبت الجهل والغباء والبشر، لكنها نسيت أن تسب قلة الخبرة في لعبة لها من يجيدونها جيدا، يبتلعون بسهولة من تطأ قدمه الملعب للمرة الأولى.

حسن عبد المنصف حصل في نهاية تلك الانتخابات على صوت واحد فقط!! كنت أقف إلى جواره وأسمع كل واحد منهم يشد على يده معزيا ويقسم له بأن ذلك الصوت هو صوته، ويلعن كل الخونة الباقين، واحد فقط لم يصافح ولم يتكلم بل غادر على الفور وعلى وجهه مسحة ذهول واضحة، أظنه كان هو صاحب التصويت الوحيد.

الكيال كان يقف بعيدا بنفس هدوئه المعتاد وبابتسامته الواثقة، اقترب من حسن عبد المنصف وصافحه في أدب شديد، ثم استدار إليَّ وضغط على يدي بقوة وهو يقول:

ـ إنتم معايا.. كأنكم كسبتم بالضبط.

لم يكن عندي تعليق، رأيته تصريحًا مجاملًا روتينيًا، لا أحد

عندنا يستعين بأي فرد من المعسكر الخاسر، تتحول العلاقات إلى عداء مباشر وغير مباشر إلى الأبد، حسن عبد المنصف كان في حالة ذهول تام.. وجهه الأبيض غارق في حمرة تامة، وصوته لا يخرج إلا على هيئة بحّات بلا معنى.. تهاوى على كرسي قريب، أوجعته الإهانة أكثر مما أزعجته الخسارة، أنا أيضا كنت أتساءل عما كان يدور في عقول هؤلاء وهم يأكلون وليمته بالأمس وفي قرارة أنفسهم يعرفون أنهم ليسوا معه، وعن شعورهم اليوم وهم يقسمون له أنهم منحوه أصواتهم وفي دواخلهم تتردد أصداء انتصار قذر، قذر لأن أصله خيانة، وانتصار لأن كلًّا منهم اكتشف أنه ليس الخائن الوحيد وأن عددهم يكفي لتميل الكفة حيث كانوا يريدون، لكنه أخطأ، لم يكن يعرف أن الرياضة محمية كبرى لها كائناتها المفترسة، وويل لأي غريب يقترب.

اختفى عبد المنصف من المشهد تماما، واختفيت أنا أيضا حتى جاءتني مكالمة من الرئيس الجديد، دعاني إلى ما أسماه جلسة عمل مطولة، وعندما ذهبت اكتشفت أنها لم تكن مطولة إطلاقا.

علي الكيال كان يعرف ما يفعله جيدا، لم يبحث عن مسالك جانبية ولا عن مجاملات ولا حتى مقدمات، اقتحم قلب الأمر مباشرة:

- بص يابني.. إنت يلزمك حاجة غير الملعب؟
- يعني إيه؟
- يعني تمرن وتكسب وتكسر الدنيا وتطلع في التلفزيون إنت والعيال بتوعك ومالكش دعوة بأي حاجة تانية.
- حاجة تانية زي إيه؟!
- مش باقولك مالكش دعوة.

قالها وهو يضحك ويربت على كتفي، وضع أمامي ورقة بيضاء صغيرة طلب مني أن أكتب فيها المبلغ الذي أريد أن أتقاضاه وتشكيل الجهاز المعاون..

ترددت في كتابة البندين، ظل يراقبني طويلا دون أن يحرك ساكنا، نظرت إليه نظرة سريعة لألتقط تعبيراته فلم أجدها كان وجهه خاليا تماما من أي تعبير سوى ابتسامة تبدو كجزء من ملامحه. لم تبد لي ابتسامة سعادة ولا حب ولا ارتياح ولا إعجاب، مجرد ابتسامة نصف دائرة مقلوبة إلى أعلى على وجه جامد.

«يالا يا عمر يا بني.. خلص، أساعدك.. اكتب الرقم اللي إنت عاوزه وأنا هاعدل فيه بعد كده.. اكتب مليون جنيه يا سيدي وأنا هاديك ألف، إنت حر وأنا حر، وبالنسبة للجهاز المعاون شكل الجهاز اللي يريحك».

ثم صمت للحظات واتسعت ابتسامته أكثر وهو يقول:

ـ إيه رأيك نجيب حازم حمدي؟ ما هو بطل عالم زيك وكده يبقى جهاز مخيف.

ضايقني ذكر اسم حازم حمدي في هذا الموقف تحديدا، الإجابة رنت في أذني مباشرة:

ـ حازم حمدي لأ.

لكني لم أنطق بها، كنت أريد أن أجد مبررا مناسبا، لم أحتج إليه فقد جاء هو به مباشرة:

ـ ولا أقولك، بلاش، واحد منكم كفاية علشان الخلافات، بس ممكن نحتاجه لو ربنا فتح عليك وبقيت مدرب منتخب أمريكا مثلا.

نظر إلى عيني مباشرة وقال ببطء:

- بديلك يعني، ما أنت بديلك لازم يكون بطل عالم برضه، من داخل أو من خارج مصر.

لحظة الفهم، عندما تترابط الخيوط واحدًا تلو الآخر فتنير أمامك في لحظة ضوءا ينعكس على أشياء عديدة مرت عليك دون أن تلتقطها في الوهلة الأولى، هذه الجلسة اللطيفة التي ما زلت أراها عبقرية، ذلك الود المبالغ فيه.. كلها كانت رسائل واضحة، تهديد بالاستبدال سواء بحازم حمدي أو بغيره، الجلسة متكاملة بدأها بعرض صريح.. أنت ملك الملعب في النظام الجديد لكن لا دخل لك في أي شيء آخر.. فأنا لست منصور، ثم عرض المقابل، اكتب الرقم الذي تريده، رسالة مفادها أن العرض سخي، ثم تهديد خفي بأن البديل جاهز ولن يكون أقل منك، ونداء واحد استخدمه معي في كل حواراته من أول يوم:

- يا بني!

يقولها بطريقة ودودة للغاية، لكنها تشعرني بأنني بالفعل صغيره، لا أستطيع أن أعترض لفارق السن الكبير، كان يمكن أن أكون ابنه بالفعل، تساءلت للحظات وأنا أجمع كل تلك الخيوط، هل أنا في موقف إهانة أم في مرحلة عرض جديد لي أن أقبله أو أن أرفضه، نظرت إلى عينيه مباشرة وأخذت نفسا عميقا في تردد، أشار إليَّ لأنتظر ثم قال بود شديد:

«يا كابتن عمر أنت من أعظم الرياضيين في تاريخ مصر، وأنا عاوز أريحك من كل الدوشة القديمة.. أنا با عرف أأقدر كويس، أنا هاعملك كل حاجة.. وأنت بس طلعليَّ أبطال عالم.. ممكن؟».

ثم مد يده وسحب الورقة البيضاء التي أعطاها لي، الرقم كان مغريا ومفاجئا في آن واحد، ولم يمهلني لحظة للتفكير:

- مبروك!!

ثم أضاف بعد لحظة:

- جهز بقى الجهاز بتاعك، وأنا بعد إذنك يعني هازود اسم واحد!!

نظرت إليه مستنكرا:

- اسم واحد؟

أجابني ببساطة:

- آه، مدرب واحد صغير.. من تلامذتك برضه.. خليه معاكم يتعلم منكم.. وحط إنت برضه اللي إنت عاوزه!

نظرت في الورقة التي أعطاها لي، كانت تحمل اسما بدا مألوفا بشكل ما، وعندما قلت له ذلك ابتسم وهو يؤكد أنني سأعرفه حين أراه، أبديت اعتراضي مؤكدا أن ذلك يُعَد تدخلا فيما قال لي إنه سيكون عملي أنا منفردا أو ما أسماه هو الملعب، لكنه رد على الفور:

- إطلاقا، هيكون مجرد عضو في الفريق، إنت حدد المهمات والواجبات، ده جزء إداري مش فني.

جلست أحدق فيه في صمت، كان الأمر مثيرا لأشياء كثيرة في داخلي، تساءلت عن المسافة الطويلة التي تفصل بين التردد الذي في داخلي وبين شجاعة ذلك الصبي الصغير الذي وقف في وجه رجل آخر شغل نفس المكان والكرسي وقال له بمنتهى الشجاعة: لا!

هل سنوات العمر هي التي تعبث بنفوسنا فتخلق منها كائنا آخر مشوها، هل كان الصغير أحمق أم أن الأكبر حقير، أم أن السر هو أنني لم أملك ما أخاف عليه مثلما يحدث الآن، أخاف على تاريخ صنعته بعرقي ومجهودي ولم يعد أمامي لكي أحافظ عليه سوى أن أتنازل عن مبادئ كان تسكن عقلي وتحرك جوارحي بكل شرف!

٧١

تهديد النظام/System threat

علامة حمراء كبيرة وحيدة على صفحتي، تحمل وصفا مقتضبا: فيروس!

ذلك هو اللقب الذي أطلقه واحد من اللاعبين على المدرب الصغير الذي لم يفهم أحد وظيفته الحقيقية في البداية، ثم تطورت الأمور سريعا وعرفنا جميعا وظيفته.

عندما رأيته لأول مرة تذكرته على الفور، كان لاعبا متوسط المستوى يأتي من آن لآخر لينضم إلى المنتخب ثم يعود من حيث أتى بعد محاولات فاشلة، أذكره جيدا فقد كان يزعجني كثيرا، يطاردني في كل مكان ليمد يده إليَّ مصافحا ويقبلني بود كما لو كنت صديقا قديما، يبحث عن أي شيء أحمله في يدي ويطلب مني السماح له بأن يحمله عني، لكنني كنت أرفض، رغم ذلك ضممته مرة واحدة إلى المنتخب لأنني رأيت فيه شيئا ما، سافر معي لبطولة وحيدة ثم استبعدته إلى الأبد، كان يملك من الإمكانيات ما قد يتطور فيصنع منه بطلا حقيقيا، لكنه لم يملك في داخله روح البطل، كان يملك روح الكلاب الخائنة التي تجلس على مائدة البوس، يتدرب جيدا، ثم يخشى أيام المنافسات الحقيقية، واحد لواحد في ملعب لا يعرف سوى الأرقام، كان الجميع ينشغلون بالتدريب أما هو فكان ينشغل بالوشاية بزملائه لا سيما منافسيه في الوزن، يفتح معي أي حوار ليقوده مباشرة إلى الحديث عن لاعب أساء إليَّ أو آخر غارق في علاقة غرامية مع زميلة ملعب، لم تكن تلك الأمور تشغلني مطلقا، يحبني لاعب أو يكرهني، يحب زميلته أو يكرهها، تلك المرحلة كانت بداية عملي في التدريب، عندما

كنت لا أزال أملك روح البطل وقلبه، لا أفهم سوى النتائج التي تظهر على اللوحة الإلكترونية دون أن تعرف شيئا عن صاحبها، أنهره مرة وأسمع بلا إنصات مرة، وأحاول في كل مرة أن أسحبه من مساره إلى مسار آخر، مسار الأبطال الذين تنقطع أنفاسهم فلا يجدون وقتا للكلام.

فوجئت به يعود مرة أخرى بشكل جديد، هاتف محمول ومفتوح على خط مباشر مع سيادة اللواء لمدة أربع وعشرين ساعة على مدار اليوم، كل شيء ينتقل مباشرة كاملا أو ناقصا أو مشوها أحيانا، لا أعرف كيف ومتى وصل إلى سيادة اللواء وجلس أمامه ولا الطريقة التي قدم بها مؤهلاته له لكي يضعه في مكان يحلم به عشرات أفضل منه، لا يعيبهم سوى شيء واحد.. أنهم أشرف منه أيضا.

الغريب أنه كان واضحا وصريحا ومباشرا فيما يفعله، يفتخر بأنه عين اللواء وأذنه ويضحك مع اللاعبين عندما يسخرون منه بجمل متوارية، يتظاهر بعدم الفهم أو ربما بالفهم مع تصالح كامل مع النفس.. حتى في موضع كنت أنا أراه حقيرا للغاية.

لاعب عاد لنا من سنة التجنيد ليمنحه وصفا آخر يستخدمونه هناك لأمثاله «عصفورة» ثم أصبح اسمه عصفور، ثم في النهاية استقروا جميعا على أن يصبح اسمه حمامة لأن أحدا لن يفهم مصدره ومعناه سواهم، أعجبني الاسم كثيرا، أصبحت أناديه به فيجيب بدون تردد ضاحكا ودون حتى أن يسألني عن مصدر الاسم، وهكذا التصق به ذلك النداء من الجميع:

الكابتن حمامة!!

المبلغ الذي أصبحت أتقاضاه وطريقة الكيال معي في إقناعي بكل شيء وحلمي الجامح بصناعة تاريخ جديد لي وللعبتي في مصر

جعلوني أتغاضى عن الوضع الجديد، في الحقيقة لم يكن الوضع سيئا، الميزانية تضخمت، معسكرات التدريب خارج وداخل مصر أصبحت بدون حساب، وكل ما أريده أصبح رهن إشارتي، الرئيس الجديد بالفعل لم يكن يتدخل في أي شيء يخص عملي وطريقتي في التدريب، كان مؤمنا بإمكاناتي تماما، ربما أيضا ساعد على ذلك أنه رآني «عمر الخياط» بطل العالم والمدرب العالمي، لم يرني مثل منصور، طفلا صغيرا يناضل ويجاهد ويتعب ثم يصل، لم يكن في صدره حقد قديم من مقاومتي له، حتى توكيل الأدوات الرياضية دعمني فيه وساعدني بقوة لأصبح المورد الأكبر والأشهر لجميع البلدان العربية والأفريقية، لا سيما بعد أن نجح هو أيضا سريعا في أن يسيطر على الاتحادين، أصبح المال جزءا من معادلتي، أرقام ضخمة تتحرك في حسابي شهريا، وهو لا يريد مني أي شيء سوى أن أبتعد عن الجزء الذي يريده هو.. سياسة الرياضة!

لا يمكنني أن أحكي بسهولة تفاصيل التحولات التي غزت روحي بدهاء شديد رويدا رويدا إلى أن أصبحت «المعلم»، يشبه الأمر تسلل الظلام في الشتاء ليغطي كل شيء في يوم تكون فيه أنت شارد الذهن على شاطيء البحر، يحمر قرص الشمس ويسقط في البحر دون صوت فتنتبه فجأة لتنظر إلى ساعتك ثم تستسلم لسنة الكون، ربما كنت أملك اختيار البقاء في النهار، مدربا لناد كبير أو حتى لمنتخب من المنتخبات الخليجية التي توالت عروضها عليَّ، لكن مصر كانت تختلف، كانت تملك من اللاعبين والفرص ما يتناغم مع حلمي في الخلود، في الخليج العربي كانت فرصي جيدة لأحصد مالا يساوي ما كنت أحصل عليه من مصر حتى بعد إضافة أرباح الشركة، لكنني كنت سأفقد العنصر البشري، هؤلاء المقاتلين

الذين يستيقظون كل يوم ليحاربوا كل شيء لكي يصلوا إلى مكان التدريب، يحاربون الزحام والفقر والمرض ونظام التعليم، يحاربون أنفسهم وتحركهم رغبة ملحة ليصبحوا شيئا يختلف عن كل المحيطين.. أبطالا.

٧٢

A dream/حلم

المِعلّم.. تنطق بالعامية المصرية بـ(كسر الميم) و(تشديد اللام) لتعبر عن السيطرة والقوة أو القدرة على القيادة، حمامة هو الذي أطلق عليَّ ذلك اللقب، لم أكرهه ولم أرفضه كما لم يرفض هو لقبه، وكما لم يرفض الكيال لقبه الجديد «الريس» الذي يلتصق دائما بصاحب الكرسي، سنوات مرت تلتهم أيامي واحدا تلو الآخر، لم يكن الوضع سيئا، اسمي يكبر كل يوم، والكيال أيضا يكبر ويأخذني في يده لأدعمه في المكان الذي اختاره لي والذي تمنيته لنفسي، المدرب العالمي، مجموعة من اللاعبين الموهوبين اخترتهم بعناية وأمانة من كل مكان في مصر، من الإسكندرية وحتى أسوان، من المدينة والقرية، احتجت لعامين ليصبح عندي قوام ثابت للفريق، حصالة الميداليات العالمية تمتلئ، بطولة العالم في التايكوندو ١٩٩٣ مصر في المركز الرابع عشر، مصر تقفز إلى المركز الخامس في كأس العالم بذهبية وفضيتين ثم مصر رابعا على العالم في بطولة العالم بهونج كونج ١٩٩٧.

لم أراقب ولدي يكبر بالتدريج، كنت أراه بين البطولات والمعسكرات فأجده يزداد طولا، فأنظر إليه وأتساءل متى ستأتيني الفرصة لأقضي معه ما يكفي من الوقت، كنت أعد نفسي بأنني

بمجرد تحقيق الميدالية الأوليمبية سأتفرغ لولدي وزوجتي، أما في تلك الآونة فقد كان الحلم يجري وأنا أجري خلفه، أصبحت مصر ضمن الأربعة الكبار، النجاحات تتزايد، والأخبار الجيدة تتوالى، وفي الطريق جاءت أعظم الأخبار في حياتي على الإطلاق؛ التايكوندو يضاف رسميا إلى دورة الألعاب الأولمبية اعتبارا من أوليمبياد سيدني ٢٠٠٠، وهنا كان لا بد أن يأتى الحلم الجديد، الميداليات التي حققناها في أوليمبياد برشلونة وسول لم تمنح مصر ترتيبا لأنها كانت لعبة تجريبية بلا ميداليات محتسبة، وتم إقصاؤها من دورة أتلانتا التي أضاء شعلتها محمد علي كلاي، شاهدته على شاشة التلفاز وتمنيت لو أنني شاركت فيها فقط لألتقيه، عرفت فجأة أن اللعبة ستعود كلعبة رسمية.

هكذا وجدت نفسي جزءا من حلم كبير.. ميدالية أوليمبية لمصر لأول مرة في التايكوندو، كل شيء معد، اللاعبون والمدرب والخبرة والنتائج والحلم، والكيال موجود لنُجري إعدادا تاريخيا ونحصل على الدعم الذي نريده كاملا، فالكيال يجيد الحصول على كل شيء. والمجد سيكون مشتركا.

تحول الأمر إلى معركة حياة كاملة، الخطوات واضحة وإن كانت صعبة، كان عليَّ أن أختار اللاعبين، كنا في عام ١٩٩٩ وبقي عام واحد على الدورة الأولمبية الكبرى، الخطوة الأولى كانت في اختيار اللاعبين، علينا أن نختار من بين ستة عشر لاعبا أربعة فقط، هذا هو قانون الدورات، كان الحلم يراود الجميع حتى اللاعبين الذين لم يكونوا في قائمة المنتخب في ذلك الوقت كانوا يحلمون بالمشاركة، المجد الذي يبحث عنه الجميع، مجرد المشاركة في الدورات الأوليمبية شرف كبير، لكنني لم أجد وقتا

لأضيعه تحت شعارات جوفاء مثل تكافؤ الفرص والباب المفتوح للجميع.

أبلغت اللواء الكيال بقراري مباشرة، لا أريد أي لاعبين جدد هذا العام، الوقت لا يتسع للتجارب، بل ولا أريد جميع لاعبي المنتخب في كل الأوزان، أعلنت أنني سأكتفي بستة لاعبين لأختار منهم أربعة فقط لاحقا، الميزانية التي ستصرف على ستة عشر يمكن أن تصرف على ستة فقط، كل منهم سيكون نصيبه ثلاثة أضعاف الرقم المخطط له، هكذا يكون الإعداد جيدا، كنت أريده أن يكون معسكرا دائما وجولة واسعة، من كوريا إلى مصر ومن أوروبا إلى الصين إلى تركيا، يجب أن يكون الاحتكاك خارقا للعادة، وضعت عدة شروط لاختيار اللاعبين، لا يعرف أحد حتى الآن أنني اخترت من سيشارك من أول لحظة عرفت فيها بأن سيدني ستكون بداية الأوليمبياد الرسمية في لعبتي، أما تلك الشروط فكانت مجرد استكمال للخطة، بعد استبعاد احتمالية ضم لاعبين جدد كانت الاختيارات بين اللاعبين القدامى، لن أسمح لأي لاعب بالمشاركة في أي نشاط دراسي على مر العام التالي، لا حاجة لي بأطباء ومهندسين في تلك المرحلة فنحن لا نشكل نقابة مهنية، التفرغ شرط واضح، كنت أعرف أن هذا الشرط سيسقط على الأقل ثلاثة لاعبين وعلى الأكثر خمسة منهم، هؤلاء لا حاجة لي فيهم، أنا ضحيت بأعوام طويلة من دراستي من أجل المجد، الشرط الثاني كان في النتائج السابقة، الأولوية لمن حققوا ميداليات في بطولات عالمية سابقة، هكذا اقتربت من التشكيل الذي أريده، عدا لاعبة واحدة كنت أريد مشاركتها وهي لم تحقق شيئا قبل ذلك، كان لا بد أن أجرى استثناء طفيفا، اقترح عليَّ حمامة أن نجعل اللاعبات

بدون شرط تحقيق نتائج سابقة ونكتفي بالتفرغ فقط، فعلنا ذلك، وتحقق لنا تقريبا ما أردناه.

هكذا أصبح كل شيء معدا للإعلان عنه في الصحف، كنت أتوقع اعتراضا كبيرا من اللاعبين الذين كانوا يحلمون بمنافسة تافهة من أجل الوصول إلى المشاركة والحصول على فرصة القتال من أجل ميدالية أوليمبية، قد يكون جميع من يشاركون فيها لا يصلحون، وحتى إذا كان منهم من يصلح، من يضمن لي في يوم مباراة التصفية أن يفوز الأفضل؟ ومن يضمن أن الأفضل يفوز دائما؟ عادة الأمور ليست كذلك، قد يفوز في كل مرة لاعب لا يستطيع المنافسة دوليا لكنه يجيد اللعب في صالة مغلقة على ضفاف النيل، أنا كنت أعرف جيدا كيف أنتقي من سيفعلها، اتهمت بالظلم والفساد والديكتاتورية، لم يكن صحيحا.. أغبياء!

قرر اللواء الكيال أنه طالما وضعنا طريقة واضحة للاختيار تصل بنا إلى ما نريد فلا مانع من أن يعلن كل شيء في مؤتمر صحفي كبير كما كان يحب دائما، اختار قاعة متوسطة في أحد الفنادق ودعا عددا لا بأس به من ممثلي الصحف، إمعانا في الشفافية فقد سمح أيضا لمدربي الأندية واللاعبين بالحضور لسماع النظام النهائي للاختيار.

أعطاني الكلمة، شرحت كل شرط ومبرراته، رأيت رءوسا تهتز في اقتناع، لم يكن هناك أي معارضات، فجأة من مؤخرة الصفوف وجدت قامة ترتفع ناهضة من جلستها، وصوت جهوري يردد:

- بس ده ظلم!

لحظات صمت طويلة تلتها دورات الرءوس بحثا عن صاحب الصوت، كنت أعرفه بالطبع، عندي الآن من الشجاعة ما يكفي

لأقول إنه كان لاعبا جيدا جدا، لكني لم أر فيه تلك الموهبة الطاغية التي قد تجعلني أضعه في مصاف اللاعبين العالميين، لا أعرف لو كان قد استكمل مسيرته ما الذي كان سيقدمه.

نظرت إليه بغضب، لم يمهلنا الكثير وانطلق صائحا بأن العدل يقتضي إقامة تصفيات مفتوحة ومتاحة للجميع بدون شروط، وأن أي اختيارات مباشرة لن تؤدي بنا إلى شيء إلا ما وصفه هو بأنه «هوى شخصي للمدربين».

أثارتني جرأته، تدخل اللواء الكيال متحدثا بدبلوماسية عن المصلحة العامة والرؤية الفنية، لكن اللعين لم يسكت، بل أكد بصرامة أن ذلك غير صحيح ولا علاقة له بالدورة الأوليمبية، ثم ضحك بتهكم وهو يقول:

ـ مفيش تصفيات منتخب من سنين. عمر الخياط بيختار بمزاجه وبيمشي الناس بمزاجه..

لم أعرف أبدا هل كان ذلك كلامه أم من إعداد شخص ما، بدأ يعدد في اللاعبين الذين تم صرفهم من المنتخب في الأعوام القليلة السابقة، الداخلين والخارجين بلا مبرر كما وصفهم، هذه تم تسريحها لأنها طلبت أسبوعين إجازة لمرض والدتها وكانت الظروف لا تسمح، وتلك تم التغاضي عن غيابها لمدة شهر في رحلة مع الأسرة لفرنسا، وهذا تم صرفه لسوء سلوك مع لاعب أكبر، وهؤلاء تشاجروا ولم يتم صرف أي منهم، وهؤلاء لم يتم اختيارهم مطلقا رغم فوزهم في جميع بطولات مصر.. و.. و..

دراسة وافية أجراها هذا اللعين، لم أتوتر.. عندي أسباب حقيقية لصرف كل واحد من هؤلاء، لا أحد منهم مقرب لقلبي ولا العكس، أنا كنت أعرف جيدا كيف أختار، في تلك الأمور تحديدا لم تتغير

اختياراتي بمرور السنين، لا حاجة لي بمباريات تافهة أختار منها، أملك عيني وخبرتي، لماذا أحافظ على لاعبة تترك التدريب من أجل كل امتحان، تتفوق نعم لكنها في النهاية ستتركني من أجل حلمها بأن تصبح في هيئة التدريس، غيرها أحق بالمال الذي سنستثمره فيها طالما ستبقى، تلك كانت تسافر فرنسا مع أهلها لكنهم وهبوها للرياضة منذ سنوات فلماذا أخسرها وأخسر وجودها، وذلك الشاب الأخير الذي هو أنت كان وقحا، جريئًا وصفيقًا ومشاكسًا.. كنت أريد أن أتخلص منك في أقرب فرصة لكيلا أجد نفسي في موقف مثل ذلك.. وقد كان!

كان الحوار مثيرا لشهية الصحفيين، وكان هو يعرف تمامًا كل ما يقول، والرد كان صعبا، أدرت وجهي إلى الكيال فلمحت على وجهه ارتياحا كاملا أو ربما بدا ذلك لي، لم يكن غاضبا، استكمل اللاعب الوقح مداخلاته بينما انسحبت أنا من المؤتمر غاضبا، والكيال ترك كل شيء ليستكمل حتى النهاية.

عدت إلى منزلي والغضب يملؤني تماما، كيف يمكن لكلب وضيع مثل هذا أن يحرجني أمام الجميع، لن أتركه، أمسكت هاتفي المحمول واتصلت باللواء الكيال، صببت عليه غضبي لأنه لم يقف في صفي، أجابني بنفس البرود:

ـ ما ينفعش.. كان فيه صحافة.. والولد شكله عنده حق يا عمر.. قصدي كلامه مرتب.

لم أستطع أن أتمالك نفسي ووضعت نفسي في كفة ميزان أمام ذلك اللاعب الصغير الوقح:

ـ يتشطب..

أجابني على الفور:

ـ هاشطبه.. بس سيبني أرتبها.

كل صفحات الرياضة في اليوم التالي كانت تتكلم عني، صورتي في كل الصفحات تتساءل عن طريقة إدارتي للمنتخب، يتهمونني بأنني ديكتاتور أعبث في الفريق كيفما أشاء ووقتما أريد، البعض يدافع عني بناء على نتائجي والبعض يرى أن طريقتي تقتل مواهب جديدة كثيرة، لم يتهمني أحد بالفساد، بينما تساءل أحدهم في خبث عن دوري في الإطاحة باللواء منصور منذ سنوات بعيدة في سبيل توسيع سطوتي على الفريق.

شعرت في ذلك الوقت أنهم حفنة من ناكري الجميل، أما الآن فأشعر أنهم ربما كانوا على حق، كنت غاضبا في التدريب المسائي، جمعت اللاعبين لأسألهم عن رأيهم فيما قيل، لم يأتني رد بالنفي أو الإثبات، لعنتهم جميعا، كان حمامة هو الوحيد الذي دافع عني بقوة ووصفني بأنني أفضل من تعامل معه في حياته، لم أشعر بأن دفاعه عني يضيف لرصيدي أمام نفسي بل على العكس، حمامة يدافع فقط عن الأقوياء، طلبت منه أن يصمت، أما اللاعبون فكان تدريبهم في ذلك اليوم كجرعة تدريب عقابية لكتيبة جيش.. ولحسن حظهم لم يعترض أحد.

رغم قسوة الهجوم لم تكترث ريهام بما يحدث، جمعت الجرائد ووضعتها أمامي وهي تتساءل في غضب عما يريدونه مني، ثم أكدت لي أنني على حق، وأن هذا الصغير إذا لم يلق جزاءه سيتحول الأمر لفوضى، لم أكن أريد أن أتحدث في الأمر، دخلت إلى غرفتي وألقيت بجسدي على سريري في ظلام تام، لكني لم أنم تقريبا، ولا أذكر الآن هل كان أرقي غضبا مما قيل عني أم محاسبة لنفسي على ما يحدث.

يوم التدريب التالي لم أكن في حالة جيدة، كان التدريب قاسيا ومتوترا مثل اليوم السابق، فجأة رأيت جسدا صغيرا يظهر من خلف الباب الزجاجي مستأذنا في الدخول، قمت من مكاني لأفتح الباب مرحبا، وتلاقت كفي بكف ريم في سلام قصير مليء بروائح الذكرى، منحت اللاعبين راحة قصيرة على الفور وأشرت إليهم ليغادروا صالة التدريب، فغادروا مبتسمين في دهاء بعد أن صافحوها على التوالي، كانوا يعرفونها كبطلة سابقة، وبعضهم يعرف حكايتها معي. حاولت أن تخفي اضطرابها وأن تدير عينيها بعيدا عن وجهي وهي تهمس:

ـ إزيك يا عمر!

أومات مجيبا بأنني بخير، فابتسمت وهي تؤكد لي أنني أكذب، وكانت على حق.

ـ بقيت زي اللوا منصور يا عمر؟

آلمني الوصف، استنكرته وأنا أجيب محبطا:

ـ حتى أنتِ يا ريم صدقتِ؟

أجابتني وهي تنظر إلى الأرض بحزن:

ـ إنت بقيت أوحش من منصور.. أنا ولادي بيلعبوا وباسمع المدربين بيتكلموا عنك، بيقولوا عليك نفس اللي كنا بنقوله عليه..

حاولت أن أدافع عن نفسي لكنها لم تكن منصتة، انتظرت حتى أنهيت كلامي ثم قالت في هدوء:

ـ أنا مش عارفة إنت شايفني كويسة ولا وحشة، بس إنت عارف إنت إيه بالنسبة لي، أنا جاية أنبهك.. عارف منصور عمل في مصطفى القماح إيه؟ مصطفى كان ممكن يبقى بطل العالم زيك، هو اللي خلص عليه علشان يربيه، بلاش تعمل زيه يا عمر، وما تنساش إن عندك ابن.

ثم قامت من مكانها وصافحتني مرة أخرى، سحبتها سريعا وهي تقول:

ـ خد بالك من الولاد كلهم، ومن مصطفى، أنا عارفة إنكم لسه أصحاب..

ثم غادرت دون أن تنظر خلفها مرة أخرى.

٧٣

سؤال/ Question

الضمير، ذلك الهامس الذي يأتيك ليوقظك عندما تغيب عنك قباحة ما تفعله تحت تأثير رغباتك الشخصية، قد يأتيك من داخلك كروح تتلبسك للحظات فتقبلها أو تصرفها في عناد، وقد يأتيك من الخارج على هيئة صديق أو موقف يوقظك من سباتك، هذا ما فعلته ريم، وكان أول شيء فعلته بعد انصرافها هو اتصالي بمصطفى الذي غاب عني طويلا، استعدته مرة أخرى رغم الاختلاف الذي قررت أن أتقبله.. لأنه صديق العمر، عانقني في امتنان وهو يبلغني بأن زوجته وضعت مولودا أطلق عليه اسمي، ثم وجدته بعد قليل يكرر في عتاب نفس ما قالته ريم ويشبهني بمنصور، فساورني الشك في أنهما قد يكونا على حق.

اندهش الكيال من تحولي المفاجئ إلى النقيض، رفضت عقاب اللاعب وتمسكت بإعادته إلى المنتخب على أن يتم لفت نظره، لم يستسغ الكيال الفكرة، أصر على إيقافه لحين انتهاء التحقيق معه بخصوص ما زعم في حقي وحق الاتحاد، أمسك بكلمة واحدة خرجت من لسانه في واحدة من حواراته مع الصحف.. «الفساد»،

هكذا كان التحقيق في تلك الكلمة فقط والبحث عن الأدلة التي تدعم اتهامه للاتحاد بها، حاولت إنهاء الأمر لكن التحقيق أخذ مساره الذي اختاره «الريس» بدقة، تحقيق بطيء ومتراخٍ، تؤجل الجلسات في كل مرة لإحضار ورقة أو صفحة من جريدة أو شاهد جديد، مدة كل تأجيل شهر أو شهران، لم يشطب اللاعب لكنه اعتزل اللعب وتفرغ لدراسته، وإلى اليوم لم يغلق التحقيق! لكن ريم أنقذتني، لم تتركني لأشعر بتأنيب ضمير مزمن ما بقي من حياتي، أحيانا أشعر أنني كنت شريكا في اعتزاله اللعب.. لكني أجد ارتياحا كبيرا لكوني حاولت، حتى لو لم أستطع.

تتدحرج الأيام ككرة معدنية مصقولة على منحدر معدني أملس عندما تكون الفترة حرجة والاختبار قادم، شهور قليلة تفصلنا عن الدورة الأوليمبية، ستسبقها بطولة كأس العالم الأخيرة والتي اعتبرتها وسائل الإعلام اختبارا نهائيا لي ولفريقي قبل المشاركة في الأوليمبياد، أصبح الصداع ملازما لرأسي ليلا ونهارا وأحلام اليقظة وكوابيس النوم تراودني، لماذا لم يكن الأمر كذلك عندما كنت لاعبًا؟ غالبا لأنني كنت مسئولا عن نفسي فقط، أراهن على ما أفعله لا على ما سيفعله الآخرون.

أربعة أشهر فقط هي الفاصلة بين البطولة الأكبر والبطولة الأهم، الأكبر قياسًا لعدد المشاركين في كأس العالم في مختلف الأوزان، فهم أضعاف من يشاركون في الدورة الأوليمبية، كان العالم بأكمله ينتظر ما ستسفر عنه تلك البطولة لتحديد المرشحين للفوز في أولى الدورات الأوليمبية، المنافسة لن تكون سهلة، لكني كنت متفائلا.

كنا في شهر إبريل على حسب ما أذكر، درجة الحرارة كانت معتدلة في ليون، المدينة الفرنسية الجميلة، لحظة وصولنا إليها

وقفت أنظر إلى لافتة الترحيب وأنا أسألها هل سترحبين بي وبمن معي أم سأعود منك مكسور الخاطر والحلم، الكيال كان موجودا، كيم استقبلني ليؤكد لي أن فريقي مرشح بقوة وأن اسمي في عالم التدريب أصبح مساويا لاسمي في عالم اللعب، حكيت له ما يتهمونني به في مصر فأكد لي أن ما أفعله ليس غريبا وإن كان شائكا، أخذ نفسا عميقًا أتبعه بزفرة قصيرة وقال:

ـ الاختيار المباشر عندما يكون في محله يكون أفضل، لكن هل يعدل البشر في حكمهم غالبا؟

سألني فلم أجب، لم يعقب هو أيضا وتركنا الحكم للأيام التالية.

أربع ميداليات متنوعة لمصر في تلك البطولة التي شارك فيها من سيتصارعون قريبا مرة أخرى، فضية وثلاث برونزيات، احتفلت كما لم أحتفل من قبل منذ يوم الهروب الكبير للاعبي فريقي في بداية مسيرتي، كانت الفرحة طاغية والثقة تتزايد والحلم يقترب، عدت لأجد نفسي فجأة أصبحت بطلا قوميا، لا صوت يعلو فوق صوت الدورة الأوليمبية حينما يأتي الوقت، أصبحت ضيفا دائما مع فريقي على كل البرامج التلفزيونية وفي صفحات الرياضة، لأول مرة كانت أخبارنا تحتل صدر الصفحة وتحتها تأتي أخبار من قبيل فوز نادي الترسانة على الأهلي في الكأس، اختفت كل الأصوات المعارضة وبقي لنا فقط.. انتظار الإنجاز الكبير.

اخترت اللاعبين الأربعة الذين سيشاركون في الدورة الأوليمبية بشكل نهائي ومباشر أيضا، هذه المرة لن يعترض أحد، مبروك الشاب الرشيق الذي يستطيع الوقوف في الهواء وهو يضرب خصمه، والذي حصد فضية العالم، وعلام البطل المخضرم الذي يحمل تاريخا عريضا فهو أقدم لاعبي الفريق، ولاعبتين لم أهتم كثيرا بالتدقيق

في اختيارهما لأن فرصهما في الفوز كانت معدومة تماما، لا بأس، تكفيني ميداليات الرجال.

قررت أن نقضي الشهور الباقية في كوريا، لم أكن أريد أن يؤثر شيء على تركيزنا جميعا، أجريت اتصالاتي بكل من أعرف هناك، لا بد للإعداد أن يكون أسطوريا، كانت أوراقي تحمل خطة كل ساعة من ساعات التدريب، في الجبال والسهول، مع المنتخب والأندية وحتى مع الجامعات، كيم سيدرب الفريق يومين كل أسبوع من أجلي، في طريق الحلم.

بدت الأمور مبشرة، اللاعبون في أفضل حالاتهم، مع ذلك كنت شديد التوتر، لم يعل صوتي في حياتي مثلما علا في تلك الأيام، لم أقبل الخطأ مطلقا حتى وإن كان طفيفا، كيم نهرني أكثر من مرة لشدة انفعالي، وعندما فقدت الوعي في أحد التدريبات، منعني من النزول حتى نهاية الأسبوع وتولى هو الأمر كالمعتاد.

كيم كان مكتفيا بعمله في الجامعة كمعلم أكاديمي للتايكوندو، يساعد الجميع كما ساعدني يوما لكنه لا يريد أن يكون مسئولا عن الآخرين لكيلا يُجن مثلي على حد قوله، في نهاية ذلك الأسبوع أصر على أن تكون الإجازة من التدريب أطول من المعتاد، ثلاثة أيام على الأقل بدلا من يوم واحد:

ـ أنت تحترق.. وكذلك لاعبوك.. لا مجال للمناقشة.

أعد لنا برنامجا حافلا في نهاية الأسبوع، أرسل لنا طالبة جميلة من جامعته تعمل مرشدة سياحية في أوقات راحتها، تنقلنا بين المعابد والأسواق التجارية والملاهي الضخمة الموجودة هناك، اخترت أنا ركوب قطار الموت السريع كما يطلقون عليه، كان يعلو ويهبط ويدور في دوائر واسعة وأخرى ضيقة، فتنت به وركبته ثلاث مرات متتالية رغم

أن جميع اللاعبين لم يوافقوا حتى على ركوبه مرة واحدة، كان يدور وينقلب ويعتدل في لحظات.. أسمع الصرخات من حولي فأبتسم في ثقة، لأني كنت على يقين من وصولي في النهاية لنقطة الأمان.

ثم ذهبنا لزيارة غاندي مرة ثانية، مر عليه العمر هادئا فقد كان على حاله تقريبا، استقبلني بنظرة دهشة وهو يتحسس كتفي وظهري بيديه المعروقتين، كنت منذ المرة السابقة أشعر بأنه يخفي عني شيئا، عندما قلت لكيم ذلك استنكر الأمر، أكد أن الرجل لا يمكن أن يكذب:

ـ لا يكذب لكنه يخفي عني شيئا.

بعد كوب من مشروبهم التقليدي ورؤيته لأيام عطل كيم طلبت منه الكشف عن أيامي القادمة، ابتسم في هدوء بينما كان كيم يخبرني بإجابته:

ـ إنه لا يرى المستقبل.. ما يفعله قراءة لعلامات موجودة في جسدك تدل على ما يحدث.

ـ اسأله مباشرة عما يخص علاماتي أنا.

حاول الرجل المقاومة ثم هز رأسه في استسلام، أجرى حساباته وأجرى يده على رأسي وهو يهمهم بكلمات غامضة، ثم تنهد قائلا في حزن:

ـ استمتع بما تملك الآن.. فالقادم لن يكون مثله.

ثم رفض أن يقول أي شيء آخر.

٧٤

تاريخ/History

شغلني ما قاله لكنه لم يخِفني، غاندي رأى شيئا من أول زيارة لي لكنه لا يريد أن يصرح به، لم أكترث كثيرا، مجرد دجال مثل

الموجودين في كل أنحاء العالم، وكان سؤالي له من باب الفضول، مثل امرأة تهمس للقواقع وتقرأ الكف فيلح عليك الفضول لتعرف ما ستقوله لك وتمنحها بضعة جنيهات لتضحك من كلامها الذي يبدو مناسبًا لكل البشر بلا استثناء.

في آخر أيام الإجازة أخذني كيم لقضاء اليوم في قصر البوس، لم أكن في حالة اشتياق لكنه أصر، كان يريدني أن أخرج من أجواء الضغط والمنافسة، أخبرني أن اليوم يحمل مناسبة خاصة ويريدني أن أعيشها، وصلنا إلى القصر، كانت الأجواء مختلفة كثيرا، ركن العجائز تضخم حتى تجاوزت جليساته المائة، لم يعدن صامتات، أصبحن يتكلمن طوال الوقت عن حكاياتهن بشكل مختلف، لم يعد الصوت هادئا ولا النغمة حزينة أو تحمل شبهة العار.. أصبحن ثائرات، حولهن مجموعة من طالبات المدارس الثانوية يبكين وهن يستمعن إلى حكاياتهن، كيم كان يترجم لي مقتطفات من الحوار وهو يخبرني أنهن تزايدن بعد أن أعلنت الساحرة الطيبة حكايتها، أصبحت لهن مراكز تسمى باسمهن، دور ضحايا عنف الحروب، لم يعد أحد يطلق عليهن نساء المتعة بل أصبحن ضحايا الحرب، الساحرة العجوز أخبرتني وأنا أقبل رأسها أنها لا تحب ذلك الاسم أيضا، هن لسن ضحايا بل بطلات لأنهن صمدن وفضحن دولة بأكلمها داست عليهن في أيام الحرب.

كانت دفقة شعورية لها رائحة الذكريات، لماذا أصبحت حياتي في مصر صراعًا فقط دون روحانيات، سألت نفسي ولم أجد رِدا.

ظهر البوس بعد دقائق، متأنقا كعادته ومضطربا تماما على غير العادة، احتضنني وحدثني بالكورية بسعادة طاغية، ثم اعتذر لي لانفعاله وهو يخبرني أنني كنت دائما فألا حسنا عليه..

ـ سأحكي لك عندما أعود..

ثم غادر كطفل صغير، لم يسامح أبدا تلك الحرب التي مزقت أسرته واغتصبت هؤلاء النساء، تبنى قضيتهن بحثا عن انتقام من كل من شاركوا في ظلمهن وعن تعويضهن عما مررن به ولو في آخر أيام الحياة، ولم يتوقف عن محاولة الوصول إلى أسرته، إلى أن جاءت الفرصة.

وجد البوس من تبقى من عائلته، كان ذلك يوم اللقاء الذي أعدته الأمم المتحدة والحكومتان من أجل اللقاء الأول بين الأسر التي مزقتها قسمة الكوريتين، مائتي أسرة فقط من بين آلاف، بالطبع كان من السهل بنفوذه أن يكون ضمن المجموعة الأولى، أشار كيم إلى الحائط الذي أصبح يحمل صورا لأفراد أسرة البوس بعد أن حصل عليها من الجهة الأخرى استعدادا للقاء القريب.. وضع شرائط سوداء توضح أن غالبيتهم قد مات قبل أن يحين اللقاء.

كان كيم على حق، أخرجني من عالمي تماما ووضعني في عالم حقيقي آخر، نساء تم اغتصابهن على هامش الحرب يسعين بعد أن تجاوزن السبعين للحصول على اعتذار عسى أن يخفف شيئا من أوجاعهن التي يصعب تخفيفها، ورجل في نهاية العمر ذاهب للقاء من تبقى من أسرة مزقت أشلاءها نفس الحرب، أما أنا فأكاد أجن سعيا وراء ميدالية مزخرفة في بطولة حتى وإن كانت عالمية، بين هذه الشعوب أيضا من يسعون خلف نفس الحلم، قيمة الحلم حق لصاحبه فقط.. المهم وأنت تحلم أن تعرف قيمة الحقيقة وتتصالح معها.

كنت أريد أن ألتقي البوس بعد عودته، جلست أنقل عيني بين الساحرة الطيبة ورفيقاتها وبين صور الحائط والطالبات الجالسات من حولهن وكيم صديقي الجميل، دمعت عيناي غضبا عني وأنا

أفكر في رحلة حياتي التي كانت كل مصاعبها جميلة حتى وإن بدت شاقة، مصاعب اختيارية من أجل المزيد لا من أجل الحياة، كان يمكن أن أكون مكان أي من هؤلاء النساء أو أن أعيش مشردا جزءا من حياتي مثل ذلك الرجل، الغريب أنني شعرت بالخوف في تلك اللحظة، قيمت حياتي بأنها كانت سهلة وسلسة ومستقرة تماما، لو أن لكل إنسان أربعةً وعشرين قيراطا فقط لكان لا بد أن تكون هناك خسارة فادحة قادمة، هززت رأسي لأفيق وأنا ألوم نفسي على استكثارها لنعمة الله.

عاد البوس ليلا، رجلا آخر غير الذي ذهب، على وجهه ملامح اكتئاب شديدة لم أرها من قبل، اختفت الضحكة والاستبشار وبدت عيناه حمراوين كسيرتين، لم أتحرك من مقعدي وأنا أراه داخلا في تثاقل، حاول أن يبتسم حين رآني لكنه فشل في ذلك، قال لي في انكسار:

ـ رأيت توأمي..

صمت للحظة ثم أضاف..

ـ لكنه لم يعد أخي الذي أعرفه.. أصبح كائنا مشوها.

وابتعد مردفا:

ـ هو أيضا قال عني كذلك، واحد منا شوهته الحياة في كوريته، أو ربما كلانا!

ثم توقف فجأة ليلعن الجميع، كلامه كان متداخلا مضطربا عن الأنظمة الحاكمة التي تفعل في أبنائها ما يفعله الآباء في أطفالهم، تقهرهم أو تشوههم أو تقضي عليهم تماما، بشكل ما، كان يتوقع لقاء أكثر دفئا وتقاربا، لكن الأخوين بعد نصف قرن من الزمان اكتشفا أنهما فقدا القدرة على التواصل، كان لقاؤهما حزينا لأنهما شعرا بأنهما ينتميان لعالمين مختلفين، ووك العجوز بعد أن عرفت

من البوس تفاصيل لقائه الحزين بأخيه جمعت صاحباتها ودخلن إلى غرفهن وهن يبكين، الحروب إجرام، والإنسان يتحول إلى كائن مجرم عندما يحارب، لم يستطع دين ولا علم ولا خلق أن يسيطر على وحشية الإنسان في الحرب، ربما يستطيع فقط أن يضع إطارا أنيقا لما سيحدث، النساء غنيمة للمنتصر، فلتطلق عليهن نساء متعة أو سبايا حرب أو أسرى، أو حتى تتزوجهن قسرا كما كان المحتلون يفعلون في مصر، كله اغتصاب مقنن بشكل ما، الحكام أيضا يغتصبون الشعوب والدول أحيانا، ما الذي جعل البوس وأخاه يصبحان كائنين لا يكادان يعرفان بعضهما؟ لا اللغة تغيرت ولا الدين تغير ولا الزمن تغير، تغير الحاكم فتغير المحكوم.

سعيد الحظ من يصمد أمام تغيرات الحياة ويظل على صورته الأولى، هل حياتي أنا أيضا تشبه ما حدث لعائلة الرجل؟ هل عندما كنت أحيا في دولتي الأولى التي كنت أحكمها كنت شخصا، وعندما تحولت لعضو في دولة حاكم جديد، كان ذلك الكيال أو منصور، تغيرت حياتي مرة أخرى وتحولت لكائن مشوه؟ الأكيد أنني في تلك المرحلة كنت أتذكر صباي وبدايات شبابي فأشعر بالأسى، لأنني أرى بوضوح أنني أصبحت شخصا آخر.

تحول مصطفى القماح أيضا مرات عديدة، ترك نفسه لفكرة الانسياق خلف من يرفعون شعار الدين، أيا كان ما يفعلونه، أعرف أن جرحه في الدنيا كان يفوق حجم جرح وجه فريدة، لذلك أصبح أمله أن يأخذ الحق الذي سلب منه في العالم الآخر، دشن فجأة صفحته على الفيس بوك رغم أنه قال لي يوما إن الفيس بوك «حرام»، صفحته هي ما حل لي اللغز، ما بين افتتاحها واشتراكي فيها ثلاثة أيام تقريبا، مع ذلك اقترب عدد أصدقائه من الألفين،

كلهم يستخدمون نفس الشعارات والألفاظ ويشاركون نفس الفيديوهات والصور.. ويعجبون بنفس الأشياء. أن تكون تابعا شيء مريح للجميع، مصطفى لم ينتم لأي جماعة كما قال عنه خالد فاروق، لكنه قرر أن يسير وراء من يمهدون له طريق الجنة، لماذا كنت أرى الأمر غريبا، مصطفى كان بطلا لكنه لم يكن مقاتلا، منصور هزمه في النهاية وعلمه ألا يفتح فمه بشجاعة مرة أخرى، وهم أيضا هزموه عندما أقنعوه بالبعد عن السياسة من أجل الدين، ثم أقنعوه بأن يعود للسياسة من أجل الدين.. وكان هو يبحث عن إرضاء الله، ثم فقد عقله في مرحلة ما من الطريق.. تماما كما فقدت أنا أيضا جسدي.

٧٥

حدث/Event

دورة الألعاب الأوليمبية ـ سيدني ٢٠٠٠

توالت خسائر اللاعبين المصريين في جميع الألعاب أثناء تلك الدورة فتضاربت مشاعري، ما بين حزني وتأثري من أجلهم وبين شعوري بالتفاؤل، إنجازي الفريد يقترب، عمر الخياط المدرب المحلي الذي لم يتجاوز الخامسة والثلاثين سيحقق الحلم، كل الأحداث تتجه إلى ذلك الطريق، حتى اللاعب الذي هزم مبروك بصعوبة في بطولة العالم وفاز بالذهبية أصيب ولم يشارك، وعلام هو المرشح الثاني لوزنه والقرعة ستفصل بينه وبين الأول طبقا لنظام التصنيف.

دعاني الاتحاد الأسترالي على هامش الدورة الأوليمبية لإلقاء بعض المحاضرات للمدربين المحليين في أستراليا مع نخبة منتقاة

من مدربي العالم، يتحدث فيها كل منا عن طريقة تدريبه وخبراته مع لاعبيه. قبلت على الفور، أعجبتني فكرة أن أحاضر أفراد العالم الآخر، أعددت محاضراتي جيدا، كلاما بسيطا لكنه علمي، أمثلة تطبيقية على كل حالة، وجزءا عمليا مصورا بالفيديو ليلة المحاضرة من تدريبات اللاعبين المشاركين في الدورة الأوليمبية التي ستقام بعد أيام، هكذا يكون الأمر أكثر واقعية وفائدة.

عقدوا لنا سلسلتين من المحاضرات في مدينتين مختلفتين، لم يأخذ الأمر الكثير من الوقت، نهارين فقط، لكنه كان ممتعا لي كثيرا، ثم أجروا تصويتا بين المشاركين لاختيار أفضل محاضر، جاءت نتيجته مذهلة للجميع، المصري حصد أعلى الأصوات، ومطالبة باستضافتي لعقد دورة مطولة لاحقا لأنهم يريدون المزيد، أثنوا على إنجليزيتي الواضحة التي اكتسبتها من الجامعة الأمريكية مقارنة بباقي المحاضرين الذين أتى أغلبهم من الشرق الأقصى، استقبلني رئيس الاتحاد في مكتبه في سعادة، كان عربيا لبنانيا مهاجرا رأى في الشعبية التي اكتسبتها فخرًا له، ووقعنا عقدا بدورة تدريبية كاملة بعد انتهاء الدورة الأوليمبية، بمقابل يقترب من راتب عام في مصر.

منافسات لعبتي كانت في الأيام الأخيرة، السابع والعشرين من سبتمبر عام ٢٠٠٠، تاريخ لا ينسى، عشت أستعد له طويلا، كل سنوات اللعب والتدريب والفوز والهزيمة استثمرتها لذلك اليوم، مع خسارة آخر لاعب مصري قبل أن نبدأ المنافسة تضاعفت علينا الأضواء، مكالمات تتمنى لنا الفوز من كل الصحف والقنوات وحتى من مكتب الرئاسة، كنت أعرف أن المتابعة ستكون كبيرة لكن الأمر فاق المتوقع. لم أسمح لأحد بالحديث مع اللاعبين

لكني كنت أخبرهم أولا بأول، أصبحنا فجأة ـ ولأول مرة ـ نتصدر قائمة الرياضة المصرية.

الوزير والسفير والصحافة والإعلام تراصوا في مقصورة الملعب في انتظار الاحتفال.

ما هي المعادلات التي تحكم الدنيا والقدر؟ الأمر أكبر من قدرتي على الفهم، في هولندا من سنوات بعيدة كانت كل التدابير والاستعدادات والحسابات تؤكد أنني لن أحصد شيئا فحصدت عددا تاريخيا من الميداليات، وفي أوليمبياد أستراليا كان كل شيء يؤكد أن كل ما يفصل بين لاعبي فريقي وبين أن نحصد الميداليات هو أن يأتي يوم البطولة، الخسارة واردة دائما لكن هناك حسابات ومنطق، كلاهما لا يتفق مع ما حدث، لن أفهم مطلقا كيف كان الناتج صفرا كبيرا!!

اللاعبون الذين حصدوا ميداليات وزن مبروك كانوا ثلاثة من الذين هزمهم هو في مشوار بطولته من أشهر قليلة، والمثير للسخرية المريرة أن اليوناني الذي حصد الذهبية كان قد خسر أمام مبروك بنصف دستة من النقاط في شهر إبريل ثم فاز هو على مبروك بنفس النتيجة في شهر سبتمبر من نفس العام، بمنطق لعبتي وحساباتها هذا مستحيل، لكنه حدث على أي حال، وعلى الجانب الآخر لم تتبع اللجنة المنظمة نظام التصنيف لتجنب تلاقي الأبطال مبكرا، ووقع علام مع بطل العالم في ربع النهائي وخسر بدون مقاومة أيضا.

على قدر الانتظار كان الانكسار، رأيت من أتوا للاحتفال ينفضون واحدا تلو اللآخر وعلى وجوههم حسرة وخيبة أمل كبرى، لم يكلمني أحد، كيم فقط أشار إليَّ من المكان الذي كان يجلس فيه داخل الملعب كمراقب فني للبطولة، إشارة عشوائية بيده

لا تعني شيئا سوى خيبة الأمل والتعزية، هو أيضا كان ينتظر، أنا أيضا لم أتكلم مع باقي اللاعبين، مع نهاية مباراة فريقي الأخيرة في تلك الدورة جلست بلا حراك على الكرسي، حاولت أن أتماسك ظاهريا لكن في داخلي كان الانهيار كاملا، عندما أشار إليّ الحكم لأغادر الملعب لم أستطع، جسدي ثقيل كأطنان من الحديد، وخدر شديد في ساقي متزامنا مع نبضات قلبي التي تسارعت حتى ظننت أنه سيتوقف إلى الأبد، للخسارة ثمن فادح يدركه كل من مارس الرياضة جيدا، ويتضاعف عشرات المرات في البلاد التي لا تعرف الكثير من الانتصارات على عكس المنطق.

أوقفوا المنافسات وانتظروا مغادرتي التي تأخرت إلى أن عاد لي مبروك من الخارج وهو يبكي معتذرا وكلامه مختلط لا أفهمه، اتكأت عليه بكل ثقلي حتى كاد يسقط فعاوننا عدد من المتواجدين داخل الملعب، وأخذوني إلى غرفة الملابس، خلعت السترة التي كنت أرتديها، وضعتها على رأسي وسكنت عن الحراك تماما كما حدث لي بعد هزيمتي من شعبان في بداية مشواري، وانسابت دموعي بشكل لم أعرفه قبل ذلك اليوم ولا بعده، دموع صامتة غزيرة متوالية بدون بكاء، لا أعرف كم مر عليَّ من الوقت في جلستي تلك، حاولت النهوض عدة مرات لكني لم أستطع، كان الألم يعتصر قلبي ويهز جسدي بأكمله بلا رحمة.

كنت أفكر في الآتي، لن يرحمني أحد في مصر، هؤلاء الذين لم يذكروني في كل الأحداث السابقة إلا ليوم أو يومين ثم تغيب أخباري مرة أخرى كما لو أنها لم تكن، سينتهي المشوار بأكمله تحت سيوف الصحافة التي لن تترك من جسدي وجسد اللاعبين جزءا إلا وستغرس فيه، الرياضة ليست مقامرة لكنهم يجعلونها

كذلك، خسارة واحدة قد تعني نهاية كل شيء.. والعامة لا يعرفون شيئا عنا سوى النتائج.. وهكذا تحولنا الخسارة عندهم للا شيء!

عندما تحركت من مكاني كان الظلام قد حل والجوائز وزعت على من حصدوها، سرت على مهل كعجوز صدمته سيارة في طريق سريع لكنها لم تقتله ولا حطمت عظامه، توجهت لمقر البعثة في إحدى السيارات المخصصة لذلك، كان هناك بعض اللاعبين والمدربين من الفرق المصرية الأخرى يجلسون أمامه والعلم الكبير الذي يغطي الدورين بالكامل فوق رءوسهم، لم يكلمني أحد، بدت الشماتة على البعض فتألمت، والباقون بدت عليهم الشفقة فآلموني أكثر.

٧٦

مشاهدة فيلم/Watching a movie

فيلم تيتانيك الشهير يعرض على الشاشة الصغيرة الموجودة في ظهر مقعد الطائرة، كانت القائمة طويلة، لماذا اخترته تحديدا، لأنني كنت أريد فيلما قويا رومانسيا أو كوميديا يشغلني عما كنت فيه، اخترته لأنني رأيته قبل سنوات طويلة وأحببته جدا، اتضح لي أنني لم أكن قد شاهدته جيدا، كيف لم ألحظ تلك المشاهد من قبل، فهي أروع ما فيه، وأكثرها إيلاما.

موسيقى الكمان تعزف بعذوبة مؤلمة في مشهد الغرق، الفرقة الموسيقية تقف على السطح لتعزف أثناء لحظات الغرق، وقبطان السفينة يقف شامخا ليمسك بدفته في اللحظات الأخيرة، وصانع السفينة يعدل من الساعة التي توقفت ليحفظ التوقيت بدقة من أجل التاريخ.. ثم يقف قائد الفرقة الموسيقية ليقول لرفاقه: لقد كان من دواعي فخري العزف معكم الليلة!

كانت سفينتي أيضا تغرق، الجرائد المصرية كلها ستنسى كل الخاسرين وسيكون الحديث عنا فقط، لأننا كنا في ختام البطولة، ولأننا كنا من المرشحين، ولأننا خسرنا أمام من فزنا عليهم منذ فترة وجيزة، إلى جواري الشابان العائدان بحمل ثقيل من الخسارة، واللواء الكيال يجلس في مقدمة الطائرة في درجة رجال الأعمال، والحوار الذي دار بيني وبينه يقفز أمام عيني متزامنا مع تلك المشاهد.

أخبرني صراحة وبدون مواربة أن الأزمة كبيرة، وأنه لا بد من كبش فداء للجميع.. ثم قال:

ـ واحد مننا هيضحي باللي تحت منه فيحمي الكل!

ثم شرح لي النظرية، أن أضحي أنا باللاعبين وأتهمهم بالتقصير فأنجو وينجو كل من فوقي، أو أتحمل أنا المسئولية ويضحي هو بي فينجو ومن فوقه، أو يضحي الوزير به ويتهمه بالفشل فينجو من احتمالية إقالته:

ـ الموج هيكون عالي ومفيش مفر.

الثقب كبير والغضب جارف والغرق حتمي، كنت متأكدا من ذلك، الحلقة الأسهل على الإطلاق في مشروع التضحية كانت إلى جواري، هذان الشابان الضعيفان اللذان بلا ظهر يستندان إليه، لكن لا بد أن تكون بمبادرة مني فكل واحد يستطيع التضحية فقط بمن تحته مباشرة.

أي دور اخترته لنفسي في فيلمي المرعب، الذين قفزوا من السفينة أم الذين استكملوا حتى النهاية وتحملوا خطيئة لهم فيها يد أو لا علاقة لهم بها، ما زالت تلك المشاهد تطاردني، وأحفظ اللحن الذي عزف جيدا، تعرفه أذني من بين ألف مقطوعة ويكتنفني صمت رهيب، الآتي مخيف، كل الواقفين في بطولة سيغرقون، ومن

داسوا على رءوسهم وقفزوا في قوارب النجاة سيصلون إلى اليابسة ويصبح ما حدث لهم مصدر اهتمام وأحاديث وبطولة لا تنتهي، كان القرار صعبا، أقسم أنني في تلك اللحظات شعرت أن سقوط الطائرة بنا لن يكون حلا سيئا، بديلا عن الهجوم والسخرية التي سألاقيها.

ما الذي فعلته؟ لم أخن لاعبيَّ، رفضت أن أهاجمهما أو أن أتهمهما بأي شيء، لكني أيضا لم أحاول حمايتهما، هربت مرة أخرى وأغلقت عليَّ بيتي وابتعدت عن الجميع، انتظرت إقالتي وامتنعت عن مطالعة الصحف التي رأيتها بعد شهور طويلة وعرفت أن ما توقعته أنا لم يكن الحقيقة، بل كان أكثر رحمة مما كتب.

عرفت أن اللاعبين قررا أن يكونا كبشي فداء بشكل اختياري، مبروك لم ترحمه الصحف ولا الناس لأنه خسر، تناسى الجميع أن هناك مكسبًا وخسارة وتعاونوا على ذبحه إلى الأبد، اختفى في قريته وانضم إلى الجيش ولم يدخل حتى السرية الرياضية التي دخلها شاب يُدعى حسيب تدرب لبضعة أشهر في إحدى قرى أسيوط، أما هو فخجل أن يقول إنه بطل العالم، الخاسر الكبير في الدورة الأوليمبية.. ودفع الثمن.

أما علام فاعتزل في هدوء، لم أهاجمهما ولا دافعت، لم يكن هناك داع للمزيد من الخسارة، مبروك لم يلعب بعد ذلك مرة ثانية، فقدناه وهو لا يزال في بداية عشرينياته رغم أنه واحد من أعظم لاعبينا، لا أعرف تحديدا أين وصل لكني أشعر تجاهه بعقدة ذنب مزمنة، كان لا بد على الأقل أن أجعله بجواري في الجهاز الفني، بديلا عن حمامة الذي فُرض عليَّ كأمر واقع بعدما أقال اللواء الكيال كل المساعدين الأكفاء كشكل من أشكال تغيير الجهاز، وجعل حمامة قدري المستدام، ولا أعرف كيف قبلت.

شاهدت فيلم تايتانيك مرة أخرى بعد ما يقرب من خمسة عشر عاما جالسا على الكرسي المتحرك، الموسيقى تعزف في هدوء، يرتجف جسدي الذي لم يعد يفعل أي شيء آخر بقوة، كل شيء كما حدث في الطائرة، موسيقى الكمان والفرقة الموسيقية، وقبطان السفينة يقف شامخا..ثم الغرق.

عصام أشار إلى الشاشة في توتر:

ـ البلد بتغرق زي المركب دي بالضبط!

ضممت شفتي في حيرة، لم تعد لديَّ أي معلومات ولم أعد أدري من أصدق، فريدة رحلت، اختفت من حياتي لفترة بعد انتخابات الرئاسة التي تطابقت نتائجها مع مجلس الشعب، فريق القماح فاز مرة أخرى، ذكرتني باختفائي القديم بعدما أقصاني منصور من الدنيا التي أحببتها، تفهمت ما تشعر به، كل أحلام ما بعد الثورة انهدمت، والندبة الطويلة على وجهها ستذكرها إلى الأبد بما حدث، تشعر بالقهر لأن الخيانة جاءت من داخل الصفوف على حد قولها، مصطفى صديقي الذي حملها جريحة هو نفسه الذي سبَّبها لاحقا، لم أستسغ أبدا صوته ولا لكنته وهو يؤكد على إيمانه التام بحكمة وإخلاص من قادوا «الفترة الحرجة»، صحيحا كان ما يقول أو غير صحيح، الأكيد أنه أصبح أحمق مثل عصام الذي يكرر ما يقال في محطات التلفزيون، والذي تطابق غالبا في تلك المرحلة مع ما كان القماح يسمعه في أماكن أخرى.

لكن الوضع بالتأكيد لم يكن مستقرًّا، الكهرباء تنقطع يوميا بمعدل لا يقل عن مرتين، صفوف السيارات الواقفة أمام محطات البنزين تبدو مخيفة وتنبئ بكارثة آتية لا ريب، مصطفى القماح لا يريد أن يجيب على اتصالاتي، كنت أريد فقط أن أطلب منه أن

يوصل لهم رسالة إذا كان يعرفهم حقا، الاعتزال السريع، لا يمكن أن تبقى مديرا فنيا لفريق لا تستطيع السيطرة عليه، الاستقالة أفضل من الإقالة، قبل أن تقضي على الفريق بأكمله، بالطبع تختلف الأمور بين مجرد فريق ودولة بأكملها، الدول أكثر خطورة وأشد حساسية، لذلك ينبغي أن يكون التنازل أسرع من أجل ملايين الرقاب المعلقة بين يديك.

٧٧

هل أنت متأكد أنك تريد مغادرة هذه الصفحة؟/

Are you sure you want to leave this page?

قررت الانسحاب معتذرا بعد الفشل الأكبر في حياتي، جاءتني الدعوة من أستراليا في الوقت المناسب تماما، كان النشاط الدولي هادئا كالعادة بعد الدورة الأوليمبية، تذكرتان لي ولريهام لنذهب إلى هناك لشهر كامل، كنت أريد أن أبتعد وأجرب حياتي بعيدا، بالفعل بدا الأمر تغييرا كاملا، كل شيء كان هناك مختلفا، الفنادق التي أقمنا فيها والسيارات والاحترام.. عالم أسطوري آخر يضاف إلى كل ما مررت به، توالت المحاضرات من مكان لآخر.. أسئلة تتوالى في كل المجالات وإجابات مباشرة أو تحضير وعودة بعد يوم بالإجابات، تدريبات عملية على المنتخبات، أضافوا إليَّ في نهاية المدة دورة أخرى بمقابل مضاعف.. وفي النهاية كانت المفاجأة المدوية.

عرضوا عليَّ أن أصبح مديرا فنيا لمنتخب أستراليا، أنتقل إلى ملبورن وأعيش هناك وتنتهي علاقتي بمصر، العرض كان مغريا بشكل مذهل، لكني لم أستطع تقبله ببساطة، فكيف يمكن أن أبدأ

في مكان جديد، أنا نجم سماء لعبتي في كل دول المنطقة.. أما هناك فلا توجد نجوم، فقط كل إنسان يؤدي عمله وعليَّ أن أتحول إلى مجرد ترس، كبيرا كان أو صغيرا..

لماذا تصبح الأيام أغلى في قيمتها المادية على الأقل في أي مكان نعمل فيه خارج مصر؟ ولماذا أيضا نرتبط بمصر كل هذا الارتباط رغم شعورنا الدائم بالضغط وصعوبة الحياة، الناس على الأغلب، بيني وبين بلادي حب وبشر وأجواء لم أرها في مكان آخر، الشارع الذي لا ينام ولا يهدأ أبدا، والبشر الذين يتآلفون معك سريعا حتى وإن لم يعرفوك قبل ذلك، وارتفاع قيمة النجاح في مصر حتى وإن كان نجاحا بسيطا، احتفالات الأهل وفخر الأصدقاء، حتى السيارة الجديدة لها قيمة معنوية، ولكل عمل جديد قيمة تحصدها مشاعر من الذين يحيطون بك.

ريهام كانت مشجعة إلى حد كبير، أحبت الحياة البراقة هناك، الشوارع النظيفة المتسعة والبشر الذين يتحركون بغير قيود ولا تدخل في شئون الآخرين على حد قولها.

أعلنوا انتظارهم توقيع العقد مباشرة، طلبت مهلة قصيرة للتفكير فاستضافوني لأسبوع إضافي، أخذوني فيه في جولات متتالية للمدن الكبرى هناك، قاعات التدريب ليست هائلة المساحة كما يوجد في النادي الكبير الذي أتيت منه في مصر، المهم الوظيفة، لا مجال لكون المكان يحمل طابعا ماديا فاخرا، المهم التدريب، والمهمة ستكون أسهل، سيكون معي فريق عمل كامل افتقدته دائما في مصر، معد بدنيا ونفسيا وآخر لتغذية اللاعبين، اللاعبون يريدون مجدا عالميا لا نهائيًّا وليس مجرد مرحلة مؤقتة من حياتهم كاللاعبين

المصريين، ربما لكل تلك الأسباب قررت أن أقبل العرض.. أبديت موافقة مبدئية لكي أطوي صفحتي مع مصر إلى الأبد.

في نهاية الأسبوع تم ترتيب لقاء خاص بيني وبين رئيس الاتحاد، كنت أترقب اللقاء، اسمه كان حافزا لي في حد ذاته على حب أستراليا، محمود راغب، مسلم لم تقف ديانته في طريقه، عندنا في مصر كان دخول لاعب مسيحي إلى المنتخب يكون حدثا معقدا.

راغب كان سعيدا بوجودي، جلس يعدد لي مزايا التواجد هناك، كلها أمور تتناول حركة الحياة وترتيباتها، لكنه لم يتحدث مطلقا عن البشر والمشاعر، شيء ما في حديثه جعلني أشعر أنه يفتقد وطنه، نبرة صوت تذكرني بأحاديث البوس عن أسرته التي ضاعت منه وعن أحلامه التي فقدها في انقسام بلاده التي لم يكن له يد فيها، أما راغب فقد كان يلوم نفسه بشكل ما ويشعر بأنه فقد الكثير في هجرته:

- ما راح تتعود بهالسهولة... بس راح تتعود في الأخير، نحنا العرب اتخلقنا محملين بأطنان من المشاعر الغبية اللي ما بنلاقيا.. بس هون العمل مِخْتلف.

لكن لم يبد لي أنه يشعر بأن تلك المشاعر غبية، هو نفسه يشعر بها، يفتقد لبنان ويحلم بها لكنه لا يستطيع العودة، هاجر وهو لا يملك أي شيء، والعالم الجديد أعطاه كل ما يستطيع التحصل عليه من نجاح، لكن بقي القلب معلقا بتلك البلاد الجميلة، رغم أنه هجرها في بداية حرب طاحنة مزقت أنيابها كل شيء.

أما أنا فكان لي عمل أمتلكه، وعندي دنيا كاملة، ربما أكون في عثرة مؤقتة لكن كل شيء سيمر، وجدت نفسي أسأله في حيرة:

- لو أنت مكاني.. تسيب مصر وتيجي؟

فابتسم ولم يجب مباشرة، لكني قرأت الرد على وجهه، تردد قليلا ثم قال:

ـ القرار صعب، هون الحياة كتير حلوة، بس حق الغربة غالي، وهو الغربة! حتضل غريب للنهاية، ملامحك وديانتك ولكنتك كلن غريبين، هون حتلاقي الموضوع هين كتير لإن المغتربين كتار.

كنت أفكر فيما قد يحدث لي إذا تعثرت في مشواري كما تعثرت في مصر ولو لمرة واحدة، ماذا سيكون مصيري، وهل في تلك الحالة سأنجح في العودة إلى مصر أم سأكمل مشواري في واحدة من صالاتهم الصغيرة.. أتحول إلى مواطن عادي غريب في دولة لا أتبعها. شعر هو بترددي فطوى العقود التي على مكتبه وهو يقول:

ـ راح أعطيك أسبوع إضافي بعد رجوعك للقاهرة، هاي فرصة ما تضيعها، هون راح تدخل التاريخ يا خيي...

مالت ريهام على أذني لتقنعني بأن الأمر يستحق التجربة، لذت بالصمت واستغرقت في تفكير طويل، لو أنني أضمن استمراري في مكاني في مصر لما ترددت في رفض العرض، أما في هذه المرحلة بعد الخسارة فلا أعرف أي شيء، ربما أعود لأجدهم قد وضعوا آخر مكاني بالفعل، وربما يضعون حمامة نفسه.. أنا فشلت أو على الأقل توقف نجاحي. فلماذا أقامر، إذا كان وجودي هنا سيكون مقامرة فعودتي إلى مصر أبعد من ذلك.. في مصر أنا خسرت بالفعل الدور الأكبر في كل ألعاب الحظ، وعودتي ستكون من أجل مواجهة الخسارة، لا من أجل تجربة حظي.

ـ مش هاحتاج أسبوع جديد..

ثم سحبت القلم ومضيت العقد بأصابع مرتعشة، ابتسمت ريهام

في انتصار.. أما أنا.. فشعرت بمرارة الخسارة، لكنها كانت خسارة جولة واحدة.. حتى وإن كانت الأهم.

اكتشفت في رحلة العودة أن ريهام كانت مقتنعة تماما بالأمر وتعد له في كل خطوة من خطوات الرحلة، اختارت الحي الذي تريد أن نعيش فيه وذكرت لي اسمه فلم أتذكره، وتحدثت عن الخطوات التي سنقوم بها من أجل السفر، كانت تفكر في هجرة كاملة، نبيع الشقة والسيارة وتوكيل الأدوات الرياضية، المدرسة الدولية التي يدرس فيها ولدي الوحيد لها اعتماد في مدرسة مشابهة في ملبورن، تقع في نفس الحي الذي حددته بعد بحثها في صفحات الإنترنت قبل السفر، منظمة كالعادة.. نظرت إليها وأسندت رأسي إلى المقعد ولم أتحدث في الأمر مرة أخرى إلى أن وصلنا إلى القاهرة.

كانت الرحلة طويلة كفاية لأستعرض كل ما مر بي من حياتي، الشعور بأنني قبلت العرض إجباريا يلح عليَّ، كنت أشعر بألم في الصدر، اعتزال جديد، أخرج من مصر في نهاية كل ما فعلت حاملا شبهة هروب من عار هزيمة غير مستحقة، كما قال راغب سأدخل التاريخ، الأمر مليء بالإغراء، والحلم الأسترالي ليس سيئا، الأكيد أنني لو كنت انتصرت في تلك الدورة الأوليمبية وقررت السفر لكان لسفري مذاق آخر.

تساءلت عما كانت ريم ستفعله لو أنها هي من جلست إلى جواري، ريم قلب أحمر زاه كبير.. كانت ستكلمني عن الأهل والنيل والبيوت والشوارع، كانت لتكره الغربة وتطلب مني برومانسية أن أبقى وأحاول حتى الدورة الأوليمبية التالية وألا أرحل إلا رافعا رأسي وحافرا اسمي في صفحة التاريخ المصري الرياضي إلى الأبد، كابتن شربيني ولاعبو السعداوية كانوا ليهنئونني على رحيلي من مصر، وكيم والبوس كانوا سيقولون لي لا ترحل وتترك بلدك، كيم شخصيا رفض عروضا كثيرة

للتدريب في كل بقاع العالم حتى في كوريا نفسها وأصر على البقاء بنتائجه القديمة كلاعب، لم يرد أن يعيب اسمه أخطاء ونتائج تخص آخرين.. حتى وإن كانوا تحت قيادته.

وصلنا إلى القاهرة بعد ما يقرب من يوم كامل، كنت أشعر ببعض الآلام في جسدي من جراء الحبس في كراسي الطائرة الضيقة، وقفت أنتظر الحقائب في المطار.. كانت الحقيبة الأولى زرقاء ضخمة كئيبة، بيني وبين تلك الحقيبة ثأر كبير منذ ذلك اليوم.. جاءت تتهادى على السير فمددت يدي لأسحبها.. أحكمت قبضتي على اليد محاولا سحبها.. فحدث شيء عجيب.

كانت كفي محبوسة في يد الحقيبة عندما شعرت أنني فقدت الاتصال بها تماما، لم أشعر فيها بخدر ولا ضعف، شعرت فقط بأنها لا تخصني، كما لو كانت طرفا صناعيا متصلًا بجسدي، حركة سحب الحقيبة لم تأتِ تلقائية مطلقا، ذراعي بالكامل لم يستجب لي، شعرت بدهشة وخوف رأيت انعكاسهما على وجه ريهام، نظرت إلى يدي وأنا أصدر لها أمرا بسحب الحقيبة كما لو كنت أؤدي حركة صعبة للمرة الأولى في حياتي.. مع ذلك لم تستجب أيضا.. بل جرتني الحقيبة ببطء ولم أستطع إفلاتها ولا جرها، بل على العكس.. جرَّت الحقيبة ما تبقى من جسدي لبضعة أمتار بجوار السير.. ثم سقطت على الأرض فهرع إليَّ الجميع!!

٧٨

عمر خائف/Omar is afraid

سألتني ريهام عما جرى لي فأجبتها كاذبا بأن توازني قد اختل، لم يبد عليها الاقتناع لكن الأمر لم يكن سهل التفسير حتى لمن رآه،

بدوت غالبا كما لو أنني شردت وفقدت تركيزي فأخذتني الحقيبة من يدي، لكن الأمر لم يكن كذلك.

الخوف، عصرة القلب التي تأتي في لحظة وتهبط بكل جسدك وقواك إلى أسفل، الشعور الذي لم يكن جزءا من حياتي قبل ذلك كان هو ما شعرت به، جلست أنظر إلى يدي في حيرة وأفتحها وأغلقها إلى أن استجابت لي مرة أخرى، كان عمري قد تجاوز الخامسة والثلاثين بقليل، لذلك غالبا طمأنت نفسي، وعندما عادت إليَّ يدي قمت من مكاني في نشاط، وأنا أؤكد أن ما حدث كان عارضا، شكرت كل الواقفين من حولي وقمت إلى الحقيبة التي سحبها أحدهم من على السير ورفعتها بسهولة، رفضت أن أضعها في واحدة من عربات المطار بل أصررت على أن أحملها للخارج، بينما ريهام كانت تراقبني في صمت.

تجاوزنا الأمر سريعا، في طريق العودة من المطار كنت أراقب شوارع مصر بتأن كامل. مصر ليست قبيحة أبدًا، أحبها وبيني وبينها رباط طويل فككته غصبا عني بتلك اليد التي وقعت العقد في أستراليا ورفضت سحب الحقيبة في مصر، ربما يكون الأمر فألا، علامة على أن ما أفعله ليس مناسبا لي.

التقيت باللواء الكيال وأخبرته أنني وقعت العقد، لم أتوقع رد فعله، بدا عليه الحزن الشديد وهو يسألني عن سبب قبولي، ثم طلب مني أن أراجع نفسي وهو يؤكد لي أن مثلي لا يجب أن يهاجر، وأن مستقبلي سيظل في مصر، ثم قال في حسم:

ـ أنتَ هنا ملك، هناك آخرك تبقى موظف كويس.. فكر تاني يابني.

حيرني ذلك الرجل حتى النهاية، يحبني أم يكرهني؟ لا أعرف، أعتقد الآن أنه مجرد إنسان عادي، ليس شريرا كمنصور، يفكر في

مصالحه الشخصية قبل أي شيء لكنه لا يشغل باله كثيرا بالآخرين طالما لم يتصارعوا معه، أنا كنت جزءا من مصالحه، هو قالها في ذلك اللقاء، إنه يؤمن بأنني الأفضل في مكاني وأن سقوطي مرة لا يعني شيئا، وأن ما أراه كارثة كبرى لا يُعد شيئًا..

«الناس هتتكلم شوية علينا ومع أول حدث رياضي أو حتى سياسي هينسوا.. الناس هنا بتتكلم بس يا عمر.. محدش بيعمل حاجة».

لكني كنت قد حسمت أمري، تكرر حوار مشابه بيني وبين أبي رغم أنه لم يبد معارضته لي مطلقا في المرحلة الأولى، كان يظن أنها نزوة ستزول سريعا، وأنني سأتراجع عن ذلك الأمر بمجرد أن أهدأ من توابع الخسارة، ثم أعلن رفضه صراحة بالجملة العكسية الشهيرة:

ـ اعمل اللي أنت عاوزه.

ثم انفرد بي بعيدا عن أمي ليسألني عما حدث في المطار، ريهام أخبرته وطلبت منه أن يتكلم معي عندما وجدت مني إصرارا على عدم ذكر الأمر، سألني عن كل التفاصيل والحوادث المشابهة، خليط من مشاعر الأب والطبيب خرج منه جياشا، لكنه بدا لي حائرا، لم يقبل محاولتي لتبسيط الأمر، أجرى مكالمة مع طبيب من أصدقائه وجعلني أحادثه، وانتهى الأمر بالاتفاق بيننا على أن نجري سويا زيارة لذلك الطبيب، حاولت أن أتهرب لكنه أصر أن نذهب في اليوم التالي مباشرة.

وافقت على مضض من أجل أبي، لم أسمع عن مرض يماثل ما مررت به، غالبا هو مجرد إرهاق عارض، بدأت إجراءات عرض ممتلكاتي للبيع في الصباح، أبلغت عدة سماسرة ونشرت إعلانا في صحيفة يومية، ثم ذهبت معه في المساء، لم يكن الطبيب

صديقه بل كان أستاذه كما بدا لي، رجل سبعيني أبيض الوجه والشعر واللحية، في فمه غليون أبنوسي يشعله بولاعة ذهبية من آن لآخر لكنه مطفأ غالبا.

خلعت ملابسي بالكامل تقريبا بناء على أوامره، بدأ الرجل في فحصي من شعر رأسي حتى أصابع قدمي بدون مبالغة، ضرب نورا صغيرا في عيني ثم في فمي، شكني في أطرافي بدبوس رفيع فتأوهت.. وخبط على ركبتي بآداة معدنية صغيرة تشبه المطرقة فضحكت في توتر لأن الأمر ذكرني بفيلم كوميدي قديم.

رغم خوفي من الحقيقة تظاهرت بالهدوء، كنت أمزح كثيرا بشكل مبالغ فيه جعل أبي ينهرني أكثر من مرة، ثم أعلن الطبيب وهو يشعل مدخنته للمرة العاشرة أنني سليم تماما، وأن ما حدث سببه الإرهاق العصبي، بدا على وجه أبي ارتياح لم أره من قبل، وشعرت أنا أيضا براحة شديدة جعلتني أبتسم في انتصار، وغادرنا وحالتنا تختلف تماما عما كنا عليه.

انفجر أبي فيَّ بمجرد ركوبنا السيارة، أوقفها بعد بضعة أمتار وأطلق العنان لكل ما جاش في صدره لسنوات غالبا، بالتحديد منذ انتهت سنوات لعبي، ما وصلت إليه على حد قوله لم يكن حلمه يوما ما، بل أصبح كابوسه، لامني ولام نفسه على تفرغي التام للتدريب الرياضي، قال إنه شريك فيما وصلت إليه، أضعت سنوات الدراسة في الجامعة الأمريكية التي كلفته الكثير وانتميت لمجال كان يريده أن يخدمني فخدمته أنا على حد قوله، وأصبحت إلى الأبد جزءا من صراعات لا تنتهي ومسئول عن فرق تكسب مرة وتخسر ألف مرة رغم أنني لم أكن في حاجة إلى ذلك.

يكره أبي حياتي، يعرف كل شيء، يعرف الكيال وحمامة

واللاعب الذي أنهيت مسيرته، وكل ما كتب عني في الصحف، لم أحاول أن أدافع عن نفسي ولا حتى أن أجيب، تأكدت فقط أن أوان مغادرتي لمصر إلى الأبد قد جاء، صفحة ولا بد من أن أطويها وأبدأ مسيرتي في مكان آخر أتجنب فيه أخطاء الماضي.

٧٩

إلغاء الصداقة/Unfriend

«الصداقة هي أصعب ما يمكن شرحه في العالم، ليست شيئا نتعلمه في المدارس، لكن إذا لم تعرف معنى الصداقة فأنت لم تتعلم أي شيء».

كانت هذه مقولة محمد علي كلاي عن الصداقة، وأنا قدري كان أن أتعلم معنى الصداقة من الفقد، مثل أشياء كثيرة في حياتي لم أشعر بقيمتها عندما كنت أمتلكها، لكنني عرفت كل شيء حين فقدتها.

لو أن لي درسا واحدا أتركه لكل من عرفوني فسيكون عن قيمة ما نمتلك، لا تكتفوا بفعل ما تريدون والحفاظ على ما تمتلكون، توقفوا للحظات وأغمضوا عيونكم واستمتعوا بكل شيء لديكم، أنا الآن أعتذر لحياتي وبطولاتي وصحتي وأصدقائي.. لأنني لم أستمتع بوجودهم في حياتي كما يجب، لهذا كانت مرارة الفقد مضاعفة.

آخر معاقل الصداقة في حياتي، سقطت واحدة تلو الأخرى، صديقة العمر ظهرت بعد غياب طويل، أسندت رأسها إلى رأسي دون أن تتكلم، صمتت تماما، ثم بكت، سقطت دموعها على وجهي فانسابت دموعي دون أن أعرف ما يبكيها، ظننت أنها

الخسائر المتتالية التي لاقتها في مباراة لعبتها بالتأكيد بكل شرف، نطقت بعد وقت طويل بالخبر الحزين، إنها تزوجت وسترحل مع زوجها إلى الشمال البارد.

لم أنطق بكلمة واحدة، حاولت لكني لم أستطع، استخدمت أصابعي رافعا إبهامي لأعلى بعلامة الإعجاب، كنت أعرف أنني لو فتحت فمي سأنهار تماما، تذكرت كل ما مر بي معها على مدار السنوات، الفراق جزء من حياتنا، من المؤسف أن تكون الأمور كذلك، فريدة أيضا كانت تبكي وهي تخبرني، تذكرت ما قالته لي ريم في واحد من خطاباتها منذ عشرات السنين:

«فريدة الوكيل بتحبك».

أنا أيضا أحبها من كل قلبي، لا أعرف كيف يتم تصنيف الحب، خليط من الرغبة في الآخر والاحتياج، التعود ينمي الاحتياج، والضعف والمرض وهذا الكرسي العقيم الذي أجلس عليه منذ سنوات طويلة ضاعفت الأمر.

ثم خذلني القماح أيضا، كنت أظن موقفه في مواجهة خالد فاروق سيكون أقوى، بعد أن نجح فصيله السياسي في كل شيء، هو الذي قال لي يوما إنني سأرى ما يفعله الدين في حياة الشعوب، وأن العدل سيثأر للجميع، ثم انفجر باكيا وهو يفصح عن السر الذي دفنه في صدره لسنوات في تأثر.

مصطفى لم يعتزل اقتناعا بأن الرياضة مضيعة للوقت، ولا لأن العبادة أولى، قاوم كثيرا، انسحب بعد أن هدده منصور بالاعتقال، لم يصدقه في البداية لكنه اقتنع عندما قضى ليلة في القسم دون أن يعرف السبب، فقط أجلسوه في غرفة ليشهد استجوابات مختلفة،

كان يغمض عينيه لكيلا يشاهد الصفعات والركلات وتعليق المتهمين من أرجلهم في سقف الغرفة، فكانوا يأمرونه في حدة بأن يفتح عينيه، وعندما هدأ قال لي في ثقة كاملة إنه لن يترك حقي من خالد فاروق لأن العدل سيكون هو أساس الحكم في هذا الوطن.

ماذا فعل مصطفى بعد كل تلك السنوات، تنازل عن قضية خالد فاروق وظهر ضيفا على برنامجه الذي سبني فيه، لماذا تراجع عن موقفه؟ هذا ما كنت أريد معرفته وهو يخبرني وعرقه يسيل صابغا القميص الداكن الذي كان يرتديه برائحة كريهة، حدثني عن الوضع السياسي وعن ضرورة ضم أفراد مؤثرة لدعم الحكومة الجديدة، ثم قال لي إن خالد فاروق تغير، ولم أسمع في صوته نبرة الاقتناع مطلقا، خالد فاروق لا يتغير، لكنه تلون مرة أخرى، تحول إلى صوت من أصواتهم، عقدوا معه صفقة تضم أشياء كثيرة، وكان من ضمنها قضية القماح، أرسلوا إليه واحدا من أصدقائه ليقنعه بأن الإخلاص للمشروع فرض بينما الإخلاص للصديق مجرد سنة، ثرت على صديق العمر، طردته من منزلي فوقف ينظر إليَّ في دهشة.. ثم غادر إلى الأبد.

٨٠

إعادة توجيه/ Redirecting

حسمت أمري في الانسحاب من مصر بشكل نهائي، قمت بتجميع المنتخب مرة أخرى بشكل مؤقت بناء على طلب رئيس الاتحاد بأن أستمر في مهمتي لحين التعاقد مع مدرب جديد، وأن أتواصل مع كيم لترشيح مدرب كوري لأن اللواء الكيال كان يرى أنه لا يوجد مدرب مصري يستطيع أن يملأ الفراغ الذي سأتركه،

وافقته على ذلك وأجريت اتصالًا بصديقي المخلص، حدث ما توقعته، لم يكن سعيدا بالخبر، كان يرى بالفعل أن انتقالي لتدريب منتخب دولة بحجم أستراليا هو تاريخ جديد سيكتب لي في اللعبة، وأن الخبر سيكون مثار حوار كبير في الوسط لكنه سأل باستنكار:

ـ لكن.. هل تحتاج إلى المزيد من التاريخ؟

لا يوجد تاريخ لبطل رياضي عالمي يفوق تاريخ بطولاته، كنت أعرف ذلك لكني لم أكن أفتش عن التاريخ، كنت أحتاج إلى جغرافيا جديدة، بقعة أخرى أحقق فيها أحلامي بسلاسة ودون ضغوط ولا مواءمات.

تلك الفترة كانت من أحب فترات عملي في التدريب لقلبي وأكثرها راحة، قررت أن أقدم آخر خدمة صحيحة في مسيرتي قبل الرحيل، فتحت أبواب المنتخب على مصراعيه للجميع، درت على الأندية بحثا عن المواهب التي يمكن أن تحل محل الجيل القديم الذي انهار تماما بعد الدورة الأوليمبية، واتصلت بنفسي بذلك اللاعب الذي كنت سببا في إيقافه ليعود، لكنه رفض وقال لي في مرارة:

ـ ما خلاص.. منك لله.

غالبا ما فعلناه معه حول مساره إلى الأبد كما حدث مع القماح، والزمن الذي مرَّ كان كافيا ليغير قلبه وجسده ويمنعه من العودة مرة أخرى، أغلقت الهاتف حزينا لكني مرتاح الضمير لأنني حاولت، لكل منا أخطاؤه، ومحاولة الإصلاح قد تأتي متأخرة أحيانا لكنها نوع عملي من الاعتذار.

ثم رأيت بيومي وهو يلعب في ذلك النادي الصغير في الإسكندرية، كان صبيا صغيرا لم يتجاوز السادسة عشرة لكنه كان موهبة هائلة، بين عشرات اللاعبين الذين وقفوا يتدربون أمامي

التقطت عيني صورته وحفظت تفاصيل حركته من أول نظرة، قط أسمر صغير يتحرك بسرعة فائقة في كل الاتجاهات، يملك قدما يسرى تنطلق من الأرض إلى أي نقطة في جسد خصمه في سرعة الصاروخ، لكنه كان همجيا لا يملك أي خطة أو نظام لعب، لهذا لم أندهش عندما عرفت أن نتائجه حتى داخل مصر لا توازي قدراته الهائلة، يخسر أحيانا حتى في بطولات الناشئين، بيومي كان دليلي أن نظريتي في الاختيار المباشر للمنتخبات كانت صحيحة، لا حاجة لي في أن يكسب مثل هذا الصغير أو يخسر، يكفي أن يتبناه مدرب ذكي.. وسيكون تاريخيا.

ناديته وربت على رأسه وأنا أسأله عن عمره وأسرته وظروف دراسته، كان يقف أمامي مهتزا من فرط الانفعال، لم أتركه في الإسكندرية، أخذته في سيارتي في نفس اليوم إلى مقر إقامة المنتخب، أبوه لم يعارض مطلقا فقد كان يحمل حلما هائلا لا يتناسب مع بساطة شخصيته، لكن أحلام الآباء والأمهات هي المواد الخام التي تنتج الأبطال حتى وإن لم يكونوا أبطالا، هذا ما تعلمته من الرياضة.

عشرة أيام كاملة جمعت فيها عشرين لاعبا وخمسة لاعبات، هكذا أترك ورائي فريقا يذكرونني به، بدأت تدريبهم بنفسي فعادت إلى صدري الحياة دفعة واحدة، كشهقة طويلة نأخذها من الهواء بعد أن أشرفنا على الغرق، تعلمت درسا جديدا خلال هذه الأيام القليلة، إصراري على عدة لاعبين حتى وإن ارتفع مستواهم كان سببا في أن يفقدوا جميعا الحماس، التجديد يغير دماء الفريق بأكمله، وضمان المكان يؤدي لانخفاض الرغبة.

دمائي أنا أيضا تجددت، دربتهم بحماس لم أعرفه لسنوات،

من صحراء الأهرام ومطلع جبل المقطم إلى حمامات السباحة في الأندية، مرحلة أصبحت أطلق عليها اسما رمزيا: مرحلة السعداوية، هكذا نصنع لاعبا قويا يقف كالشجرة أمام خصمه، ترشيحات كيم كانت تأتي وكنت أدرسها بإخلاص شديد، حصرت الاختيارات في ثلاثة أسماء قدمتها إلى الكيال فنظر إليها في خيبة أمل، كان على ما يبدو لا يزال في انتظار أن أغير وجهتي من هناك إلى هنا.

أخرت موعد سفري لشهر كامل متذرعا بطول الإجراءات في مصر، وارتديت ملابس التدريب مرة أخرى لأشارك بنفسي في التدريبات، بيومي هو الذي استفزني، كنت أريد مواجهته داخل الملعب لأعرف كيف يبدو اللعب أمام خصم مثله، الإجابة كانت ممتعة، كان الأمر يشبه مشهدا رأيته في فيلم شهير لملاكم كان مدربه يتحداه في أن يمسك بدجاجة في مكان مفتوح، بيومي كان كذلك، رغم ذلك كنت أجيد تصيد أخطائه، تلك اللحظات التي يتحرك فيها وهو يفكر فقط في أن يضرب خصمه، حركة بلا عقل تجعله يتحرك بضعة أمتار جريًا حيث يمكن أن تستقبله أنت بضربة مباشرة قبل أن يصل إليك، كانت مبارياتي معه ممتعة رغم ثقلي ووزني الذي زاد مقارنة بجسمه الضئيل، في آخر تدريب لنا سويا تعمدت أن أبتعد عنه كثيرا لكي يجري في اتجاهي.. أعددت له ضربة أمامية مباشرة كنت أعرف أنها ستصيبه، هو لم يخذلني.. جرى نحوي مسرعا فسحبت قدمي لأرفعها إلى الخلف.. سحبت بالفعل لكنها لم ترتفع..

استكمل بيومي جريه، وطار في الهواء بقدمه تجاه وجهي، لكنه لم يكمل الضربة، أسقط نفسه على الأرض لكيلا يضرب، وقام فزعا ليمسك بي وهو يسأل في هلع:

ـ مالك يا كابتن؟

بدون شك رأى العلامات على وجهي، الفزع والذهول والخوف من مرة أخرى، قدمي اليسرى غير موجودة، حاولت التظاهر بأني بخير، لكني كنت مسمرا في مكاني، نظرت إلى الكرسي القريب وأنا أؤكد لنفسي أنني على ما يرام.. بيني وبينه خطوة أو خطوتين على الأكثر، تحركت في اتجاهه ببطء.

تحركت ببطء؟! هذا ما قاله لي عقلي لكن قدمي اليسرى كان لها رأي آخر، لم تتحرك معي فسقطت على وجهي وارتطمت أنفي بالأرض وتفجرت الدماء.

٨١

الأسئلة المتكررة/FAQ

كسر أنفي، ذلك الذي لم يكسره المنافسون على مدار عشرات السنين كسره سقوطي على الأرض بخيانة من قدمي، لم أستطع حتى أن أقلب جسدي، كانت الدماء تسيل ساخنة، وأنا أحاول أن أتحرك من مكاني فلا يحدث أي شيء، مجرد جسد ملقى على الأرض خاليا من أي مظاهر الحياة، تعاون اللاعبون لكي يحملوني ويضعوني على الكرسي بينما أنظر في ذهول، ما الذي يحدث، كيف فقدت الاتصال تماما بجسدي، أي نوع من الشلل الذي أصابني، لا بد أنني بدوت كحيوان ذبيح فقد روحه وهو يصفي ما تبقى من دمائه، كنت أملك فقط قدرتي على الكلام، أحاول أن أقول كاذبا إني بخير لكن الأمر لم يبد فيه أي خير سوى أنني ما زلت حيا.

حملوني إلى المستشفى في سيارة أحد اللاعبين، بيومي يجلس خلفي باكيا وهو يضغط على أنفي بمنشفة غاص بياضها في الدماء، كان يحاول التماسك كبطل حقيقي لكنه لم يزل صغيرا، وكنت

أتساءل عما يحدث لي، هل سأمشي مرة أخرى أم أن ذلك هو آخر يوم انتصبت فيه قامتي بغير مساعدة، كنت أحاول استعادة إحساسي بأطرافي لكن بلا فائدة، لم أعد أحاول، لم أكن أريد الاستسلام لكن الأمر فاق قدرتي.

مع وصول السيارة للمستشفى ظهرت بوادر أمل جديد، بدأت قدماي تتحركان بصعوبة أعادت لقلبي شيئا من الراحة، مشيت مستندا إلى المحيطين بي، وضعوني على كرسي متحرك رغم محاولتي الرفض.. همس بيومي في أذني معتذرا:

ـ معلش يا كابتن.. شدة وتزول.

ولم أقو على المقاومة.

أشعات على الأنف ثم تثبيته في غرفة العمليات، مر وقت طويل لكنني كنت أستعيد سيطرتي رويدا رويدا، وفي غرفة العمليات نظرت إلى الضوء الساقط عليَّ من أعلى، كان ضوءا قاسيا يختلف عن أضواء طالما سلطت عليَّ قبل ذلك، وانغرست الأبرة في ذراعي فغاب عني كل شيء.

استيقظت فجأة بعد أن فقدت اتصالي بالعالم، وقت أسود بلا أحلام، وجدت الوجوه تحيط بي من كل جانب، وجوه تهتز أمام عيني، تعرفت إليها واحدا تلو الآخر، أبي وريهام وأمي والكابتن هاني، اللواء الكيال وحمامة، لاعبو الفريق ومصطفى القماح!

ثم ظهرت خيالات البوس وكيم والسيدة ووك الكورية العجوز، وجوه ظهرت ثم اختفت ثم ظهرت ثم اختفت، خيالات العمر تتراقص كأحلام لم تكن، أصوات التشجيع والصراخ والتحية والتصفيق والنصر والهزيمة، وميدالية ذهبية ضخمة تمتد لتزين عنقي، رفعت يدي في انتصار فسقطت سريعا واختفت كل المشاهد وبقي الواقع فقط.

أبي أجرى اتصالاته ليأتي بعدد من أفضل أطباء مصر في أمراض الأعصاب من داخل وخارج المستشفى الذي كنت راقدا فيه، بدأت سلسلة الكشوف والاختبارات، وضعوني في جهاز الرنين المغناطيسي الضخم الذي يبدو كتابوت معدني، كان جسدي يستحق أن يرقد فيه لكن عقلي وقلبي وتاريخي لا يستحقونه، لم أتحدث مع أحد، كنت منشغلا فقط بمحاولة السيطرة على انفعالاتي، أكبحها مرة وتهزمني مرة، أغمض عيني من آن لآخر لأمنع دموعا تكاد تنساب غصبًا عني.

أما الجميع فقد هزمتهم دموعهم عدا أبي الذي كان يردد من آن لآخر:

ـ سلامتك يا بطل..

لكن البطل لم يكون سليما مطلقا، رغم أنني استعدت كل وظائفي الحركية في اليوم التالي إلا أن الآلام والجبيرة التي تحيط بأنفي كانت تؤكد أن إنكار الحقيقة مستحيل، هناك كارثة ما قهرت هذا الجسد.

ـ MS

التصلب المنتشر، كانت تلك أول مرة أسمع فيها الاسم الذي أصبحت أحفظه جيدا وأحفظ كل ما يخصه لاحقا، لم يعن لي سماع الاسم للوهلة الأولى أي شيء، لكن جسد أبي الذي تهاوى وفقدانه القدرة على التماسك جعلتني أدرك فداحته.

لم يكن الطبيب الاستشاري رحيما وهو يشرح لي طبيعة المرض الذي ينقض على خلايا المخ والأعصاب فيضربها واحدة تلو الأخرى، ضربات متتالية بعضها ضعيف وبعضها قوي إلى أن يقضي عليها تماما، فهمت الأمر كما لو كان مباراة غير متكافئة بين

خصم قوي وآخر أضعف كثيرا، لكن القوي لا يريد أن ينهي المباراة بالضربة القاضية، يسقط خصمه ثم يتركه لينهض ثم يسقطه مرة ثانية إلى أن تتجمع الإصابات فينهار إلى الأبد، يشبه ذلك كثيرا انتقام كلاي من إيرني تيريل، الفارق أن مباراتيهما كانتا لهما وقت وحدود، أما هذا المرض فلا توجد فيه حدود لضرر ولا وقت، ولا حد أدنى ولا أقصى، كل شيء محتمل، والعلاج ليس سهلا، أو غير موجود.

«لكن بطل زيك ممكن يقاوم.. فيه ناس بيجيلها المرض وبتقدر عليه!».

كانت تلك بارقة الأمل الوحيدة في كل ما قاله، لكني كنت في تلك اللحظة أترنح من جراء قسوة الهجمة الأخيرة، فلم أستطع أن أعرف مطلقا ما يتربص بي. كل معارك الحياة تافهة إلا معارك المرض، عندما يكون الخصم خفيا ومختبئا داخل الجسد، لا تعرف من أين ولا متى ولا لماذا يأتي، تبحث في داخلك عن المصدر والسبب فلا تجده إلى أن ينتهي بك الأمر بأن تفتش عن ذنب اقترفته فجعلك تصل لهذه النقطة.

كل الذنوب التي اقترفتها في حياتي لا تساوي لحظة واحدة من لحظات قسوة الهجمات على جسدي، لكني لا أعرف الحسابات التي يتم بها تقييم الأمور في تلك الحالات، لم أجد من يمكنني أن أناقش معه الأمر غيره.. لهذا أغمضت عيني في المساء وتركت العنان لدموعي وأنا أغمغم:

ـ يا رب!!

في الصباح كنت في مستشفى عسكري ضخم للعرض على خبير أمريكي تصادف وجوده، استطاع أبي بعلاقاته أن يحدد لي موعدا فوريا، دخلت على قدمي متعمدا أن أفرد قامتي وأمزح وأتكلم

بصوت عال لأثبت له أن في الأمر خطأ ما، ألقى نظرة سريعة عليَّ ثم نظرة مطولة على الأشعات والفحوصات التي أحملها، ثم هز كتفيه في استسلام تام وهو ينظر لأبي قبل أن يقولها صريحة مؤكدة:

ـ M S

لكنه أضاف معلومة جديدة لنا لا تأتي سوى من طبيب أجنبي لا يجامل، هي أنه يرى أنه من النوع الشرس الذي سيتقدم سريعا في غضون أشهر قليلة أو ربما عام على الأكثر، ثم قدم إلينا ورقة مطبوعة وملونة، تشرح كل شيء عن المرض تشبه الموجودة على كل صفحات الإنترنت التي تتحدث عن المرض الآن وتحمل نفس العنوان: FAQ.

٨٢

رُؤى شخصية/Opinions

عرفت ما يمكن أن تفعله السياسة في النفوس، وأدركت أن الفتن التي شهدتها شعوب كثيرة في جميع أنحاء العالم وقسمت الدين الواحد لعقائد متعددة والوطن الواحد لدويلات تطحنها الحرب الأهلية دائما ما يكون الغرور وراءها، لا تحتل الوطنية ولا الإخلاص للعقيدة الجزء الأكبر منها، بل حب الذات ورغبة كل إنسان في إثبات أنه اختار الفريق الذي سينتصر في النهاية.

لم أستجب لمحاولات القماح للتواصل معي مرة أخرى، وعندما جاءني في المنزل قلت لعصام أن يوصل له رسالة واضحة:

ـ مش عاوز أشوف وشه هنا مرة تانية.

لا أعرف إن كان عصام قد أبلغه، كنت مطمئنا عليه فقد كان منتشيا، انتصارات فصيله تتوالى في انتخابات تلو الأخرى، وتناغم

تام في المواقف بينهم وبين القوى المسيرة للأمور، حتى الرئيس الجديد كان من فريق القماح، كنت قد بدأت أفقد قدرتي على متابعة الأحداث تماما، اضطراب الرؤية يزيد في عيني ويجعل متابعتي لصفحتي غاية في الصعوبة، عصام لم يعد متابعا لصفحة الحائط، ليس لديه الكثير سوى أنه أصبح مناصرا للفريق الحاكم فجأة، يستشهد هو أيضا بحلقات خالد فاروق التي بدأت تتكلم عن فساد الحكومات السابقة وعن الأمل القادم قريبا.

كنت أحاول أن أفهم أي شيء عما يحدث من حولي فلا أجد من يساندني أو يشرح لي أي شيء، الأقوال متضاربة وكل شيء متوتر، هذه الفترة من عمري لها وصف مختلف، فترة غياب الضوء.

اعتدت انقطاع الكهرباء عن المنزل، في إحدى المرات كان عصام يجلس إلى جواري، أضاء لي من جهازه المحمول وهو يضحك لاعنا الحكومة الجديدة التي كان يبجلها على مدى الشهور السابقة، تحركت بالكرسي في اتجاه الشرفة، كان الأمر فريدا، ظلام دامس يغلف الشارع بأكمله، حتى النادي الذي لم أره مظلما قبل ذلك كان يبدو كبقعة مظلمة كبيرة، تصورت الأمر عارضا كالمعتاد لكنه استمر لساعات طويلة لم تحدث من قبل، ثم تكرر الأمر حتى صار معتادا لكنه مزعج.

جمعتني تلك الفترة بأسرتي من جديد، أبي أصبح يقضي وقتا أكبر في المنزل بعد أن حبسه انقطاع الكهرباء في المصعد لما يزيد على ساعة كاملة، ثم بدأ يقلل من مرات نزوله إلى عيادته لأن المرضى أيضا أصبحوا يخافون استخدام المصعد في البنايات العالية، اكتفى بيومين أسبوعيا، أصبح هو مصدري لمعرفة ما يدور في مصر من

وجهة نظر تختلف عن أصدقائي، أبي يفكر بمنطق عملي اكتسبه من خبرات حياته، قال لي يوما ونحن نجلس في الظلام:

ـ اللي بيحصل مش طبيعي، كل الناس بقت ضد النظام الموجود، والنظام الموجود كمان بقى ضد نفسه، مغرور بأنصاره..

أكد لي أن الأيام القادمة ستكشف حقيقة ما يحدث، إذا نجح الرئيس في حل تلك الأزمة فسيكون طريقه ممهدا للبقاء، أما لو زادت الأزمات فسيكون عليه الانسحاب طواعية أو أن ينتظر حتى يزيحه الشعب أو يعود النظام القديم مرة أخرى في ثوب جديد.

لم تنته الأزمة بل تتابعت الأزمات، صفوف طويلة من السيارات أمام محطات الوقود، سيارات تتعطل في الشوارع لأنها لم تصل قبل نفاد ما تبقى في خزانها، مشاجرات على أولوية دخول المحطة، مظاهرات تتجدد في كل مكان، وعندما أعلن الرئيس حظر التجوال في واحدة من المدن ولم ينفذه أحد، هز أبي رأسه في فهم وهو يقول:

ـ الرجل بقى لوحده من غير وزارات.. مش هيطوّل.

لكني لم أوافقه الرأي، جادلته وأنا أؤكد أنه لا يعرفهم، لن يتنازلوا عن الحكم بسهولة، مط شفتيه وهو يقول:

ـ بسهولة.. بصعوبة، مفيش حاكم يقدر يقف قدام الجيش والشرطة والناس..

بدت حسبته مقنعة، أضفت إليها موقف عصام ممثل الشعب الذي أصبح يسبهم جميعا بالأب والأم وحتى الدين نفسه، وفريدة ممثلة الثوار التي كنت أطلب من عصام أن يقرأ لي ما تكتبه على حسابها من آن لآخر، واكتشفت فجأة أن عصام بدا يستحسن آراءها التي كانت تهاجم فيها بشراسة من أطلقت عليهم الجماعة الحاكمة،

تذكرت على الفور الثورة الأولى.. عندما اندهشت من تطابق أفكار فريدة وبدوي، والآن تتطابق أفكار فريدة وعصام.. وقفزت صورة مصطفى القماح أمام عيني، في المرتين كان في اتجاه آخر.

خالد فاروق تحول أيضا للمرة العاشرة، بدأ يعدد الأزمات التي تجتاح أنحاء البلاد، وقدم اعتذارا لكل مشاهديه عن كل حلقة تحدث فيها عنهم بالخير مؤكدا أنه خدع فيهم، فأدركت أن أبي كان على حق.

٨٣

Omar is sick/عمر مريض

كنت أؤكد لنفسي أنني لست مريضا، هناك شيء خاطئ فيما يقولون وأنا سأثبت لهم ذلك، اللعنة على كل ما يقوله هؤلاء الأطباء، هم حتى لايعرفون شيئا عن تفاصيل المرض الذي يتكلمون عنه، يبدو عليهم الاضطراب والحيرة عند أي سؤال.

أبي لم يحاول أن يناقشني كثيرا، كان صامتا تماما، حاولت أنا أن أغير الأجواء وأنا أؤكد أني بخير، وأن كل ما حدث أنني سقطت ربما لهبوط في الضغط أو إرهاق، جسدي كان يؤكد لي ذلك، استعدت الكثير من حيويته، طبيعي تماما لولا آلام وجهي والجبيرة التي تغطي أنفي.

عندما عدت إلى المنزل تجاهلت تماما القلق البادي على ملامح ريهام، لا توجد أي مشاكل عضوية لديَّ، حملتها بين ذراعي كعصفور صغير لأثبت ذلك فضحكت ضحكة مكسورة، أخذتها للغداء في أحد أفخر مطاعم القاهرة، وفي المساء قضينا ليلة لم نقض مثلها أبدا، في داخلي غضب من كل ما حدث في اليومين السابقين وتحد للجميع، حولته إلى طاقة جارفة أهديتها إياها كاملة.

صباح اليوم التالي كنت أرتدي ملابس التدريب، حاولت هي الاعتراض لكني لم أسمح لها مطلقا، استسلمت سريعا لكنها أصرت على الذهاب معي، بدا المشهد غريبا لا سيما عندما بدأت الجري في المضمار وريهام تتابعني في قلة حيلة، ضمادة من الجبس تحيط بأنفي وزي تدريب وحذاء رياضي، كنت بخير لكني توقفت سريعا من آلام تسببها الاهتزازات في أنفي، لكني قلت لها قبل أن أجلس:

ـ أنا بخير.. الوجع هنا بس.

وأشرت إلى أنفي فبدت عليها الحيرة.

كنت أعرف جيدا احتمالية أن يكون الأمر صحيحا، لكن الطبيب الأجنبي أكد أن هناك من يقهر جسدهم ذلك المرض، طالما الأمر كذلك فلا بد أنني أولى به، سأكون أقوى من مرضي لو كان حقيقيًّا، وسأعيش حياتي الطبيعية لو أنهم مخطئون ولن أسمح لهم بإفسادها عليَّ.

عدت إلى تدريباتي رغم اعتراض أبي، تفرغت ريهام لي تماما، لم تعد تتركني في أي وقت، كنت أعترض على ذلك لكني كنت أتقبله أو على الأدق أريده، كان هناك خوف دفين في صدري، بدأ يقل يوما بعد يوم، لا توجد أي مشاكل، وتدريب المنتخب أعادني إلى الحياة، بيومي كان ينسيني كل شيء في التدريبات، كنت أرى كائنا خارقا صغيرا يتقدم يوما بعد يوم ويقترب من منصات التتويج. شهر كامل على ما يرام، حتى إن ريهام بدأت تقتنع مثلي بأن الأمر كان عارضا، أو تشخيصا خاطئا أو نوبة وحيدة لن تتكرر على أسوأ تقدير، أبي لم يستطع إقناعي بزيارة أي طبيب آخر، هو أيضا كان يريد أن يقتنع بذلك، كلنا كنا نحاول الإنكار.

يوم وحيد لم تكن ريهام موجودة فيه، كانت أمها مريضة وتأخرت عندها، وعدتها بأني سأنتظرها لكني لم أفعل، لم أر سببا يعطلني عن ذهابي إلى العمل، ارتديت ملابسي وركبت سيارتي واتجهت إلى مكان التدريب، وكانت تلك هي أول مرة أقود فيها السيارة منذ حادث السقوط.

كنت أشعر بحرية وانطلاق، فتحت كل النوافذ وانطلقت أغني مع الأغنية الصادرة من الراديو، ظلت ترن في أذني كثيرا بعدها، أغنية إنجليزية شهيرة تتحدث عن الحب، كنا في ليل الشتاء والطريق مفتوح، زدت من سرعتي مع ارتفاع صوتي على طريق كونيش النيل، تخطيت السيارات واحدة تلو الأخرى، وعندما بدأ الطريق يضيق ويميل إلى اليسار، جاءت الكارثة.

تجمدت تماما، حاولت أن أضغط فرملة السيارة فاكتشفت أن قدمي فارقتني كما فارقتني من قبل، شعرت بهلع كاف لأدير المقود بشكل مبالغ فيه، اصطدمت سيارتي بطرف سيارة أمامي، فأدرت المقود على الفور في الاتجاه العكسي، رأيت تلك الشجرة الضخمة تقترب مني بسرعة رهيبة، ظللت أحدق فيها دون أن أملك أي شيء... ثم غطاني الظلام.

كان الظلام إسفنجيا رخوا كما لو كنت راقدا في داخل كتلة ضخمة من الطمي اللين، حاولت أن أحرك أطرافي فغصت في الطمي أكثر، لكني ظللت محتفظا بقدرتي على التنفس.

أصوات تأتي من على بعد لتدخل أذني بشكل غريب، أصوات مجسمة بطيئة، أشخاص لا تظهر في المشهد مطلقا، يدعون الله بالستر ويصدرون التعليمات لبعضهم من أجل مساعدتي للخروج مما علقت به، شعرت بجسدي يهتز دون حراك، امرأة تصرخ وسيارة

إسعاف تأتي من على بعد، وآلام تجتاح الجسد الذي يعلو ويهبط داخل قالب الطمي.

راقدًا على مائدة البوس الكبيرة، منصور والكيال أمسكا بشوكتين كبيرتين وغرساهما في جسدي والبوس نفسه يحاول منعهما، لكنهما فعلاها، شعرت بالألم وبدأت في التأوه، فجأة وجدت نفسي جالسا على المائدة الكبيرة وجسد منصور هو الملقى على المائدة وأنا أغرس شوكتي فيه، تؤلمني أنا فأتأوه، خرج طفل صغير من داخل الغرفة التي أقيم فيها دائما في منزل البوس، أمسك بيدي ليمنعني من مواصلة ما أفعل، فشعرت فجأة أنني لا أستطيع أن أحرك يدي وأن هذه الأطراف الصغيرة أقوى من أن تقاوم، لكني حاولت المقاومة، كان جسدي يهتز بين يديه وهو لا يفلتني، أشعر بإبر تنغرس في ذراعي فأنظر فأجد أصابعه الصغيرة تخترق أوردتي فتسيل منها الدماء، طلبت منه أن يتركني لكن صوتي لم يخرج، أما هو.. فابتسم وقبلني لكنه أمسك جسدي محكما قبضته أكثر وأكثر، ضمني إلى أن غاب داخل جسدي، ثم بدأت أميز الأصوات!

كان أبي يصيح في غضب، وريهام تبكي وهي تدافع عن نفسها، قالت ما يعني أنها لم تتركني لكني لم أنتظرها، فزاد غضبه وهو يتهمها بعدم الأمانة على زوجها المريض!

المريض! كان هذا وصف أبي لي قبل أن أفتح عيني لأكتشف أن الجزء الأخير حقيقي تماما، وأن هذا الوصف سيلازمني ما تبقى من حياتي، لم أعد البطل ولا النجم ولا حتى الخواجة، أصبحت شيئا جديدا، شيئًا يتناقش من يحبونني عن حجم المسئولية في حمايته من نفسه، كائنًا قليل الحيلة والقدرة، يحاول أن يتجاهل الحقيقة الجديدة، أنه أضعف من حماية نفسه منفردا، سالت دموعي ساخنة على وجهي في اللحظة التي فتحتهما فيها لأجد نفسي على سرير

مستشفى، قطعوا حوارهم فجأة وانكبوا عليَّ ليرددوا نفس الجملة على التوالي:

ـ حمد لله على السلامة!

يقولون إنني نجوت بمعجزة من ذلك الحادث، لكني ظننت أن نجاتي من ذلك الحادث ليست ما حدث، النجاة كانت في ألا أنجو منه، رأيته في وقتها مناسبا ليكون نهاية درامية جيدة لحياتي التي كانت مزدحمة، انسحاب من المباراة الكبرى للإصابة جعل الجميع يتذكرون أمجادي ويتعاطفون مع خروجي من الملعب محمولا على نقالة الإسعاف، ثم أختفي من الملاعب إلى الأبد، لكن ذلك لم يحدث، جسدي رفض أن ينهزم من الخارج، تحطمت ضلوعي وكسرت ساقي وانتشر اللون الأزرق في بقاع مختلفة تؤكد أن الحادث كان كبيرا لكن الجسد في تلك اللحظة كان عنيدا بما يكفي للبقاء.

لم أتكلم لأيام، لم يكن عندي ما أقوله، لا أريد كلمات عطف من أحد ولا نصائح تخص وضعي الجديد، كان الغضب في صدري يتفجر، لماذا يحدث ذلك؟ أي عقاب هذا الذي أصابني، هل فعلت في حياتي ما يجعلني أستحق أن أقضي ما تبقى منها تحت الوصاية الجبرية لأنني لم أعد صالحا لرعاية جسدي الذي سيتمرد عليَّ في لحظات مختلفة.

٨٤

تصفح الصداقات/Browse friendships

عرفت الضعف لأول مرة، قدم نفسه إليَّ قاسيا بلا رحمة، ضرب جسدي بأكمله دون أن أعرف من أين تأتي الضربة لأتجنبها، كنت راقدا على سريري أحدق في الفراغ، أشعر بأن ما أعيشه كابوس

مخيف سأستيقظ منه ذات لحظة، حاولت أن أوقظ نفسي مرارًا إلى أن تأكدت أنه واقع عليَّ أن أدركه وأتعايش معه، إلى الأبد.

توالت الزيارات، كل الكلمات تؤلمني وكل النظرات تثير في داخلي ألما فوق الألم. كانوا ينعونني لنفسي عن غير قصد، الذكريات لم تتأن بما يكفي لأستعرضها بل أتتني حية تمشي على أقدام من زاملوني على الطريق الذي كنت أظنه وعرا، الكابتن هاني الذي وضعني على طريق ذهبي لم أحلم به يوما، معه حازم حمدي ورفقاء التدريب، لاعبو المنتخب على مر الأجيال التي عاصرتها من خلال مقعدين، كنت أتساءل عما يدور في رءوس كل واحد منهم، أعرف من يرى أن ما حدث عقاب لي من الله، ومن يراه ابتلاء يصاب به الأخيار من الناس، ومن يراه حقيقة واقعة تدور ككئوس الشراب على مائدة كبيرة، تصيب الأخيار والأشرار على السواء.

استعرضت كل ما فعلت في حياتي، تركت ريم التي أحبتني، اختلست سنوات من عمرها ثم تركتها.. ساهمت بشكل ما في سحب التوكيلات من منصور لكني لم أسع لإفلاسه، حدث ذلك بمصادفة هو الذي صنعها لأنه لم يكن شريفا بما يكفي.. أبعدت لاعبا من المنتخب ولم أسمح لحازم حمدي بأن يكون جزءا من منظومة الاتحاد.. القماح حاول أن يوحي إليَّ بأن ما حدث فيه جزء من حساب الله لي على أخطائي، تساءلت هل ما فعلته يكفي ضعيفا لكي يحدث لي كل ذلك، استغفرت الله كثيرا لكن غضبي وتساؤلي كان يتزايد في كل ليلة.. إلى أن زارتني ريم.

وقفت تنظر إليَّ في صمت، حاولت أن تبتسم لكنها لم تستطع، لمعت عيناها بالدموع عندما وجدتني أطلب منها أن تسامحني في ضعف.

ريم كالعادة كانت هي المفتاح، أهدتني مصحفا متطابقا مع الذي أعطتني إياه في المطار منذ سنوات بعيدة وهي تجيب سؤالي باختصار:

ـ طبعا مسامحاك!

ثم بدأت تحدثني عن مفهومها البسيط عن البلاء، لم تكن تحفظ من الآيات ما يحفظه القماح عن ظهر قلب، لكنها كانت تدرك معنى الصفح، ترى أن ما يحدث لي قد يكون دعوة منه لي للبحث عنه والعودة إليه، وأن الله لا ينتقم من البشر بالمرض ولا المصائب لكنه يجعله رصيدا لهم إذا صبروا عليه، كانت صادقة فيما تقول كالعادة، ريم الكائن البشري البسيط كانت في غاية الرحمة، تركت في صدري سلاما كنت أبحث عنه، فتحت المصحف الذي أعطتني إياه وبدأت أقرأ، كل صفحة جديدة كانت تحمل ما يؤكد لي ما قالته، الرحمة هي الأساس، والمغفرة وعد، والتهديد يبدو لي وعيدا ليزجر قلوب البشر إذا توحشت.. ناجيت الله في تلك الليلة كما لم أناجِه في حياتي، بكيت وأنا أطلب منه أن يمنحني القوة لأواصل طريقي، أن يشفي هذا الجسد وهذه الروح وألا يجعلني أموت حيا.

كانت تلك الليلة هي أول ليلة أغادر فيها السرير، استعدت الكثير من عافيتي بعد أن رفعت يدي إلى السماء باكيا ومناجيا الله، مشيت على قدمي رغم رباط الجبس الذي كان يحيط بساقي، وتساءلت عما كان سيفعله البوس لو أنه في مكاني، ما الذي يستطيع أن يفعله إنسان لا يؤمن بإله حين يكون الواقع بالقسوة التي أواجهها، الأكيد أني لو لم أكن مؤمنا به لأقدمت على الانتحار بدون تردد. فما فائدة الحياة عندما نصبح عاجزين عن مواصلتها بالشكل الذي نعرفه. إلا إذا وجد في داخلنا شيء من الأمل.

٨٥

١٨٩ صديقا سيشاركون/189 friends going

أصبح أبي فجأة هو أيضا مهتما بالسياسة، قرر أن يشارك في المظاهرات التي دعت إليها قوى متعددة، وقف أمامي مرتديا ملابسه الأنيقة وقد وضع علم مصر على كتفيه فبدا لي شبيها بصورتي عندما نزلت منذ عامين، عصام أيضا أصر على المشاركة بينما كانت فريدة الوكيل تشجع ما يحدث من الخارج طبقا لما يظهر على صفحات حسابي.

جلست وحيدا، لم أكن قلقا عليهما بعد أن رأيت بعيني المئات يسيرون في الشوارع في فرق متوسطة الحجم، لم يكن هناك بد من مخالفة التعليمات، ارتديت نظارتي الشمسية وجلست أمام شاشة الكومبيوتر لأتابع ما يجري، فريدة كانت تشجع ما يحدث من مكان إقامتها وتتمنى النصر للجميع، صفحة مصطفى القماح لم تحمل أي آراء له، لكنها كانت تحمل مشاركات لعشرات الآراء التي تسفه مما يحدث وتتكلم عن أن الإعلام الكاذب هو الذي يحاول إعطاء صورة تحمل مبالغة كبيرة لما يحدث، لكني كنت أعرف الحقيقة، الأمر أكبر مما يصورونه له، دعم الجيش والشرطة لفصيل كبير من الشعب يؤكد أن المسار سينتهي بخلع الرئيس الموجود لا محالة.

شعرت بالخوف من أجل مصطفى، تنازلت عن غضبي منه وأجريت عدة اتصالات متتالية به حتى أجابني، كان القلق باديا على صوته وهو يؤكد:

- مفيش حاجة هتحصل.. الناس معانا.

ثم أخبرني بأنه سيشارك في تظاهرات مضادة في مناطق أخرى من القاهرة سيشارك فيها مؤيدو الرئيس، وأن الشعب بأكمله يريده،

غضب مني وأنهى المكالمة فجأة عندما أخبرته بأن جميع من حولي سيشاركون في المظاهرات، وهذا يعني أن هناك قطاعًا آخر كبيرًا من البشر لا يريد فريقه.

عاد أبي قبيل الفجر مجهدا وسعيدا، أخذ يحكي لي بانفعال عن الزحام والناس والهتافات، أبي لم يكن يريد أي تغيير منذ البداية، هو أيضا كان يدافع عن رؤيته للأمور، لم يفكر في أن هناك فريقا كبيرا في ميادين أخرى ضمنهم صديق عمري، لا بد أن القماح أيضا لم يتصور أبي في الصفوف الأخرى، لماذا كتب عليَّ أن أحضر تلك الفترة في مقاعد المشاهدين فقط؟ هل كان ذلك من حسن حظي أم من سوئه.

وترني حماس أبي كثيرا، خشيت من لحظة تتلاقى فيها الفرق فيسقط الجميع في دوامة لا قرار لها، صراع يرفع فيه أحد الفريقين شعار الوطن، والفريق الآخر شعار الدين.. ولا أحد يرفع الشعار الثالث.. البشر.

تم عزل الرئيس فأجريت عشرات المكالمات بمصطفى القماح لكي أعرف ما حدث له، كان هاتفه يرن باستمرار لكنه لا يجيب، غالبا كان يحمل غضبا وعداوة تجاه الجميع، أعرفه جيدا، شعر بأننا جميعا خونة، كل من رفضوا رئيسه وأرادوا تغييرًا ثانيا أو عودة إلى ما كان، أما أنا فلم أشارك في الاحتفالات مع أسرتي في الشوارع ولا مع عصام في غرفتي، ولا حتى كتبت تعليقا على ما كتبته فريدة عن أنها كانت تتمنى وجودها في مصر لترى اللحظة التي كانت تحلم بها.

ثم أجابني مصطفى بعد استمرار محاولاتي، كان يتكلم بغضب شديد وهو يخبرني بأنه سيدخل في اعتصام مفتوح مع الآلاف،

وأنهم لن يبرحوا مكانهم إلا بعد عودة الرئيس ونهاية المؤامرة، لم أعرف ما ينبغي عليَّ قوله لكني كنت أدرك أن الوضع تعقد كثيرا.

٨٦

دعوة/Invitation

الأسوأ قادم لا محالة، أصبحت أشعر بالخوف من ذلك الجني الرهيب الرابض في داخل جسدي والذي سيعطل جزءا ما منه، تخونني خلايا من جسدي وتطغى على خلاياه الطيبة لأفقد أنا قدرتي على الحركة أو الوقوف أو ربما على التنفس، أصبحت أخاف النوم لأن هاجسا كان يخبرني بأن قلبي قد يتوقف في أي لحظة، أصبحت أحصي أنفاسي وأعرف أنها نعمة قد تزول.

لم يكن هناك بد من أن أبعث برسالة إلى الاتحاد الأسترالي معتذرا عن تنفيذ العقد لظروف صحية مفاجئة، وعندما اتصل بي راغب وشرحت له الأمر ساد بيننا صمت ثقيل طويل، ثم انتهى الأمر.

الغضب يملؤني، والعجز قاهر ولا طريق لديَّ لأقهر ذلك الشيء اللعين.. أواجه المرآة وأتفحص نفسي بحثا عن بوابة لداخلي كي أبحث عنه، يبدو لي كفأر صغير دخل جسدي، يقفز من ذراعي إلى قدمي فيعطلها ثم يختبئ ليعود إلى الظهور لاحقا.. وقفت على عتبات الكفر والإيمان بالتبادل، أعلن نقمتي وأنا أتساءل عن سبب بلواي، ألم يجد الله من الكسالى من هو أحق مني بهذا العجْز؟! ثم أفيق من نار الغضب محاولا دخول جنان الرضا والتسليم، أعلن رضاي عن مصابي وأسجد باكيا طالبا من الله العفو والرحمة، فأهدأ ثم أعود لأشتعل مرة أخرى.

تصفحت المواقع بحثا عن تفاصيل ذلك اللعين وعن فرص العلاج وأماكنها، وحش كاسر خبيث لا يرحم، لا يوجد علاج، كلها محاولات بلا فائدة، قرأت قصص الغاضبين والناقمين ومن تعايشوا معه، أيهم سأكون؟ كيف يمكن أن أحيا إذا تطور الأمر لأصبح مقعدا تماما؟ لم أجد ردا.

لن أنسى للكيال وقوفه معي أيًّا ما كان يرمي إليه، زارني في منزلي وطلب مني العودة إلى التدريب فورًا، حاولت التملص لكنه لم يقبل، أخذني في سيارته وذهب بي إلى التدريبات، كان حمامة يقوم بالتدريب، التف حولي الجميع وهم يقبلونني واحدا تلو الآخر، انحنى بيومي وقبل يدي ثم رأسي وهو يقول:

ـ أنا محتاجلك.

وكنت أنا أيضا أحتاجهم جميعا، كنت أبحث عن صحتي في أجسادهم، في تعليمات وخطط ألقي بها من عقلي إليهم ويجيدونها فأبتسم في فخر، جسدي سيظل حيا في هؤلاء.

أصبحت أكثر حرصا، لم أقد سيارة بعد يوم الحادث أبدا، أصبح لديَّ سائقي الخاص، وكنت أقود غالبية التدريبات جالسا على مقعد خوفا من لحظة الغدر، كم من مرة تحرك الفأر في داخل جسدي! لم أعد أحصي، ولم يعد أحد يلاحظ، أظل جالسا لأشير لهم بالذراع الحي أو يعلو صوتي بتعليمات التدريبات أو بسؤال أنتظر جوابه أو أمزح وأضحك بصوت عال وقلبي يتمزق خوفا من أن يكون الفأر قد قرر ألا يغادر الجزء الذي انتقل إليه، لكن ذلك لم يحدث بشكل مفاجئ بل كان يقضم من أعصاب جسدي بالتدريج.

البداية كانت في قدمي اليسري التي لم تعد بالكفاءة الواضحة، قاومت كثيرا أن يصبح عرجي ظاهرا، كنت أقضي ساعات أتدرب

أمام المرآة على الطريقة الجديدة التي سأمشي بها، إحساسي بالأرض يتغير، لم أعد أطأها بقوة وعزم كالمعتاد، بل أتحسسها بقدمي في خطوات قصيرة كما لو كنت أطلب منها شيئا من الرحمة، قاومت كالعادة كثيرا لكيلا أمسك بعكاز معدني بارد وقبيح لكن كالعادة أيضا انتصر الفأر، وأصبح العكاز يسكن ذراعي الأيسر طالما كنت خارج المنزل، لم أضعف ولا اخترت الأسهل لكني سقطت مرات ومرات في أماكن مختلفة، إلى أن أصبح وجوده أمرا حتميا.

كنت أستغنى عنه فقط في لحظات دخولي الملعب في البطولات العالمية، أستعيض بذراع اللاعب الذي سأقود مباراته ليحقق شيئا يبقيني على قيد الحياة، أدخل معه رافعا رأسي وأخرج رافعا رأسي حتى وإن خسرنا المباراة، فقد كنت أرى في كل مباراة أديرها نصرا جديدا لي على ما أعانيه.

سجلت بريدي الإلكتروني في كل المواقع التي تقدم الجديد في علاج المرض، سلمت نفسي للمراكز الطبية في كل بلد سافرت إليها مع الفريق أو وحدي.. وافقت أن أصبح فأرا للتجارب في علاجات لم تكن قد أثبتت فشلها بعد، المسميات عديدة، أدوية مناعية وخلايا جذعية وعلاجات كيماوية، آلاف الدولارات وعشرات المراكز في جميع أنحاء العالم.. جربت كل شيء، أدوية من كل أنحاء العالم، وخز الإبر والأعشاب وحجامة ورقية، عمليات مؤلمة لزرع خلايا جديدة، لا أريد أن أتذكر التفاصيل ولا أن أذكرها لكني تعذبت كثيرا، والنتائج كانت كلها خسارة أمام الشرير، حالتي تتدهور فقط، ربما كما قال الأطباء بمعدل أبطأ مما كانوا يتوقعونه، لكنه كان يحدث، يظهر الأمل مرة أخرى بأسماء علاجات جديدة، ثم لا يبقى لي سوى آثارها الجانبية وفقدان قطعة كبيرة من الأمل والاحتمال.. بدأ

الضعف يتزايد والاكتئاب يغمرني واليأس يتسلل إلى روحي ليزيد من ضعفي، فكرت جديا في اعتزال التدريب والاكتفاء بالجلوس في غرفتي إلى أن ينتهي الأمر، بدأت فعلا في التغيب عن التدريبات. لم يفلح أحد في إخراجي مما كنت فيه، لا أبي ولا ريهام ولا حتى ريم التي كانت تتصل بي من آن لآخر.. ستائر السواد تنزل ببطء أمام عيني.. دون أن يوقفها أحد.. إلى أن دخلت عزة السروي حياتي فجأة، مكالمة هاتفية مقتضبة وغامضة، لها روح المكالمات القديمة وأجواء فترات المراهقة، عرفت نفسها لي بأنها مديرة في واحد من البنوك الأجنبية الشهيرة.

كان الصوت بالغ الرقة، ولكنة أجنبية ساحرة تضفي نكهة جذابة على كل ما تقول، ثم قالت لي إنها تعرفني جيدا، وإنها كانت تتمنى أن تلتقي بي في ظروف أفضل من هذه، فأدركت أنها تعرف كل شيء.

حدثتني بأنها تعاني من نفس المرض، وأنها عضوة في جمعية تسمى جمعية مقاومة مرضى التصلب المتعدد، وتحتاج لوجودي في الجمعية لأن «بطلًا مثلي» سيكون ملهما لكل من يعانون من المرض ويبحثون عن نموذج مقاتل ليسيروا وراءه.

نشاط الجمعية أم صوت ورقة عزة السروي هو ما جذبني للقبول رغم أنني كنت في أسوأ حالاتي النفسية، شيء آخر أثار فضولي، أردت أن أسألها عن مدى مرضها لكني أحجمت، لماذا أؤلمها بالحديث عما أكره أنا أيضا الحديث عنه، في يوم الموعد كانت أول مرة أقف فيها طويلا أمام المرآة متأنقا، اخترت ملابسي بعناية، ثم حلقت لحيتي التي لم أعد أحلقها إلا نادرا... وذهبت إلى المكان الموعود!

٨٧

مجموعة جديدة/New group

شمس تجلس في المنتصف والكل يحيط بها بحثا عن الدفء، هكذا رأيت عزة السروي في أول مرة التقيت بها وفي كل المرات التالية، كان اللقاء في نهار شتاء القاهرة الدافئ، شعرها الذهبي اللامع يعكس أشعة الشمس وعيناها اللتان اختارتا لونا وسطا بين العسلي والأخضر تدوران لتتأكد من أنها ترى الجميع، والأنف الدقيق يزين وجهها فوق شفتين لم أرهما أبدا إلا باسمتين، رأتني فقامت واقفة وهي تصفق في حماس:

ـ البطل وصل.

فتبعها الجميع، تصفيق مليء بالترحيب والحب، شعرت بغصة في الحلق أكثر مما شعرت بالارتياح، اقتربت منها بعكازي وريهام تسير إلى جواري، أخذت عزة يدي بين كفيها وهي تصافحني بحرارة لتشكرني على حضوري الذي كان محل شك بالنسبة لها.

ذلك اللقاء أعطاني حياة جديدة أو سلب مني القديمة إلى الأبد، لن أستطيع الحكم، وجدت نفسي جالسا بين ما يقرب من عشرين فردا كلهم يعانون من نفس مرضي، وجوه متشابهة مرسوم عليها إصرار الفوز على المرض بما يكفي لينتزع احترام الجماهير، لكن العيون تحمل انكسارا يشرح ما يدور حقيقة في الصدور.

أوقفت عزة سير الجلسة وهي تعلن لهم أنها لن تلتزم بالبرنامج، وأن الجلسة بالكامل ستوجه للترحيب بالضيف الجديد ثم طلبت مني أن أحكي قصتي مع المرض لكني اعتذرت في هدوء، فطلبت من الجميع أن يحكي كل منهم قصته باختصار.

ريهام طبيبة أمراض نفسية شابة بدأت ترى بقعا سوداء أمام عينيها، احتاجت إلى عام كامل لتعرف طبيعة المرض بعدما اتسعت البقع حتى ذهبت ببصرها كاملا، تعمل الآن في الدعم النفسي للمرضى، وتترجم كل شيء من لغة برايل إلى مادة صوتية لتساعد فاقدي البصر.. وآمال طالبة الحقوق التي تكاد تجن من صوت القطار الذي يخترق أذنيها ليل نهار حتى إنها صارت تستعين بمخدر لكي تنام، في الأوقات القليلة التي يتوقف قطارها عن الضجيج تكتب الشعر الذي كانت تعشقه وتجيده، أعدت ديوانا كاملا عن حكايتها مع المرض أطلقت عليه القطار.

أما عاطف الصغير الذي لم يتجاوز العشرين فكان هو الوحيد الممدد على سرير في تلك الجلسة، طلب مني أن أقترب منه ووضع يده على وجهي وهو يؤكد لي أنه يعرفني جيدا، متابع جيد للرياضة ولاعب كرة قدم مغمور، ما بين اكتشاف مرضه وبين طرحه أرضا ثمانية عشر شهرا، لم يرحم طفولته بل توحش داخله سريعا بكل قسوة.

ثم توالت القصص الحزينة المتشابهة، مرحلة اللا فهم هي الأصعب، عندما تبدأ في التساؤل عما أصابك ويبدأ الأهل في اجتهاد حائر.. القصة الأكثر قسوة على الإطلاق جاءت من فتاة شابة جميلة اسمها منيرة وكانت منيرة بالفعل، طالبة جامعية تعيش في مدينة صغيرة بعيدة عن القاهرة، بداية حالتها كانت متطابقة مع ما مررت به، لحظات من انعدام القدرة على الحركة.. حظها كان سيئا عندما أصابتها الحالة بينما كان هناك شاب وسيم في بيتهم ينتظر رؤيتها، عريس مثالي كما وصفته، سقطت على الأرض ولم تستطع الحركة إلى أن غادر هو وأمه. وكانت هذه كما وصفتها أسرع الحالات في التشخيص، بمجرد أن أعلن طبيب العائلة أن كل شيء

على ما يرام تبرعت الخالة لتعلن أن منيرة ملبوسة قطعا، والدجال الذي أتوا به أكد ما قالته على الفور، وأضاف أن الأمر يتخطى ذلك فهو ليس مجرد لبس، بل زواجًا تم بينها وبين جني في الليلة التي خلعت فيها ملابسها وهي طفلة صغيرة لتستحم ثم انقطعت الكهرباء، فخرجت تجري عارية تحمل رعبها من الظلام فعادت الكهرباء فجأة وهي في منتصف الطريق إلى غرفتها.. تلك القصة التي كانت تعتبر من فكاهات الأسرة عن طفولة منيرة ثم أصبحت مأساتها عندما أكد «العارف» أن ذلك اليوم كان يوم غضب الجني منها، وصدقه الجميع!

منيرة تحكي عن عدد الأيدي التي امتدت إلى جسدها من الرجال والنساء، وعن زيوت ومشروبات تجرعتها مرارة فوق مرارة المرض، وعن روائح وأبخرة وحوارات بين المشايخ والجني الذي كان يجيبهم بصوت لا يسمعه سوى الشيخ نفسه، ومع تزايد النوبات تزايدت العروض، امتدت إلى مقامات ومساجد وقبور وكنائس وقساوسة وسحرة وطبول وزار. عانت منيرة أكثر من الجميع لسنوات طويلة إلى أن جاءت زيارة من قريب عاقل من القاهرة أخذها في سيارته بصحبة أبيها ليكتشفوا بعد أسبوع واحد أن الجني الجبار الذي كان يسكن جسدها اسمه.. MS.

مشاركة الهموم مؤلمة لكنها تخفف عنك شيئا مما تحمل، تنظر إلى معاناة الآخر فتعرف أن الأمر ليس كما تظن وأن هناك آخرين على أكتافهم مصائب تشبه مصائبك بأحمال إضافية، تحمد الله على ما لديك، فقد لا يستطيع المال ولا العلم تخفيف ما تعانيه لكنهما قد يرحمانك من معاناة إضافية لا تتصورها.

كانت عزة تصفق لكل حالة ثم تعلق على ما يقال لتشرح ما تفعله

المجموعة، الأهداف نبيلة، أن يعرف كل منا أنه ليس وحده، وأن نساعد الناس على معرفة هذا المرض اللعين الذي كان يستشري في أنحاء العالم زاحفا كثعبان لئيم، لكي نرحمهم من مرحلة التخبط التي مررنا بها، وأن يدعم كل منا الآخر ليستمر في حياته قدر ما يستطيع، أردفت في تحد:

ـ إذا استطاع المرض أن يحرمنا الصحة فلا يجب أن نسمح له بأن يسلبنا الحياة..

ثم قالت إن علينا أن نتحول لجسد واحد كبير، جسد غير عادي لأنه موزع في عدة أجساد، كل منها يستطيع القيام بوظيفة ما ويعجز عن الأخرى!

أدارت رأسها إليَّ وهزت رأسها منتظرة، لم أتكلم، نظرت إليها متفحصا في تساؤل، كنت أريد أن أسألها عن سبب وجودها بيننا، تبدو طبيعية تماما، هل هي مجرد مهتمة أم أنها في بدايات المرض أم أن مرضها من النوع الكامن، قرأت أفكاري فارتسمت على وجهها ابتسامة ساحرة، الابتسامة الوحيدة التي رأيتها قوية خالية من المرارة رغم أن كل الوجوه الموجودة من حولي كانت تبتسم، تأكدت أنها لا تعاني من أي شيء، لم أستطع المقاومة فسألتها:

ـ وأنت؟

ضحكت ببهجة حقيقية:

ـ أنا زي الفل.

قامت من مكانها وفردت جسدها الرشيق الذي بدا لي مثاليا كراقصة باليه محترفة، تحركت نحوي فابتسمت ساخرا وأشحت بوجهي مشيرا لريهام لكي ننصرف، فهي لا تعرف شيئا عما نشعر به.

٨٨

استجابة لطلب صداقة/ Respond to a friend request

بدأت عزة في الحركة فرأيت على وجه ريهام ما جعلني أدير رأسي إليها مرة أخرى، كانت تمشي كطفلة صغيرة تتعلم المشي، ثم تحركت بسرعة أكبر فبدت لي كرجل يخرج مخمورا من حانة ليلية لأنه يريد أن ينسى كل شيء، كان بيني وبينها أمتار معدودة لكنها قطعتها بجهد كبير، وكان الجميع يعد خطواتها بصوت عال:

واحد.. اتنين.. تلاتة..

إلى أن وصل الرقم إلى اثني عشر، فضجوا بصيحات الفرحة والتهنئة، وقفت هي في انتصار وهي تنظر إليَّ في عيني مباشرة وتقول:

ـ شفت.. أنا زي الفل.. رقم قياسي جديد!

ثم تسمرت في مكانها متعبة فقامت منيرة من مكانها مسرعة لتضع لها الكرسي الذي كانت تجلس عليه في مواجهتي تماما، جلست متقطعة الأنفاس وهي تقول:

ـ زي الفل.. بس محدش فاهم غيركم..

وبدأت تحكي قصتها.

باربي، كان ذلك اللقب الذي يطلق عليها منذ طفولتها في محيط الأسرة والأصدقاء، تزوجت بعد قصة حب ملتهبة من رجل وسيم كان متيما بها، حتى عندما ضرب المرض مراكز اتزانها في الحركة لم يتخل عنها، لكنه لم يحتمل رغبتها في أن تواصل حياتها المعتادة، كان يريدها أن تبقى في البيت ليخدمها حتى النهاية، مع ذلك حاول أن يجاريها عندما أصرت أن تواصل كما هي قدر استطاعتها، لم تستسلم لمحاولة المرض قهرها، على العكس، زاد اهتمامها بملابسها وجمالها وأنشطتها الاجتماعية، تنهدت وهي تقول:

ـ الناس كانوا أقوى منه..

ثم ضحكت بأسى مستطردة:

ـ تخيل شاب أنيق ماشي مع واحدة شعرها أصفر لابسة شيك وبتتطوح يمين وشمال.. بالذات لو بالليل!!

حكت عن عجوز بصق عليها ثم استغفر الله وهو ينظر إليهما باحتقار، وعن شباب قالوا له في سخرية: «يا بختك يا عم»، وعن مراهق غافلهما وأمسك بصدرها وانطلق يجري ضاحكا عندما سقطت على الأرض بعد أن حاول زوجها أن يجري وراءه في رد فعل تلقائي، أصبح يتهرب تدريجيا من الخروج معها، ثم أصبحت ترى في عيني ولديها تعاسة لم تحتملها عندما تطلب منهما أن تذهب معهما إلى النادي، كانت ترى أنه أولى بها منهما، صارحته بالأمر فقال في تردد:

ـ على الأقل اتحجبي..

ـ علشان ربنا ولا علشان الناس؟

كان هذا حوارهما الأخير قبل الطلاق، وهبت نفسها لعملها ولتلك الجمعية، وما بين أن تواصل مشيتها المترنحة أو أن تستسلم لكرسي معدني بعجلات باردة اختارت الأولى، رغم أن التعليقات لم تزل تتوالى بلا رحمة، وعدد الخطوات التي تستطيع أن تمشيها متتالية قبل أن تتوقف لكيلا تفقد توزانها الذي يقل يوما بعد يوم.

ـ المتوسط كان عشرة.. في خطوتين جم النهاردة احتفالا بيك.

نظرت إليها بإعجاب، ريهام كانت تحاول إخفاء دموعها سواء عليَّ أو على عزة نفسها، ظلت تنظر إليَّ مبتسمة بقوة.. أخذت نفسا عميقا ثم بدأت في الكلام:

ـ أنا عمر الخياط.. بطل العالم في التايكوندو.

غادرت وفي قلبي راحة البوح ومرارته، صارحت نفسي قبل الجميع لأول مرة بكل شيء، كنت أحكي عن جسد آخر غير الذي أسكنه الآن، ثم كرهت اعترافي بأنني مهزوم، لا سيما عندما اختنق صوتي وأنا أحكي عن اللحظة التي فزت فيها بأول بطولة للعالم، في طريق العودة كنت واجما، روحي محبوسة في زنزانة متهالكة تسمى جسدا، المرة الأولى التي أفكر فيها في الموت، ربما يكون متطابقا مع ما يحدث الآن، هكذا أيضا سيكون الموت، سأحاول أن أحرك جسدي فلا أجد أي اتصال بيني وبينه، ولأن البشر لا يرون سوى الجسد سيعلنون موتي إلى الأبد، وعندما يشتاقون إليَّ سيذهبون لزيارة ما تعفن وتآكل من جسدي رغم أنه ليس أنا.

ـ مش هاروح تاني!

بدت الدهشة على ملامح ريهام لكنها لم تعقب، ثم غبت أنا في غرفتي ليوم كامل لم أرد أن أحادث فيه أحدا، وعندما رأيت اسم عزة السروي على شاشة هاتفي المحمول ضحكت ولم أمد يدي إلى الجهاز، كنت قد سجلت اسمها «عزة» MS في ظروف غير هذه كنت لأسجلها عزة الفاتنة أو الساحرة، ربما هي أيضا سجلتني بنفس اللقب، فهذا الوحش يملك قدرة خارقة على أن يمحو كل ما يمثلنا ويبقى هو فقط متصدرا المشهد. غالبا كل من رأوني هناك وعرفوا تاريخي لم يقولوا بفخر أنني بطل، بل قالوا كلمات قصيرة تعبر عن أساهم من أجلي لأنهم رأوا بوضوح أن المرض هو من فاز على البطل في النهاية.

خرجت من عزلتي اختياريا، ريهام كانت تتكلم عنهم في حماس زاد من غضبي، كما لو كانت تطلب مني أن ألقي عبئي عليهم بدلا منها. لم تنس أن تتحدث عن جمال عزة السروي وجاذبيتها وهي تنظر إليَّ بطرف عينها، فعلقت باقتضاب:

ـ سخيفة ومفتعلة.

كانت عزة تشغلني كطيف هادئ، عندما ظهر اسمها على جهازي مرة أخرى لم أتردد في الرد، كنت أريد أن أخبرها بأنني لا أريد أن أكون جزءا من مشروع الشفقة والتعاطف الذي تديره. لكنها لم تمنحني الفرصة، بدأت المكالمة بشكري على اليوم الذي قضيته معهم وهي تخبرني عن أنني أصبحت نجم الشباك، طلبت مني أن أحضر الاجتماع القادم فاعتذرت، عندما شعرت بإصراري طلبت مني أن نلتقي ولو لمرة واحدة في أي مكان أختاره لأنها تريد أن تتكلم معي.

فجأة شعرت في قلبي بتسلل مشاعر قديمة لم أختبرها منذ سنوات، ذلك الوهج الذي يصيب صدورنا في بدايات الشباب، شعور التهيؤ لمشوار جديد في الطريق الوعر، أعطيت نفسي عشرات الذرائع لتفسير ما كان في صدري، من أين أتى هذا الشعور وسط كل هذا الضعف والمرض؟ الإجابة في السؤال غالبا، من الضعف والمرض والاحتياج.

عندما التقينا رأيت في هيئتها ما أكد لي أن نفس الوهج كان قد بدأ يولد في صدرها أيضا، كانت أجمل من المرة السابقة بعد لمسات صغيرة لم تفتها عيني، لمسة الكحل، وظل الجفون المتسق مع لون عينيها وخط تحديد الشفتين قبل ملء الهدف باللون الطوبي الداكن، بدأت تتكلم بارتياح وضعف لم ألاحظه في المرة السابقة، تفاصيل أكثر وأكبر، ودموع الحكاية التي أعرفها، هي أيضا أنكرت في البداية، ثم غضبت من جسدها الضعيف ومن اختيارها لذلك البلاء الصعب، ثم استسلمت وتوارت ثم خرجت للحياة مرة أخرى، بحثت عن أصحاب نفس العلة لتحاول هزيمة المرض معهم.

ـ كنت فاكرة نفسي قوية.. لغاية ما شفتك!

عزة رأتني أقوى منها ومن الجميع، لأنني قررت أن أواجه مرضي وسط الأصحاء، محاولتي لاستكمال حياتي كما هي أبهرتها، اكتشفت أنها تركت البنك منذ شهور لأنها لم تعد تحتمل المزيد من التساؤلات والتعليقات.. ولا أن تمشي هي فقط متعثرة بينما كل من حولها يمكنهم الركض ببساطة وقتما يريدون.

ثم ضحكت بمرح وهي تشير بسبابتها الرقيقة:

ـ أنت بقى عايش في وسط ناس بتطير في الهوا..

في عيونها رأيت نظرة لم أرها منذ زمن، تراني بطلا خارقا كما كنت في عيون الكثيرين قبل أن تحترق تلك الصورة إلى الأبد، ابتسمت وقمت من مكاني وأنا أطلب منها أن تأتي معي:

ـ هافسحك!

الأرواح أيضا تشتاق إلى التنزه من آن لآخر، أعرف هذا جيدا، نزهة الأرواح تكون دائما في الخروج بها من نطاق المعتاد والواقع إلى ما هو أجمل، ربما لحظات من الماضي أو رغبات الحاضر أو أحلام المستقبل، أسعدتني فقررت أن أسعدها، أعرف ما تحتاجه جيدا، أخذتها إلى النادي ودخلنا على مضمار الجري، ذراعي في يميني وهي في يساري تتكئ عليَّ محاولة إخفاء ترنحها، اكتشفت أن ذراعي التي تعلقت بها كالغريق لم تزل تحمل من القوة ما يكفي ليرفع قامتها، سرنا سويا على مهل، قصتي الشهيرة في ذلك المكان وعدد من وقفوا لمصافحتي كان كافيا ليحمينا من أي نظرات مهينة، وقفنا عدة مرات لنستريح فكانت هي من تصر على أن نواصل، لفة كاملة كانت تستغرق مني في يوم من الأيام ما يقل عن ثماني دقائق، استغرقت ما يتجاوز الساعة.. جلسنا بعدها على الأرض،

كانت هي بقطرات عرقها الصغيرة ووجهها الروماني الذي احمر تشبه شعلة الدورات الأوليمبية. وهج حقيقي يخرج منها ليصيبني بدفء تلذذت به. ثم مشيت معها في اتجاه سيارتها المجهزة، وقفت تنظر إليَّ طويلا ولم تتكلم فلم أفعل أنا أيضا، همت بقول شيء ما لم يعجب عقلها فأوقفه، فشكرتني باضطراب ثم رحلت، تحركت في اتجاه سيارتي وفي صدري شعور مضطرب غامض.. وعندما تحرك السائق بالسيارة كنت أتساءل في حيرة لائما نفسي ومتسائلا عما يحدث!

ـ شكرا.. اكتشفت أنني لم أزل على قيد الحياة!

كان هذا تعليقها على ما حدث بيننا، أرسلته في رسالة قصيرة جلست أحدق فيها وأنا أتنهد في صمت، الطريق سيكون شائكا غير ممهد، ريهام كانت مع صديقاتها خارج المنزل، اتصلت بها فسألتني إذا كنت أحتاج شيئا ما. كنت أريد أن أقول لها أنت، فسردت لي سريعا أين سأجد الطعام وأين سأجد ملابس النوم وأرسلت لي قبلة هوائية عبر الهاتف!

يجيد الرجال تلك اللعبة جيدا، البحث عن النواقص في الطريق الرئيسي عندما يأتي وقت التفريعات، قبلة الهواء ولدت في قلبي تساؤلا مريرا، متى كانت آخر مرة قبلتني فيها؟ آخر مرة طلبتني رجلا في ليلها، لا أذكر! أنا أيضا نسيت أن أتذكر، ريهام تقوم في حياتي بدور ممرضة مخلصة، أو دور أم رءوم فقدت زوجا ترك خلفه طفلا مريضا.

ذلك اليوم تحديدا أعاد لي شيئا من الحياة كما فعل مع عزة السروي، اكتشفت فجأة أنني لا زلت أحمل قلب رجل.. وربما جسد رجل أيضا.

انتظرتها إلى أن جاءت، أخذتها بين ذراعي برغبة رجل كدت أنساها فنظرت إليَّ باستنكار أنهى الليلة، كانت تريد أن تسألني عما أفعل، فابتسمت في حرج وصمت تماما، ساعدتني على ارتداء ما كنت قد خلعته من ملابسي، وهي تحكي لي أخبار صديقاتها، ثم نامت هي بينما لم أنم.

٨٩

عفوا، هذه الصفحة لم تعد متاحة/

Sorry, this page isn't available

مات مصطفى القماح

رأيت صورته واسمه بعيني بين مئات الأسماء التي خرجت في قائمة طويلة بعد فض اعتصامهم الذي استمر لأسابيع بعد عزل الرئيس، حشدوا أنصارهم في المواجهة لتصبح المعادلة في غاية الصراحة.. رءوسًا في مقابل رءوس.

كان المشهد بأكمله مقيتا، شريطة سوداء على صورة صديقي التي نشرها شخص ما على حسابه قبل أن تغلق الصفحة بالكامل في نفس اليوم، بينما عصام يرقص على أغنية تحتفل بما جرى، أبي يبدو سعيدا، نقلت إليهم الخبر فخيم عليهم ذهول مفاجئ، لم يتصوروا أن واحدًا منا كان في قائمة الآخرين، وأنا لم أكن أفكر في شيء سوى استرجاع ذكرياتي مع صديقي، جلست على كرسي المتحرك أمام حسابي على الحائط، أخرجت كل الصور التي تجمعني به واحدة تلو الأخرى وأنا لا أملك كبح دموعي.

أصبح بيني وبين السياسة عداء لن تمحوه السنين إلى أن ألحق بمن فقدت، الأديان ليست ما يفرق الشعوب كما كان البوس يقول،

السياسة والكرسي والحكم، مصطفى القماح قتل منذ سنوات بعيدة، قتله منصور الذي فرق بينه وبين رياضة كان يحبها ويستحق أن يواصل طريقه فيها إلى أن يصبح بطلا للعالم، وقتله مجتمع كامل يتصارع كالثيران على كل شيء.. حتى الوطن.

كان لا بد أن أذهب للعزاء، لم أدخل منزله أبدا من قبل، حصلت على العنوان من صفحة الفيس بوك الخاصة به. لم أتوقف عن البكاء تقريبا طوال يومين، رافقني عصام، وأصر أبي على الذهاب معي، كان هو أيضا يحبه، حتى أمي جاءت معنا مرتدية رداء أسود طويلا وفي عينيها حزن مكتوم.

تحركت القافلة إلى هناك في سيارة واحدة، في صندوقها الخلفي الكرسي المتحرك، كنا صامتين تماما، لا أحد يريد أن يتكلم ولا أن يعلق على ما حدث، خسارة فادحة أخرى، جسدي وبدوي والقماح وعبد الرحمن البطل الشاب، الثورة التي كانت النور الصغير والحب بين أصدقائي، أي لعنة هذه التي أصابت العالم الذي أحيا فيه؟؟ أما هم فقد كان المكسب في عقولهم مختلطًا بخسارة شخص كلهم يعرفون أنه لم يكن متوحشا ولا مجرما كما وصفه خالد فاروق في حلقة برنامجه التي عرضت في يوم إعلان وفاته، جاء بلقطات من لقائه معه وتعمد أن يختار جملا يمكن أن تترجم بألف طريقة ليؤكد أن القماح كان إرهابيا.

كان العزاء في قاعة مناسبات تابعة لمسجد مجاور لسكن مصطفى في حي السيدة زينب، لم أر في حياتي قاعة للعزاء يشع الحزن من كل ركن فيها مثل تلك القهوة التي دارت على الجالسين تختلف في معناها عما اعتدته. عرفت في ذلك اليوم أن القماح عاش بطلا للنهاية بشكل ما، لم يكن قائدا لكنه كان سندًا لكل من يحتاجونه

هناك، لم يخبرني عن ذلك أبدا، كان يعطي دروسا مجانية للطلبة ويدرب فريقا في مركز الشباب بدون مقابل ويرتب مع الميسورين من أهل المنطقة مشروعا أطلقوا عليه القرض الحسن، مبالغ مالية للمحتاجين تمنح بدون فوائد وبفترات سماح طويلة.

التقطوه لأنه كان محبا لله والخير، هكذا قال أبوه المسن الذي شارك في المظاهرات مع فريق أبي، وسألني وهو يذوب في بكائه عما إذا كان ذلك يجعله شريكا في قتله فلم أجب، فتدخل أبي في الحوار بخبرة السنين وهو يسأله إذا كان ما حدث العكس هل كان سيعتبره شريكا في قتله.. فهز الرجل رأسه نافيا وهو يسكب المزيد من الدموع، أجلت رأسي في قاعة العزاء، كانت الوجوه متباينة وكذلك الملابس، وكل صنف يجذب مثيله، جلابيب ولحى في ناحية، قمصان وشعور لامعة في جهة أخرى، ومسنون يتجاورون على مختلف صورهم، هذا هو العالم الذي كنا نعرفه دائما، فما الذي حدث؟!

جاءتنا أمي بعد قليل وفي يدها صبي صغير، عرفته على الفور من ملامح عاشت ترافقني طوال العمر على وجه آخر، أخذته بين ذراعي وأنا أحاول التماسك، قبلته فقال وهو يبكي:

ـ بابا حكالي عنك كتير.. سماني على اسمك وكان عاوزني أبقى زيك!

تذكرته وهو يطلب مني أن أقوم بتدريبه عشرات المرات، وتذكرت إجابتي عليه:

ـ يعني ما لقيتش غيري..

القماح حتى النهاية كان يريد ابنه مثلي أنا لا مثله هو، لهذا كان يريدني أن أعلمه، قبلت رأسه مرة أخرى واختنقت بالدموع، أراد

أبي الرحيل لكني أصررت على البقاء حتى النهاية، هذه الدقائق الأخيرة كانت آخر ما يمكن أن أقدمه له حتى نلتقي مرة أخرى.

مر الوقت كئيبا، أنهى المقرئ تلاوته فبدأنا نستعد للرحيل، اقترب شاب في بدايات العشرينات ليأخذ الميكروفون وبدأ في الدعاء له بصوت مختنق بالدموع، دعا له بالرحمة والمغفرة والجنة فأمن الجميع، ثم بدأ يدعو على من وصفهم بالخونة الظالمين، حددهم بالاسم فسرت صيحات غاضبة بين الجلوس، انقض عليه أحدهم وأخذ منه الميكروفون في عنف، بدءوا في تبادل اللكمات، لم يكن أي منهما وحيدا، حاول الكثيرون تهدئتهم وهم يذكرونهم بسبب تواجدهم لكنهم لم يسمعوا، تحول الأمر إلى ساحة عراك ضخمة ككل ما حولنا، وقف عصام أمامي أنا وأبي ليحمينا، وتأكدت أنا من أن مصطفى كان ضحية حتى النهاية، فلا الذي كان يدعو كان يفكر في صديقي ولا من انقض عليه.

٩٠

مجموعة/Group

عدت إلى اجتماعات جمعية مرضى التصلب المنتشر، لم أستطع المقاومة، غزت حياتي في وقت كنت منهكا فيه، هي التي وهبتني طاقة أخرى وجعلتني أرى نفسي من جديد، وجدت عمر الخياط الذي كنت أعرفه لكنه كان تائها في صراعه مع المرض، هكذا يمكن أن أصف ما حدث لي مع عزة في الأيام التالية.

لا أستطيع أن أصف ما كان بيني وبينها بالحب، ربما بالاحتياج، كانت تطلب مني أن أتكلم عن نفسي وتنصت في سكينة مدهشة، نبي يتلو تعاليمه على مريديه فينصتون، تطلب مني أن أعيد عليها ما

حكيته في مرات سابقة رغم أنها تعرفه جيدا، فأستمتع بحكاياتي كما لم أستمتع بها من قبل.

لحظات التريض كانت حياة أخرى لي، أكاد أحملها بذراعي حملا لأمنحها بضع خطوات صغيرة في مشوارها للحياة، حتى المرة التي سقطنا فيها سويا كانت مصدر بهجة، ضحكنا سويا كما لو كنا لم نلحظ سقوطنا، وقمنا فاتكأت عليَّ مرة أخرى وواصلنا المسير.

أصبح الجدول الثابت ممتعا والعشوائيات أكثر إمتاعا، خصصنا يومين ثابتين في الأسبوع للنادي، غداء ومشي لا يبدو مستقيما إلا لكلينا، آخذها لأراقب ولدي أثناء تدريبه عن بعد وأنا أشرح لها ما يفعل، موهبة لا بأس بها، ريهام في المدرجات تتابعه بحماس، كل مرة أنشغل بعدد من اللاعبين الموهوبين في الفريق وأؤكد لها أن هؤلاء من يمكن أن يصبحوا نجوم السماء، أطلقت على واحد منهم كيم الصغير وعلى آخر شعبان وعلى الثالثة الفراشة الصغيرة واعتدت البحث عنهم بعيني في كل مرة.

ثم كنا نتفق في نهاية اليوم على نزهة الأسبوع، كانت تعشق السينما فعلمتني أن أحبها، نذهب بشكل عشوائي وندخل أي فيلم موجود، حضرت معي تدريبات المنتخب وأصبح اللاعبون يعرفونها، عرفتهم بالاسم والإنجازات فبهرتهم، فلا شيء يساوي في قلب البطل أن تحدثه عن بطولته وتتذكرها حتى وإن نسيها هو.

ثم انتظمت في حضور لقاءات الجمعية، أفلام مبارياتي أصبحت جزءا من لقاءات الجمعية، يعرضون المباراة ويشجعون في جنون كما لو كانت المباراة تذاع على الهواء، أتحمس وأركل بقدمي الهواء جالسا بقوة تفوق قدرتي، ثم أعلق على ذكريات كل مباراة

دخلتها وما وراء الأحداث، أصبح لي جمهور يشجعني كما لو كنت لم أزل داخل الملعب، ومتابعة كاملة لكل نتائج فريقي تتبعها تهانٍ تصلني من كل مكان في العالم.

امتلأ حسابي على الفيس بوك بصوري مع زملاء المرض، كلهم أصروا على التقاط صور معي ثم وضعوها على حسابي، خلال شهور كان هناك ما يزيد على أربعين عضوا جديدا في جمعية رعاية مرضى التصلب المتعدد، كلهم من لاعبي وأبطال التايكوندو الأصحاء، معهم فريدة الوكيل وريم... وريهام.

استغرق الأمر شهورا إلى أن بدأت ريهام تتذمر بشكل فجائي، كانت تعرف أنني ألتقي بعزة ولم تمانع، بل شعرت أنها ارتاحت لأنني سحبت نفسي من جزء أكبر من حياتها، غالبا وصلها ما أثار في داخلها تجاهي شيء نسته هي في غمرة كل ما مر بنا.. أنني رجل.

اشتعل الحوار بيننا فجأة، في البداية شممت نار الغيرة في كلامها فشعرت بسعادة غامضة، ثم انقلب الأمر تماما، لم تكن تتحدث عن حب أو عشرة أو عن حقها فيَّ، بل عن ديونها في رقبتي، كانت تحصي كل سنوات العمر التي مرت بيننا وتحاسبني على كل شيء، لم تتهمني بالخيانة كما تتهم المرأة رجلها، بل اتهمتني بأنني ناكر للجميل!!

نبرة صوت باردة حادة تحمل رسالة واضحة، أنني رجل معوق وهي تحتمله، هذا هو ديني في رقبتها كما لو كنت اخترت مرضي، وضحكت في استنكار ساخر لم أغفره لها أبدا عندما ذكرت أنا في سياق الحوار كلمة رجل!

خيرتني بين رؤية عزة السروي وبين حياتي معها بالكامل، وغادرت المنزل غاضبة وهي تظن أنني اخترت الأخرى، لكن ذلك

لم يكن صحيحا، كل ما في الأمر أنني اخترت الامتناع عن الاختيار.. في مسيرة العمر لم أسمح أبدا لأحد أن يضع أمامي كفتين لأختار بينهما.. وكنت دائما أختار ما لا يريده هو حتى لو لم يوافق إرادتي.

غابت ريهام فغاب السند، بحثت عن الحب في عزة فلم أجده كما ظننت، لم أخبرها بما حدث، لكنني تعمدت أن أمسك بكفها بينما كانت تتكئ على ذراعي في المضمار، نظرت إليَّ في حيرة فأشحت بوجهي، حررت كفها في رقة وواصلنا السير في صمت.

أردت أن أحكي لها لكني لم أستطع، سألتني عما بي فقلت لها إنني متعب، وكنت صادقا، امتلأت عيونها بالفضول، كانت ريهام تملك أن تفعل أفضل من ذلك، أن تأخذني بين ذراعيها وتهمس في أذني بأنها تحبني وأنني رجل حياتها لكنها لم تفعل، غالبا أجرت حسبة بسيطة ثم قررت بعدها أن تتركني كما أنا، حطام بطل كان يوما يهز الأرض من تحته فأصبح يهتز بينما يقف مكانه كما لو كان من عرائس الماريونت، اختارت الأسهل كما اختارت في كل المرات السابقة، اكتفت برعايتي كمعوق أحمق، هجرت روحي ثم هجرت جسدي ثم هجرتني بالكامل. ما الذي فعلته مع عزة؟ لا شيء، كنت أقضي معها وقتي لأستمتع بنظراتها وأشعر بقوتي وهي تلقي بكامل وزنها على ذراعي وأذوق سعادة ما تبقى من ذكرياتي وأنا أحكي ما عشته عندما كنت نجما في سماء أظلمت في وجهي فجأة.

قالت لي ريهام إن مجرد ارتياحي لأخرى خيانة، من الذي يستطيع أن يملك مفاتيح ارتياحه؟ أنا أملك جسدي.. اللعنة! حتى هذا لم يعد يتحرك بأمري.. أنا لا أملك سوى أحلامي وذكرياتي، كل أحلامي أقل قيمة من كل ما مر بنا، وكل الماضي الذي عاشته أصبح ذكريات أليمة تسمعه فتصفر ابتسامتها أو تتنهد وتقوم فجأة

لتتركني مع نفسي، كنت أحتاجها لكني لا أريدها.. كل ما تفعله يشعرني بضعفي ومرضي، كنت أراها تقف أمام المرآة وتتفحص ملامحها فأشعر بغصة في قلبي، أعرف أنها كانت تتساءل عن مصير شبابها وجمالها مع رجل لم تستمتع به إلا قليلا، لكني كنت موجودا، كان يمكنها ببساطة أن تعيدني للحياة بين ذراعيها، لماذا كانت تبحث عن الآخر في جسدي.. عمر الخياط القديم رحل بغير عودة.. فلماذا لا تتقبل الواقع.

عزة كانت تشعر بشيء ما، زادت من لقاءاتنا لكن بشروطها هي، لم تكن تريدني عشيقا ولا حبيبا، بل رفيق طريق، نلتقي ونحكي ونتحرك سويا، لكنها لم تحتمل اللحظة التي قلت لها فيها بأنني أحبها.

نظرت إليَّ في دهشة، ثم سألتني في توتر:

ـ فيه حاجة حصلت بينك وبين مراتك؟

فحكيت لها كل شيء، لم تعقب مطلقا، لمعت الدموع في عينيها فأغلقتهما للحظة ثم قالت:

ـ عندها حق!

وتركتني جالسا في مكاني وذهبت تترنح وحيدة، حاولت أن أساعدها لكنها أشارت لي لكي أتوقف، وزاد ترنحها وهي تقف كل مترين، ثم أرسلت لي على هاتفي رسالة قصيرة:

ـ لا أملك في حياتي مكانا لرجل آخر يعاني معي.. المكان الوحيد الشاغر هو لصديق!

ثم غابت عن حياتي، لم تعد تجيب اتصالاتي، هجرتني هي أيضا بعد أن غرست في قلبي بذرة كنت أظنها لن تنبت في تربتي الجافة، وجدت نفسي ألجأ أبحث عن ريم، طلبت منها اللقاء فجاءت على الفور، حكيت لها الحكاية فنظرت إليَّ في شفقة وسخرية وهي تقول لأول مرة:

ـ يخرب بيتك!
ثم قامت من مكانها واقتربت مني حتى لامست أنفاسها الساخنة وجهي وهي تقول:
ـ هابعتلك جواب النهاردة.. آخر جواب.. خد بالك من نفسك يا عمر!

٩١

صندوق الرسائل/Inbox

ريم
«عمر! لا أعرف كيف جرؤت أن تطلبني لأكون بديلة عن ريهام التي هجرتك بعد كل هذه السنوات، وعوضا عن تلك الجميلة التي حاولت أن تستند إلى ذراعيك ورفضت أن ترتمي بينهما. أي كائن بشري أنت؟

لماذا لم تفكر أننا جميعا نملك قلوبا مثلك، أو بالأحرى قلوبا تختلف عن قلبك الجاف.. عموما أنا أحب أن أهنئك لأن المرض لم يقهر شيئا مما تحمله في قلبك، نصيحتي لك أن تعيش كما كنت.. أنت لم تزل عمر الخياط الوحش القديم.. لم تفقد شيئا من صلابة نفسك وقلبك.. أو ربما بالفعل تحتاج لحب جديد.. لكنه يجب أن يكون جديدا لأن كل الحب القديم مجروح منك إلى الأبد.. حظا سعيدا من كل قلبي».

٩٢

حظر/Block

رفضت مغادرة منزلي بعد أن هجرتني ريهام، أبي وأمي انتقلا ليعيشا معي، لم أستطع مفارقة حياتي الكاملة الموجودة على

الحائط، لم أعد أملك سواها، لأول مرة خلت حياتي من كل النساء، عليَّ أن أعيش وحيدا وأن أتخذ قرارا سريعا في إصرار ريهام على الطلاق الذي أعلنت كل أسبابه بالتفصيل وهي تبكي أمام أبي:

ـ تعبت!

كانت تحاول دائما أن تتظاهر أن كل شيء على ما يرام، لكنها كانت تموت كل يوم وكنت أعرف ذلك، لذلك كان لا بد أن تنهار في النهاية.

وأنا أيضا تعبت، قررت أن أغادر الحياة التي لم أعد أحتملها إلى حياة أجيدها تماما، أخذت حقيبتي وانتقلت إلى مكان معسكر المنتخب لأقيم هناك، معي مساعدي عصام وكفى، لم آخذ السيارة ولا السائق فلا حاجة لي بهما، يأتي فقط ليأخذني إلى لقاء الجمعية في نهاية الأسبوع ثم أقضي اليوم الأخير في بيت أبي وأعود مرة أخرى.

لم يعد هناك أي حديث مباشر بيني وبين عزة السروي، نظرات صامتة فقط من بعيد تحاول هي تجنبها دائما، أصبحت تخاف مني، من شرارة قد تشتعل في حياتينا، لم أعلم هل كانت تعرف أن حياتي الخاصة تحولت إلى رماد أم لا، لكنها على أي حال رأت بعينها الفصل الأخير منها، في اليوم الذي جاءت فيه ريهام لتجلس في منتصف الدائرة التي نجلس فيها وهي تنظر إلى عزة شزرًا.. لا أدري لماذا أتت بالصغير معها، ربما أرادته شاهدا على ما ستشرحه له يوما ما، ملأ التوتر المكان، عزة لأول مرة كانت لا تستطيع أن تسير الجلسة، كلامها متقطع وابتسامتها باهتة، أنا كنت أخشى ما ستفعله ريهام، لم أعرف ما الذي أتى بها، بدت لي كقطة شرسة انتفض شعرها كدبابيس حادة وهي تستعد للانقضاض، وعزة كانت تنكمش كطفل مختطف لا يعرف ما سيحدث له، أنهت الجلسة أسرع من المعتاد، ثم قامت مضطربة فتحركت أنا وريهام

في اتجاهها في حركة متشابهة، وصلنا سويا ووقفنا على هيئة مثلث متساوي الأضلاع، أنا قاعدته وهما تقفان متواجهتين، حاولت عزة أن تتكلم لكن ريهام سبقتها هامسة في أذنها بحدة:

ـ حلال عليكي.. أنا مش عاوزاه..

ثم نظرت إليَّ بعينين تضخان الكراهية ضخا:

ـ طلقني يا عمر!

ثم ابتعدت مسرعة، وتهاوت عزة عائدة إلى كرسيها، وبقيت أنا مسمرا في مكاني.. قاعدة مثلث بلا أضلاع.

كانت الحياة تأخذ مني حسابها كاملا، كل ما استمتعت به في حياتي ينهدم واحدا تلو الآخر، كل من أحببت انفضضن من حولي يحملن في قلوبهن تجاهي كراهية لا تحتمل، كل ضربة انطلقت مني قبل ذلك ردتها إليَّ الدنيا بعشرات الضربات، لا الجسد أصبح قادرا ولا القلب أصبح سعيدا، ما الذي تبقى؟ الحلم.

للأحلام مساران، إما أن تتحول إلى أمل أو لمجرد خيال لطيف، ما يفصل بينهما هو قابلية التحقق والقدرة عليه، أحيانا نفر من الواقع القاسي إلى الأحلام لتخفيف مرارتنا. كنت دائما أعلم اللاعبين بأن المباريات فيها ثلاث حقائق، ما حدث وما يحدث وما سيحدث، أزمنة الفعل الثلاثة، اللاعب الجيد لا يشغله الفعل الماضي عن الأفعال المضارعة والمستقبلية، لا مجال للندم والحزن ولا حتى للاحتفال قبل أن تنتهي المباراة كاملة وكان هذا ما فعلته.

تجاهلت مرضي وغضبي من ريهام وحزني على عزة السروي، كان لابد أن أتحرك إلى مربع جديد في حياتي، آخر أحلام الرياضة في صدري، ميدالية أوليمبية جديدة كمدرب، تركيزي في التدريبات بعد ذلك كان كاملا، تتدهور حالتي أحيانا فأشعر بالموت يقترب، فآخذ نفسا عميقا لأتأكد أنني ما زلت حيا وأعد نفسي باستكمال

الطريق، إذا كان لا بد لحياتي أن تنتهي فلأجعلها نهاية تساويها، أنا لم أستطع أن أبقى رمزا في حياة من حولي ربما لأنني كنت مجرد كائن بشري ضعيف، لكنني أريد أن أبقى بطلا إلى الأبد في الملاعب التي تحبني وأحبها.

حالتي الصحية كانت تتأخر ببطء يسمح لي أن أخفيها، لكنها كانت تتدهور، تثاقلت ساقاي حتى بدا وزنهما أطنانا، وتزايدت الرعشة حتى أصبحت جزءا مني كلما سكنت حركتي الإرادية، ثم جاء قرار الطبيب بمنعي عن المنبهات عموما والقهوة بوجه خاص؛ لأنه كان يرى لها تأثيرا سلبيا على جهازي العصبي المتهالك، فقدت قدرتي على الحركة وفقدت مذاق القهوة ولم يبق لي سوى رائحتها.

ريهام لم تنتظر الطلاق، ولم تلح عليه كثيرا، فقط طلبت مني الموافقة على سفر ابني معها إلى دبي لتعيش هناك مع أبيها ولو بشكل مؤقت، لم أتردد في القبول، فقد كنت أظن أن هذه ستكون فرصة لتهدأ بيننا الأمور ونبدأ من جديد، لكن ذلك لم يحدث، ريهام حتى لم تراسلني، كان والدها هو من يرسل إليَّ بأخبار الصغير فقط في رسائل إلكترونية، لم يكن الفيس بوك موجودا وقتها، مع ذلك فقد كانت ريهام صاحبة أول حظر حقيقي وكامل لي كما لو أنني لم أكن أبدًا جزءًا من حياتها.

٩٣

مناسبة/Event

أثينا ٢٠٠٤

كان الأمر يختلف تماما عن الدورة الأوليمبية السابقة، انفعالي أكبر لكن كل شيء في عيني أقل بهاء، ربما بسبب خبرات الحضور

المتوالية وقسوة الأحداث المتتالية، أي خوف يمكن أن يهز رجلا ينتظر الموت في كل ليلة؟ وأي قلق يمكن أن يصيبك وأنت قلق على جسدك الذي قد لا تسيطر عليه، وأي خسارة ستعنيني بعد أن خسرت حركتي.. وبالرغم من كل هذا.. كنت أتمنى الفوز.

اكتشفت فجأة أن الحياة لم تكن تنتقم مني، كانت حسابا كبيرا أتى وقته، أعطتني حقوقي واحدا تلو الآخر، لم أقدم في طريقي للحب ما يكفي فأخذته مني، أما الملعب فقدمت له كل شيء، لذلك بقي معي.. لهذا أخذت ما أستحقه منه.

بيومي الصغير القادم من أعماق الإسكندرية، يقفز كالفهد ويطير في الهواء بكلتا قدميه ليركل ويسقط وينهض، تتوالى المباريات، نتخطاها واحدة تلو الأخرى، أربع مباريات متتالية، كان ذلك اليوم مدهشا، لم أجد جسدي عليلا في أي لحظة أثناء منافساته، كنت أتحرك معه وأتفادى الضربات الموجهة إليه من على الكرسي الموجود في خلفية المشهد، شخص ما أضاف ذلك الفيديو لاحقا على الإنترنت وأضاف إليه أغنية تهز جسدي عندما أسمعها وأجدها تصف حالتي، النور مكانه في القلوب.. أما أنا فكان نوري الدائم يأتي من مكان نجاحي الأعظم.. بساط المنافسات.

فعلها بيومي، حقق أول ميدالية رسمية للتايكوندو في تاريخ الدورة الأوليمبية بعدما حققت أنا أول ميدالية غير رسمية.. وقف الجميع يصفقون في آن واحد وهو يبكي ويشير إلى السماء ثم يشير إليَّ أنا أيضا، الفيديو الموجود لنا غريب، يتزامن سقوط الكاميرا على وجهي وأنا أحتضنه مع كلمات تتطابق مع ما أردت دائما قوله:

ـ يا تكون قد الحياة يا تعيش وحيد وسط الدروب..

ثم تتزامن إشارته إليَّ مع جزء آخر:

ـ حلي مرار الأيام.. لسه الحياة قدام.. قوم لون الأحلام.

حاولت.. لكني لم أستطع النهوض، لم يكن عناقنا حارا لأنني كنت أشعر بخدر يسري في ساقي مؤلما، سجد في منتصف الملعب فسجدت معه على طرفه وتهاويت على المقعد، ربما لأن جسدي فقد قدرته على المقاومة إلى الأبد.

لم يعرف أحد أنني عدت إلى القاهرة على كرسي متحرك حتى صالة الانتظار، ثم تحاملت على نفسي وتحركت ببطء إلى بوابة الخروج، أبي كان ينتظرني، تعلقت بذراعة وخرجنا سويا من باب صغير، لم يرنا أحد من فرط انشغالهم بالبطل الجديد، لم أعد قادرا على استخدام قدمي إلا بصعوبة بالغة، صورتي في تكريم الرئيس السابق احتاجت إلى أن ينقلوني بكرسي متحرك أيضا إلى أن وقفت أمامه، أبعدوا الكرسي والتقطوا الصورة.. تسلمت وسام الجمهورية ثم عدت إلى الكرسي مرة أخرى.

٩٤

فيديو الماضي/A look back video

صورة الحساب في دائرة صغيرة وفي الخلفية عشرات الصور متداخلة كما في رأسي، مكتوب تحتها تاريخ انضمامي للفيس بوك في ٢٠٠٦، ثم اللحظات الأولى كما وصفوها، صور من دورة أثينا الأوليمبية، آخر صورة لي مع الفريق القومي، صوري في بضعة لقاءات تلفزيونية في الشهور التالية لتحقيق ميدالية بيومي، صوري في تدريبات النادي، وصور لبعض اللاعبين التقطتها بنفسي واحتفظت بها جميعا في دفتر الصور ثم نقلتها إلى الحائط الحقيقي والافتراضي بعد سنوات، فريدة والقماح وصورة وحيدة لبدوي.. ومحمد علي كلاي

قفزة طويلة مع أكثر الصور التي حصدت إعجابا، صورة الثورة وصورتي مع الرئيس والوسام، تعليقاتي على الثورة وهي تقل حماسا يوما بعد يوم إلى أن تتحول إلى مجرد أن يعود الحال إلى ما كان عليه، ثم كل شيء مجتمع وعلامة إعجاب ورسالة قصيرة تشكرني على أنني كنت جزءا من عالم الفيس بوك الكبير.

عقد بطيء فارغ، العالم كان يدور من حولي بينما أشاهده على جهاز وأسجل الماضي والحاضر على حائط، حاولت مقاومة مرضي لكنه لم يرضخ، ربما لأن الأحلام انتهت بانتهاء تعاقدي مع الفريق القومي، تقاسموا الفرحة ولم يبحث عني أحد، أنا أيضا لم أبحث لأنني كنت أعرف أن أحدا لن يريد مدربا يتحرك بصعوبة بالغة.. إن تحرك.

قضيت فترة قصيرة مدربا في النادي الذي نشأت فيه، نادي الصيد مرة أخرى، لم يكن حماسي مشتعلا كما اعتدته دائما، كنت أجلس لأشاهد التدريبات في ركن قصي على الكرسي المتحرك لأنني أكره نظرات الشفقة في عيون الناس، كنت أتفحص اللاعبين وأبحث فيهم عن نجم جديد يشبه النماذج التي أعرفها فلم أجد، لكني وجدت مشروعا جديدا تماما، سمات مختلفة عما عرفت رغم أنني كنت أظن أنني في كل تلك السنوات عرفت كل شيء.

كنت دائما أردد أن الإناث في مصر لا يمكن أن يصبحن بطلات للعالم، نحن لا نستطيع استثمارهن بين الثقافات التي نحملها ورغبات الزواج التي تصيبهم مبكرا، غيرت هي فكرتي، الفراشة الصغيرة التي كبرت كثيرا وإن لم تتجاوز الثالثة عشرة، جسدها الممشوق النحيف ألقى على عيني ضوءا جديدا، أطلقت عليها الأخطبوط لأنها كانت تملك سيقانا تتحرك في سرعة ومرونة فائقة، تضرب خصمها فجأة من كل الاتجاهات، طالما أشرت إليها لتأتي

منفردة لأعلمها تحركات وخطوات تعلمتها على مدار سنوات طويلة في كل بقاع العالم، أشرح لها المهارة فتنفذها على أكمل وجه، فأستدير إلى المدربين وأنا أبتسم في إعجاب:

ـ خدوا بالكم منها..

وكانت تلك هي آخر جملة خرجت من فمي وأنا أربت على كتفها قبل أن أغادر صالة تدريب النادي بعد أن تقدمت باستقالتي، لم أستطع المواصلة طويلا، كانت نوبات الضعف تأتي مصحوبة بآلام شديدة تمنعني من مغادرة المنزل حتى على الكرسي المتحرك، لم يعد وجودي في موقع مسئولية عن مئات اللاعبين مناسبا.. لذلك آثرت الانسحاب.

عندما تغيب الطموحات تصبح النهاية مجرد مسألة وقت، ربما لهذا أحببت الثورة، كانت آملا في أن تتغير الأمور بعد أن بدت ثابتة في كل ما حولي، تبدو لي كمباراة طويلة تقلبت فيها النتائج بين النصر والهزيمة لكنها لم تصل إلى النهاية، وانتعشت مؤخرا بظهور ولدي في حياتي مرة أخرى، أعاد نفسه إلى إطارها بعد أن أصبح رجلا يقترب من العشرين، أصبح يراسلني بانتظام بعد غياب طويل، يسألني عن أحوالي ويطلب مني صوري وفيديوهات مبارياتي القديمة، حولها إلى مقاطع على اليوتيوب ليراها الجميع، مع وعد منه بالقدوم إلى القاهرة لزيارتي قريبا عندما تستقر الأمور في مصر.

حالة محمد علي وكيفية مواجهته لمرضه كانت أكثر ما ألهمني الصبر، لقائي به على هامش تكريم كل منا في أوليمبياد لندن ٢٠١٢ كان أجمل لحظات العقد الذي مر ثقيلا من عمري، عشت قبلها وبعدها أتابع محاولاته لمواجهة المرض لكنني لم أستطع أن أكون مثله، العالم عندنا يختلف كثيرا، نحن لا نرحم أحدا، نتحدث عن

الرحمة كثيرا لكن القليلين منا فقط يعرفونها، لا نرحم الخاسر ولا الضعيف ولا المهزوم ولا حتى المريض، نذكرهم دائما بما حدث لهم بشكل أو بآخر ليظلوا أسراه إلى الأبد.

لا أحب مشاهدة مباراياتي التي ينشرها ولدي تباعا بافتخار، تترك في صدري ألمًا غامضًا، لكني أعشق مشاهدة مباريات علي، حسابي مليء بها، أغمض عيني واستدعي مشاهد أحفظها جيدا من مبارياته بحثا عن البطل الذي أعرفه، أحرك كتفي للأمام والخلف كما كان يفعل، واستمتع بواحدة من مبارياته بالتحديد، أطلقت عليها مباراة الغضب.

محمد علي وإيرني تيريل، بينهما صداقة قديمة عبثت بها المنافسة وفضلات السياسة القذرة عندما تدخل في مسار الرياضة الذي يفترض أن يظل نظيفا، تيريل كان يستغل الأجواء الغاضبة من علي لأنه رفض المشاركة في حرب ضد من لا يستحقون الحرب في بقعة بعيدة من العالم، هكذا اكتملت كبائر كلاي، عبث بالثلاثية المقدسة، خرج عن دين الأغلبية، واستنكر القرار السياسي ورفض أمر الحرب، كثيرا ما أتساءل عما كان ليحدث له هنا حيث لا توجد المغفرة ولا الرحمة ولا الآخر!! هناك اكتفوا بإيقافه عن اللعب وبحملات ضخمة للقضاء على تاريخه، تيريل قرر أن يكون صوت الأتباع، سخر منه ومن اسمه في المؤتمر الصحفي السابق للمباراة القادمة بينهما، أصر على مناداته باسمه القديم «كاسياس»، ووقف يتراقص كعاهرة مخمورة وهو يغني أغنية صارت لاحقا مصدر سخرية منه هو نفسه لا من غريمه، «سأغير ملامح وجهك كما غيرت اسمك، عار عليك»..

تلك كانت هي المرة الوحيدة التي رأيت فيها كلاي غاضبا بهذا

الشكل وهو يردد بصوت جهوري: سأعاقبك.. وسأجعلك تناديني باسمي الحقيقي هناك.. في الحلبة!

أحفظ كل الأصوات حتى هدير الجماهير في الخلفية، ما قاله المذيع المندهش من عقاب علي لمنافسه عقابا كان يستحقه.

ـ ما اسمي؟

كان يقولها وينهال عليه ضربا من كل ناحية، بسرعة وقوة، وتهور لا يناسب طريقة لعبه مطلقا، لكنه لم يكن يلعب.. كان ينتقم، تيريل كان يضرب في الهواء كما لو كان يصارع عشرات الأشباح، يضربونه في آن واحد، في النهاية انتصر محمد علي، ولم يناده أحد بعدها باسمه القديم.. أبدا. لا مفر من الموت يقينا. لكن طالما تمنيت أن يخرج مرضي من جسدي ويتحول إلى خصم أقف في مواجهته، أبرحه ضربا وأسأله في كبرياء: من أنا؟.. لكنني اكتشفت أن مرضي لم يكن خصما عاديا، بل حائطا منيعا صلبا لم تؤثر فيه أيٍّ من محاولاتي للشفاء، وكل آمالي أصبحت تنحصر في ألا يلقي بحجر آخر من أحجاره على ما تبقى فيّ من حواس.

٩٥

أدخل كلمة السر / Enter password

القاهرة ـ ١٩ أغسطس ٢٠١٦ ـ الرابعة فجرا

لرائحة القهوة تأثير مباشر على الجهاز العصبي حتى وإن لم تشربها، هذا ما اكتشفه العلما ء، أما ما اكتشفته أنا منذ سنوات فهو ارتباطها بمركز ذاكرة البطولات والسعادة في قلبي، أشتمها فينتابني شعوري القديم على أعتاب الملعب لتحقيق بطولة جديدة في صالة

التدريب الكورية التي بدأت فيها مشواري مع كيم، ويغيب شعور المرض والضعف ويبقى شعور البطولة.

ظننت أني فقدت تلك الرابطة إلى الأبد مع وفاة كلاي، لكن ذلك اليوم كان مختلفا، لأول مرة منذ فترة طويلة تعيد لي الرائحة ما كنت أبحث عنه فيها، شعور عمر الخياط المقبل على منافسة ثقيلة لكن التفاؤل يملأ قلبه.

القهوة أمامي ونسمات هواء الصيف تداعب وجهي، آخذ نفسا عميقا محاولا السيطرة على انفعالي، لا أستطيع، جسدي بأكمله يرتجف، على الشاشة الضخمة الموجودة في ساحة النادي أجزاء من حياتي تتحرك، الدورة الأوليمبية بدوائرها الخمسة، علم مصر واسمها على لافتتين قبل المباراة، أعرفهم جيدا جميعا، المدرب الإسباني الذي يقوم بتدريب المنتخب، إلى جواره طبيب الفريق الذي بدأ عمله في المنتخب معي أنا منذ سنوات بعيدة، كلاهما كان لاعبا في جيل أعرف لاعبيه في جميع أنحاء العالم، والفراشة الصغيرة التي كبرت ونضجت تقف شامخة لتستعد لمواجهة جديدة وأخيرة في تلك الدورة.

مباراة تحديد المركزين الثالث والخامس، هداية ملاك من مصر وراحيلة أسيمي البلجيكية، إحداهما ستنضم إلى قائمة الأعظم في تاريخ التايكوندو، الأخرى ستكتفي بالوقوف على بوابتها، عند المركز الخامس.

هذه الشاشة موجودة خصيصا من أجل هذه المباراة، زمنها سيكون ست دقائق، ستكتب لواحدة منهما تاريخا أبديا، الكراسي متراصة والزحام مدهش، كل هؤلاء جاءوا ليشاهدوا واحدة منهما تتنافس على الجانب الآخر من العالم من أجل ميدالية أوليمبية تاريخية.

فريق التايكوندو موجود بأكمله وبمختلف مراحله العمرية، نجوم صغيرة تتطلع نحو نجم كبير صعد من بينهم، الكابتن هاني وحازم حمدي متجاوران، أشارا إليَّ في توتر متناغم وهما يحييانى، ريم وزوجها وابنتاها يجلسون في طرف بعيد، أدارت وجهها في اضطراب عندما رأتني، إلى جواري يجلس عمر مصطفى القماح الذي أصبح يلازمني وأضع له خطة التدريب وأتابعها مع مدربه، عصام كالعادة هو الأكثر صخبا، يحمل علما كبيرا يدور به في كل مكان وهو يصيح: مصر.. مصر..

فيرددون وراءه وهم يشيرون إليه لكي يفتح مجال الرؤية لهم، ظهرت البطلة في الصورة، الملعب أيضا أزرق اللون مكتوب عليه ريو ٢٠١٦ باللون الأبيض، يشبه حسابا أزرق آخر ينتظر من سيكتب عليه منهما اسمه بضوء لامع خالد.

تبدأ المباراة بتحفظ بالغ، لا أحد يريد أن يخاطر بالخسارة من أجل المكسب، ضربات قصيرة لا تصل، محاولات لا بد أن تنتهي بفوز إحداهما.

ـ اللعبة دي سهلة أوي!

ألتفت إلى الشاب السمين الجالس خلفي فأبتسم ساخرا، كان يسحب نفسا عميقا من سيجارته وقد وضع فخذا يساوي جذع شجرة ضخمة على يد الكرسي، اللعبة لم تكن سهلة أبدا، أتمنى أن أحكي له مشوار كل منهما ليعرف كيف كان الطريق طويلا للوصول لتلك اللحظة، إيقاع المباراة الهادئ يسمح لي بلحظة من الشرود.

حياة اللاعبين في الرياضة هي المباراة الكبرى الحقيقية، الدائرة السادسة التي يجب أن تضاف إلى الدوائر الأوليمبية المتقاطعة

الخمسة، هاتان الفتاتان اللتان تتنافسان في معاناة تحملان قصتين كل منهما تستحق رواية كبيرة تحمل تفاصيل أكبر بكثير من المباراة ومن دقائقها الستة، كل صورة لبطل على الحائط وراءها حكايات أكثر إبهارا من الميداليات اللامعة اللي تزين أعناقنا.

هداية ملاك المصرية التي تحمل جوازا أمريكيا رفضت أن تلعب تحت مظلته، قاومت كل الإغراءات لأنها تنتمي لهذه الأرض حتى وإن كان ترابها غالبا على أجوائها، على الجانب الآخر توجد اللاعبة راحيلة أسيمي، حكاية عكسية تماما، تمردت على جنسيتها، بعد رحلة شائكة تسللت إلى بلجيكا كلاجئة وعاشت في غرفة فوق سطح بيت صغير، انتظرت كثيرا لتحصل على عمل يضمن لها لقمة عيشها، ثم انضمت لفريق أوروبي صغير وعاشت خمس سنوات طويلة تمارس الرياضة التي عشقتها بلا علم تقف تحته، إلى أن منحت الجنسية.

انتهت المباراة بعد ثلاث جولات بالتعادل لتشبه مسار حياتي تماما، نقطة الصفر التي تتساوى عندها النجاحات مع مرات الفشل، هكذا تنتقل المباراة إلى النقطة الذهبية، الضربة الناجحة في الجولة الرابعة تعني الفوز مباشرة، ينتهي الوقت وتتوقف الشاشات عن تسجيل أي شيء.. يطلقون عليها لفظا قاسيا.. الموت المفاجئ.

التوتر يتزايد.. الأمور لا تبدو في مصلحة أي منهما فالمباراة متكافئة، قلبي يدق بعنف، يداي ترتشعان أكثر من المعتاد، وجسدي بأكمله يرتجف بشكل خارج عن سيطرتي تماما، حتى فعلتها الصغيرة وفازت بالمباراة.

ارتفعت يدي إلى أعلى مرة أخرى كما اعتدت لسنوات طويلة، تعالت صيحات الفرحة من كل من يحيطون بنا أما أنا فانخرطت في بكاء مختلط المعاني بين ذراعي القماح الصغير الذي ضمني في

حب، أنا جزء مما حدث، تركت بعضا من جسدي في بيومي الذي يقف أمامي الآن مهنئا فتاته البطلة، هو أيضا أعطاها ما تعلمه فلا بد أنه نقل شيئا مني إليها، كل رفقاء الملعب من جيلي كانوا يبكون أيضا، نحن هنا نعاني كثيرا لنصنع أبطالا في طريق غير ممهد مطلقا كالذي سرنا فيه.

رفعني عمر من على الكرسي الذي كنت أجلس عليه ليوقفني مهتزا، عصام مد يده ليسندني أيضا، قام حازم حمدي من مكانه ليصيح باسمي مرددا:

عمر.. عمر..

أحاط بي لاعبو فريق النادي الصغار الذين يعرفونني جيدا، مرددين اسمي وهم يتناوبون تقبيلي، سحبوني بعيدا عن الكرسي المتحرك الذي يكبلني وهم يحملونني حملا فيشعرونني أنني أطير، كانوا يرتدون ملابس التايكوندو التي عشت أعشقها وسأموت كذلك، ولكني لن أموت حيًّا.. سيأتي الموت في موعده المناسب بعد أن أكون قد تركت شيئا من جسدي السليم وعقلي وخبرتي في كل واحد من هؤلاء الذين يحيطون بي، كل بطولة نحققها في حياتنا تبقى بشكل ما، عندما يظهر بطل جديد في حدث ضخم آخر سأكون هناك.. حركة أو فكرة أو خطة في لحظة تأتي بانتصار جديد..

تلك تحديدًا هي كلمة السر التي اخترتها لحسابي منذ سنوات طويلة، بطل إلى الأبد «Championforever»، أما مرضي فبطولة جديدة تضاف إلى الرصيد، والموت فصل حتمي، صافرة تعلن نهاية الوقت، لكنها لا تعني أبدا نهاية الحكاية فالبطولات لا تدفن مع أصحابها بل تظل حية تُحكى إلى الأبد!

نسيت

كلمة السر !

"تحركت في اتجاه الحائط وأمسكت بصورتي معه، عندما التقينا في لندن منذ بضعة أعوام... كان يرتدي حلة بيضاء أنيقة ونظارة شمسية سوداء تحمي عينيه من الأضواء القاسية، المرض أكل من جسده الكثير، واليد أصبحت ترتعش كعقرب ساعة تلفظ بطاريتها آخر أنفاسها، وأنا كنت جالسًا على الكرسي المعدني المتحرك، تخلصت من تلك الصورة إلى الأبد... فلا ذلك كان محمد علي كلاي.. ولا هذا أنا".

عمر الخياط بطل رياضي يحلم بأن يخلد اسمه للأبد، يصل إلى قمة المجد حين يصبح بطلًا للعالم لكن حياته تتخذ فجأة مسارًا مختلفًا..

"نسيت كلمة السر" رواية مستوحاة من قصة حقيقية، تقتحم عالمًا مجهولاً عن حياة اللاعبين والمدربين والاتحادات الرياضية، عن رحلة المعاناة والمرض، الفشل والنجاح، قصة الفرد والعائلة، الحب والكراهية، وكيف تفرض السياسة على اللاعبين مسارات متضاربة؟ فهل يستطيع عمر الخياط المقاومة والعودة للأضواء أم يستسلم للجلوس على كرسي متحرك؟ وكيف يمكن أن يخرج من بين لحظات الألم، حب للحياة؟

حسن كمال: قاص وروائي مصري يمارس مهنة الطب. صدرت له روايتان: "المرحوم" و"الأسياد"، وثلاث مجموعات قصصية: "كشري مصر"، "لدغات عقارب الساعة، و"وكان فرعون طيبًا". كما صدر له كتاب ساخر "الذين لبسوا البالطو الأبيض". حصل على جائزة ساويرس عن مجموعته القصصية الأولى "كشري مصر" عام ٢٠٠٩.

9 789770 934388